

عمر المختار

وإعادة الاحتلال الفاشيّ لليبيا

إينزو سانتاريللي جورجو روشا

رومــان رايـنــارو لويجي غوليا

ترجمة:

الدكتور محمد عبد المطّلب الهوني

منشورات الجمل

عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشيّ لليبيا

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa



إهداء لصديق مكتبة بدر

المؤلّفون

أوّلا: **أنزو سانتارللي** (**ENZO SANTARELLI**) أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة أوربينو (**Urbino**)، وأهمّ مؤلّفاته:

1- تاريخ الحركة الفاشيّة (1967).
2- كتابات بينيتو موسوليني التاريخيّة (1979).
3- مراجعة الماركسيّة في إيطاليا (1964).
4- الإشتراكيّة الفوضويّة في إيطاليا (1973).
5- العالم المعاصر التّسلسل التّاريخي من سنة (1870 إلى سنة 1974).

ثانيا: **جورجيو روشا** (**GIORGIO ROCHAT**) أستاذ التّاريخ المعاصر في جامعة تورينو (**Torino**)، ألّف العديد من البحوث حول التّاريخ العسكريّ والإستعماريّ الإيطاليّ المعاصر من بينها:

1- العسكريون والسّياسيون في إعداد الحملة الأثيوبيّة (1971).
2- الإستعمار الإيطالي.
3- التّوجه اللاّعسكري في إيطاليا اليوم.
4- بيترو بادوليو "**Petro Badoglio**" (بالتّعاون مع بيارو بياري **Piero Pieri**).
5- إيطالو بالبو (**Italo Balbo**) الطيّار ووزير الطيران.

ثالثا: **رومان رينارو** (**ROMAIN RAINERO**) أستاذ التّاريخ المعاصر في كليّة العلوم السّياسيّة في جامعة ميلانو، وقد ألّف عدّة كتب عن التّاريخ الآسيويّ والإفريقيّ من بينها:

1- صحوة إفريقيا السّوداء.
2- تاريخ الجزائر.
3- الميز العنصري في جنوب إفريقيا.
4- الحركة الإيطاليّة المعادية للإستعمار من (عصب إلى عدوه).
5- الجنس البشري والقانون في القضايا الإستعماريّة.
6- الإدّعاء الفاشي حول تونس.

رابعا: **لويجي غوليا** (**Luigi Golia**) يقوم منذ سنة (1971) بالبحث والتدريس في معهد التاريخ الحديث في جامعة روما ومعهد الدراسات التاريخية السياسية في نفس الجامعة وقد نشر بحوثا حول القضية الفلسطينيّة سنة (1970-1971-1979)، وبحوثا حول القوميّة العربيّة (1974) وحول الأفعال السّياسيّة الإيطاليّة خلال الحرب الأثيوبيّة (1935-1936) وذلك سنة (1977).

إينـزو سانتاريللي جورجو روشا
رومـــان رايـنــارو لويجي غوليـا

عمر المختار
وإعادة الاحتلال الفاشيّ لليـبـيا

ترجمة :

الدكتور محمد عبد المطّلب الهوني

منشورات الجمل

إينزو سانتاريللي - جورجو روشا - رومان راينارو - لويجي غوليا:

عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشيّ لليبيا

ترجمة: **الدكتور محمد عبد المطّلب الهوني**

E. Santarelli, G. Rochat, R. Rainero, L. Goglia:

Omar Al-Mukhtar e la Riconquista Fascista della Libia. Milan, 1981.

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

منشورات الجمل - الشارقة - ص.ب: ٧٣١١١
الإمارات العربية المتحدة

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

إلى حفيديّ رامي وليندا



عمر المختار مقيّدًا بالسّلاسل عند أبواب سجن بنغازي

(١٢ سبتمبر ١٩٣١)

المقدمة

قبل أن أقدّم كتاب عمر المختار الّذي بين أيديكم أحببت أن أدرج مجموعة من الملاحظات حول التّاريخ وكتابة التّاريخ وارتباطه بالذّاكرة والهويّة والإيديولوجيّة واستعماله سياسيًّا كإحدى الأدوات الفعّالة لتأسيس أو تقوية نظام سياسي أو تهميش نظام سابق عليه. كتابة التّاريخ بموضوعيّة مهنة قديمة قدم التّاريخ البشريّ فمنذ أن حاول الإنسان أن يدوّن نشاطاته الحياتيّة بالنّحت أو النّقوش أو الكتابة برزت فكرة تمجيد ما رآه جديرًا بالخلود وإخفاء ما رآه يصطدم مع آماله أو يجرح مشاعره أو يقلّل من شأن عقيدته.

ونرى ذلك واضحًا في الأسر الفرعونيّة المصريّة المتعاقبة الّتي مجّدت في بعض الحالات انتصارات وهميّة كانت في حقيقتها هزائم مزلزلة، أو في طمس ديانة كاملة وتخريب نقوش رموزها كما حدث لديانة أخناتون التّوحيديّة بعد وفاته وانقلاب خلفائه لديانة آمون القديمة. أو كما حدث في العصر الرّوماني من تحامل على الإمبراطور (نيرون) ووصفه بالظّلم والجور لأنّه كان مناصرًا للمستضعفين ضدّ مجلس الشّيوخ الرّوماني ممّا حدا بمؤرخي هذه الفترة والمناصرين للمجلس إلى إلصاق كلّ الأحداث السّلبيّة والتّهم الجزافيّة بشخصه. أو كما حدث في العصر الوسيط من تزوير الكنيسة الكاثوليكيّة لوثيقة ادّعت أنّ الإمبراطور قسطنطين قد وهب للبابا سلفسترو الأول حكم الإمبراطوريّة الغربيّة

واستندت الكنيسة إلى هذه الوثيقة المزوّرة مدّعية شرعيّة الهيمنة على أوروبا حتّى انكشف تزويرها من المؤرّخين المحقّقين.

أو كما كان مستقرًا في كتب التّاريخ استنادًا للرّوايات التّوراتيّة بأنّ اليهود كانت لهم مملكة قويّة في فلسطين قبل حوالي ألف سنة من ميلاد المسيح ثمّ تبيّن من خلال الأبحاث والحفريّات الأركيولوجيّة الّتي قام بها أساتذة وعلماء من إسرائيل بدحض هذا الاعتقاد وأنّ هذه المملكة الوهميّة ما هي إلاّ خرافة تمّ تصديقها لآلاف السّنين.

التّاريخ مليء بهذه الوقائع والأحداث الّتي لم تصمد أمام البحث العلميّ التّاريخيّ الجادّ. إنّ كتابة التّاريخ ليست بالأمر البسيط كما يتصوّره المنتصرون والأقوياء في وضع أوهامهم وأمانيهم كأحداث وقعت في الواقع بالفعل، إنّ المؤرخ مثلما قال مارك بلوك كالقاضي يستقصي الأحداث ويستنطق الوقائع متسلحًا بالمناهج العلميّة الحديثة ويثبت أو يدحض ما هو مدوّن حتّى وإن كان صادمًا للّشعور الجمعيّ لأمّة أو فئة من البشر، ولكنّ المؤرّخ لا يصدر مثل القاضي أحكامًا باتة تغلق باب النّقاش والبحث.

أمّا محنة كتابة التّاريخ في منطقتنا فهي محنة مركّبة وسببها التّزييف الممنهج من قبل الدّولة الوطنيّة لأيّ أحداث تخالف عقيدتها أو تتوهّم أنّها توهن من بنيانها، والأنكى أنّ هذه الدّولة هي من يقوم على مراكز الأبحاث والمؤسّسات التّعليميّة ومن ثمّة تكون كتابة التّاريخ وتدريسه خاضعين لإيديولوجيّة الدّولة ومزاج الحكّام، وكانت ولا تزال المرجعيّة في كتابة التّاريخ الإيديولوجيات المغلقة في أكثر بلدان العرب سواء كانت قوميّة أو دينيّة. وإنّ ما وقع من تشوّهات في تاريخنا يعزى إليها، فالإيديولوجيّة الدينيّة أعملت القطيعة التّاريخيّة في ماضينا ودوّنت تاريخًا لشعوبنا ببدايات تأسيسيّة افتراضيّة وفقدنا بذلك التّراكم التّاريخي الّذي

يعطينا نظرة متكاملة عن هويّتنا ومساهماتنا الحضاريّة في المسيرة الإنسانيّة. على سبيل المثال في المغرب العربي ماذا يعني لنا مجتمع الجاهليّة قبل الإسلام؟ وهل هو جزء من تاريخنا أم هو جزء من ثقافتنا الدينيّة؟ شعوبنا ساهمت في الحضارات الّتي قامت على أرضها والأديان الّتي توالت عليها. مرقس الرّسول ولد في مدينة شحات في ليبيا وهو صاحب أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة من الكنيسة، كما أنّ القديس أوغستين المولود في (طاغست) سوق أهراس بالجزائر اليوم كان ولا يزال من أعظم فقهاء اللاّهوت المسيحيّ، كما أنّ آريسيو المولود في (طلمتا) ببرقة كان ليبيا وهو أحد مؤسّسي المذاهب في العقيدة المسيحيّة قبل أن يقع عليه الحرم في مجمع (نيقيا). إنّ تدريس هذا التّاريخ لا يقلّل من قيمة علمائنا الإسلاميين الكبار وفلاسفتنا الأفذاذ ولكنّه يسهم في التّراكم التّاريخيّ لشعوبنا ويغني الذّاكرة الوطنيّة ويبني هويّة ثريّة ويقلّل من التّعصب والكراهيّة للآخر.

إنّ هذه الأيديولوجيا الدينيّة المتعصّبة قدّست الاحتلال العثماني تحت برقع الخلافة والّذي استمرّ في شمال إفريقيا في ما عدا المغرب منذ سنة ١٥١٧ بسقوط مصر وبرقة إلى سنة ١٩١١ بسقوط آخر أقاليم الإمبراطوريّة في طرابلس الغرب على يد الإيطاليين. في كلّ هذه الفترة لم يكتب تاريخ ويلات هذا الحكم وما سامه للأهالي من جور وظلم وعنف وتجهيل كما لم يذكر في تاريخنا المدرسي أنّ العثمانيين ولّوا على هذه البلاد حكّامًا قراصنة ومغامرين حديثي الإسلام ولا يكتب إلاّ أنّ هذا الوالي بنى مسجدًا هنا أو قصرًا هناك.

أمّا الإيديولوجيا القوميّة الشّوفينيّة فقد أحدثت بدورها خرابًا كبيرًا في تدوين التّاريخ وتدريسه وذلك بتهميش المكوّنات الإثنيّة ولغاتها وثقافاتها واعتبرت أنّ كل السّكان إمّا عرب عاربة أو عاربة مستعربة، وأنّ نقاء الدّم والأصل المشترك المتخيّل هما المكوّنان الأساسيان لهؤلاء السّكان ولم

تعتبر أنّ التّنوع الإثنيّ بما فيه من لغات وثقافات وفلكلور هو إغناء للأمم وليس إفقارًا لها.

بعد هذه الإشارات الموجزة عن كتابة التّاريخ في كثير من البلاد نرجع إلى هذا الكتاب الّذي نحن بصدد تقديمه للقارئ والبيئة الّتي حدثت فيها أحداثه.

إنّ تدوين وتدريس التّاريخ في ليبيا بعد الاستقلال في الكتب الّتي أنتجتها السّلطة السّياسيّة كان تفتقر إلى الموضوعيّة. فقد قامت السّلطة بإخفاء ما اعتقدته مضرًّا بوحدة الأمّة الّتي اجتمعت لأوّل مرّة في تاريخها في دولة وطنيّة بعد عهود من التّقاتل والعداوات والحروب الأهليّة بين متساكنيها من قبائل وصفوف متصارعة. فرأت أنّ تدوين التّاريخ بموضوعيّة قد يحدث شرخًا في بنيّة المجتمع الجديد وفضّلت التّكتم على ما يفرق وتدوين كلّ ما يوحّد في اعتقادها، متناسية أنّ عدم إدراك التّاريخ إدراكًا موضوعيًّا قد يؤدّي إلى تكرار مآسيه ولو بطريقة مختلفة.

أجيال كاملة لم تعرف أنّ هذه الدّولة الوليدة قامت على أنقاض حروب أهليّة عصفت بمكوّناتها على مدى التّاريخ، وحتّى الحروب الّتي خاضها اللّيبيون ضدّ الإيطاليين وصفت وكأنّ اللّيبيين كانوا متوحّدين صفًّا وهدفًا. فأخفيت الحروب الأهليّة بين القبائل والإثنيّات ما بين الحربين العالميتين وطمست صراعات الزّعامات القبليّة الّتي وصلت في بعض الأحيان إلى الاستنصار بالعدوّ المشترك بعضهم ضدّ بعض، ولم تذكر في هذا التّاريخ الأسباب الّتي أدّت إلى انتهاء المقاومة في المنطقتين الجنوبيّة والغربيّة واستمرارها في شرق البلاد حتّى سنة ١٩٣٢. كما لم يذكر في أيّ كتاب أنّ إطلاق اسم ليبيا في حدودها المعروفة اليوم في الأطلس الجغرافيّ كانت اختراعًا حديثًا لا يوجد في أيّ وثيقة رسميّة قبل سنة ١٩٣٤ أي قبل إطلاق هذه التّسميّة على الأقاليم الثّلاث بمرسوم

ملكي إيطالي. ولم تقع أي إشارة إلى أنّ ولادة ليبيا الحديثة سنة ١٩٥١ سبقها مخاض عسير واختلافات كبيرة وصلت إلى مطالبة بعض السّياسيين بالرّجوع إلى الحماية الإيطاليّة والبعض الآخر طالب بقيام نظام جمهوري وفريق ثالث طالب بالانضمام إلى مصر تحت سيادة عرش أسرة محمد علي. كلّ هذه الأحداث لم تذكر في المناهج الدّراسيّة واعتبرت من الممنوع التّفكير فيه واستذكاره لأنّه ينال من اللُّحمة الوطنيّة ويفسد المزاج العام المبتهج بدولة الاستقلال ممّا شكّل في نهاية الأمر مساهمة حقيقيّة في تجهيل الأجيال اللاّحقة وتشويه هويّتها الوطنيّة.

ثمّ جاءت حركة الجيش في غرّة سبتمبر ١٩٦٩ وأكملت مهمّة تزييف الوعي التّاريخي وبشكل أكثر عنفًا. فلئن اكتفى العهد الملكي بعدم ذكر بعض الوقائع التّاريخيّة فإنّ العهد الجديد قام باختلاق سرديّة تاريخيّة جديدة ومزيّفة، فقد طمس بشكل كامل نضال الأسرة السّنوسيّة الّتي قادت المعارك وعلى الأخصّ في شرق البلاد لمدّة تزيد على عقدين من الزّمن بفضل قيادتها الرّوحيّة وتنظيمها اللّوجستي وأداءها السّياسي وانتقت من داخلها أبطالاً مثل عمر المختار والفضيل بوعمر اللّذين لم يكونا زعماء دون قيادة السّنوسيّة وسيطرتها الرّوحيّة والماديّة على المجتمع البرقاويّ. كما همّشت دور بعض المجاهدين مثل أسرة سيف النّصر الّتي قادت الكفاح على مدى عقود طويلة ضدّ كلّ الغزاة سواء كانوا أتراكًا أم إيطاليين. كما قامت بتصفية النّظام الملكيّ الّذي استمرّ ١٨ سنة في الحكم بكلمتين (نظام عميل وخائن) ومنعت كلّ بحث يقوم على توثيق ما حدث في دولة الاستقلال بموضوعيّة مثل معاهدات القواعد الأجنبيّة أو إلغاء الأحزاب أو السّياسات التّنمويّة في كافّة مجالات الحياة أو تاريخ الصّحافة أو نقابة العمّال أو حركة الطّلبة أو التّنظيمات الحزبيّةالسّريّة.

كلّ هذا الّذي حدث في العهدين المذكورين ساهم في خلق أجيال

من المواطنين مشوّهي الهويّة بسبب تزييف الذّاكرة الجماعيّة وما نتج عنه من ضبابيّة الرّؤى الحاضرة وعماء المستقبل.

ونتيجة لما تقدّم نستطيع أن نتفهّم بعض الظّواهر والمواقف الّتي برزت في الأعوام الأخيرة من أشخاص ومجموعات لم تع تاريخها كما لم تستطع أن ترى حاضرها، ونضرب مثلاً على هذا الخطاب الرّسميّ الّذي ألقاه السّيد مصطفى عبد الجليل رئيس المجلس الوطنيّ الانتقاليّ في روما عندما وصف الأعمال الّتي قامت بها إيطاليا إبّان الاستعمار في البنيّة التّحتيّة من طرق ومبان وإنجازات زراعيّة وقال إنّنا ما زلنا نقتات من المحصولات والغلال الّتي غرسها الإيطاليون، وإنّ ما قام به المستعمر الإيطالي في ليبيا إعمار وليس استعمارًا، الأمر الّذي أجّج غضب المؤرّخ الإيطاليّ (أنجلو دي لبوكا) ورد عليه بمقال ناريّ وضّح له فيه الخطأ الّذي وقع فيه واعتبر أنّه لا يعرف تاريخ إيطاليا الاستعماريّة في ليبيا، وكانت فضيحة تدلّ على الجهل بالتّاريخ حتّى لدى أولئك الّذين تصدّوا للقضايا العامّة وأصبحوا فاعلين سياسيين على مسرح الأحداث.

ومثال آخر أخذته من وسائل التّواصل الاجتماعيّ في الشّبكة العنكبوتيّة وهو أنّ مجموعة من الشّباب اللّيبيّ قرّروا الاحتفاء بالحاكم الإيطاليّ (إيطالو بالبو) مشيدين بسياسته ومنجزاته العمرانيّة في ليبيا وكأنّ ما بناه وشيّده كان من أجل تقدّم ونهضة اللّيبيين وليس عملاً استراتيجيًا من أجل استقدام مزيد من المعمّرين وتمكينهم من الأرض الليبيّة. وأضرب مثلاً آخر هو ما حدث في سنة ٢٠١٢ وبقرار موسوم برقم ٧ الصّادر عن المؤتمر الوطنيّ باقتحام مدينة (بني وليد) بقوّة السّلاح بدعوى أنّها بؤرة من نظام القذافي لم تتحرّر، وبعد الاقتحام والسّيطرة عليها قام المقتحمون بتعليق صورة كبيرة لأحد القتلى من زعماء مصراته المناوئة لهذه المدينة في الحرب الأهليّة الّتي حدثت سنة ١٩٢٠ كردّ ثأريّ على هذه الواقعة بعد حوالي قرن من حدوثها أي أنّ الثّأر بين قبائل

ليبيا لا زال يتّقد تحت رماد الدّولة الوطنيّة الّتي سقطت والّتي دوّنت التّاريخ بشكل انتقائي من أجل وحدة شعب متوهّمة.

وإذا ما ألقينا نظرة على ما حدث بعد سقوط الدّولة الوطنيّة سنة ٢٠١١ نرى بوضوح أنّ شيئًا لم يتغيّر. فالحروب الأهليّة حدثت كما كانت من قبل والغزو ونهب الأموال والاستحواذ على الغنائم هو نفسه مع فارق هو أنّ هذه الأموال لم تعد من ممتلكات القبيلة وإنّما من خزائن الدّولة العامّة. ونرى أنّه من الواجب التّنبيه إلى أنّ هذه الظّواهر لا يمكن أن نعزوها إلى عامل واحد وهو القصور في كتابة التّاريخ وتدريسه ولكن هذا العامل يبقى من العوامل والأسباب الّتي ساهمت فيما حدث.

إنّ هذا الكتاب الّذي بين يدي القارئ هو محصّلة لجهد أربعة من علماء التّاريخ المعاصر في الجامعات الإيطاليّة وقد وقعت ترجمته إلى اللّغة العربيّة من قبل الأستاذ عبد الرّحمان سالم العجيلي وقدّمه المؤرّخ اللّيبي الدّكتور عقيل محمّد البربار ونشر من قبل مركز جهاد اللّيبي للدّراسات التّاريخيّة وعندما اطّلعت على الكتاب وجدت أنّه ترجمة ناقصة قد تمّ حذف كلّ ذكر للحركة السّنوسيّة وزعمائها، ولم يكن ذلك حسب ظنّي قصورًا من المترجم أو غفلة من كاتب المقدّمة الّذي تحامل على السّنوسيّة والملك إدريس وإنّما كان السّبب فيما أوردناه آنفًا من أنّ النّظام القائم الّذي موّل الترجمة ونشر الكتاب أراد طمس الحركة السّنوسيّة وزعماءها باعتبارها حركة أنتجت دولة الاستقلال الّتي أقام النّظام شرعيّته على إسقاطها وتخوينها.

أعتقد أنّ من شروط التّرجمة عدم تدّخل المترجم في إعادة صياغة الأفكار أو في شطب ما كتبه المؤلّف أو إخفاء ما لا يتوافق مع عقيدته أو إيديولوجيّته لأنّ ذلك لا يمسّ بالرّوح العلميّة فقط وإنّما يمسّ الأمانة في نقل النّص وهذا موضوع أخلاقي بالدّرجة الأولى.

ترجمت هذا الكتاب لأضعه بين أيدي الشّباب من الأجيال القادمة وحاولت فيه أن أكون مخلصًا للتّرجمة فإذا شاب هذا النّص المترجم قصور فهذا مما يعتور أيّ عمل بشري.

وأخيرًا أودّ أن أقدّم الشّكر الجزيل للأخ الأستاذ سالم الكبتي فيما أعانني به من توضيح لأسماء المواقع والأشخاص الّتي شابها بعض الغموض نتيجة نقلها من اللّغة العربيّة المحليّة إلى الإيطاليّة.

محمد عبد المطّلب الهوني

الباب الأوّل:

إيديولوجيّة إعادة الاحتلال لليبيا (١٩٢٢ ـ ١٩٣١)

الكاتب: إينزو سانتاريللي (Enzo Santarelli)



-١-

لئن كان الاستعمار الفاشي لا يقلّ أهميّة عن السّلوك الدكتاتوريّ الّذي ينتهجه النّظام في الدّاخل لكونه ملتحمًا به في كلّ تجلّياته، فإنّه لم يحظ بالدّراسة الموسّعة والعميقة في إيطاليا.

ومن جهة أخرى، من الضّروريّ عقد مقارنة بين الفاشيّة الإيطاليّة من جهة، باعتبارها الوحيدة المالكة لمجموعة من المستعمرات، وهو ما مكّنها من الإنخراطِ الدّائم في حملات استعماريّة، والفاشياتِ الأوروبيّة من جهة أخرى كالفاشيّة الألمانيّة، من أجل الوصول إلى نتائج مفصّلة وأحكام عامّة للفاشيات الأوروبيّة في العشرينات والثّلاثينات [من القرن العشرين].

كما يجب أن نأخذ في الاعتبار، بشكل عامّ، أنّ النّموذج الفاشي الإيطالي كان في عشرينات القرن [العشرين] يهيمن على السّلطة في الجزء الجنوبيّ من القارّة الأوربيّة، بينما النّموذج الوطني الاشتراكي النّازي لم يكتسح قلب أوروبا إلاّ بعد عقد من الزّمان وفي أعقاب الأزمة الاقتصاديّة لسنة ١٩٢٩.

وكان من نتائج هذه الأزمة الاقتصاديّة، تغيير السّياسة الاستعماريّة لموسوليني (Mussolini)، فتجلّت في التّطور الإيديولوجيّ والإستراتيجيّ للسّياسات الاستعماريّة الفاشيّة.

ففي ليبيا، وبعد إعادة الاحتلال أو [ما سُمّي] «فرض السّلام» سنة

١٩٣٠ ـ ١٩٣١، حدث تحوّل من التّوطين الاستعماريّ الكثيف ومن المخطّط الإمبرياليّ المتوسطيّ، كما نصّت على ذلك الأهداف القديمة، إلى هجوم على أثيوبيا في مخطّط سياسيّ أكثر شموليّة.

وفي هذا الإطار، لم يكن تهجيرُ سكّان «الجبل الأخضر» واعتقالهم، من بين الحوادث الجانبيّة، بل كان استجابة لزخم سياسيّ وإيديولوجيّ واستراتيجيّ للفاشيّة الاستعماريّة الّتي ضمّت أشخاصًا من مرحلة ما قبل الفاشيّة، وكذلك مجموعات أخرى تنتمي لتنظيم الحزب الفاشيّ ومنهجه. وفي نفس الوقت، كانت هذه العمليّات قد أسفرت عن وصول هذه الأعمال إلى مرحلة النّضج وعن تطوّر المواقف المتطرّفة للإمبرياليّة الفاشيّة في وجهها الاستعماريّ، بحيث لا يمكن مقارنتها بأيّ أعمال قمعيّة قامت بها دول أوروبيّة في إفريقيا الشّماليّة أو في الشّرق الأوسط أو في أيّ مكان آخر(١).

ولهذا السّبب، يكون من المفيد دراسة فترة ١٩٢٢ ـ ١٩٣١ بدقّة وعن كثب، والتّركيز على لحظة التّطوّر المتواصل فيما حدث في ليبيا وارتباطه بالدّاخل الإيطاليّ بين سنتي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧.

ولفهم الخلفيّة التّاريخيّة للنّقلة النّوعيّة الّتي حدثت سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، قد يكون مجديا استدعاءُ الدّعاية الفاشيّة وسبر التّوجّهات والآليات الّتي كرّسها النّظام الفاشي ولو بشكل محدود، لنفهم أنّها مسألة مازالت مطروحة للنّظر.

وقد لوحظت في الآونة الأخيرة، وفي أكثر من مرّة، وباستعمال

---

(١) أنظر: إينزو سانتاريللي، «تاريخ الحركة والنّظام الفاشي»، روما، ١٩٦٧، المجلّد الأوّل الّذي تناول إبادة الشّعب البرقاويّ في إطار الاندفاع الاستعماريّ في بحر المتوسط الّذي حدث في سنة ١٩٢٦، (الفصل السّادس: «بناء النّظام»).

مصطلحات مختلفة، فكرة التّخلي التّامّ عن إعادة النّظر النّقديّة في ماضينا الاستعماريّ[١].

وقد يكون روجيرو رومانو (Ruggiero Romano) على حقّ، عندما أصرّ على النّقد الذّاتيّ للتّاريخ الوطنيّ مُوليا للقضيّة أهميّة قصوى[٢]. فالوزير السّابق للمستعمرات في فترة العشرينات، لويجي فيدارزوني مازال حتّى سنة ١٩٦٧ يعتبر أنّ عملية إعادة الاحتلال سنة ١٩٢٢ - ١٩٣١م «من أفضل الأعمال الّتي نفّذت في العشرينات بعد الزّحف على روما».

وفي هذا التّوجه إعادة تلميع للنّظام الفاشيّ الّذي «دفع بالمزارعين الإيطاليين إلى الهجرة لإعمار ليبيا بشكل كثيف». وهذا الموقف المنافح لم يُوجد، حتّى الآن، من بين المؤرخين للفترة الاستعماريّة[٣] من يتصدّى له أو قلّ من يتصدّى له بشكل واضح.

ويُلاحظ أنّ تجدّد الدّراسات كان ولا يزال أقلّ بكثير ممّا حازته المسألة الأثيوبيّة من اهتمام، وربّما يعزى ذلك إلى الصّدمتين الوطنيّتين اللّتين حدثتا سنة ١٨٩٦ وبين سنتي ١٩٣٥ - ١٩٣٦[٤].

ويبدو أنّ هذا الإهمال التّاريخيّ، مسألة تعود أسبابها إلى هيمنة

---

(١) أُنظر: جورج روشا، في مقدّمته لكتاب سيغري «إيطاليا في ليبيا من عهد جوللياتي حتّى القذّافي»، ميلانو، ١٩٧٨، ص٧.

(٢) روجيرو رومانو، المنهجيّة التّاريخيّة الإيطاليّة اليوم، ميلانو، ١٩٧٨، من ص٩٠ إلى ١٠٢.

(٣) لويجي فيدارزوني، إيطاليا الأمس من أجل تاريخ الغد، ميلانو، ١٩٦٧، صـ ١٣٨ - ١٥٤ - ١٥٥.

(٤) راجع روبيرتو باتاليا، الحرب الإفريقيّة الأولى، تورينو، ١٩٥٨. وأنجيلو ديلبوكا، حرب الحبشة ١٩٣٥ - ١٩٤١، ميلانو، ١٩٦٥، وكتابه الآخر، الإيطاليون في إفريقيا الشّرقيّة، الجزء الأوّل والثّاني، باري، ١٩٧٦ - ١٩٧٩.

الأسطورة الشّعبيّة الإيطاليّة الّتي تقول «إنّ الإيطالي إنسان طيّب»[1].
وقد أشيعت هذه المقولة لدى الشّعوب الّتي استعمرها الإيطاليون أو خاضوا ضدّها الحرب العالميّة الثّانية في أوروبا، حتّى بعد سقوط النّظام الفاشيّ.

وازدادت هذه الأسطورة الشّعبيّة تركيزًا، وتلبّست بأحكام أخلاقيّة ألقت بظلالها على التّاريخ الفاشيّ المؤسَّس على اعتبار الفاشيّة أكثر اعتدالا من النّازيّة الشّموليّة. ولكن في رأينا، أنّ الفاشيّة مغايرة للنّازيّة فقط، فالأولى تعبّر ببساطة عن بِنية إنتاجيّة أكثر تخلّفا، واستطاعت أن تنمو وتهيمن في منطقة في فترة زمنيّة سمحت لها بالظّهور والإعلان عن نفسها من خلال الحملات أو القمع الاستعماريّ. فأضحت هذه الحملات والقمع المصاحب لها السّمة العامّة للفاشيّة. وليس في الإمكان فصلها عن سلوكياتها مثلما كان الحال في تصدّيها الوحشيّ للفدائيين البلقان فيما بعد. ومن جهة أخرى، فإنّ «عقدة الاستعمار» شكّلت عنصرا بنيويا لدى أكثر الفاشيات الأوروبيّة، سواء الألمانيّة أو الإيبيريّة أو حتّى الإسكندنافيّة بزعامة كويزلنغ (Quisling)، لذا وبالرّجوع إلى المسألة الإيطاليّة تُشكّل هذه المعطيات معضلات جديّة على المستوى التّاريخيّ والتّأويليّ والوثائقيّ.

في إيطاليا، كان العداء الشّعبيّ للاستعمار المواجه للنّخب الحاكمة، يتعدّى حتّى مفهوم مقاومة الفاشيّة بالمعنى التّقليديّ المتعارف عليه، لأسباب اقتصاديّة واجتماعيّة داخليّة. ويتعدّى حتّى الأمميّة الإشتراكيّة الّتي

---

(١) أُنظر: تعقيب لويجي غوليا على كتاب سيغريه المشار إليه في مجلّة (التّاريخ المعاصر)، السّنة السّادسة، عدد٢، ١٩٧٥، ص٣٦٥. وفي فترة ما بعد الحرب تناول فابيو جوسيني نقديا (طبائع الإيطاليين) في كتابه: (الإيطالي الحقائق والأوهام)، ودون تناول الفترة الاستعمارية، روما، ١٩٤٥.

كانت أقلّ انتشارًا، رغم حضورها السّياسيّ والاجتماعيّ الواعي[١]. ومن جهة أخرى، يجب التّذكير بما لقِيَه المدّ الوطني والاستعماري الإيطالي، في حربه على ليبيا، من معاضدة من الرّوح التّبشيريّة والصّليبيّة ذات الأصول الكاثوليكيّة. وقد كان لهما دون شكّ تأثير واسع على توجّهات البرجوازيّة الوسطى والصّغيرة الّتي استغلّت هذه الوسائل في بعض الصّحافة فيما بعد[٢].

وثمّة مسألة أخرى، ربّما هي أكثر معاصرة، وتتمثّل في محاولة التّمييز بين الفترة الاستعماريّة اللّيبراليّة، والعهد الاستعماريّ الفاشيّ. وهذه المسألة طرحت بشكل مختلف، حتّى داخل التيّارات الديمقراطيّة في منهجيّة الكتابة التّاريخيّة على الأقلّ في نقطتين:

أ ـ الأولى تتعلّق بالمناهج والإسهامات الشّخصيّة للموظّفين اللّيبراليين الّذين أنيطت بهم المهام الاستعماريّة.

ب ـ والثّانية تتعلّق بالتّمييز بين السّياسات الاستعماريّة في حقبة ما قبل الفاشيّة والعهد الفاشيّ.

ومن الواضح أيضًا، وجود اتّفاق بين المؤرّخين الماركسيين والدّيمقراطيين، مع شيء من الاختلاف على نقد ما يسمّيه روشا (Rochat) المنهج التّاريخي في تناول المسألة الاستعماريّة للنّزعة الوطنيّة المتعصّبة[٣]. ولهذه الأسباب يمثّل المؤتمر عن عمر المختار فرصة جادّة لإعادة التّفكير في مجمل القضيّة.

---

(١) أُنظر: رومان رينارو، المناهضة الإيطاليّة للاستعمار من عصب إلى عدوى ١٨٦٩ ـ ١٨٩٦، ميلانو، ١٩٧١.

(٢) لويجي كانابيني، القوميّة الكاثوليكيّة، باري، ١٩٧٠، الفصل الرّابع.

(٣) أُنظر: جورج روشا، الاستعمار الإيطالي، تورينو، ١٩٧٣، ص٣٠.

- ٢ -

لقد ترسّخت أو على الأقلّ تمّ الاتّفاق على ما كانت تعنيه الحرب الإيطاليّة على ليبيا أو ما يسمّى «الحرب الطّرابلسيّة». ويمكن أن نبدأ في معالجتها بالواقعيّة التّاريخيّة لفولبي جواكينو (Volpe Gioacchino) الّذي وضع تحت المجهر نموّ القوّة البرجوازيّة والوطنيّة ووصولها إلى المراحل التّوسعيّة في تلك الفترة في الدّاخل والخارج. فالإصلاحات المتعثّرة لسياسة جيولليتي (Giolitti) زيادة على الأزمة الاقتصاديّة لسنة ١٩٠٧ كانت قد ساهمت في استئناف تلك السّياسة الإمبرياليّة الّتي فشلت في عهد كريسبي (Crispi).

وفي سنتي ١٩١٠ ـ ١٩١١ جدّت ثلاثة أحداث هامّة: أولاها بنك روما الّذي ظهرت أهميّته في ليبيا وفي المشرق أيضًا، وكان في حاجة إلى مساعدة خارجيّة من الدّولة الإيطاليّة حتّى يوطّد برامجه المستقبليّة الّتي وصلت إلى نقطة حرجة، وثانيها تشكّل حركة منظّمة للرّأي العام مرتبطة بالأوساط اللّيبراليّة تمخّضت عن تشكيل «الجمعيّة الوطنيّة»، وأخيرًا ارتباط قيادات القوميين الإيطاليين بأوساط الصّناعات الثّقيلة الّتي شكّلت «رابطة الحديد والصّلب» الاحتكاريّة من خلال إدارة مجلّة «الفكر القومي».

وقد قدّمت لنا الدّراسات التّاريخيّة الحديثة المهتمّة بالحركة العمّاليّة الاشتراكيّة، وثائق لا تكتفي بإظهار الإنشقاقات في صفوف الحزب

الإشتراكيّ، بل تظهر كذلك غموض المواقف داخل هذا الحزب[1]. لذلك لم يمكن إعادة التّوازن داخل الحزب إلاّ بعد الانتهاء من الحرب اللّيبيّة، فبرزت معالمها في حركة التّمرد فيما بات يسمّى «الأسبوع الأحمر». وفي هذا الإطار الّذي شهد، على الصّعيد السياسيّ، جنوح التيّار الوطنيّ إلى اليمين، برزت الكتلة ذات التّوجّه الاستعماريّ الّتي كانت تضمّ المتشدّدين من الجناح القوميّ والجناح النّقابيّ الثّوريّ. وقد تمّت البرهنة على كلّ هذا منذ زمن، ولم تكن ثمّة حاجة إلى العودة إليه الآن، لولا الإصرار على إبراز ذلك التّراجع الّذي كان يعتبر أكبر نكسة للتّقاليد الدّيمقراطيّة الإيطاليّة المناوئة للاستعمار. ولذلك برزت على أرض الواقع تحالفات إيديولوجيّة سياسيّة بين الرّأسماليّة الكبيرة والبرجوازيّة الصّغيرة والمتوسّطة وشريحة هامشيّة من الطّبقات الشّعبيّة. هذا التّحالف أو الاتّفاق الّذي عبّر عنه بصيغة «إيطاليا البروليتاريّة» كانت مقدّمة غير مباشرة لأدبيات السّياسة الاستعماريّة الفاشيّة حتّى الحرب على الحبشة.

هكذا كان وضع الإمبرياليّة الاستعماريّة الإيطاليّة الّتي اختزلها «ميشال» في «إمبرياليّة الفقراء»، ونوقشت من قبل لينين (Lenin) وتناولها غرامشي (Gramsci) في مقالة بعنوان «المسألة الجنوبيّة» سنة ١٩٢٦، وعولجت حديثًا على المستوى العالميّ من مؤرّخين مثل ميياج (Miège) وويستر (Webster) بنتائج بحثيّة متباينة[2]. لا يهمّنا أن ندخل في تعريف

---

(١) أنظر: موريتسيو ديلي إنوشنتي، الإشتراكيّة الإيطاليّة وحرب ليبيا، روما، ١٩٧٦، وقد أشرنا في السّابق إلى التّذكير بالضّعف التّنظيري للمناهضة الاستعماريّة للإشتراكيين من خلال المقابلة الشّهيرة الّتي أجراها (لابريولا) حول طرابلس والإشتراكيّة والتّوسع الاستعماري، ١٩٠٢م.

(٢) أنظر: ج.ل. مييج، الإمبرياليّة الاستعماريّة الإيطاليّة من ١٨٧٠ حتّى يومنا هذا، ميلانو، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦، وكذلك ريتشارد ويستر، الإمبرياليّة الصّناعيّة الإيطاليّة،=

نظريّ للإمبرياليّة الاستعماريّة الإيطاليّة وسماتها الخاصّة وطبيعتها الاجتماعيّة الّتي تتغيّر بتغيّر الزّمان، وإنّما يهمّنا تحديد أو تعرّف الدّور المهيمن الّذي مارسه المفكّرون القوميون بشكل تصاعديّ منذ سنة ١٩١١. فقد نقلوا فيما بعد كلّ مواقفهم وأفكارهم ودعواتهم التّبشيريّة إلى قلب الحركة والنّظام الفاشيّ. فكانوا هم المعبّرين عن استمراريّة العبور لهذه الأفكار من السّياسة اللّيبراليّة إلى السّياسة الفاشيّة جرّاء اضطرابات الحرب العالميّة الأولى.

بعد الحرب بدأت مرحلة من تنامي ذلك الفكر الاستعماريّ الإيطاليّ كانت لا تزال جنينيّة، تتعلّق على الأخصّ بليبيا ودورها في البحر المتوسّط وباحتلالها واستثمارها. وبعودة السّلم في أوروبا ونتيجة ما شعرت به إيطاليا من خذلان بسبب عدم توافقها مع حلفائها حول السّياسات الاستعماريّة، توفّرت الظّروف غير المباشرة لانطلاق تكتّل بين الرّأسماليّة الكبيرة والطّبقات البرجوازيّة الصّغيرة والمتوسّطة للبحث عن تأييد الطّبقات الشّعبيّة في المدن، وسط صعوبات أكبر من تلك الّتي واجهتها سنة ١٩١١. وعلى مدى هذه الفترة، تطوّرت مجموعة من الأدبيات والدّعايات الاستعماريّة الّتي عكست بشكل جليّ فحوى مرحلة انتقالية طويلة وشاقة. وفي السّنوات ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨، ولمّا كان جزء كبير من هذه المسيرة قد قطع، بدأ الحديث عن التّأخر المُضاعف لإيطاليا في إفريقيا، مرّة في بداية العصر الحديث ومرّة أخرى في فترة مؤتمر برلين. ولكن ثمّة توجّه لإخفاء القصور البنيويّ للدّولة والرّأسماليّة الإيطاليّة الّذي برز وتجلّى في أوضح مظاهره سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩، عندما كان النّظام الاستعماري برمّته يواجه أزمة كبيرة وعميقة في علاقة بمواطنيه في

=تورينو، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤، دراسة حول ما قبل الفاشيّة وكان أكثر اهتماما بالتّوسع في البلقان.

أوروبا، أنتجت تحوّلات عميقة في كلّ العالم. ومرّة أخرى ظلّ المفكّرون القوميون يقومون بالدّور الطّليعيّ في التّسويق لإمبرياليّة جديدة، هي الفاشيّة الّتي تسعى إلى تدارك هذا التّخلف التّاريخيّ والبنيويّ، الرّاجع إلى جشع الإمبراطوريات المنافسة، وإلى الأنانيّة الّتي تسيطر على النّظام العالميّ في فترة ما بعد الحرب، وإلى حُمق الحكومات اللّيبراليّة.

لقد خرجت إيطاليا من الحرب مدركة قصورها البنيوي المتمثّل في فقدان الفحم الحجريّ والحديد لصناعاتها الثّقيلة والتّحويليّة ممّا يجعلها تعتمد على استخدام الطّاقة الكهربائيّة خاصّة في مجال النّقل، وفي فائض في الأيدي العاملة الّتي تضاعفت بسبب توقّف الهجرة إلى ما وراء المحيط الأطلسيّ، وفي ضعف الزّراعة الّتي أضحت لا تكفي السّكان الّذين يتزايد عددهم وحاجاتهم الغذائيّة، وفي عدم إنتاجيّة الأراضي المستعمرة الّتي لم تُدمج ولم تتكامل مع السّوق الوطنيّ وفقر هذه الأراضي مقارنة بالمستعمرات الفرنسيّة والإنجليزيّة.

كان الجناح اللّيبرالي التّقليدي الأكثرُ اعتدالا، مضطرًّا إلى تفهّم مسألة المستعمرات ضمن إشكاليات ما بعد الحرب وتبرير غياب اهتمام الرّأي العامّ بالقضايا الاستعماريّة واقترح:

أ ـ توطيد سيطرتنا أينما تضعضعت بسبب الظّروف الرّاهنة.

ب ـ مدّ تأثيرنا تدريجيًا على الشّعوب المتاخمة.

ت ـ تفعيل الإصلاح في المستعمرات للقضاء على ما فيها من بؤس، يخلق لنا ضررًا كبيرًا على المستوى الماديّ والمعنويّ.

وعلى هذا النّحو، دخل استعمار ما بعد الحرب في حلقة مفرغة وتمادى في تناقضاته.

عمليا اقترح عضو مجلس الشّيوخ شالويه (Scialoja)، رئيس اللّجنة

الملكيّة لما بعد الحرب، مخطّطًا طموحًا للأشغال العامّة في الموانئ وسكك الحديد وشبكة الطّرقات وخطوط المياه...(إلخ) موضّحًا (حسب التّقاليد السّابقة الأكثر انفتاحًا) أنّ المسألة الدينيّة في ليبيا، على وجه التّخصيص، لها أهميّة أساسيّة، ومحذّرًا من أنّ المصالحة القويّة والعادلة مع السّكان المحلّيين في المستعمرة لا يمكن أن تتحقّق إذا لم نأخذ في الاعتبار الجوانب الرّوحيّة لهؤلاء[1].

وبعد فترة قصيرة كتب موسوليني على صفحات جريدة «البوبولو دي إيطاليا» (Popolo d'Italia): «فيما يتعلّق بليبيا من الواضح أنّه من غير الممكن سحب الحاميات الضّروريّة لأمننا وسلامتنا». كان ذلك في مستهلّ سنة ١٩١٩ أي قبيل انعقاد المؤتمر الّذي سيؤسّس لإنشاء الفصائل الفاشيّة المقاتلة»[2].

ومن المناسب في هذا المقام، توضيح موقف موسوليني الّذي يجنح إلى الاتّجاه العسكريّ عكس الموقف الّذي كان عليه شالويه، وكذلك وجب التّذكير بأنّ صحيفة «البوبولو دي إيطاليا» في تلك الأسابيع قد ساندت بكلّ ثقلها المطالب الاقتصاديّة للصّناعات الكبرى والاستثمارات الرّأسماليّة فيما وراء الحدود وعلى الأخصّ في اتّجاه المشرق معتمدة على خطاب يلهب المخيال الرّومانسي للنّخب النّشطة من البرجوازيّة الصّغيرة الّتي خرجت لتوّها من الحرب.

كان اهتمام جلّ وزراء المستعمرات في الفترة اللّيبراليّة، أي ما بين سنتي ١٩١٨ ـ ١٩٢٢، منصبًا على إعادة احتلال ليبيا والدّخول في

(١) أنظر: فيتوريو شالويه، مشاكل الدّولة الإيطاليّة بعد الحرب، بولونيا، ١٩١٨، من ص٢٩٦ إلى ٢٩٩.
(٢) أنظر: بينيتو موسوليني، الإبتزاز المعتاد، في صحيفة (البوبولو دي إيطاليا)، عدد٢٢، مارس ١٩١٩.

الجدل المطلبيّ الاستعماريّ مع الدّول الاستعماريّة الكبرى. فغاسبري كولوزمو (Gaspare Colosimo)، رجل السّياسة ذو الأصول الإيطاليّة الجنوبية والنّزعةِ المتطرّفة، والّذي تولّى منصبًا ثانويًا في وزارة المستعمرات بين سنتي ١٩١٦ ـ ١٩١٩، كان دون شكّ، متأثّرًا بمواقف القوميين المتعصّبين الّذين كانوا يؤثِرون عقد المقارنات بين المستعمرات الإيطاليّة والإمبراطوريات الاستعماريّة الأخرى فيما يتعلّق بحجم المساحة والعدد السّكانيّ. وفي بداية سنة ١٩٢٢ جاء دور جيوفاني أمندولا (Giovanni Amendola) السياسيّ الجنوبي، المختلف سياسيًا، والمؤسّس، في وقت لاحق، للإتحاد الوطنيّ الديمقراطيّ المناهض للفاشيّة، ليرسّخ عمليّة إعادة احتلال إقليم طرابلس الّتي سبق الشّروع فيها باحتلال «مصراته». وفي تلك الفترة ذاتها، تولّت حكومة موسوليني السّلطة، وتقلّد فيها «لويجي فيدارزوني» منصب وزير المستعمرات. فحمل هذا التّعيين معاني كثيرة، لكون هذا الوزير من غلاة القوميين. وقد ظلّ في هذا المنصب مدّة سنتين من يوليو ١٩٢٤ إلى نوفمبر ١٩٢٦، وخلفه الوزير «لانسا دي سكالاّ» (Lanza di Scalea) الّذي كان ينتمي إلى الحزب القومي الفلاحيّ ثمّ أعيد تعيين «فيدارزوني» في هذا المنصب إلى سنة ١٩٢٨ ثمّ تولّى «موسوليني» نفسُه استبداله بالجنرال دي بونو (Emilio De Bono) من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٥، وهذا الأخير يعتبر من مجموعة الأربعة الفاشيّة[١].

بعد الحرب العالميّة الأولى، وجّه الاهتمام من جديد إلى ليبيا باعتبارها بلدًا قد ارتبط بالطّموحات الإيطاليّة المباشرة على مسرح البحر

---

(١) دي بونو (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) شارك في الحرب على ليبيا سنة ١٩١٢ ثمّ أصبح من القادة الأربعة الفاشيين الّذين قادوا المسيرة نحو روما ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ وهم دي فيكي، ودي بونو، وميكيللي بيانكي وإيطالو بالبو.

الأبيض المتوسّط، ولأنّها الأرض الّتي يجب كسبها بالوسائل السّياسيّة أو الحربيّة، وأخيرًا باعتبارها من الممتلكات الّتي يتوجّب تأهيلها واستغلالها اقتصاديًا لتكون منصّة انطلاق لسياسة استعمارية أكثر حداثة وحيويّة.

إنّ القاعدة السّياسيّة الإيطاليّة الجديدة في ليبيا، أو بالأحرى في إقليم طرابلس، كان قد وضع معالمها وطبّقها الكونت «جوزيبي فولبي» (Giuseppe Volpe) حين تولّى مهمّة حكم هذا الإقليم(١).

ويمكن اعتبار محصّلة عمله خلال السّنوات الأربع (١٩٢١ ـ ١٩٢٥) الّتي أدار فيها شؤون المستعمرة، مرجعًا رئيسيًّا سواء فيما يتعلّق بالنّاحية الاستراتيجيّة أو بالنّاحية الإيديولوجيّة للاستعمار الإيطاليّ خلال فترة الانتقال من اللّيبيراليّة إلى الفاشيّة، ودليلاً على استمرارية العهدين وشاهدًا على الخيار المتجذّر في الإعمار الزّراعيّ بمنهجيّة رأسماليّة تعهد إلى المستثمرين الوطنيين الإيطاليين بدعم من الدّولة. وعلى هذه الأسس تمّت في مرحلة ثانية إعادة احتلال الإقليم الرّابع «برقة».

غير أنّ الأمر كان في غاية العسر وتحقّق بعد تأخير دام عشر سنوات لإزالة العوائق المتمثّلة في مقاومة الأهالي ومواجهتهم لسيطرة الإيطاليين على الأرض.

إنّ العمليات العسكريّة الضّخمة الّتي وقعت ما بين خطّ العرض ٢٩

---

(١) راجع كتاب نهضة طرابلس ذكريات ودراسات في أربع سنوات من الحكم للكونت فولبي دي مصراته، ميلانو، ١٩٢٦، مع رسالة من موسوليني في ٢٣ أبريل يقول فيها: «أنّه مرجع أصيل». ومقدمة من سكاليتا وكذلك توطئة من فولبي نفسه وقد أشيد بفولبي بعد ذلك الّذي كان من العناصر النّشطة في الجمعيّة الإمبراطوريّة للبندقيّة منذ عهد جوليتيي من قبل (وبستر)، باعتباره رجل السّياسة الوحيد من العهد السّابق الّذي كانت له نظرة عميقة في رؤيته لعظمة النّظام الفاشي». وكذلك نحيل إلى إدواردو سافينو: الأمّة العاملة، ميلانو، ١٩٢٨، ص٢٧.

درجة وخليج (سرت)، تهدف إلى إعادة ربط شرق ليبيا بغربها، اتّسمت بروح التّطهير العرقيّ في البداية. وقد تمّت بعد عودة «فيدارزوني» لوزارة المستعمرات وغداة زيارة «موسوليني» لطرابلس وهي زيارة كان من بين أهدافها التّمهيد لشنّ هجوم على (فزّان) في مرحلة أولى ثمّ الهجوم على «برقة»، وإحكام السّيطرة النّهائيّة على إقليم طرابلس[1].

وقد بدأ تنفيذ المرحلة الثّانية من الاحتلال بعد تثبيت أركان النّظام الديكتاتوريّ في إيطاليا، وحصول حكومة روما من باريس ولندن على حقّ السّيطرة على (غدامس) و(الجغبوب) الواقعتين على أقصى طرفي حدود المستعمرة.

(١) أُنظر: أودريكو رالز، العمليات اللّيبيّة على خطّ عرض شمال درجة ٢٩، روما، الّذي سبق ذكره (ملخص وعرض نقدي برعايّة وزارة المستعمرات حول الوضع في بنغازي في العهد اللّيبراليّ مع ملاحظة الشّجب الّتي كتبت على صفحات (الإفريقي) (برقه في السّاعة الحاضرة)، وفي مجلّة المنصة الاستعماريّة، يوم ٢٤ يوليو ١٩٢٠، (إنّ المدنيّة لا تعني البطش ولا تعني التّدمير بينما هذه الأساليب في السّابق وحتّى عهد قريب قد استبعدت فالاحتلال العسكري كان عمل تدمير مستمرّ) إلى آخر المقال. وحول آخر وزير مسالم أُنظر: رينسو دي فيليتشي، جوفاني أميندولا في خمسينيّة وفاته ١٩٢٦ ـ ١٩٧٦، روما، ص١٦١ ـ ١٧٥.

- ٣ -

قبل التّطرق إلى الإطار السّياسيّ والاجتماعيّ الّذي أفضى إلى حملة القمع الاستعماريّة الّتي طالت حركة المقاومة البرقاويّة سنتي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، من الواجب تناول الاتّجاهات الأدبيّة والدّعائيّة في فترة التّحوّل من اللّيبراليّة إلى القوميّة والفاشيّة والّتي تبدّت من خلالها الإيديولوجيا الاستعماريّة الإيطاليّة. فليبيا أصبحت آنذاك بمثابة بؤبؤ العين لسياسة المتطرّفين القوميين ولفئة من الصّحافيين الّذين استطاعوا أن يحظوا بوزن اجتماعي كبير بعد الحرب العالميّة وقيام الحركة الفاشيّة. وتشابكت التّطورات المستجدّة مع الظّروف القاهرة، فبقيت أرتيريا والصّومال بعيدتين وعلى الهامش، بينما كان البحر المتوسّط خاليا من نقطة ارتكاز قويّة للإنطلاق. أمّا الإيديولوجيا ففضفاضة وغير محدّدة المعالم وأهدافها غير معيّنة بوضوح. وأمّا الدّعاية الاستعماريّة فمبعثرة بين مراكز متعدّدة بل تُركت أحيانًا إلى المبادرات الخاصّة. ثمّ إنّ الجدل والنّقاش كان ينتابه بعض من الفتور. وتُضاف إلى كلّ ذلك الصّعوبات الّتي تواجهها الحكومة الفاشيّة في تحرّكاتها وتسعى إلى تخطّيها على الصّعيد الدّاخليّ وعلى صعيد الاستقرار الاقتصاديّ والماليّ حتّى سنة ١٩٢٤.

لقد أبرز سالفيميني (Salvemini) صورة للإدعاءات المطلبيّة للسّياسة الفاشيّة الخارجيّة المتذبذبة منذ البداية بين الأهداف المتناقضة(١)، وكيف

---

(١) أُنظر: غيتانو سالفيميني، موسوليني الديبلوماسي، باري، ١٩٥٢.

أنّها اكتفت في كلّ مرّة بالتّركيز على برنامج قابل للإنجاز بشكل انتقائيّ وغير منتظم. وعلى نفس النّهج سارت الأمور فيما يتعلّق ببرنامج التّوسع الاستعماريّ. ويعزى ذلك إلى الضّخامة المطلبيّة الّتي أعدّها غلاة القوميين خلال الحرب العالميّة الأولى من جهة، وإلى الاضطرابات الّتي أحدثتها الاتّفاقات، أو بالأحرى الخلافات في مؤتمر السّلام حول تقاسم المستعمرات من جهة أخرى.

وانطلاقًا من هذا، تمّ تقسيم المنتج الإعلاميّ، بناء على التّصنيف المفهرس للمرحلة الفاشيّة، إلى اتّجاهات ثلاث حسب البلدان والمناطق الّتي يُنظر لها كموضوع للتوسّع اللاّحق.

أ ـ الاتّجاه الشّرقي ويركّز على آسيا الصّغرى ومن ثمّ يتناول تقاسم الإرث التّركيّ.

ب ـ الاتّجاه اللّيبي كمدخل للتّشاد والجغبوب والسّلوم.

ج ـ الاتّجاه الأثيوبي ويتناول الحماية على أديس أبابا مع إجراء تعديلات جوهريّة على الحدود مع الصّومال وأرتيريا[1].

في الواقع، لم تنعدم نقاط الالتقاء بين هذه الاتّجاهات بل نجد بينها صلة وثيقة. وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة معمّقة. وفي كلّ الأحوال، فأثناء الحرب كان كلّ من اللّيبراليين وغلاة القوميين قد توافقوا على برنامج موسّع وأكثر نفعًا فيما يتعلّق بالتّركة العثمانيّة. وتجسد في اتّفاقات

(١) ألبرتو جاكاردي: مختصر المنهج التّاريخي لكتابة الاستعمار الإيطالي حتّى سنة ١٩٣٩ في فهرسة مجلّة: إيطاليا ما وراء البحار، سنة ١٩٣٩، روما، ١٩٤٠، ص٣٠. وتجد تحليلاً واعتراضات على الطّموحات الإيطاليّة المبكّرة، وخاصّة على الأدبيات القوميّة ما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ في ملاحق أرستو ليمون: السّياسة الاستعماريّة الإيطاليّة، باريس، ١٩١٩، من ص٣٦ إلى ٧٤.

سان جيوفاني دي موريانا (San Giovanni di Moriana)، ولكنّها تلاشت على إثر الثّورة الكماليّة، ولم تبق غير الوجهة اللّيبيّة الّتي كانت في متناول اليد والّتي استندت عليها مجموعة من المطالبات الإفريقيّة والمتوسطيّة الأكثر تطلّعًا وطموحًا والأبعد مدى. ولكنّ هذا البرنامج في حدّه الأدنى كان يفترض إعادة احتلال الإقليم وإخضاع سكّانه. ولذلك قامت مجموعة صغيرة مكوّنة من الطّلائع الأولى في المدن ممن حازوا على تكوين استعماري، بجهود مكثّفة ومتعدّدة للدّعاية والنّشر. وهذه الشّرذمة من الصّحافيين والكتّاب المغمورين أخذوا على عاتقهم تنبيه الحكومة وطبقة رجال الأعمال لمسألة (الشّاطئ الرّابع). وفي الحقيقة، لم يكن هذا الموضوع سوى اعتراف غير صريح بضآلة مرتكزات الانطلاق الّتي بيد إيطاليا، نحو إفريقيا والشّمال إفريقيّ وبالأخطاء الجسيمة الّتي ارتكبت في تقييم الأهميّة الاقتصاديّة والجيوسياسيّة. ولئن كانت الأهداف السّياسيّة تتمحور حول البحر الأبيض المتوسّط أو الشّرق عموما، فقد أصبحت ليبيا وسكانها كبش فداء أو حقل تجارب لإمبرياليّة متردّدة، تعاني من الإحباط الدّائم. وفي بداية هذه الحقبة، كان بالإمكان تكريس البرنامج العام لسياسة ما وراء البحار الّذي أصدرته دار النّشر القوميّة سنة ١٩٢٧[١]، وألحقته بمجموعة أبحاث تتقاطع فيها الاتّجاهات وتتشابك فيها النّوازع المختلفة الإفريقيّة والمشرقيّة والمتوسطيّة[٢].

الأساليب البلاغيّة في تمجيد العهد الرّوماني الّتي كانت حاضرة في سنة ١٩١١ وظلّت حتّى في فترة المعاهدات مع السّلطات السّنوسيّة، ما

(١) أُنظر: جوفاني ألسندرو روسو، الحقوق الإيطاليّة فيما وراء البحار، روما، ١٩١٦.
(٢) أُنظر: باولو أوغستينو أورسيني، إيطاليا في السّياسة الإفريقيّة، بولونيا، ١٩٢٦، وكذلك فردناردو نوبيلي، ظلال وأضواء في قارتين، ميلانو، ١٩٢٦، وكذلك جوزيبي آمبروسيني، إيطاليا في البحر المتوسّط، فولينيو، ١٩٢٨.

لبثت أن تكثّفت بشكل متزايد[1] ومنها انبثقت الاتّجاهات الخسيسة القاسية الّتي نالت من السّكان العرب. وقد برزت كذلك مرغاريتا سارفاتي (Margherita Sarfatti) الّتي كانت من المقرّبين لرئيس الحكومة، والمنتمية لهيئة تحرير مجلّة جيراركيا (Gerarchià الفاشيّة بما كتبته تحت عنوان الإيطاليون في تونس[2] لرسم سياسة الهجرة إلى شمال إفريقيا.

وفي تلك الفترة الاستعماريّة، ازدهرت المقالات الّتي تمجّد الرّجولة وروح القتال، مثلما هو الحال في كتاب ماريو دي غازليني (Mario dei Gaslini) المُهدى إلى الجنرال كانتوري (Cantore) قائد الحملة على جنوب بنغازي الّتي استهدفت طرد زعيم السّنوسيّة. وقد احتفى بإصداره المارشال بادوليو (Badoglio) قائلاً في مؤلّفه: «لتكن هذه الذّكرى عبرة لإقناع الضّباط والجنود بأنّ الجيش بلا روح قتاليّة شرسة يصبح آلة دون وقود»[3].

هذه الأدبيات كانت، في أغلب الأحوال، مشتّتة وليست ذات أهميّة. وكانت مدفوعة بنوازع ذاتية تائهة على أرض إفريقيا من طنجة إلى تونس وليبيا وأثيوبيا، محمّلة بآراء لا يمكن تحقّقها في الواقع مثل مشروع

---

(١) أنظر: آلدو كيريشي، الإيطاليون والعرب في ليبيا ملاحظات رحّالة، روما، ١٩١٩، ص٦٣.

(٢) مارغاريتا سارفاتي، تونس ميلانو، روما، ١٩٢٤، مع مقالة لموسوليني ربّما لم يكن من جوهر عقيدتهم ولذلك نراه يهمل في الأعمال كاملة وكانت سارفاتي ترى إمكانيّة حدوث هجرة عظيمة ومستمرّة من الإيطاليين في تونس إلى ليبيا ويعوّض عنه بدماء جديد في تونس، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) أنظر: ماريو دي غازليني، مع الجنرال كانتوري في ملاحقة عظيم السّنوسيين، ١٩٢٦، والفقرة المقتبسة عن بادوليو مذكورة في الفهرس رقم٢ في مكتبة ناني في بولونيا، ١٩٧٩، وقد وردت في رسالة بتاريخ ١٩ فبراير ١٩٢٧ مع العلم بأنّ حملة كانتوري يرجع تاريخها لسنة ١٩١٤.

سكك الحديد العابر للصّحراء. وكانت معبّرة عن ثقافة ذات طابع محليّ ومليئة بإسهامات متهوّرة إلاّ أنّه كان ينظر إليها بأنّها تعبّر عن وجهة النّظر شبه الرّسميّة والقابلة للتّطبيق كبقيّة التّوجّهات الأخرى. غير أنّ عناصر أكثر جديّة من التّنظيم المركزيّ والضّغوط السّياسيّة دخلت على مسرح الأحداث ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧.

لقد سبق أن ازدادت أعداد المنشورات الدّوريّة، مقارنة بفترة ما قبل الحرب. فقد تناول فرانشيسكو كوبولا (Francesco Coppola) على صفحات مجلّة بوليتيكا (Politica) «التّوسع الإيطالي في العالم» دون أن يقع في مطبّات الفكر الاستعماريّ، وربط هذه المسألة بقضيّة السّلام. ولئن كانت استنتاجاته، في مجملها، واقعة تحت تأثير حنين إلى الفكر الإنسانويّ فإنّها لم تكن قادرة على تقديم حلول وآفاق يمكن الأخذ بها في بلد كإيطاليا، بلد يفتقر إلى المبادرات الاقتصاديّة والهياكل البنيويّة.

ويجب أن نضيف كذلك العمل الكبير الّذي قام به فولبي (Volpi) ويحمل عنوان «انبعاث طرابلس الغرب». فهذا الكتاب يحوي مجموعة من التّوجّهات الإيديولوجيّة الاستعماريّة الّتي كانت حاضرة في إيطاليا في فترة ما بعد الحرب. ومن أهمّ الأشياء الّتي ركّز عليها هذا الكتاب هو استصلاح الأراضي الزّراعيّة رغم الحشو الزّائد الّذي لم يستثن الرّوح الإمبرياليّة المتعلّقة بالآثار وما كان يتحدّث عنه روبارتو باربانى (Roberto Paribeni)، والّذي أصبح يمثّل زخارف لصلب الموضوع فكان الجهد العملي للأشخاص ذوي النّزعة اللّيبراليّة ومحاولات الهيمنة الإستراتيجيّة من غلاة عقائدي القوميين والمنظّرين من أمثال (كوبولا) وإعلاميين من أمثال بيدراتسي (Pedrazzi) كلّ هؤلاء مجتمعين كانت لهم الغلبة الواضحة في هذا السّياق، لأنّ الفاشيّة، حتّى بعد إمساكها بزمام السّلطة، لم تكن تملك وسائلها الذّاتيّة، كما أنّ المؤسّسات العريقة كانت، لبعض الوقت، في يد مسؤولين تقليديين بدرجات متفاوتة، وحتّى إدارة

السّياسات الاستعماريّة للحكومة ظلّت بشكل شبه مستمرّ تحت هيمنة غلاة القوميين الّذين ظلّوا متضامنين فيما بينهم. فنرى خلال تولي (لانسا دي سكاليا) شؤون وزارة المستعمرات ما بين يوليو ١٩٢٤ ونوفمبر ١٩٢٦، كان وكيل الوزارة الشّاب روبارتو كانتالوبو (Roberto Cantalupo) الّذي حاز على بعض الخبرة الدّوليّة في مؤتمر باريس ولكنّه كان دائمًا يتّبع قرارات غلاة القوميين. ومن ميلانو وإلى سنة ١٩٢٦، لم يكن أرنالدو موسوليني مدير صحيفة «البوبولو دي إيطاليا»، يهتمّ بقضيّة المستعمرات إلاّ بطريقة هامشيّة. ولم تبرز مقالاتُه المهمّة في هذا الإطار إلاّ سنة ١٩٣٠[١].

وشقيق الزّعيم هذا، كان كثير الحيطة ويسدي النّصائح ويردّد المواقف العامّة وينتظر احتدام المشاكل ليقوم بوساطات وتوازنات وهو مع ذلك يطرح المشاكل الاقتصاديّة المتعلّقة بالتّنميّة والحوكمة الاقتصاديّة الوطنيّة بروح تكاد تكون عائليّة. ونستشفّ من كلّ هذا أنّ الدّوافع الأكثر تأثيرًا في إطلاق المبادرات الاستعماريّة في السّنوات الأولى كانت من قطاعات ثانويّة لا من قيادات الحزب. وهذه القطاعات كانت تتّصف بالحماسة النّضاليّة لمجموعات ضغط سياسية في جوهرها، وقد شكّلت هذه المجموعات، بخلفيّاتها الاستعماريّة التّقليديّة ودوافعها السّياسيّة الجامحة، الأرضيّة المناسبة لإقامة القواعد الشّعبيّة في أوساط الرّأي العامّ ووضع الأسس المتينة لإيديولوجيا شعبويّة، وهذا ما يميّز المدرسة الفاشيّة عن غيرها من المدارس السّياسيّة.

---

(١) أُنظر: أرنالدو موسوليني، «الصّراع من أجل الإنتاجيّة»، ميلانو، ١٩٣٧، وهو يضمّ إلى جانب أشياء أخرى مظاهر الأنانيّة فيما وراء البحار والأنشطة والمستعمرات والمستأجرين في العالم كلّها كانت بتاريخ ١٩٣٠ وقبل ذلك اهتمّت الجمعيّة الفاشيّة لصناعة الصّوف بأصواف برقه «أرنالدو ماوجيني» وآخرين في كتاب «الأغنام والصّوف في إفريقيا الشّماليّة»، بيالا، ١٩٢٩، وكان تقرير حول تحقيقات قامت بها الجمعيّة الإيطاليّة لدراسة تربيّة الأغنام في المستعمرات.

كان الفاشيون يركّزون الاهتمام على «الرّوح الإمبراطوريّة» أكثر من فكرة الاستعمار في حدّ ذاتها. وفي هذا الخيار الّذي لا يرتبط، من حيث التّوجه والتّكامل، بفترة زمنيّة محدّدة، وإن كان متأخّرًا ومبهمًا إلاّ أنّه كان مهجّنًا من تجربة سابقة[١]. وحتّى (موسوليني) ذاته بدأ يتشرّب الفكرة الاستعماريّة بمعناها التّقليدي المستقلّ في توجّه أوسع أفق داخل البوتقة الإمبراطوريّة كما حدث في خطابه في شهر أكتوبر ١٩٢٢ عشيّة الزّحف على روما والّذي أعلن فيه عن أسطورة البحر المتوسّط وأطلق عليه التّسميّة الّتي كان الرّومان يسمّونه بها «بحرنا» كما استدعى أسطورة إفريقيا الّتي كان لها وقع خاصّ في مخيال أهالي الجنوب الإيطاليّ. فربط موسوليني بهذه الطّريقة بين مجموعة من الدّوافع المحفّزة لثقافة الطّبقات المتوسّطة والشّعبيّة على الأقلّ في الأرياف لتبنّي هذه الأفكار، ومن ثمّ نستطيع القول بأنّ (موسوليني) كان معلّما في قدراته في حشد التّأييد والأتباع. عندما تحدّث في (نابولي) عن البحر المتوسّط ربّما لم يكن لتغيب عنه تلك الإكراهات الّتي كان شاهدًا عليها إبّان حرب طرابلس في شبابه وهو يحوم على شواطئ أخرى[٢].

---

(١) أُنظر: فرانكو شارلانتيني، إفريقيا الرّومانيّة، ميلانو، ١٩٢٨، مع مقدمة لـ(إيميليو دي بونو)، هذا المؤلّف هو منظر مضطرب للإمبرياليّة الرّوحيّة وينشر مقالات ومراسلات حول تونس وطرابلس على صفحات جريدة (البوبولو دي إيطاليا)، وقد وصفها (دي بونو) بأنّها أعمال وطنيّة فاشيّة مفيدة، ولكنّه أبدى إعتراضه على بعضها حيث يقول شارلانتيني: «دعنا نركّز الآن على إفريقيا الإيطاليّة، وحول الإسهامات التّقليديّة في طقوس إحياء الرّوح الرّومانيّة في ظلّ الإمبرياليّة الاستعماريّة الإيطاليّة»، يجب الرّجوع إلى ماريا لاكانياتا، علماء آثار العهود القديمة والإمبراطوريّة الفاشيّة، باري، ١٩٧٩.

(٢) كان موسوليني ينتمي إلى الحزب الإشتراكيّ في سنة ١٩١١ وقد عارض الحرب على تركيا في ليبيا وكانت حجّته بأنّ ليبيا بلد فقير سيكلّف الخزانة العامّة أموالا طائلة وإنفاقها في إيطاليا بدل هذه المغامرة. وقد قام بتهييج الجماهير ضدّ هذه الحرب وبسبب ذلك قامت الحكومة باعتقاله وحكم عليه بالحبس وأودع سجن مدينة بولونيا.

- ٤ -

ما بين صيف ١٩٢٤ وآخر عام ١٩٢٦، وبعد الأزمة الّتي أعقبت اغتيال ماتيوتي (Matteotti)[(١)] والخطاب الشّهير لموسوليني في ٣ يناير ١٩٢٥، تمّ إقصاء اليسار بشكل كامل وحلّ نقابة العمّال، والقضاء على كلّ شكل من أشكال المعارضة الديمقراطيّة في الحياة السّياسيّة الإيطاليّة، كما حدث تغيّر كبير فيما يتعلّق بحريّة الاختيارات ومنهجيّة السّياسة الخارجيّة على أرض الواقع بما في ذلك السّياسات الاستعماريّة وكان تغيّرًا بنيويا طالت نتائجه تشكّل أعضاء الحكومة في روما والمستعمرات أو إعطاء المعهد الإيطاليّ الاستعماريّ الصّيغة الفاشيّة[(٢)].

وليس المجال، هنا، مجال تعميق للبحث في العلاقات الّتي ربطت

---

(١) جاكو ماتيوتي أحد زعماء الحزب الإشتراكيّ الإيطاليّ تمّ إغتياله يوم ١٠ يونيه ١٩٢٤ من قبل البوليس السّياسيّ التّابع للحكومة الفاشيّة وذلك بُعَيد إلقاءه خطابًا ناريًا في البرلمان بسبب ما شاب الإنتخابات البرلمانيّة من خروقات فاضحة نتج عنها حصول الأغلبيّة السّاحقة للمنتخبين من الحزب الفاشيّ.

(٢) في نهاية ١٩٢٧ تمّ حلّ مجلس إدارة المعهد وعيّن رئيسه الكونت (بيار جوفاني فينيني) الّذي كان وكيلا لوزارة المستعمرات مفوّضًا لإعادة تنظيمه وهذا كان مرتبطًا بالأوساط الرّأسماليّة اللّومبارديّة وقد أقيم في سنة ١٩٢٢ المعرض الأوّل للإعمار في معرض ميلانو العام، وكان ينتمي إلى اللّيبراليين ويحظى بقبول غلاة القوميين الفاشيين، وهو نفسه من أسّس المعهد الاستعماري الفاشي في سنة ١٩٣٠، وتقلّد منصب مدير مجلّة (ما وراء البحار).

بين الهزيمة المتنامية لليسار العمّالي وعموم الحركة الديمقراطيّة الإيطاليّة وبين الإستراتيجيّة العقائديّة الفاشيّة الّتي بدأت تتغلغل في السّياسات الاستعماريّة تجاه ليبيا في السّنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦، فهذه السّياسة الّتي عمّقها غلاة القوميين تشبّعت بها الرّوح الفاشيّة وأضحت وسيلة طيّعة في يد موسوليني.

وفي الوقت الّذي ترسّخت فيه دكتاتوريّة الطّبقة الواحدة في البلاد اعتبارًا من خريف ١٩٢٢ كانت تأثيرات نهاية الديمقراطيّة تصل تدريجيًا إلى المجال الاستعماريّ وإن بشكل متباطئ. وقد تجلّت في مجموعة من القضايا الّتي كان لها صدى في أقرب منطقة من وراء البحار وكانت في جوهرها تتمثّل في حيازة الأراضي الزّراعيّة وإصلاحها ومصادرة الأراضي في إقليم طرابلس الغرب. وفي تلك اللّحظة، زار موسوليني طرابلس في شهر أبريل ١٩٢٦ وكانت زيارته تدشينًا للحملة الفاشيّة الواسعة النّطاق في البحر المتوسّط وإفريقيا بدءًا من إفريقيا الشّماليّة. وهذه تعتبر نقطة تحوّل في السّياسة الإيطاليّة. فقد كانت هذه الزّيارة بدعوة من الحاكم الجديد دي بونو قبل عدّة أشهر. وكما هي عادة موسوليني، أحيطت هذه الزّيارة بهالة دعائيّة، وعبّئت لها كلّ الإمكانات بما في ذلك المجلس الفاشيستي الأعلى، إلى درجة طغيانها على فحوى خطابات موسوليني في طرابلس وحتّى على الكلمة الّتي ألقاها على متن السّفينة كافور (Cavour) مستهلًا بها هذه الزّيارة الّتي قال فيها: «نحن قوم متوسّطيون وقدرنا هو البحر».

قد تبدو هذه الجملة شبيهة بمقولات دانونسو[١] ولكنّها تشير إلى موضوع المنافذ التّوسعيّة[٢].

---

(١) دانونسيو (١٨٦٣ ـ ١٩٣٢) من أكبر شعراء إيطاليا كتب قصائد في مآثر غزو ما وراء البحار وهي مجموعة من ١٠ قصائد تمجّد الحرب الاستعماريّة على طرابلس.
(٢) أُنظر: فابيو كوسيني، التّاريخ الإرتكاسي لإيطاليا، تورينو، ١٩٤٨، ص٤٣٤.

وقبل ذلك بقليل برزت على صفحات جريدة «البوبولو دي إيطاليا» بعض المراسلات لشخص متخصّص في الزّراعة وقد استمرّ في مهمّته حتّى سنة ١٩٢٦، بتكليف من أرنالدو موسوليني (Arnaldo Mussolini) شقيق الدكتاتور ورئيس تحرير هذه الصّحيفة. وقد تناولت المراسلات قضيّة «تطوير الوعي الاستعماريّ الجديد»، وهي مهمّة موكلة بالأساس إلى الصّحافة اليوميّة ومفادها أنّ الفكرة الاستعماريّة يجب أن تتجلّى في ذيوع برنامج عملي ذي فائدة اقتصادية[١].

كانت هذه الفكرة تسير على منوال فكرة (فولبي) غير أنّ الوقت أصبح ملائما لتجسيدها من الأعلى أي من القيادة لتعطي صورة «الاستعمار الشّعبي» والعودة إلى المنهج التّقليدي لسنة ١٩١١ الّذي كان قد توقّف.

هذه الحملة الّتي لم تعد قادرة على إنجازها أدواتُ غلاة القوميين النّخبويّة، تصدّت لها تنظيمات وصحافة النّظام بالتّعاون معهم لتحقيقها أمّا (موسوليني) فقد اكتفى بخطاب افتتاحي قصير في طرابلس وجّهه إلى الأعيان مع كلمات تشجيعيّة لكبار الموظّفين والمعمّرين وتنظيمات الميليشيا الفاشيّة.

في هذا الخطاب مقطعان كانت لهما دلالة خاصّة، الأوّل أكّد فيه: «أنّ القدر هو الّذي قادنا إلى هذه الأرض، ولا أحد يستطيع الوقوف في وجه القدر والأهمّ أن لا أحد في استطاعته أن يكسر إرادتنا الجامحة»، والثّاني قد أعرب فيه عن إرادته في توجيه اهتمام الإيطاليين إلى ما وراء البحار.

---

(١) أُنظر: أندريه كرافينو، نظرات على اقتصاد إقليم طرابلس «المستقبل الزّراعي للمستعمرة»، ميلانو، ١٩٢٧، مع مقدمة لأرنالدو موسوليني، من ص٣ إلى ص١٢. وقد كان كرافينو أوّل مقرّر للنّدوة الزّراعيّة في طرابلس.

وفي كلمة ألقاها بمناسبة النّدوة الزّراعيّة للتّعمير، وأنهى بها زيارته، اتّضحت جميع عناصر الاستعمار الفاشيّ ابتداء من مقولة القدر، أي قدر إيطاليا وروما، وكانت إشارته إلى الحاجة الماسّة إلى الأرض عندما قال: «إنّنا قوم كثيرو التّناسل ونريد أن نبقى كذلك»، إضافة إلى دعوته إلى اتّباع التّقنيات الزّراعيّة الحديثة القادرة على اجتراح المعجزات ثمّ الإشادة بالجنس الإيطاليّ الّذي يعتبر من آيات الإعجاز في التّاريخ البشريّ[1].

في ٢١ أبريل أقيم في إيطاليا احتفال بـ(اليوم الإيطاليّ للاستعمار) تخلّلته خطب حماسيّة كان في مقدّمتها غلاة القوميين الّذين مثّلوا بكلّ وضوح عنصر الاستمراريّة والكفاءة في هذا الجانب من الدّعاية الإمبرياليّة[2] هذه الاحتفالية نظّمت من (كانتالوبو) وأعيدت في السّنة اللاّحقة. هذا الشّخص هو الّذي كان يصدر مجلّة (ما وراء البحار حتّى خريف ١٩٢٧) حيث دأب على دمج المسألة الإفريقيّة مع مسألة البحر المتوسّط، وكان يعطي أهميّة خاصّة للمعتقلات والأحداث اللّيبيّة في أعداد السّنوات الأولى، ثمّ أدمجت في هذه المجلّة أربعة مجلاّت أخرى وهي مجلّة (الإعمار الإيطاليّة) الّتي كانت لسان حال معهد الإعمار الإيطاليّ منذ ٢٠ سنة، ومجلّة (فكرة الإعمار) الّتي أسّسها روبارتو

---

(١) النّص الكامل لهذه المداخلات في مجموعة الأعمال الكاملة لبينيتو موسوليني، الجزء٢٢، فلورنسا، ١٩٥٧، ص١١٢ ـ ١١٨.

(٢) ماريو دي غازليني قد تبنّى في نفس السّنة مجموعة الفنّانين ذوي النّزعة الإمبراطوريّة للاستعمار ويمكن الإطلاع على مواد تأسيسها في مجلّة (إيزوتيكا) العام الثّاني رقم ١، ١٥ يناير ١٩٢٧، وفي آتون هذا الحماس كان خطاب وزير الماليّة السّابق في ميلانو يوم ٢٤ مايو ١٩٢٧ أهمّ شهادة حيث قال: «إنّ ندرة المواد الخام وازدياد عدد السّكان وضعف خصوبة التّربة والمواقف المبنيّة على الآراء المسبقة كلّها بيانات ماديّة محضة لا يمكن اعتبارها حاسمة». اِرجع إلى: ألبارتو دي ستيفاني، الإمبراطوريّة في كتابات ضرابات المنخل، ميلانو، ١٩٢٨، من ص١ إلى ص٩.

فورجس oberto Forges) وتغيّر اسمها فيما بعد إلى (المنبر الإعماري)، ومجلّة (المستعمرات الشّرقيّة) الّتي تصدر في مدينة بولونيا، ومجلّة إيزوتيكا (Esotica) حيث كانت تصدر في ميلانو ويديرها أديب ذو نزعة استعماريّة هو (ماريو غازليني).

كانت مجلّة (ما وراء البحار) تنشر وقائع معهد الإعمار، وتعكس التّوجهات شبه الرّسميّة للحكومة، وكان لها برنامج يقول بفكرة (السّياسة الإعماريّة القائمة على الاقتصاد)، ويتبلور هذا في خمس نقاط تعرض فكرة شاملة لبرنامج الفاشيّة القوميّة في تلك المرحلة وهي:

١ ـ استغلال المستعمرات الّتي استحوذنا عليها بشكل سريع ومكثّف مع جزر بحر إيجا، وجعلها قاعدة حقيقيّة ومستقلّة لتوسّعنا الاقتصاديّ في البحار والأراضي المجاورة.

٢ ـ اتّخاذ قرار المساهمة في التّجارة وتوظيف رأس المال واليد العاملة في إفريقيا الّتي تخضع للآخرين وفي المشرق بغية انتشار التّأثير الإيطاليّ السّريع في حوض المتوسّط وسياسيًا حتّى البحر الأحمر وعلى المنتجين التّعاون من أجل اجتياز مرحلة الإعمار إلى المرحلة المتوسطيّة الإفريقيّة.

٣ ـ دراسة وتنفيذ الموانئ والتّجارة والزّراعة والمصارف وأراضي المستعمرات من ناحيتين الاقتصاديّة والفنيّة وهذا الهدف له أهميّة كبيرة وحاسمة.

٤ ـ تطوير» سياسة إسلاميّة» في كلّ حوض البحر المتوسّط.

٥ ـ تشجيع ازدهار آداب الأقوام المختلفة لأنّ أي سياسة إعماريّة لا تزدهر إلى جانبها الآداب والفنون هي سياسة عرجاء[1].

---

(١) أُنظر: أفكار للعمل في مجلّة ما وراء البحار، السّنة الأولى، عدد ١، نوفمبر ١٩٢٧، مقال بقلم: روبارتو كانتالوبو.

لقد وضع البرنامج ولكنّ الجدل تواصل في صيغ مختلفة حول العلاقة بين سياسة استغلال الموارد والسّياسة السّكانيّة في الإعمار إلاّ أنّ هذا الجدل طغت عليه أبحاث وردت في كتاب كان له نجاح واسع صدر من دار فوتشا (Voce) سنة ١٩٢٨ تحت عنوان (إيطاليا الإسلاميّة)(١).

وكان طرح هذه المسألة من قبل مدير المجلّة وبأسلوب نصف سياسي ونصف بلاغي تحايلاً على الشّروط الصّريحة الّتي تمّ بمقتضاها دمج المجلاّت الأربع برعاية الوزير (فيدارزوني) إذ أنّ الإدارة السّياسيّة لمجلّة ما وراء البحار كانت تضمّ مجموعة من أساطين عالم المال والاقتصاد مثل: جوزيبي بيانكيني (Giuseppe Bianchini) وديستيفاني (De Stefani) وغويدو جونغ (Guido jung) وجينو أوليفيتي (Gino Olivett) وألبرتو بيريلي (Alberto Pirelli) إلاّ أنّ النّداء الّذي كان موجّها للمنتجين من أجل العمل على التّوسع في البحر المتوسّط وإفريقيا سرعان ما برهن على أنّه هدف وهميّ على أرض الواقع ذلك أنّ تجسيد هذه المواضيع بتناغم الأهداف وعقلانيّة الآليات الدّعائيّة الّتي أنجزت سنة ١٩٢٧ قد تعرّضت لإخفاقات وسقوط مدوٍّ(٢).

---

(١) روبارتو كانتالوبو: إيطاليا المسلمة، روما، ١٩٢٨، وأعيد طبعه في ١٩٢٩ و١٩٣٢.
هذا الكتاب يقول عنه مؤلّفه: «هو كتاب للسّياسة الإعماريّة الإفريقيّة الشّرقيّة والبحر متوسطيّة لإيطاليا الّتي أرساها فيكتور يوفينيتو والفاشيّة ولذلك فهو كتاب في السّياسة الخارجيّة أي للسّياسة الخارجيّة بامتياز فيما يجب أن تتبناه بلادنا».

(٢) وفي كلّ الأحوال فقد حدث في أغسطس ١٩٢٨ أن أدمجت مجلّة المستكشف التّجاري الّتي يرجع إنشاؤها إلى سنة ١٨٧٧ في مجلّة ما وراء البحار.

ـ ٥ ـ

لا يمكن أن يحدث التّوسع في اتّجاه الشّرق دون رضا الشّرقيين لذلك يجب أن تكون ليبيا عبّارة إلى هذا الشّرق حسب ما ورد في كتاب إيطاليا الإسلاميّة وبهذا المعنى تبقى سياسة غلاة القوميين في التّوسع إلى ما وراء ليبيا كاملة لم يلحقها أي تغيير سواء على مستوى السّياسة الخارجيّة أو الاستعماريّة أو العسكريّة إذ تتبلور هذه السّياسات في هدف تكتيكي هو استكمال الاحتلال ووحدة المستعمرة لجعلها قاعدة أوسطيّة كبيرة آمنة ومستلّقة(١).

كان المشهد في إيطاليا قد تغيّر فالحكومة أصبحت قارّة لا تعرف التّداول على السّلطة والبرلمان مدجّن دون معارضة والصّحافة خانعة تتكفّل بعدم تسرب دخلاء يتحدّثون باسم الرّأي العامّ والإدارة ملتحمة عضويا بالدّولة وحتّى وزارة الخارجيّة قد تمّ تحويلها إلى مكاتب تابعة إلى الحركة الفاشيّة كضمان إضافي كما قامت الحكومة الفاشيّة على استكمال وتحسين الجهاز العسكريّ في المستعمرة(٢).

وبالرّغم من كلّ ذلك فقد برزت تناقضات داخليّة في السّياسة مع

---

(١) راجع روبارتو كانتالوبو، سبق الإشارة إليه، إصدار ١٩٢٩، ص١٥٤ ـ ١٥٧ ـ ٢٤٥، وعلى الأخصّ الفصل «برنامج لليبيا».

(٢) روبارتو كانتالوبو، سبق الإشارة إليه، صص ١٥٤ ـ ٢٦٧ ـ ٢٧١.

المسلمين الّذين كانوا يمثّلون تسعة أعشار أعيان الإفريقيين، وإذا كانت التّوقّعات المستقبليّة تقول إنّ الإسلام يعاني من تراجع نحو التّفسّخ والانحطاط فإنّه يشهد حساسيّة رقيقة ومرهفة تنامت مع الوعي الّذي حدث بعد الحرب العالميّة الأولى فإنّ الخطر أصبح ماثلا في العلاقة مع السّنوسيّة على المستوى الدينيّ[١].

تنعكس في كتاب «إيطاليا الإسلاميّة» توجّهات الرّأي العامّ إذ يساهم في تكوينه في الوقت ذاته التّقييم المبالغ فيه للجانب الدينيّ على حساب الحسّ الوطنيّ للمقاومة الشّعبيّة العربيّة، ومن ثمّة يمكن أن نفسّر التّذبذب الإعلامي الّذي ظهر بجلاء في هذه الفترة على عكس ما حدث في مرحلة الاستعمار اللّيبراليّ.

إنّ للإيديولوجيّة والإيديولوجيّة المعارضة في هذا الكتاب جذورًا راسخة في السّياسة والثّقافة الإيطاليّتين وهذا ما استوجب الوقوف والتّحليل إذ كان ليون كايتاني (Leone Caetani)[٢] أكبر مستشرق وباحث في الدّراسات الإسلاميّة بإيطاليا قد اتّخذ موقفًا معارضًا من الحملة على طرابلس سنة ١٩١١ حتّى قبل بداية الحرب كما كان غايتانو سالفيميني (Gaetano Salvemini)[٣] معارضًا بشدّة للحرب على

---

(١) راجع: روبارتو كانتالوبو، سبق الإشارة إليه، ص٢٤٢ ـ ٢٤٥ «في الأصل نمو واضمحلال السّنوسيّة علاقتنا مع الإخوان السّنوسيين»، وقد خصّص الصّفحات من ١٠٤ إلى ١٢٧ لتناول الظّروف السّياسيّة والعسكريّة لبرقة ومحدوديّة استعمار السّكان الأصليين.

(٢) ليوني كايتاني من أكبر المستشرقين الإيطاليين وهو صاحب موسوعة (حوليات الإسلام) وقد أفنى حياته في دراسة الإسلام وكان من محبي الحضارة الإسلامية.

(٣) غايتانو سالفيميني: هو مؤرّخ وسياسي مناهض للفاشيّة ولد سنة ١٨٧٣ وتوفّي ١٩٥٧ وكان رافضًا للحرب على ليبيا منذ سنة ١٩١١ وقد كتب وقتئذ في صحيفة (لافوتشي) عدّة مقالات ضدّ هذه الحرب. وعندما رأى أنّ هذه الصّحيفة كانت ليّنة مع الحملة=

مدى سنوات لإدراكه الضّرر الكبير الّذي ستلحقه بإيطاليا تلك الموجة من أفكار غلاة القوميين[١]. فقد مثّلت تلك الفترة أرقى فترات الوعي النّقديّ في ثقافتنا اللّيبراليّة الديمقراطيّة، بالرّغم من بروز الحماس وانتشاره في أوساط الفئات الوسطى حينذاك إلى درجة تمكّنه من الذّيوع حدَّ الإجماع فقد كان التّأييد للحملة على أشدّه بين أوساط الكتّاب والصّحافيين عبّر عنه صدور كتاب موسوم بـ «الرّبيع العربيّ [الإيطالي]» خير تعبير[٢].

بعد تلك الفترة قادت التّجارب السّابقة الإعلاميين على مختلف مشاربهم واتّجاهاتهم إلى تعميق النّقاش حول العلاقة بين الإسلام والسّنوسيّة وإيطاليا ولكن كان ذلك يحدث دومًا في سياق الإيديولوجيا الاستعماريّة وليس من قبيل المصادفة أنّ من أوائل المغامرين في هذا الميدان كان ضابطًا ذا عقيدة استعماريّة فاستخلص في عجالة نتائج موغلة في التّفاؤل مفادها إقامة حكومة تكرّس الحريّة الدينيّة دون إغفال العلاقات الّتي كانت تربط زعيم السّنوسيّة بكبار الزّعماء الدّينيين في

=على ليبيا أصدر صحيفة مستقلّة (أونيتا) الأسبوعيّة وكان جلّ اهتمامها ينصبّ على معارضة هذه الحرب وقد كتب في افتتاحية العدد الأول (إنّ الشوفينيّة القوميّة ليست فقط غير ديمقراطيّة وإنّما تحاول صرف الاهتمامات عن المشاكل الحياتيّة للشّعب الإيطاليّ بمغامرات حربيّة خارج الحدود لمصلحة الطّبقة الطفيليّة الوطنيّة) وقد تمّ جمع هذه المقالات الّتي كتبها في الشّأن الليبيّ في كتاب بعنوان (كيف ذهبنا إلى ليبيا سنة ١٩١٤).

(١) راجع: فرانشسكو مالجيري، الحرب اللّيبيّة ١٩١١ ـ ١٩١٢، روما، ١٩٧٠، ص٩٥.

(٢) إيميليو سكاليوني، الرّبيع الإيطالي الحرب الإيطاليّة التّركيّة (مختارات من أجمل صفحات الحملة اللّيبيّة)، نابولي، ١٩١٣. وهذا مؤلّف ضخم ولكنّه مغمور، وفي رأينا أنّه ذو أهميّة قصوى لمعرفة الجوانب العامّة والإيديولوجيّة الاستعماريّة لتلك السّنين وبشكل كامل.

الجزيرة العربيّة كما كان يعتبر الخلافة التّركيّة عقبة رئيسيّة كأداء وكان يقترح إقرار فكرة التّصالح سلوكًا ضامنًا حسب التّقاليد اللّيبراليّة[1].

كان تدخّل المستشارين المتهوّرين في الضّغط على وزارة المستعمرات حديثة النّشأة باقتراحاتهم الّتي وإن لم تكن صريحة إلاّ أنّها لا تستبعد بعض الإجراءات البديلة الصّارمة والّتي طبّقت فيما بعد وكان من بينها من يقول إنّه على إيطاليا باعتبارها (ثالث قوّة إسلاميّة عظمى) أن تختار بين سياسة إبادة السّكان المحلّلين أو إزالتهم وإحلال المعمّرين الإيطاليين محلّهم. وهذا السّلوك يتماشى والأعراف المحليّة والتّقاليد الدينيّة المتّبعة وكذلك القواعد الإسلاميّة.

غير أنّ اتّخاذ هذا الخيار أو الآخر يعتمد فقط على قوّة مقاومة السّكان المحلّيين أو ضعفها، وما على إيطاليا إلاّ أن تراعي أخلاق الدّولة الاستعماريّة المتحضّرة[2].

تساءل البعض الآخر هل ثمّة إمكانيّة لتجنّب حرب عصابات طويلة بوسائل سياسيّة؟ ولكنّ الإجابة عن هذا السّؤال في ظلّ سياسة إسلاميّة واسعة الآفاق كانت غامضة ومتذبذبة بين ردّ فعل عسكري جامح أي ردّ الصّاع صاعين أو اللّجوء إلى سياسة (فرّق تسد) المشكوك في نجاعتها[3]. وبين هذين الخيارين المتناقضين كانت تتأرجح الأفكار

---

(١) انظر: بوربون ديلمونت سانتا ماريا، الإسلام والأخوّة السّنوسيّة، شتاء دي كاستيلو، ١٩١٢، صادر عن قيادة الأركان العامّة «مكتب الإعمار».

(٢) انظر: جوليانو بوناتشي، الخلافة الإسلاميّة وليبيا، روما، ١٩١٣، ص٢٣ و٢٤، والنّص يحمل تاريخ ١أكتوبر ١٩١٢، ارجع كذلك إلى: ألدو برانديني مافاتسي، إيطاليا والإسلام في ليبيا، فلورنسا ـ ميلانو ١٩١٣، وقد دفع بالجزء الأوّل إلى الطّباعة في السّنة السّابقة على هذا التّاريخ من قبل الجمعيّة الإيطاليّة للدّراسات اللّيبيّة وقد كانت هذه الجمعيّة تتبع خطًا معتدلا.

(٣) انظر: غويدو سابتا، سياسة التّغلغل في إفريقيا الإسلام وإيطاليا، روما، ١٩١٣،=

الاستعماريّة منذ البداية في ليبيا ولم تكن تخلو من نزعات الاستبداد بسبب طبيعتها السّطحيّة المتردّدة. غالبًا ما كانت الأسباب الّتي تدفع هذا الإعلام، الّذي لم يكن غزيرًا وإن كانت له خصائصه الدّعائيّة، متراوحة بين التّصلب الّذي تمليه المتطلّبات الدّاخليّة في إيطاليا من جانب وضيق هامش المناورة في المستعمرة من جانب آخر، فكانت الدّعوة إلى التّسامح الدينيّ تصطدم بالإكراهات الملحّة في دفع فائض السّكان إلى الشّاطئ الرّابع، ثمّ انحسرت بسبب مقاومة السّكان المحلّيين، ولهذه الأسباب الّتي تتعلّق بالعزّة الوطنيّة فقد تمّت الاستجابة لنزعة (رصاصة الرّحمة) الّتي يجب أن تطلق على الخصم.

كانت هذه الثّقافة الهامشيّة قد نشأت وترعرعت في أماكن أخرى ومن ذلك يمكن الإشارة إلى كتابات كلّ من كوبولاني (Coppolani) ودي بونت (Depont) سنة ١٨٩٧ أو إلى دوفيريه (Douveyrier) الّذي أعيد طبع كتابه من قبل وزارة المستعمرات مرّة أخرى سنة ١٩١٨[(١)].

=ص٧٢ ـ ٧٣ ـ ٨٣ ـ ٨٥ ـ ٩٠، ونلفت الإنتباه بأنّ دراسة السّلطات المحليّة العربيّة قد أوكلت بشكل دائم إلى المكتب السّياسيّ العسكريّ في حكومة طرابلس، أنظر مذكّرات إيميليو كانيفاري، الزّوايا والإخوان السّنوسيين بإقليم طرابلس نشر في طرابلس، ١٩١٧، بمقدمة للرّائد ماريو ساني.

(١) هذا التّقليد استمرّ منذ الأعمال الشّبابيّة كارلو جيليو، الإخوانيّة السّنوسيّة حتّى اليوم، بادوفا، ١٩٣٢. والّذي قام بكتابة مقدّمته الجنرال غرسياني، وقد أسقطوا على العرب المهزومين أحكاما وصفات مثل التّعصب والخيانة والنّفاق بشكل متكرّر، ربّما وصلت السّياسة الإيطاليّة فيما يخصّ العرب أعلى درجاتها في مجموعة الوثائق السّريّة الّتي أعدّتها وزارة المستعمرات بعنوان: الجزيرة العربيّة، روما، ١٩١٩، مع ملحق يتضمّن قضيّة الخلافة بعيانة نالينو وقد ندّد جاكوبو إينيزي بالجدار الحديديّ الّذي وضعه الإنجليز حول شبه الجزيرة العربيّة وكان يطالب بجزيرة الفرسان في البحر الأحمر وخلف هذه الطّبعة الفخمة يتبدّى الفقر المعتاد للوسائل والتّوجهات السّياسيّة الإيطاليّة للمشرق.

كانت الحوافز الّتي تدفع نحو التّمعن والتّبصر على غاية من الهشاشة من حيث استقلاليتها وقدرتها على الاستمرار وعليه فقد تراجعت هذه الثّقافة الاستعماريّة شيئًا فشيئًا وحلّت محلّها الثّقافة الاستعماريّة المعمّمة ذات الميول غير اللّيبراليّة والمناهضة للدّيمقراطيّة. ثمّة نظرة أكثر واقعيّة وهي طرح مسألة الحماية في ١٩١٧ وكانت مبنيّة على رفض التّعمير الاستيطانيّ واتّخاذ موقف وسطي يقوم على أسس اقتصاديّة واجتماعيّة واستقلاليّة العرب والحركة السّنوسيّة وفكرة الحماية هذه مأخوذة من النّموذج البريطانيّ الّذي طبّق في مصر سنة ١٩١٤ وطُوّر من أجل تفكيك الوحدة الإسلاميّة وهو ما كان يحظى بأفضليّة في الإطار الأوروبيّ على أن تقتصر إيطاليا على الاستفادة من التّجارة بين السّواحل والدّواخل وبين إفريقيا الشّماليّة وحوض البحر المتوسّط[١].

واعتبارًا من فترة ما بين ١٩١٩ و١٩٢٢ وعلى إثر ظهور موجّة جديدة من التّعصب الوطنيّ وبحكم التّطور الزّمني فقدت فكرة ضرورة إيجاد وفاق مع الإسلام أو ما يسمّى (العقد المبرم مع الإسلام) أيّ قيمة عمليّة وتبدّت بوضوح طبيعة استخدامه كوسيلة ثانويّة للإستغلال الانتهازيّ سواء للرّأي العامّ في إيطاليا أو لكبح مقاومة السّكان المحلّيين في المستعمرة وبعد التّبدل الّذي طرأ على الوضع سنتي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ترسّخت الاختيارات المتطرّفة على أسس تقليديّة سابقة وهي إمّا الاستسلام أو الاحتضار البطيء لقوات السّلاح[٢]. وبمعنى آخر كان هذا

---

(١) أنظر: سافينو أكوافيفا، المعضلة اللّيبيّة والسّنوسيّة، روما، ١٩١٧، والمؤلّف كان يركّز على عدم السّماح لبريطانيا العظمى بأيّة هيمنة كقوّة استعماريّة للبلاد الإسلاميّة وعلى التّمسك بالمبدأ الإستراتيجيّ في منع أيّ نوع من التّضامن الإسلاميّ حتّى لو كان معنويا بين الشّعوب الإسلاميّة المصدر السّابق، ص١٣٦.

(٢) أُنظر: روبارتو كانتالوبو، مصدر سبقت الإشارة إليه، ص٢٧١.

بديلا مزيّفا مادام بقاء فكرة تفضيل الخيار الإسلاميّ على الخيار العربيّ الّذي كان في طور النّشأة رابطًا بشكل معوجّ بين مواضيع لها مركزيّة انطلاقها في أماكن مختلفة[١] وهي مبنيّة على تحليل سياسي وعسكري زائف وهذا ما يقوله (كانتالوبو): «الضّربة القاسمة الّتي لم نقم بها حتّى الآن في (برقه) يجب تسديدها إذا أردنا اختزال المشكلة. فقط بعد إنجاز هذه الضّربة يمكننا أن نفي تدريجيًا للمطالبات الجوهريّة لكلّ القوى المتحمّسة في الشّمال الإفريقيّ أي بخلق الظّروف الموضوعيّة الّتي لا ترغمنا على حرب طويلة الأمد، القوّة الاستعماريّة الكبرى في إفريقيا هي تلك الدّول الّتي لا تنزع سلاحها ولكن تستعمله في أضيق نطاق»[٢] هذا التّناقض كان لابدّ أن ينتهي مباشرة إلى تغلّب حزب التّشدد ويمهّد الطّريق لتسديد (الضّربة الحاسمة) وهذا ما حدث سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١، في الوقت ذاته كان يحدث شيء آخر مختلف وهو بروز الإصلاح في المستعمرات البريطانيّة وقد تمثّل في إقامة الكومن ووالف (Commonwealth)، إذ لم يكن الأمر متعلّقًا فقط بالمشكلة الإخوانيّة السّنوسيّة فقد كان ثمّة اهتمامات إيطاليّة بتعمير الأراضي البرقاويّة واحتلالها بشكل أكبر ممّا تّم في إقليم طرابلس هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يترك أي مخرج لأهالي الجبل والصّحراء الّذين تقرّر سحقهم، فكانت مرحلة الدّخول هذه موسومة بالموجة الثّانية من الاحتلال الإيطاليّ لليبيا[٣] وبذلك حقّق غلاة القوميين مآربهم في تصعيد

---

(١) أُنظر: إيتالو زينغاريلي، صحوة الإسلام، ميلانو، ١٩٢٨. هذا الكتاب الجزء الثاني من مكتبة الثّقافة السّياسيّة الصّادرة عن المعهد الوطني للثّقافة الفاشيّة ويحمل عنوانا جانبيا تركيا دون قرآن الرّوس والإنجليز في المشرق.

(٢) روبارتو كانتالوبو، المصدر السّابق، ص١٢٢.

(٣) بيادجو باتشي الّذي عرض تقريرًا في البرلمان تناول ميزانيّة المستعمارات عن السّنة=

الصّدام بين الإيطاليين والعرب في ليبيا الّتي اعتبروها منطقة احتلال ليس لها من دور غير خدمة المحتل[1].



=الماليّة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ وقد قدّم البيانات المتعلّقة بالنّفقات الّتي يتطلّبها إعادة احتلال سرت وفزّان وبرقه بمبلغ إجمالي ١٩٩ مليون ليرة منها ٢٠ مليون لسور الأسلاك الشّائكة على الحدود مع مصر، و١٣ مليون ليرة لمعسكرات الاعتقال وقد قيل في ذلك الوقت دون هذه التّدابير الثّلاثة معسكرات الاعتقال وسور الأسلاك الشّائكة واحتلال الكُفرة لتواصلت الأعمال الحربيّة لخمسين سنة لاحقة. أُنظر كذلك: ألبيرتو جالكاردي، عشرة سنوات من الفاشيّة في المستعمرات الإيطاليّة، ميلانو، ١٩٣٤، ص٣٤ ـ ٣٥.

(١) روبارتو كانتالوبو، المصدر السّابق، ص١٥٥.

- ٦ -

عندما عُيّن الجنرال غرسياني (Graziani) قائدًا للعمليات في (برقه) كانت اللّعبة الإيطاليّة قد شارفت على نهايتها، اتّخذ المدنيون والعسكريون وسلطات الاحتلال في المستعمَرة أو الوطن الأمّ شيئًا فشيئًا مواقف مختلف تقترب من الإستقرار الكامل والنّهائيّ في ظلّ انتشار قوّة ضاربة وتفوّق تقنيّ لم يترك للخصوم غير هامش ضئيل للمناورة وبالرّغم من ذلك ظلّت المقاومة مستمرّة على مدار سنة ١٩٣١ بكاملها.

دون شك يعتبر (غرسياني) الأكثر خبرة وشراسة بين القادة العسكريين الّذين تصاعد نجمهم في المستعمرة فخبرته تكوّنت منذ سنة ١٩٢١ في مهام قمعيّة حتّى بات يطلق عليه «رجل المهام الصّعبة المُميَّز»، ورغم التّحفّظات الّتي كانت تبديه بعض الأوساط الاستعماريّة الأكثر تعقّلاً[١] فإنّ الحكومة ووزارة المستعمرات و(بادوليو) بصفته الحاكم العام لليبيا إضافة إلى الرّأي العام الفاشيستي الّذي تعرّض للضّغط من الصّحافة الاستعماريّة كلّ هؤلاء يتحمّلون جزءًا من المسؤوليّة في تكوين برنامج الإبادة الجماعيّة وآليّة تنفيذها مع رجل «المهمّات الصّعبة» والفاعل

---

(١) المصدر السّابق غرسياني في برقة في مجلّة (ما وراء البحار)، السّنة الرّابعة، عدد٤، شهر أبريل ١٩٣٠، وأُنظر كذلك مقال: تطهير الجبل البرقاوي، نفس المصدر، السّنة ٤، عدد ١٢، شهر ديسمبر ١٩٣٠.

المادّي للإبادة الّتي لحقت بعرب (برقه) وستبقى رمزيتها عالقة إلى الأبد، وقد برزت فضاضة (غرسياني) الرّوحيّة كاملة في وثيقة سيرته الذّاتيّة الّتي يرجع تاريخها إلى ربيع ١٩٣٠ مدّعيا أنّه رجل الأقدار في الشّأن الاستعماريّ للوطن فيقول: «لقد ولدت في أغسطس ١٨٨٢ في سهل نهر أنيينه من أب لاتيني وأمّ رومانيّة منذ نعومة أظافري كنت نزّاعًا إلى الملكيّة الّتي جبلني عليها أبي، لم أتفهّم أبدًا الحركة الاشتراكيّة الّتي كانت تنتشر وقتئذ. لم أكن يومًا ماسونيًا. أعتقد أنّني كنت فاشيًا من يوم ولادتي وهكذا يبدو لي اليوم أنّني أؤوب إلى حياتي لقد احتقرت الدناءة والوضاعة الّتي ألصقت بي لقد أتيت إلى الدّنيا عاطفيًا ورومنطيقيًا واستطعت ألاّ أكون شكّاكًا أو كلبيّ النّزعة وإنّما عملت من نفسي إنسانًا واقعيًّا بعد عامين من حياة المعسكرات، اجتذبتني إفريقيا واستهوتني وخلّصتني من الكسل والدّعة ومنحتني طباعي الّتي أتميّز بها»[١].

دفعت خيبات (غرسياني) الاجتماعيّة وحماسته الاستعماريّة إلى تطوّعه في الجيش إبّان حرب إريتريا من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩١٢ وقرّبته من الفاشيّة في سنوات ما بعد الحرب الأولى فكتب: (في سنة ١٩١٩ في مقدونيا وفي ١٩٢٠ في مدينة بارما الإيطاليّة ضدّ البلاشفة وفي نهاية ١٩٢٠ كنت في وضع المتربّص بطلب منّي في الشّرق وسافرت إلى البلقان ومنها إلى تركيا في آسيا الصّغرى ثمّ اتّجهت إلى القوقاز في لحظة ظهور البلاشفة فخسرت نشاطي الاقتصادي والتّجاري الّذي حقّقت فيه نجاحًا باهرًا، عدت إلى أرض الوطن في صيف ١٩٢١ فعرض عليّ أن أتّجه إلى طرابلس بناء على طلب قدّمته سابقًا في سنة ١٩١٨ فنزلت على شواطئ طرابلس في شهر سبتمبر)[٢].

---

(١) رودولفو غرسياني، السّيرة الذّاتيّة لجندي في إفريقيا، في مجلّة (ما وراء البحار)، السّنة الرّابعة، العدد٤، أبريل، ١٩٣٠.

(٢) رودولفو غرسياني، المصدر السّابق.

وسيحدّث غرسياني نفسه عن نزع سلاح السّكان ووضعهم في معسكرات الاعتقال ومصادرة أموالهم والخطّة الّتي أدّت إلى احتلال (الكُفره) سنة ١٩٣١ وإلى القبض على عمر المختار وإعدامه وإعادة السّلام إلى (بَرقه) والّذي عهد بها إليه ولم يكن الوحيد الّذي تناول هذه الموضوعات[١] ففي كتابه «برقه المهدّأة» الواسع الانتشار والّذي سيكون الوثيقة العامّة الأكثر تعبيرًا عن إعادة احتلال ليبيا الّتي جسّمت بعمق الإيديولوجيّة الفاشيّة[٢] بقراءة التّقارير الّتي دوّنها الجنرال الإيطالي لا نجد صعوبة في إدراك مشاعره تجاه شخصيّة زعيم المقاومة، هذه المشاعر المعقّدة الّتي يمتزج فيها الحقد على الرّجل البدويّ بالإعجاب والاحتقار بالحسد لما ناله هذا الشّهيد من تبجيل في العالم الإسلاميّ[٣].

لقد ترك (غرسياني) إلى جانب صورة موت (عمر المختار) الّذي كان هو المسؤول عنها كجلّاد إذ يقول: «كان يتمتّع بذكاء حادّ وعلم غزير في المسائل الدينيّة ويُظهر حيويّة جارفة، وكان يتميّز بنكران الذّات وصلابة الموقف وبقي متمسّكًا بدينه وزاهدًا في الدّنيا، ويمكن اعتباره من الأشخاص الأكثر أهميّة في الحركة السّنوسيّة. كان دومًا يناصبنا العداء ولو أنّه لم يغدر بمحاولة السّلام الّتي اقترحها هو شخصيا، وقيامه بأعمال عدائيّة تافهة لكانت صورته اليوم بدت أكثر احتراما ولربّما أنقذ

---

(١) غوليالمو نازي وأنريكو دي أغوستيني، الهيكليّة الجغرافيّة لبرقة حرب العصابات واستخدام القوات المسلحّة في برقة، بنغازي، ١٩٣١.

(٢) رودولفو غرسياني، برقة المهدأة، ميلانو، ١٩٣٢، وفي كتابه اللّاحق: السّلام الرّوماني في ليبيا، ميلانو، ١٩٣٧، الفصل (احتضار التّمرد) قد تمّ اختزاله بشكل جذري وحذفت منه كلّ الصّفحات الّتي تناولت الحملة الصّحافيّة وحملة اللّجان الإسلاميّة.

(٣) انظر: أرمينيو سافيولي، قصّة بطل عربي والمطاردون الإيطاليون، في صحيفة أونيتا، ٥ أغسطس ١٩٧٩.

حياته»[١]، ونلمس في هذا التّقرير غياب المروءة والنّزوع إلى مبرّرات الدّفاع عن النّفس الّتي تلوي رقبة الحقيقة فيبدو في التّقرير الأوّل وكأنّه من مخرجات ملّفات شرطة الاحتلال، ويبدو الثّاني وكأنّه يستدعي أحكام المحاكم الخاصّة الّتي لم تدرس حتّى اليوم والّتي طالت رعايا المستعمرة من الفلاّحين البسطاء والرّعاة وأبطال المقاومة العربيّة بإجراءات صوريّة تعسفيّة[٢].

قامت الدّعاية فاشيستيّة الطّابع آنذاك تشيد بالأسطورة الرّومانيّة ذات المنحى الثّأريّ لأفعال (غرسياني) فقد كتب في هذا الشّأن باولو أورانو (Paolo Orano) النّقابي الثّوري السّابق الّذي أصدر كتاب كريستو كويرينو (Cristoe Quirino)، كما ساهم بعد ذلك في إثارة المشكلة اليهوديّة في إيطاليا[٣].

وتحدّث (موسوليني) عن برقه خضراء الأشجار على أرض حمراء بالدّم[٤] كلّ هذه الصّيغ البلاغيّة المخادعة تشي بالضّغوط الّتي تمارسها السّلطة على الرّأي العامّ في إيطاليا حتّى (بادوليو) من جانبه قد توجّه إلى القوّات العسكريّة عشيّة شنق (عمر المختار) يوم ١٦ سبتمبر يحثّهم على

---

(١) أُنظر: رودولفو غرسياني: برقة المهدأة، ص٢٦٣ ـ ٢٦٥. حسب غرسياني فإنّ عمر المختار هو قلب المقاومة لتمرّد برقة، ص٢٣٥، ويذكره كزعيم بربري في ص٢٣٥، ويصفه كقدّيس في ص٢٧١، وأخيرًا يصفه كقاطع طريق في ص٢٧٣.

(٢) أُنظر: أدريانو دالبونتي وألفونسو ليوناتي وباسكوالي مايالو وليوني زوكي، القاعة الرّابعة بروما سنة ١٩٦١ ص١٥٢ ـ ١٥٣، حيث أشاروا إلى محاكمات التّمرّد المسلّح والإنضمام إلى عصابات التّمرد والهروب من الجنديّة ومساعدة المتمرّدين إلخ...مع التّوصيّة بتحقيقات خاصّة حول المحاكمات الخاصّة في المستعمرات.

(٣) باولو أورانو، غريسياني جنرال شيبيونيكو، روما، ١٩٣٦.

(٤) أُنظر: المقدّمة لكتاب أتيليو تيروسي، برقة الخضراء، ميلانو، ١٩٣١، وتضمّ كلمة موسيليني في ديسمبر ١٩٣٠.

(عدم التّراخي واستمرار توجيه الضّربات القاصمة مادام يوجد متمرّد واحد على الأرض واقفا على قدميه حتّى ينتهي التّمرد وتتمّ السّيطرة عليه في أقرب الآجال)[١].

في إيطاليا لم يكن لمُعادي الفاشيّة والعمّال والجنود البسطاء سوى وسائل قليلة بسيطة لمواصلة معارضة الفاشيّة أو حتّى التّعبير عن ذلك فأضحوْا أقليّة لا قيمة لها[٢]، أمّا مجلّة (جيراركيا) وإزاء الاستنكار الّذي برز على صفحات الجرائد العربيّة والأجنبيّة فقد ادّعت أنّ معسكرات قبائل (الجبل الأخضر) لم تُنشأ إلاّ لمنع السّكان الأصليين الخطيرين من التّواصل مع (عمر المختار) الّذي كان قد اختفى من المشهد في ذلك الوقت وصوّروه على أنّه رجل مستبدّ[٣].

أمّا وسائل النّشر الكبرى للنّظام فلم تحاول طمس ضراوة العمليّات ضدّ مناورات المتمرّدين، ولكنّها حاولت التّخفيف من شدّتها والتّقليل من قسوتها بطريقة مهذّبة تخفي حجمها الحقيقي وتتستّر على الآليات الّتي تسعى لإبادة فئة كبيرة من الأهالي. ظلّ جدار الصّمت هذا حاجبًا

---

(١) الّذي نَقل نصّ خطاب بادوليو (الأرض الموعودة) هو باولو مالينزي، ميلانو، ١٩٦٨، ص٣٦٦، ولكنّ وضع الخطوط تحت الجُمل كان بفعل بادوليو نفسه.

(٢) مقال لويجي غالو، سنتان من حرب الاستعمار الفاشي، في مطبوعة دولة العمّال، السّنة الثّالثة عدد٨ نوفمبر، ١٩٢٩ وتبعتها العديد من المداخلات تحت أسماء مستعارة إتيان غامالبير ليدا رافاييلي نشرت في الواحة كرواية عربيّة، ميلانو، ١٩٢٩، وكأنّه أدب شعبي مناهض للاستعمار، وإرنيستو ميلزي، متطوّع في برقة، ميلانو، ١٩٧١. وهذا الكتاب الأخير يتضمّن رسائل متطوّع عشريني وهو ذو قيمة عالية لأنّه يعبّر عن المشاعر المتناقضة لشخص بسيط شاهد على القمع.

(٣) أُنظر: مجريات السّياسة الاستعماريّة، بإشراف فرانشسكو جيراشي، في مجلّة (جراركيا)، السّنة ١١، عدد١١ نوفمبر ١٩٣١.

يخفي ثقافة ما بعد الاستعمار حتّى السّنوات الأولى للحرب العالميّة الثّانية وما بعدها[1].

شابه التّهجير الجماعي الّذي حدث سنة ١٩٣٠ الهجرات التّوراتيّة وفسح الباب للاستعمار الإستيطاني الّذي توافق على مستوى عال مع الوضع العسكريّ والسّياسيّ والاستغلال الاقتصاديّ مع الاستيطان السّكاني ممّا ضاعف تفشي البطالة في المدن.

خلقت إبادة العرب انقلابًا في الموازين البيئة بشكل خطير إذا أضفنا إليها إبادة الحيوانات الّتي بقيت في زوايا النّسيان رغم الأهميّة الّتي أظهرها منتجو مصانع النّسيج في شمال إيطاليا بأصواف المستعمرة قبل ذلك. لقد فكّك الاستعمار الإيطالي المعضلة البرقاويّة بالقوّة كما فعل مع المعضلة الاجتماعيّة السّكانيّة الّتي تكاد تتطابق وفي بعض الأحيان تتوحّد معها. ثمّة صحافيون من أمثال داريو لسكي (Dario Lischi)، وبعض النّقابيين الرّيفيين القدماء على غرار لويجي راتسا (Luigi Razza) قد انخرطوا في المطالبة بصوت عال بالإعمار الزّراعي في (برقه) الّتي أصبحت مهيّأة لإستقبال السّواعد الإيطاليّة معلنين أنّ علبة الرّمل[2] قد انفتحت كما كان يردّد (سالفيمني) مدّعين اكتشاف مياه جوفيّة[3].

---

(١) في نفس هذه السّنة صدرت كتب إيفان ريتشارد، سنوسيّة برقة، أوكسفورد، ١٩٤٩، الّذي وثّق وأدان العمليّات الحربيّة والإبادة الجماعيّة ما بين ١٩٢٣ و١٩٣٢، ص١٥٧ ـ ١٩٠، وكتاب كورادو زولي، التّوسع الاستعماري الإيطالي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٧، روما، ١٩٤٩، الّذي دافع فيه عن النّظام السّابق وتجاهل بل أخفى الكلفة الّتي تحمّلها العرب في المراحل الأخيرة لإعادة الاحتلال الإيطاليّ وكلّ ذلك كان من أجل إرضاء دار النّشر الّتي تنتمي للفاشيّة الجديدة، ص١٨١ ـ ١٩١.

(٢) علبة الرّمل: هو تعبير أطلقه سالفيميني مشيرًا إلى ليبيا في حملته ضدّ الحرب الاستعماريّة سنة ١٩١١.

(٣) داريو ليسكي، رحلة لصحفي فاشيستي في برقة، بيزا، ١٩٣٤، وماركو بوميلو،=

هذه هي الاتّجاهات الّتي وصلت غاياتها القصوى بفعل مقتضيات الأزمة الاقتصاديّة بعد عشر سنوات من الحكم الفاشيّ: ففي منطقة تعجّ بالعمالة اليدويّة مثل مدينة فرارا كتب نيلو كويلشي (Nello Quilici) وهو مدير صحيفة كوريار بادانو (Corriere Padano) بورجوازي وناطق باسم بالبو (Balbo) ومستشاره أبرز الموضوع التّعميري لسنة ١٩٣٢ وشدّد عليه قائلاً: «وبهذا تبدأ مرحلة جديدة كلّ الجدّة من الاستثمارات الّتي أنشأها بنك روما والاستثمار المحدود للإعمار الزّراعيّ في طرابلس الّذي تمّ الاحتفال بمرور عشرين عامًا على تدشينها»[(١)]، وكذلك أعمال البنية التّحتيّة ذات الطّابع الإمبراطوريّ في الأشغال العامّة وإصلاح الأراضي في عشرينات القرن إذ جلبت اهتمام الطّبقات الهامشيّة من الرّأسماليّة الإيطاليّة فتدخّلت فيها الدّولة بشكل واسع تحت شعارات شعبويّة، فالفاشيّة إلى جانب قضائها على البدو من خلال السّيطرة المباشرة والكاملة على المستعمرة حسب تعبير (غرسياني) فإنّها وضعت كامل أراضي المستعمرة تحت المخطّط الإعماريّ[(٢)].

ولكن ما لبث أن برز التّناقض من داخل العلاقة بين المستعمرة والوطن الأمّ عندما ظهر نقص خطير في الرأس المال المطلوب للإعمار السّكانيّ بسبب كلفته العالية بينما بقي حجم الواردات أعلى بكثير من

=لنفتح علبة الرّمال، روما، ١٩٣٥، مع مقدّمة للويجي راتسا وزير الأشغال العموميّة.

(١) ديليوني، الإعمار الزّراعي في إقليم طرابلس الشّمالي في عشرينيته الأولى، روما، ١٩٣٣.

(٢) جورج روشا، قمع المقاومة العربيّة في برقة في سنتي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، في وثائق محفوظات غرسياني في نشرة حركة التّحرير الإيطاليّة، السّنة ٢٥، رقم ١١٠، يناير ـ مارس ١٩٧٣، ص٣٦ ـ ٣٩. وأنظر كذلك إنزو سانتاريللي، عمر المختار المناضل، في صحيفة (اليونيتا)، عدد ١٦ سبتمبر ١٩٧١.

حجم الصّادرات في المستعمرة[١] وبذلك تلاشى حلم غلاة القوميين بإمكانيّة قيام إيطاليا ما وراء البحار مكتفية ذاتيا ومتكاملة سكانيا مع الاقتصاد الوطنيّ، وفي نهاية هذا السّباق الطّويل لم يبق غير الحنين لتلك اللّحظة المفقودة الّتي كان يتوجّب فيها اتّخاذ قرار إيقاف الإعمار الاستيطانيّ خارج ليبيا[٢] الأمر الّذي تجلّى في صدمة الحرب العالميّة الثّانية حين اتّضح أنّ كلّ التّجهيزات والاستعدادات العسكريّة الدّفاعيّة على الجبهة البرقاويّة كانت غير مناسبة، ومن جهة أخرى فقد بدأت روما تنظر إلى أهداف أخرى بُعيد أحداث سنة ١٩٣١، فقد كانت ليبيا تعني للإمبرياليّة الفاشيّة الخطوة الأولى نحو برنامج أكبر في إفريقيا والبحر المتوسّط ليتحوّل محور التّوسّع إلى شرق إفريقيا بشكل متسارع فكانت مغامرة الشّاطئ الرّابع بكلّ حمولتها الاصطلاحيّة لا ينظر إليها إلاّ في إطار إقامة الإمبراطوريّة[٣].

(١) لمعرفة تكلفة الاستعمار الإيطاليّ في ليبيا من النّاحية الاقتصاديّة يرجع إلى البيانات المقدّمة من (نياغ وسيجري).

(٢) لويجي فيدارزوني، المصدر السّابق، ص١٣٨ (للحفاظ على ليبيا ما كان من المناسب دخول الحرب سنة ١٩٤٠).

(٣) هذه الاتّجاهات العامّة قد عبّرت عنها مجلّة (جيراركيا) في ملحقها الخاصّ، السّنة ١٢، رقم ٧ ـ ٨ يوليو أغسطس ١٩٣٢، وقد خصّص للقضايا الإفريقيّة، (أُنظر: المقال الإفتتاحي بقلم: دي بونو، الأمس واليوم في المستعمرة، من مختارات أشرف عليها أزفيرو غرافيلي، إفريقيا التّوسع الفاشي في إفريقيا وإعادة المقاربة، روما، ١٩٣٣. وكذلك البحث الأكاديمي لنيلو كويلشي بعنوان: أحجية عدوى، فررارا، ١٩٣٢.

- ٧ -

كانت حركة الاستعمار الإيطاليّ لليبيا بالرّغم من تذبذبها المرحليّ تطمح إلى صيغة تصاعديّة من الاستيطان السّكانيّ إلى التّوسع الجيوسياسيّ في البحر المتوسّط، وهذا يعكس التّوق الإمبراطوري المتأخّر للقرن العشرين. فمنذ البداية كان متوقّعًا أنّه لا مفرّ من الوقوع في الفشل الذّريع مثلما تنبّأ بذلك أشخاص مثل (سالفيميني) ولكنّ الحركة الفاشيّة الّتي ظهرت في أعقاب الحرب العالميّة الأولى ولكي تقدّم حلاّ للمعضلة الجديدة يتمثّل في تقوية أركان الدّولة وتحديث المجتمع الإيطاليّ اختارت كحلّ لقضيّة التّحديث الخيار الاستعماري بوضوح كامل وبوسائل قمعيّة لملء أراضي المستعمرات بالمعمّرين الإيطاليين. لا يمكن إثبات أنّ ثمّة برنامج متكامل وشامل منذ البداية لهذه المشكلة ولكنّنا أوضحنا أنّه بهذا المعنى كانت توجد منهجيّة متّبعة ومستمرّة لإكراهات إيديولوجيّة قويّة قد دفعت بدورها إلى الحدّ الأقصى من قبل السّياسة الفاشيّة وما يدلّ عليها في توجّهاتها داخل إيطاليا وخارجها في المستعمرات من خلال التّنظيرات المؤسطرة للسّياسة السّكانيّة الّتي قام بعرضها (موسوليني) في خطابه بمناسبة عيد التقاء العذراء سنة ١٩٢٧ ذاك الخطاب الّذي تشابكت فيه دوافع الأزمة الاقتصاديّة سنة ١٩٢٩ ونبعت منها بشكل عامّ قضيّة إيجاد مخارج للهجرة مع التّطلعات

الإمبراطوريّة للطّبقة الحاكمة[١]، أمّا عن مناهج التّصدي لحرب العصابات ومخطّطات القمع في ليبيا خصوصًا في (برقه) كان المسؤول عنها ذلك المتربّع على هرم السّلطة زعيم الفاشيّة وحكومته، وأمّا الفاعل المباشر فأشخاص مثل (بادوليو)، (غرسياني) اللّذين كانت لهما مهام مزدوجة سياسيّة وعسكريّة وكذلك من ائتمر بأمرهم من المرؤوسين. صحيح أنّ في المحاكمات الّتي قامت لتصفية النّظام الفاشيّ بعد ولادة الجمهوريّة الإيطاليّة من رحم المقاومة فإنّ الجنرال (غرسياني) أحد مرتكبي مذابح أثيوبيا سنة ١٩٣٧ وقد أصبح القائد العامّ لقوات سالو (Salo) الفاشيّة استطاع الإفلات من العقاب بمجرّد ادّعائه الدّفاع عن الوطن[٢].

تمّت مقاربة المشكل اللّيبي في السّياسة الإمبرياليّة الفاشيّة باعتماد المساندة الحاسمة لمؤسّسات الدّولة وبانتهاج دغمائيّة شعبويّة هشّة لمدرسة غلاة القوميين فتعسّفت في استعمال القوّة داخل الوطن الأمّ لمواجهة معضلات غير قابلة للحلّ وفي توسّل تّضحيات مجانيّة عديمة الجدوى في حقّ الأهالي العرب. لا يمكن أن تعزى هذه المخرجات لسبب واحد فحتّى مسؤوليّة النّظام الفاشيّ المتمثّلة في حركات مترادفة ونزعات واتّجاهات متعدّدة قد اندلعت في الثّلاثينيات كانت لها جذور فيما أطلق عليه «الرّبيع الإيطالي» سنوات ١٩١١ ـ ١٩١٢ وحتّى قبل ذلك كما حدث في سنوات دكتاتوريّة الطّبقة الّتي فرضت على إيطاليا من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢٢. وفي كلّ الأحوال فإنّ الإيديولوجيا والإستراتيجيّة

---

(١) كانت طلبات الهجرة إلى ليبيا تربو على ٤٠,٠٠٠ من العائلات الرّيفيّة في انتظار البتّ فيها سنة ١٩٣٩، أنظر: كلاوديو سيرجي، مصدر سبق الإشارة إليه، ص١٦١.

(٢) أُنظر: زارا ألغاردي، محاكمات الفاشيين، فلورنسا، ١٩٥٨، بمقدمة بقلم: فيروتشو باري.

الاستعماريّة الإيطاليّة وعلى الأخصّ في ليبيا قد برهنت على ضحالة ثقافيّة وفكريّة كبيرتين فلم يكن الاهتمام بالتّنوّع العرقيّ والحفريات الأثريّة إلاّ مجرّد انعكاس لأوضاع مصطنعة كما أنّ التّلاقح الثّقافي لما سُمِّى بـ «الشّاطئ الرّابع» لم يُفِد في شيء طوال تجربة الاحتلال الّذي دام ثلاثين عامًا ولم يترك أثرًا يُذكر ومردّ ذلك كلّه هو إنكار الاعتراف بالشّخصيّة والهويّة الوطنيّة للأهالي العرب وإلى الطّريقة الّتي بها تمّ قمع المقاومة حتّى قبل العهد الفاشيّ.

الباب الثّاني:

قمع المقاومة في برقه (١٩٢٧ ـ ١٩٣١)

الكاتب : جورجو روشا (Giorgio Rochat)

I. مصادر البحث وحدوده

يُعتبر الاستعمار الإيطالي بين الحربين العالميّتين من أكبر المواضيع المهملة في التّاريخ الإيطالي المعاصر بالرّغم من تزايد اهتمام الدّراسات بالمرحلة الفاشيّة وبما كانت تمثّله الفتوحات الإفريقيّة في الدعاية للنّظام الدّكتاتوريّ[(١)] وتمجيد سياسته. وبناء على اختيار سياسي واضح، فضّلت المؤسّسات واللّجان والباحثون الّذين كانت من مهامهم الرّسميّة الاهتمام بهذه القضايا، الاعتناء بتاريخ الاستعمار الإيطاليّ في القرن التّاسع عشر الّذي يعتبر بعيدًا ومنسيًا[(٢)]. ثمّ إنّ أرشيف وزارة إفريقيا الإيطاليّة التي تمّ حلّها، أصبح ضمن الأرشيف التّاريخيّ لوزارة الخارجيّة، ووُضعت لمن يحاول مراجعة المصادر قيود مشدّدة. واختارت اللّجنة المخوّل لها توثيق الأحداث الإيطاليّة في إفريقيا وتصنيفها (أسّستها الحكومة الإيطاليّة في

---

(١) للحصول على قائمة المصادر بشكل عام أُنظر كارلو جيليو، الدّراسات التّاريخيّة الإيطالية المتعلّقة بإفريقيا من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٧ أ أ ف ف منهج كتابة التّاريخ الإيطالي في العشرين السّنة الأخيرة، أعمال المؤتمر الوطني الأول للعلوم التّاريخيّة الجزء الثّاني من ص١٣١١ إلى ١٣٢٨، ميلانو، ١٩٧٠. وكذلك جورج روشا، الاستعمار، في أ أ ف ف العالم المعاصر، الجزء الأول تاريخ إيطاليا، المجلّد الأوّل، من ص١٠٧إلى ص١٢٠، فلورنس إيطاليا الجديدة، ١٩٧٨. وأُنظر كذلك روجيرو رومانو، المنهج الإيطالي لكتابة التّاريخ اليوم، روما كتب مجلّة الإسبريسو ١٩٧٨.

(٢) الاستعمار الإيطالي البعيد الذي يقصده الكاتب هو الاستعمار الإيطالي لمنطقة القرن الإفريقي الذي حدث في القرن التاسع عشر وبالتحديد بين سنة ١٨٧٠ و١٨٩٧.

يناير ١٩٥٢ ميلادي وضمّت مسؤولين من الوسط الاستعماري القديم)، كذلك أن تصرف الانتباه عن المرحلة الفاشيّة وإعطاء الأولويّة لتدوين السّيرة التّمجيديّة والدّراسات المنحازة والدّفاع اللاّمحدود عن وجهة النّظر الدّعائيّة للنّظام الدّكتاتوريّ دون أدنى جهد نقدي تاريخي أو وثائقي[١].

نتيجة لهذا التّوجه السّياسيّ الثّقافيّ أصبحت الدّراسات المتوفّرة عن الغزو الإيطالي لليبيا (في فترة الحرب مع تركيا ١٩١١ ـ ١٩١٢ ومازال ينتج إسهامات قيّمة لعدم ارتباطه بالاستعمار التّقليديّ)[٢] متأتية بشكل أساسي من الدّعاية الفاشيّة لسنوات الثّلاثينات وما بعد الحرب[٣].

---

(١) يكفي التّدليل على ذلك بالنّظر إلى مجلّدات سلسلة التّاريخ العسكري من باقة (إيطاليا في إفريقيا) والّتي صدرت من اللّجنة المذكورة سابقًا وكانت معنيّة بالعمليات في ليبيا بين الحربين العالميتين وأعني ماسيمو أدولفو فيتالي (عمليات الجيش)، المجلّد الأوّل، الأوامر العسكريّة والتّجنيد، روما، طبعة الدّولة، ١٩٦٠. المجلّد الثّالث (المجريات العسكريّة والتّوظيف في إفريقيا الشماليّة)، ١٩٦٤، وفينشينسو لوي (عمليات سلاح الطّيران)، المجلّد الأوّل، إرتريا وليبيا، ١٩٦٤، هذه المجلّدات تبرّر بشكل كامل ما قامت به إيطاليا والسّير في نفس نهج الدّعاية الإيطالية ودون أي تحفّظ جوهري كما تستعمل إلاّ جزءًا يسيرًا من الوثائق المسحوبة، وفي بعض الأحيان تعرض بكثير من التّفصيل كما هو الحال عند (لوي) ولكنّها في المجمل مخيّبة للآمال ولا يمكن الإعتداد بها.

(٢) أُنظر باولو مالتيزي، الأرض الموعودة الحرب الإيطالية التّركيّة واحتلال ليبيا ١٩١١ ـ ١٩١٢، ميلانو سوقار، ١٩٦٨، وكذلك فرانشيسكو مالجيري، الحرب اللّيبيّة ١٩١١ ـ ١٩١٢، روما، نشر الأعمال التّاريخيّة والأدبيّة، ١٩٧٠، وسيرجيو رومانو، الشّاطئ الرّابع الحرب اللّيبيّة ١٩١١ ـ ١٩١٢، ميلانو بومبيوني، ١٩٧٧.

(٣) نذكر على الأخصّ رودولف غرسياني، برقه المهدّأة، ميلانو موندادوري، ١٩٣٣، وقد نقل ما جاء فيه في كتابه التّالي السّلام الرّوماني في ليبيا، ١٩٣٧، وكتابه ليبيا المحرّرة، نابولي، ١٩٤٨، وآتيليو تيرروتسي، برقه الخضراء سنتين من الحكم ديسمبر ١٩٢٦ يناير ١٩٢٩، مع مقدمة لبينيتو موسوليني ميلانو موندادوري، ١٩٣١،=

وحتّى أفضل هذه الدّراسات تقدّم سوء فهم تامّ للمجتمع البرقاويّ ولمقاومته الطّويلة للاحتلال الإيطاليّ، بل تعبّر عن احتقار عميق له، وتطوّع بكلّ وضوح المصادر التّوثيقيّة للمتطلّبات الدّعائيّة. ولكن من بين الدّراسات الّتي لا ترتبط بهذا التّوجّه، نذكر كتاب إيفانز بريتشار (Evans - Pritchard) عن السّنوسيّة، وكذلك العمل الّذي قام به سيغري (Segré) عن الاستعمار الإيطاليّ وبعض المساهمات لشخصيات مسؤولة في الغزو الإيطاليّ[1]. ثمّ إنّ أوّل دراسة نوعيّة عن الأعمال القمعيّة في برقه هو

=وأوتورينو مينزاتي، حرب فيليبيا تجارب وذكريات روما ١٩٣٣ وكارلو جيليو، الأخويّة السّنوسيّة منذ نشأتها حتّى اليوم، قام بالتّقديم له رودولف غرسياني، بادوفا، ١٩٣٢، وأوغستينو جاييبي، تاريخ المستعمرات الإيطاليّة، تورينو، ١٩٣٤، والنّادي السّياحي الإيطالي ليبيا ميلانو، ١٩٣٧، ورافايلو شاكا، التّاريخ الاستعماري المعاصر، ميلانو، ١٩٣٨، الطّبعة الثّانية، ١٩٤٠، وألسندرو أوزيليو، السّياسيّة الإيطاليّة في ليبيا، روما، ١٩٣٩. وإيميليو كانفاري، الحرب الإيطاليّة خلفيات الهزيمة، روما، ١٩٤٨. وإنريكو دي ليوني، استعمار شمال إفريقيا، بادوفا، ١٩٦٠. وفرانشيسكو فالوني، تاريخ برقه، فلورنسا، ١٩٦١.

(١) إيفانز بريتشارد، السنوسيو ليبيا، أكسفورد، ١٩٤٨، ترجم إلى الإيطاليّة تحت عنوان، (الاستعمار والمقاومة الدّينيّة في إفريقبا الشّماليّة/ السّنوسيون في برقه) بتقديم فيكتوريو لانترناتي، كاتانيا، ١٩٧٩. وج.ل. ميني الإمبرياليّة الاستعماريّة الإيطاليّة من سنة ١٨٧٠ حتّى يومنا هذا، باريس، ١٩٦٨، التّرجمة الإيطاليّة، ميلانو، ١٩٧٩. وجورج روشا، الاستعمار الإيطالي في ليبيا، مطابع جامعة شيكاغو، ١٩٧٤. وكان عنوان التّرجمة الإيطاليّة (إيطاليا في ليبيا منذ عهد جوليتي حتّى عهد القذافي) بتقديم جورج روشا، ١٩٧٨. وبيروباري جورج روشا بيترو بادوليو، تورينو، ١٩٧٤. سيرجيو رومانو (جوزيبي فولبي) ميلاني ١٩٧٩. وتجدر الإشارة خاصّة إلى المقالات في (الوضع العمّالي) ليبريتو لونغو (سنتين من الحرب الاستعماريّة الفاشيّة ١٩٢٩)، عدد ١١، ص٦٧٨ ـ ٦٨٣، وكذلك إيجيديو جيناري من أجل الوعي الاستعماري للبروليتاريا، ١٩٣٥، الأعداد ١و٣، ص٢٤ ـ ٣٣ وص ٢٠٥ ـ ٢٠٩ وهي تشهد بوضوح على إدانة الحركة الشّيوعيّة للاستعمار الفاشي ومذابحه.

مقالي الصادر سنة ١٩٧٣ والذي كان يعتمد جوهريا أوراق الأرشيف الشّخصيّ للجنرال (غرسياني) المحفوظ في الأرشيف المركزي في روما والمسموح للدّارسين المستقلّين الاطلاع عليه، بينما كان أرشيف وزارة إيطاليا الإفريقيّة المنحلّة لا يستطيع الاطلاع عليه إلاّ الدّارسون المرتبطون بالمحيط الاستعماريّ القديم[١].

وفي السنوات الأخيرة، أصبحت حرية النفاذ لأرشيف الوزارات عمليّة أيسر، ولذلك فإنّ بحثي هذا يختلف عمّا كتبته سنة ١٩٧٣ لأنّه كان نتيجة الاطلاع على ثلاثة أرشيفات إلى جانب السّيرة الذّاتيّة الّتي في الفهرس. ويجب أن نذكّر في المقام الأوّل أنّ الأرشيف الشّخصي لغرسياني الّذي أشرنا إليه فيما سبق ويحتوي سبعة أضابير من المستندات الّتي تمّ تصنيفها من الجنرال نفسه، تعكس انشغاله بألاّ يرجع إليه الشرف الأساسيّ في قمع المقاومة البرقاويّة والذي تجلّى بوضوح في كتابه سنة ١٩٣٢ (برقه المهدّأة)[٢].

ونشير في المقام الثّاني إلى الأرشيف التّاريخي للمكتب العسكريّ والّذي فتح دون قيود، وهو أرشيف منظّم تنظيمًا نموذجيًا وكان غنيًا بالمعلومات عن الحرب الإيطالية التّركيّة (١٩١١ ـ ١٩١٢) التّي كانت تحت القيادة العليا للجيش. ولكن في السّنوات اللاّحقة، وبعد ما انتقلت

---

(١) جورج روشا، قمع المقاومة العربيّة في برقه (١٩٣٠ ـ ١٩٣١)، في وثائق أرشيف غرسياني في (حركة التّحرير في إيطاليا)، ١٩٧٣، عدد١١٠، من ص٣ إلى ص٣٩ وسوف نشير إليه من الآن فصاعدًا روشا دون أي تفصيل.

(٢) سنشير من الآن فصاعدًا إلى قسم (محفوظات غرسياني) في الأرشيف المركزي للدولة بالحروف م. م. د.غ متبوعة برقمين أو ثلاثة تدلّ على الحافظة والملف الفرعيّ إن وجد وتتميّز بالفائدة أحيانًا ملفات أمانة سرّ موسوليني الخاصّة وهي محفوظة في الأرشيف المركزيّ للدّولة وسوف نرمز إليها من الآن فصاعدًا ر.م.د.س.خ متبوعة بالإشارة إلى الملف.

قيادة العمليات إلى وزارة المستعمرات، أخذت هذه المعلومات تتناقص. إلاّ أنّها تبقى ذات أهميّة نظرًا لأنّ رئاسة الأركان كانت تنساب إليها المعلومات عن عمليات القمع العسكريّة[١].

ونشير في المقام الثّالث إلى أرشيف وزارة إفريقيا الإيطاليّة المنحلّة، المحفوظ في وزارة الخارجيّة إذ يعتبر المصدر الأساسي لأي بحث يتناول الاستعمار الإيطالي. ولكن للأسف، أصبح هذا الأرشيف أقلّ أهميّة بسبب سماح اللّجنة المخوّل لها توثيق العمليات الإيطاليّة في إفريقيا في الخمسينات، للموظّفين المناط بهم إعداد الملفّات، بأخذ الوثائق الأكثر أهميّة إلى منازلهم في خرق فاضح للقواعد المتعارف عليها في المحافظة على الأرشيف، بالرّغم من وجود مؤرّخين كبار في هذه اللّجنة من أمثال شاكا (Ciasca) وجيليو (Giglio) وتوسكانو (Toscano) وبعد أن سُمح، في السّنوات الأخيرة للباحثين المستقلّين الاطلاع على سلسلة الوثائق، وجدوا أنّ أكثرها أهميّة قد سحبت من هذه الملفّات التّي أعدّت لسلسلة وثائقيّة تحت عنوان (إيطاليا في إفريقيا)[٢]. وحتّى عندما تمّت إعادة هذه الوثائق للأرشيف لم يعد بالإمكان إرجاعها إلى الملفّات الّتي سحبت منها أو وضعها في متناول الباحثين[٣]. وهذا الخرق

---

(١) وسنشير إلى المحفظة اللّيبيّة بأرشيف المكتب التّاريخي للجيش بالرّمز الآتي (أ.م.ت.ج) متبوع برقمين يشيران إلى الإضبارة والملف وبهذه المناسبة نشكر الجنرال رينالدو كروكو مدير المكتب التّاريخي ومساعديه الّذين سهّلوا لنا أبحاثنا بكلّ الوسائل.

(٢) يكفي مثالا على ذلك مجلّدات (فيتالي) حول أحداث الجيش الّتي سحبت مصنّفاتها بأعداد كبيرة من الوثائق ولم تستخدم إلاّ في جزء قليل منها.

(٣) وقد زاد من خطورة العمى السّياسي للجنة المكلّفة بالوثائق المختصّة بمجريات الأحداث الإيطاليّة في إفريقيا رفض وزارة الخارجيّة مدّها بالوسائل والأشخاص المناسبين، باعتبار هذه الأخيرة هي من عهد إليها أرشيف وزارة إفريقيا الإيطاليّة المنحلّة ونشكر الدّكتور ماريو كاتسيني الّذي بذل كلّ ما يمكن من جهد في وضع=

الإجرائي الّذي اعتور عمل اللّجنة يجعل من غير الممكن تقييم كميّة الأضرار الّتي ألحقت بالأرشيف. ومن خلال أبحاثنا وضمن عمليات المقابلة والمقارنة مع بقيّة الأرشيف، تبيّن لنا أنّ انتزاع الوثائق الّذي حدث نتيجة انعدام خبرة أعضاء اللّجنة، كان أقلّ كارثيّة بفضل وفرة الوثائق وغناها رغم ما أصاب الأرشيف من تراجع في قيمته بسبب هذا النّقصان الكبير في الوثائق(١). والملاحظ أنّ برقه لا تحظى، في كلّ المحفوظات الّتي اطّلعنا عليها، بنفس المساحة الّتي نالتها طرابلس. وقد انصبّ جلّ الاهتمام على مرحلة العشرينات. وقد تمّت، بكلّ وضوح، الرّقابة الذّاتيّة الجماعيّة على الأعمال المشينة الّتي حصلت في معسكرات الاعتقال الّتي ضمّت سكان جبل برقه سنة ١٩٣٠، وهذا ما تبرهن عليه قلّة الوثائق المحفوظة. ولذلك فإنّ محاولتنا إعادة فهم تلك المرحلة لا يمكن أن تكون نهائيّة، رغم أنّها الأكثر توثيقًا واتّساعًا. وسنكتفي في بحثنا هذا بتناول العمليّات العسكريّة الإيطالية في الجبل البرقاويّ بين أعوام (١٩٢٧ ـ ١٩٣١)، دون التّعرض للعمليّات الّتي تمّت في إقليم

=الوثائق المسحوبة من اللّجنة تحت تصرّفنا وبرغم كفاءته الكبيرة لم يكن قادر على العثور على الوثائق الّتي سحبها (فيتالي).

(١) سوف نشير إلى هذا الأرشيف بـ(أ.و.ف.ط) وتتبّعها ثلاثة أرقام تدلّ بالتّسلسل على موضعها ورقم الحافظة ورقم الملف وكمصدر رابع كان علينا أن نشير إلى محفوظات وزارة الخارجيّة الّتي رغم اعتبارها ثانويّة إلاّ أنّه لا يمكن إهمالها في بحثنا فبعد إغلاقها لعشرات السنين في وجه المؤرّخين المستقلّين مع محفوظات وزارة إفريقيا الإيطاليّة الّتي تمّ الإشارة إليه فقد تمّ مؤخّرًا فتحها للفاحص والدّراسة ولكن بعراقيل ربّما وضعت عن عمد حتّى تثني تدفّق الباحثين من الخارج. ونشير هنا إلى عدم وجود الآلة النّسخ وحتّى المقاعد والمناضد كانت بأعداد غير مناسبة ممّا دفع القائمين عليها قليلي العدد إلى منع المراجعة من باحثين قدموا من أماكن بعيدة مثلما حدث لي شخصيا إنّ فتح هذه الأرشيفات ذات الأهميّة الخطيرة وعدم وجود أبسط الوسائل والتّجهيزات سوف يحدّ من فحصها بشكل كبير وهذا ما دفعني إلى التّخلي عن مراجعتها.

طرابلس أو احتلال الأقاليم شبه الصّحراويّة جنوب الجبل (الواحات الّتي تقع على خطّ العرض ٢٩ درجة) وكذلك بتحليل الأسباب العميقة للمقاومة السّنوسيّة والمسائل الدّاخليّة للقبائل البرقاويّة بسبب ضيق مساحة البحث وقلّة الوثائق في هذ الشّأن. أمّا عن نقل الأسماء العربيّة بالحروف اللاّتينيّة فقد أثارت بعض الإشكالات الّتي حاولنا التّغلّب عليها باتّباع القواعد المعمول بها. واعتمدنا في وسم الأماكن والقبائل الأسماء الأكثر شيوعًا في الوثائق القديمة موحّدين في هذا الصّدد بين الوثائق المتاحة. ووضعنا في الفهرس جدولا توافقيا بين الكتابة الإيطاليّة في تلك الفترة والكتابة المعاصرة للأسماء الأكثر ورودًا في النّص.

II. العمليّات في الجبل الأخضر حتّى عام ١٩٢٨

١ ـ العمليّات من سنة ١٩٢٣إلى ١٩٢٦

حتّى بداية سنة ١٩٢٣، كانت العلاقات بين الدّولة الإيطاليّة والسّنوسيّة محكومة بمعاهدات (عكرمة، الرّجمة، بومريم) والّتي تقضي بترك الموانئ والسّهول المحاذية لها للإيطاليين، كما كان الحال مع الأتراك، بينما تتحكّم السّنوسيّة في الدّواخل. ولكن بوصول الفاشيين للحكم انقلب هذا الاتجاه على الفور. فقام الجنرال بونجوفاني (Bongiovanni) حاكم برقه الجديد بهجوم مباغت على السّنوسيين في ٦ مارس ١٩٢٣ معطيا بذلك إشارة البداية لعمليات احتلال برقه[١].

كانت تحت إمرة الجنرال (بونجوفاني) ٤ كتائب إيطاليّة مخصّصة لحماية المواقع، و٥ كتائب إرتريّة، وكتيبتان ليبيتان بقوّة إجماليّة تبلغ حوالي ٨٠٠٠ أو ٨٥٠٠ من المشاة. وله كذلك وحدتا سفاري (من الفرسان اللّيبيين) وبطّاريتان جبليتان محمولتان على الدّواب ووحدتان

---

(١) الدّعاية الإيطاليّة تحدّثت عن إعادة الاحتلال وفي الواقع لم يكن هذا الوصف ينطبق على إقليم طرابلس الّذي تمكّنت القوات الإيطالية من احتلاله حتّى وصلت إلى إقليم فزّان ١٩١٣ ـ ١٩١٤ كما أنّ هذا الأمر لا ينطبق على برقه الّتي بقت دواخلها في يد السّنوسيين تلك المنظمة السّياسيّة الدّينيّة الّتي تمثّل سلطة الواقع للدّولة في منطقة الجبل والمناطق شبه الصّحراويّة البرقاويّة.

مدفعيتان للعمليّات ضدّ التّحصينات ووحدتان هندسيتان وسربان من الطائرات مع ٤ قاذفات كابروني (Caproni) و٨ طائرات استكشاف من طراز سفا (Sva) ومجموعة من الشّاحنات موزّعة على ١٢ مجموعة. أمّا القوّات السّنوسيّة فكان عمادها حوالي ٢٠٠٠ من المسلّحين النّظاميين متمركزين فيما كان يسمّى (النّجوع) المختلطة وبين ٣٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ مسلّح غير نظامي داخل قبائل الجبل[١].

حقّق هجوم الجنرال بونجوفاني بعض النّجاحات الأوليّة من بينها تفكيك النّجوع المختلطة[٢] والاحتلال المؤقّت لمدينة أجدابيا.

وفي شهر يونيو، استطاعت القوّات الإيطاليّة أن تفرض رقابتها على جزء من الجبل بالقرب من المرج، وإخضاع أوّل مجموعة بشريّة تقارب العشرين ألف نسمة غير أنّ قبائل «المغاربة» استطاعت هزيمة الإيطاليين في موقعتين في منطقة «سِرت» وكانت خسائر الإيطاليين ١٣ ضابطًا و٤٠ جنديًا إيطاليًا و٢٧٩ من العسكر[٣].

---

(١) هذه البيانات وكلّ البيانات اللاّحقة متأتية من تقارير مكتوبة على آلة كاتبة بعنوان (عشر سنوات من تاريخ برقه) أعدّها النّقيب (كلمينتيمانزيو) بتكليف من قيادة القوّات المسلّحة في برقه ويحتوي على ٢٠٠ صفحة مؤرّخة في ١٩٣١/١٢/٢٥ ومحفوظة في (ر.م.د.غ) ٣/٥ وسنشير إليها بعنوانها فيما بعد هذه البيانات نفسها هي ما نقله (بريتشارد) المصدر السّابق ذكره ص١٥٩ ودون ذكر مصدرها وهي مطابقة لتقرير (منزيو) رغم استفادته منه بشكل كبير في السّنوات اللاّحقة، ويجب أن نتذكّر أنّ جميع الأرقام الّتي أفصحت عنها القيادة الإيطاليّة حول حجم القوّات السّنوسيّة وخسائرها يجب أن نقبلها مع التّحفظ وأنّ الكتائب الإرتريّة واللّيبيّة الّتي يتراوح أعدادها في حدود ٧٥٠ شخص كانت تتألّف من متطوعين إرتريين وعدد من الرّعايا الأثيوبيين تحت إشراف ضبّاط إيطاليين.

(٢) بالرّغم من عنصر المباغتة كانت الخسائر السّنوسيّة محدودة ١٢ قتيلاً ١٦٨ أسيرًا ١٩٨ بندقيّة غنيمة هذا يعني أنّ كلّ المسلّحين تمكّنوا من الإفلات من الهجوم الإيطاليّ (عشر سنوات من تاريخ برقه)، سبق ذكره.

(٣) عشر سنوات من تاريخ برقه، سبق ذكره.

وخلال تلك السّنة، ومن أجل نشر الهيمنة الإيطاليّة، تمّ التّخطيط لتقسيم «برقه» بين القبائل المستقرّة بجوار المدن (العواقير الشّماليين/ العرفه/ الحاسه/ جزء من قبائل الدرسه والعبيدات) والقبائل المحاربة في الجبل والمناطق الجنوبيّة شبه الصّحراويّة (قبائل المغاربة والعواقير الجنوبيين والبراعصه والعبيد والفوايد وجزء من قبائل الدرسه والعبيدات)[1]. ولم يكن من الممكن وضع هذه التّقسيمات الحدوديّة على أرض الواقع لأنّ سلطة السّنوسيّة تمتدّ على القبائل الّتي وضعت شكليا تحت الاستسلام.

وفي ربيع سنة ١٩٢٤، تواصلت الحملة الإيطاليّة على الجبل بمجموعة من العمليّات، غير أنّها كانت تطال في الغالب المدنيين ولم تستطع أن تنال من (أدوار) عمر المختار. وحسب الأرقام الرّسميّة الإيطالية فقد قُتل حوالي ٦٠٠ رجل، ونفق ٢٥,٠٠٠ رأس من الماشية ولم يتمّ وضع اليد إلاّ على ٩٧ بندقيّة. ثمّ دُعمت القوّات الإيطاليّة بسلسلة من المراكز العسكريّة الثّابتة ولكنّها رغم ذلك لم تتمكّن من عرقلة تحرّكات المتمرّدين بشكل جديّ.

في ربيع ١٩٢٥ استهدف الهجوم الإيطالي بشكل مباشر وأساسي حافة الجبل الجنوبيّة ما أسفر عن ٢٥٠ قتيلاً وأبيد ٥٠٠٠ جمل و١٠,٠٠٠ من البقر ولم يحصلوا إلاّ على ٥٠ بندقيّة التقطت من على أرض المعركة. وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد أنّ القوّات الإيطاليّة، حتّى في هذه المرّة لم تنل من دور عمر المختار وإنّما دفع الثّمن المدنيون وحدهم.

وفي ١٩٢٦، احتلّت القوّات الإيطالية واحة الجغبوب (هذه العمليّة

---

(١) إيفانز بريتشارد، المصدر السّابق، ص٦٠ و ١٥٩.

أظهرت القدرة الإيطاليّة على التّحرك والقتال في المناطق الصّحراويّة بفضل استخدام الوسائل العصريّة مثل الطّائرات والرّاديو والشّاحنات) وقامت بحملة تمشيط أخرى في الجبل خسر فيها المتمرّدون ٥٠٠ رجلاً و١٠٠ حصان و٢٣٠٠ جمل وأكثر من ٣٠,٠٠٠ من الماشيّة (هذا حسب التّقديرات الإيطالية الرّسميّة) وخسر الإيطاليون ٣ ضبّاط و٢٥ جنديا إيطاليا و٢٤ من العسكر[١].

ففي أربع سنوات من الحرب خسرت القبائل ١٥٠٠ شخصًا وما بين ٩٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ رأس من الماشيّة، حسب الإحصاءات الإيطاليّة. ولكنّ هذه القبائل استطاعت أن تحتفظ بسلطتها في المرتفعات والمناطق الخلفيّة شبه الصّحراويّة وكذلك على فعاليّتها القتاليّة الّتي برهنت عليها في ٢٨ مارس ١٩٢٧ عندما دمّرت في كمين في منطقة (الرّحيبه) الكتيبة السّابعة اللّيبيّة الّتي كانت تتكوّن من ٧٥٠ عسكريا سقط منهم ٣٠٠ قتيل. وقد قدّم الجنرال ماتزيتي (Mezzetti) وصفًا دقيقًا لذلك الوضع فكتب:

«في مارس ١٩٢٧، حصل الثّوار على انتصار عسكري حاسم ضدّ قوّاتنا. وكان عددهم يقدّر بأكثر من ١٢٠٠المشاة و٤٠٠ من الفرسان ينتمون إلى ثلاث محلاّت كبيرة تسيطر على قلب الجبل، وهي على تواصل فيما بينها وكانت على تماس مباشر بخطوطنا في مناطق (مراوة) و(الجراري) و(خولان) و(جردس العبيد). هذا المخفر الأخير كانت تسيطر عليه قوّة إيطاليّة صغيرة بسبب ضآلة أهميّة المحيط الّذي يقع فيه. وحتّى الآن فإنّ خطوطنا لا تمرّ إلاّ بمنطقة (المرج) في السّهل وليس على المرتفعات ويستند هذا الخطّ على منطقة (الأبيار). خلف خطوطهم

---

(١) كل هذه الأرقام متأتيّة من تقرير (عشر سنوات من تاريخ برقه) وننوه إلى أن كلمة الدّور وتجمع أدوار هي تشكيلات مسلحة للمتمردين ويتألف كل دور من بضع مئات من الرّجال.

المتقدّمة المشكّلة من عدد قليل من الحراس والمستند على قوّة مسلّحة ضاربة خلفهم من الثّوار الّذين يعيشون في الخيام مع عائلاتهم وثروتهم الضّخمة من المواشي وقطعان الإبل يزرعون ويحصدون باطمئنان مستندين بكلّ أريحيّة على مصادر المياه الّتي تحفّ بأطراف خطّ احتلالنا الهامشيّة وفي الجنوب على المسارب الّتي تحاذي الزّاوية.

ولكنّ الأخطر كان في منطقة (الكوف) وفي المنطقة الموجودة ما بين (طليمة والحنيه) حيث قام تنظيم الثّوار بإنشاء قاعدة لاحتياجاتهم اللّوجستيّة في الغذاء والمواشي ومكان لنقاهة جرحاه، وكان أحد المراكز الأكثر نشاطًا في جمع الأعشار ومجموعة من المخافر (قراقول) مستعدًا، من خلال الجبل وربطها بين (المحلات) و(الشّاطئ) في (بير قندولة) و(السّيرة) و(قصر بن قدم)، أن تشقّ إلى نصفين قوّات الاحتلال.

أمّا رجال (القراقول) المسلّحين والقوّات الموجودة في (الكوف) وكلّ قوّات الثّوار المستنفرة في الجبل فقد هبط عددها إلى حوالي ٢٠٠٠ مسلح.

يعتبر الثوار وادي الكوف منطقة آمنة، لأنّ القوّات الإيطاليّة لم تندفع أبدًا في عملياتها أبعد من الحصون، أو لنقل أبعد من حافّة قمة الجبل الّذي ينحدر من الكوف إلى البحر. فيعتبرون أنفسهم في أمان عن المناطق الأخرى إلى حدّ كبير، لعلمهم من خلال التّجربة، أنّ القوات الإيطاليّة، لأسباب تنظيميّة على الأرض ولتّجهيزات اللّوجستيّة الخاطئة، لا يمكنها أن تتقدّم في الغالب أبعد من مسيرة يوم ونصف. كما أنّ نظام الأمان لديهم يمكّنهم من الانسحاب في الوقت المناسب دون التّعرض لخسائر كبيرة، بحيث لا تستطيع قوّاتنا الإمساك بغير من يقع في أيدينا من ذيل القافلة أو بقطيع مواش اقترب من خطوطنا خطأ بسبب البحث عن الكلأ»[1].

---

(١) من الجنرال ماتزيتي قائد قوّات برقه إلى حكومة برقه بتاريخ ١ ديسمبر ١٩٢٨ وهو=

٢ ـ الهجوم الإيطالي في صيف ١٩٢٧

إنّ فشل العمليّات الإيطاليّة في احتلال برقه، كان قد جعل استنباط أسباب النّجاح الّذي حقّقته قوّات الاحتلال في إقليم طرابلس في نفس الفترة، أكثر وضوحا، حيث استطاع الاحتلال أن يستفيد من عجز القبائل البدويّة وشبه البدويّة في الغرب اللّيبي عن تخطّى نزاعاتها التّقليديّة من أجل تأسيس جبهة دفاع موحّدة.

في نوفمبر ١٩٢٦، أُستبدل الجنرال مومبالي (Mombelli) الّذي خلف الجنرال (بونجوفاني) كحاكم لإقليم برقه في مايو ١٩٢٤، بآتيليو تيرروتسي (Attilio Teruzzi)، أحد العناصر القياديّة ذات الأهميّة الخاصّة في الحزب الفاشي. وبعده بقليل تمّ تعيين الجنرال أوتورينو ميتزيتي (Ottorino Mezzetti) ليسانده كقائد للجيش، وهذا الجنرال كان القائد الأساسي للعمليّات في إقليم طرابلس بعد الجنرال غرسياني. كان الهدف الّذي أسند لهما تحقيقُه هو إخضاع الجبل الأخضر. ولهذا السّبب وضعت تحت إمرتهما قوّة متحرّكة كبيرة تتكوّن من تسع كتائب إريتريّة وكتيبتين ليبيّتين وأربع وحدات سفاري (فرسان ليبيين) ووحدة من المهاري ووحدة من المصفّحات إلى جانب زمرة أخرى غير نظاميّة، أي كلمة (المحله) تسمية أخرى تستعمل للدّلالة على التّشكيلات المسلّحة العربيّة ولكن في الجبل كانت كلمة (الدّور) هي التّسمية المعتادة، أمّا كلمة (الكاراكول) فهي الوحدة الأصغر في هذه التّشكيلات المسلّحة.

=تقرير ضخم محفوظ في (أ.م.ت.ج ١٧٥/٦)، احتوى كشف حساب عامين من عمله كقائد للقوّات العاملة في برقه مدافعًا عن خياراته السّياسيّة والعسكريّة، ويجب أن نأخذ في الاعتبار أنّ هذا التّقرير مثله مثل التّقارير اللاّحقة لبادوليو وغرسياني ينزع في المقام الأوّل إلى الإشادة بعمل واضعه ولذلك يضع كلّ المعطيات السّلبيّة للفترة الّتي سبقت استلامه لمنصبه كقائد عسكري وكلّ تلك الإيجابيات في لحظة تركه لمنصبه مع وضعه في الاعتبار المصالح الإيطاليّة بكلّ تأكيد.

أكثر من ١٠,٠٠٠ مسلّح في مجملها، ودون احتساب المجموعات المتمركزة في المدن الّتي تمّ استسلامها والّتي في العادة تعهد للعسكريين الإيطاليين، وإلى جانب هذه القوّة ثمّة قوّة جويّة تضمّ أكثر من عشرين طائرة. ولمواجهة هذه القوّة تتكوّن قوة الثّوار الواقعة تحت إمرة عمر المختار، من أدوار العبيد والبراعصه والحاسه والعبيدات متّحدين وهي متمركزة في وادي سمالوس وتقدّر بحوالي ١٥٠٠ مسلح منهم ٤٠٠ من الخيّالة و٣٥٠ مسلّحًا من الدرسه في منطقة الكوف[١].

ويمكن الاطلاع على تفاصيل هذه الروايات عن العملّيات من وجهة النّظر الإيطالية، في الصّفحات الّتي أشرنا إليها للجنرال ميتزيتي. إنّ ما يهمّنا في المقام الأوّل هو توضيح القدرة الكبيرة في إدارة العلميات العسكريّة الإيطاليّة. فبفضل الطّيران واستعمال الرّاديو، تمكّن الجنرال ميتزيتي من التّنسيق المركزيّ بين محاور القتال المتعدّدة (كتائب الإريتريين واللّيبيين على الجبل ووحدات المهاري والشّاحنات والمصفّحات في المنطقة شبه الصّحراويّة في الجنوب). كما لا ننسى أنّ المحاربين في صفوف الإيطاليين كان لهم ما يكفيهم من الماء لمدّة خمسة أيّام ومن الطعام لمدّة سبعة أيّام. وهذا التّفوق السّاحق للقوّات

---

(١) انظر قيادة قوّات برقه الجنرال ميتزيتي العمليّات الصيفيّة في الجبال البرقاويّة من ٨ يوليو إلى ١٣ سبتمبر ١٩٢٧ تقرير مختصر وهو ملف يتكوّن من ١٥ صفحة دون تاريخ غير أنّه قد يكون مكتوبًا في سنة ١٩٢٧ محفوظ في أ.م.ت.ج ١٥٦/٥ وقد نقله ميتزيتي بإفاضة في العمل الّذي سبقت الإشارة إليه ص١٥٣، انظر كذلك (ليبوي) المصدر السّابق من ص١١٦ إلى ص١٢٠ ولإعادة ربط أحداث سنتي ١٩٢٧ و١٩٢٨ تعد ملفات (توروتسيوميزيتي) السّابق ذكرها في غاية الأهميّة ولكن يجب الأخذ في الاعتبار أنّ كلا المؤلفين قد كتبا ما كتباه من أجل ردّ جل النّجاحات الّتي تحقّقت في سحق التّمرد الّذي تابعه غرسياني فيما بعد سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، لنفسيهما ولذلك فإنّ مصداقيتهما تتضاءل بسبب تضخيم ما قاما به وهذا ينطبق على غرسياني كذلك.

المتحرّكة والقرار الحاسم لاستعمالها وكذلك الحضور الفعّال للطّيران الإيطاليّ كانت مؤشرًا لتحوّل كبير في العمليات. أمّا (أدوار) عمر المختار الّذي قبل المواجهة، فقد تقهقرت وتشتّت بعد اقتحام حصنها المنيع في الكوف وإن أسفر هذا الاقتحام عن خسائر خفيفة نسبيا. وما بين شهري يوليو وسبتمبر استمرّت حملات التّمشيط في الجبل من قبل المجموعات المتحرّكة للجنرال (ميتزيتي).

كانت خسائر الثّوار جسيمة منها ١٣٠٠ قتيلاً و٢٥٠ بين امرأة وطفل وقعوا في الأسر[١] و٣٠٠٠ من الإبل أُبيدت و٨٥٠ منها غُنمت وقُضي على ٥٠٠٠ من الماشيّة وغُنِمَ ١٨٠٠٠ منها. وفي المقابل لم تحصّل القوّات الإيطاليّة إلاّ ٢٦٩ بندقيّة و٢٦ جوادًا، وهذا يعني (وهو العنصر الثّاني الّذي يجب أن نضعه في الاعتبار) أنّ القوّة الكبيرة لعمر المختار استطاعت أن تفلت مثل كلّ مرّة، وأنّ الخسائر الكبيرة كانت في صفوف المدنيين[٢].

---

(١) في حرب الجبل لا حديث عن الأسرى في الغالب (وحتّى أسر النّساء والأطفال كان نادرًا لأنّ العسكر الإيطاليين وكذلك الثّوار لا يمنحون فرصة للاستسلام إلاّ في حالات نادرة عندما يكون الأمر متعلقًا بزعيم أو استسلام جماعة.

(٢) يلاحظ الجنرال ميتزيتي أنّ الحجم الأكبر من خسائر الثّوار كانت تقع في لحظة الهروب من الطّوق الّذي كانت تحاصرهم بهم القوّات الإيطاليّة وليس أثناء الصّدام المباشر ففي مجريات الأحداث صيف ١٩٢٧ كانت المرّة الوحيدة الّتي استماتت فيها الثّوار للدّفاع عن الأرض برغم تفوق القوّات الإيطاليّة حدث ذلك في منطقة الكوف حيث فقدوا ١٥٠ مقاتلا من مجموع ٣٥٠ شاركوا في القتال وخسروا ٧٠ بندقيّة ولكنّهم بالمقابل كبّدوا الإيطاليين الخسائر الأكبر في تلك الحملة عدد ضابط واحد و٣٥ عسكريا. وكان إجمال خسائر الطّليان في المعارك الّتي اندلعت في ذلك الصّيف ضابطين و٥ طيّارين و٦١ من العسكر وأصبحت القوّات المتحرّكة الإيطاليّة سواء سلاح المشاة أو الفرسان تتكوّن من الإريتريين والبرقاويين بقيادة ضباط إيطاليين بينما الجنود الإيطاليون كانت مهامهم تقتصر على المدفعيّة والطّيران وقيادة السّيارات والمصفحّات الّتي كانت=

كانت هذه القوّة المتعاظمة للإيطاليين، تشير إلى نهاية وجود الثّوار في حشود مسلّحة ضخمة قادرة على شنّ هجمات كبيرة، إلاّ أنّ هذا لم يمسّ قواعدهم الشّعبيّة ومن ثمّ لم يؤثّر في سلطة السّنوسيّة وحيويّة حرب العصابات[1].

أشار الجنرال (ميتزيتي) ـ في نهاية تقريره عن العمليّات العسكريّة لصيف ١٩٢٧، وبالرّغم من إعلانه بأنّه أخمد ثورة الجبل ـ إلى ضرورة عدم التّقليل من إمكانيّة استئناف الهجمات حيث شخّص نقاط القوّة في المقاومة البرقاويّة والّتي تجلّت في تضامن السّكان الخاضعين للسّلطة الإيطاليّة معها وهيمنة السّنوسيّة الكاملة عليها وأنّ القيود الّتي فرضت على القمع من أجل تبرير الرّسالة الحضاريّة لإيطاليا الفاشيّة في إقامة الإمبراطوريّة لا يمكن أن تصل إلى درجة الاعتراف للتّمرد الجماهيري السّنوسي في الجبل في المطالبة بالاستقلال وهذا ما يدفع (ميتزيتي) وكبار المسؤولين الاستعماريين إلى سوق الحجج العنصريّة لتفسير الطّبيعة الحربيّة المتأصّلة في الأهالي البدائيين اللّيبيين.

يقول الجنرال (ميتزيتي) في تقرير: «اليوم وبعد العمليّات العسكريّة في الجبل يمكن القول إنّ التّمرد قد تمّ اجتثاثه وأصبح تحت السّيطرة. ولكنّ ملاحظات حول الأوضاع المعقّدة في المستعمرة، وبعض المعلومات المستفادة من التّاريخ والتّجربة المعيشة، تلزمنا بالتّروي وعدم الاستكانة للوضع الرّاهن. فالتّمرد في هذه البلاد فطري ويكاد يكون وبائيا وهو متكرّر الحضور في هذه الأعراق منذ القدم، وهذا ما تؤكّده

=تتطلّب خبرة خاصّة. راجع قيادة القوّات البرقاويّة (العمليات الصيفيّة في الجبل) سبقت الإشارة إليه.

(١) جميع هذه الأرقام المذكورة ترجع إلى قيادة القوّات البرقاويّة والعمليات الصيفيّة في الجبل، نفس المراجع ميزيتيو تارروتسي.

الدّراسات اللاّتينيّة الكلاسيكيّة الّتي صنّفت هذه القبائل الأصليّة اللّيبيّة كقطّاع طرق ومتمرّدين على أيّ كابح قانوني. وهذا ما تقوله الوثائق المنقوشة على الحصون الإغريقيّة والرّومانيّة والبيزنطيّة الماثلة حتّى اليوم والّتي تشهد على الجهود الّتي بذلت من قديم الزّمان على ترويض هذه الأقوام. وكذا الحملات الّتي قام بها الأتراك وما نقوم به نحن اليوم تدلّ على أنّ سلطة القانون والنّظام لا بدّ أن تُفرض بقوّة السّلاح. إنّ هذا الوضع لم يتغيّر حتّى الآن بسبب عدم وجود ترتيبات اقتصاديّة بإمكانها خلق مراكز زراعيّة وحضاريّة تجلب السّكان وتستوعبهم. ولذلك يبقى هؤلاء البشر على حالهم كما كانوا منذ قرون رحّلاً ومحاربين بالغريزة ومنقادين إلى نداءات المغامرة من أجل الغنيمة والحروب الدّينيّة.

قبل كلّ شيء، لابدّ من سياسة نشطة وذكيّة تواكب العمليّات العسكريّة وتقضي على الأسباب الرّئيسيّة الّتي تغذّي قوى التّمرد والّتي تربط السّنوسيّة بالسّكان الّذين يخضعون لسلطة الاحتلال. فأمّ المشاكل هي السّنوسيّة ويكفي أن نذكّر بأنّها أنّها هي من يحرّك التمرّد ويديره وتقدّم وسائل الإعاشة والقتال من خلال جباية الضّرائب، وفرض التّجنيد العسكريّ على النّاس كأنّها دولة داخل دولة المستعمرة. لا يمكن إغفال معضلة المستسلمين في المستعمرة وارتباطهم بالعمليات العسكريّة المعادية. فهي تبدو جليّة للسّلطة العسكريّة ولا يتعلّق الأمر بتأثير قديم وإنّما بمشاهد وأحداث يوميّة ومباشرة. فعلى سبيل المثال، بعد انتصار رائع نحرزه بجهد شاق ونتمكّن فيه من إلحاق خسائر بالعدو تقدّر بـ ٥٠ مقاتلا و٢٠٠ جمل، يحدث في اليوم التّالي أن يعوّض المستسلمون لنا للثّوار بـ ٥٠ مقاتلاً جديدًا و٢٠٠ جمل. عمليات عسكريّة في مثل هذه الظّروف وهي للأسف حقيقة لا يمكن تفهّمها. ففي حقيقة الأمر، ثمّة تعايش وتواطؤ بين الثّوار والمستسلمين لسلطة الاحتلال، هذا أمر واقع

يحدث في المستعمرة. ففي غالب الأحوال، يقاتل جزء من أفراد الأسرة الواحدة في الأدوار بينما يظلّ الجزء الآخر تحت سيطرة الحكومة الإيطاليّة. هذا الواقع يجب إنهاؤه وبأي ثمن، وإلاّ تصبح عملياتنا العسكريّة عديمة الجدوى. يتحتمّ علينا أن نضع السّكان المستسلمين لسيطرتنا تحت المراقبة بحيث يصبح أي شخص أو بندقيّة أو جمل أو خروف في خاضعًا للمراقبة اليوميّة ولكن في الوقت ذاته يجب أن نوفّر لهم حياة لائقة وكريمة حتّى نقطع عليهم خيار مغامرة الأدوار ومخاطرها»[١].

٣ ـ استئناف الثّورة في سنة ١٩٢٨

للسّيطرة على الجبل، توجّه الجنرال ميتزيتي إلى إنشاء مجموعة كبيرة من القلاع لعرقلة تحركات الثّوار ولتقدّم في نفس الوقت مراكز تكتيكيّة ولوجستيّة للقوات المتحرّكة الإيطاليّة الّتي كانت تتكوّن في الغالب من (كتيبة إريتريّة أو ليبيّة ووحدة السّفاري وبعض قطع المدفعيّة المحمولة على دواب) مكلفين بإحباط أي استئناف للأعمال الحربيّة قد تقوم بها أدوار عمر المختار. كانت القيادة العسكريّة تهدف في المقام الأول إلى السّيطرة على الأراضي الواقعة شمال التّمركزات في (جردس العبيد/ مراوة/ الجراري/ خولان) والّتي عززت في خريف ١٩٢٧ بإنشاء تحصينات جديدة في (بير قندوله) و(بوغسال) و(قصور مجاهير) ومنطقة (الكوف) حيث كان يراد لهذا الخطّ أن يكون حدًّا فاصلاً بين الثّوار والمجموعات المستسلمة تحت الاحتلال فيكون كل شخص أو رأس

---

(١) قيادة قوات برقه (العمليات الصيفيّة في الجبل) مرجع مذكور آنفا، هذه النّتائج تم نقلها بشكل جزئي من (ميزيتي) المرجع السّابق ص١٩١ ـ ١٩٣.

ماشية جنوب هذا الخطّ هدفا مشروعًا للطّيران وللقوّات المتحرّكة الإيطاليّة. وفي واقع الأمر تبيّن أنّ وضع خطّ يفصل بين الثّوّار وأهاليهم هو مجرّد وهم كبير كما اعترف بذلك الجنرال (ميزيتي) نفسه. بل أفضت سياسة التّحصينات إلى تزايد عدد الثّوار وإضعاف الاحتلال الإيطالي دون أن توقف استئناف هجمات الثّورة السّنوسيّة[1].

في أكتوبر ١٩٢٧ عقد الحاكم الإيطالي (تارروتسي) والجنرال (ميزيتي) اجتماعًا ببنغازي استدعي له كل المسؤولين في الدّوائر الإداريّة حسب التّقسيم المعمول به آنذاك وذلك لتحديد عدد المتمرّدين الّذين (يعتقدون) لا يزالون يحملون السّلاح في مناطقهم. كان رأي هؤلاء حسبما ذكر الجنرال (ميزيتي) أن الثّوار المسلحين في كل برقه لا يتجاوز عددهم مائة شخص[2] ولكن ذلك كان برهانا آخر على إخفاق السّلطات السّياسيّة والعسكريّة الإيطالية في إدراك الواقع لأن الأدوار كانت تعيد تنظيم صفوفها، حتى أنها ـ في شهر نوفمبر ـ قامت بهجوم على خطوط الاتصال الإيطالية وبنهب كبير في منطقة (سلنطة)[3]. وحسب ما اتّضح من مصادرنا فقد أدرك عمر المختار أنه لا يستطيع مواجهة قوة كبيرة عددًا وعتادًا وجهًا لوجه، ولذلك توجّه إلى حرب العصابات متحاشيًا الصّدام في الأراضي المفتوحة ومكرسًا الكمائن والغارات والصدامات

---

(١) حسب ميزيتي كان عدد الحاميات ٦٢ حاميّة في مارس ١٩٢٧ و٦٨ حاميّة في نوفمبر ١٩٢٨ منتشرة على رقعة من الأرض تعادل ضعف المساحة الأولى تقريبا. من ميزيتي إلى الوالي ٩ نوفمبر ١٩٢٨ في أ.م.ت.ج ٦/١٧٥ وحسب مصادر أخرى كانت الحاميات أكثر من ٧٠ حاميّة وحسب ما ذكره ميزيتي في تقريره المشار إليه يوم ١٢/١/ ١٩٢٨ أن ١٠ من هذه الحاميات لم تكن لدواعي عسكريّة وإنما لحمايّة بعض الإقطاعيات الزراعيّة الخاصة ولحمايّة خط السّكك الحديديّة بنغازي ـ المرج.

(٢) ميزيتي المرجع السّابق ص١٩٥.

(٣) عشر سنوات من تاريخ برقه، سبقت الإشارة إليه.

الصغيرة ليثبت أن السّنوسيّة لازالت تتمتع بسلطانها على الجبل في توازن مع السّلطة الرّسميّة الإيطالية وهذا ما كان يسمّى (حكومة عمر المختار اللّيليّة)[١] حسب التّصور الشائع آنذاك.

أظهر استئناف الثّورة سنة ١٩٢٧ انشقاقًا في صفوف الثّوار عندما سلم (محمد الرّضا) الشقيق الأصغر لإدريس السّنوسي وممثله في برقه نفسه للسلطات الإيطالية وكان سبب الخلاف حول تباين المواقف بخصوص ما يجب أن يتخذ في مواجهة الهجوم الإيطالي. غير أن هذه البادرة لم يكن لها أي أثر على المقاومة في برقه لأن وزير المستعمرات (فيدارزوني) نفى على الفور (محمّد الرّضا) إلى جزيرة أوستيكا(Ustica) حيث كان النّظام الفاشي ينفي معارضيه ضاربًا عرض الحائط بمعارضة كل من حاكم برقه (تيروتسي) والجنرال (ميزيتي) هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أخذ (الحسن)[٢] الابن الأكبر لمحمد الرّضا مكان والده في الثّورة إلى جانب عمر المختار وتمّ تعيينه مفوّضًا لإدريس السّنوسي في برقه، ثم جاء المدد للثوار في الجبل من قرار الحكومة الإيطالية التي قررت أن تحشد في سنة ١٩٢٨ قوات من إقليم طرابلس وبرقه لإخضاع منطقة سرت الواحات جنوب الجبل (ما تسمى واحات خط عرض ٢٩ درجة) وقد كللت هذه العمليات (تكللت) بنجاح كبير حيث استعملت القوات الإيطالية كل الوسائل التّقنيّة الحديثة الرّاديو الطيران الشاحنات المصفّحات وكذلك الوسائل التّقليديّة قوافل الجمال المحملة بالمؤن

---

(١) حكومة الليل: هو ما كان يطلق على سلطة السنوسية على الشعب البرقاوي حيث يتوارى الثوار في النهار تاركين للإيطاليين السلطة الظاهرة الشكلية بينما ينشطون هم في الليل كسلطة فاعلة يخضع لأوامرها الأهالي.

(٢) الحسن محمد الرضا المذكور هنا ليس هو من تسلم منصب ولي العهد في ليبيا بعد الإستقلال وإنّما كان اسم آخيه الأكبر وقد سمّي باسمه ولي العهد عندما مات أخوه أما الإسم الأصلي لولي العهد بعد الاستقلال (حصن).

وعلى الأخص وحدات اللّيبيين الممتطيّة للمهاري والتي أصبح لديها نفس القدرة الحركيّة للثوار مع التّفوق في الأسلحة والمؤن والوسائل التّقنيّة فكانت لها الغلبة السّاحقة في المناطق الصحراويّة وشبه الصحراويّة.

وهذا ما حدث في يناير ١٩٢٩ عندما اتجهت (محله) تقدر بـ ٤٠٠ مقاتل من الكفره للهجوم على منطقة السّيطرة الإيطالية في سرت فقامت القوات الإيطالية برصدها وتتبعها وأغارت عليها بالطائرات ثم هوجمت وسحقت بالقوات المتحركة في منطقة تسمى (بوأثله) وقد قضى فيها ٢٢٦ مقاتلا وغنمت ١٧٣ بندقيّة وتشرد من تبقى من الأحياء.

كانت نشرات الأخبار الأسبوعيّة لحكومة (لسنة) ١٩٢٨[١] ـ ومازالت أعداد كبيرة منها محفوظة ـ تقدم لمحة في غاية الأهميّة عن أخبار الجبل من وجهة نظر القيادات الإيطالية عبر إشاراتها إلى سلسلة من الغارات وحركة كبيرة للمواشي على حدود مصر (وهذا يدل دون أدنى شك على أن الحركة السّنوسيّة لا زالت تقوم بتنظيم الحياة لسكان الجبل وتضمن التّجارة الحيويّة مع مصر)[٢] إلاّ أنّ هذه النّشرات في شهر يناير كان يحدوها كثير من التّفاؤل بسبب استسلام محمد الرّضا الّذي اعتبر تأكيدًا

(١) راجع أ.م.ت.ج ٧/١٤٧ وهي أضبارة تتكون من ٢٨ عددًا من مطبوعة (أخبار حكومة برقه وهي عبارة عن ملفات مضروبة على آلة كاتبة من ٤ إلى ٦ صفحات لسنة ١٩٢٨ وبلغة إيطاليّة ركيكة أعدتها إدارة بنغازي للشؤون المدنيّة والسّياسيّة وموقعة من (تيروزي) أو نائبه وكانت تصدر أسبوعيا، هذه السّلسلة التي تفحصناها كانت تعتريها ثغرتان كبيرتان إحداهما تتمثل في عدم وجود الأعداد من أبريل إلى يونيه والثّانية من أغسطس إلى سبتمبر وثغرات أخرى أصغر.

(٢) كانت تستعمل الطائرات ضد تحركات البشر والقطعان جنوب خط الحميمات فعلى سبيل المثال نقلت نشرة ٢٨ يناير ١٩٢٨ أن الطائرات استعملت قنابل زنة ٢ كغ في قصف بعض التّجمعات لنجوع في حالة رحيل وفي قصف قطيع من الجمال السّائبة.

للأزمة التي تمر بها الثّورة، وفي شهر فبراير تتوافق معلومات متعددة على إعادة تنظيم عمر المختار أدواره حيث كانت تتكون من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ براعصه و١٥٠ حاسه و٢٠٠ عبيد و٧٠ عبيدات أي ما مجموعه ٧٠٠ مسلح منهم ١٥٠ فارسًا[١] إلاّ أن أخبار عمليات سرت السّعيدة كانت تسمح بإضفاء جوّ من التّفاؤل.

تقدم قواتنا الّذي نتج عنه احتلال واحة جالو أذهل الحركة السّنوسيّة المتهالكة، وأظهر السّكان فرحة عارمة لتحررهم من حكومة زائفة تضطهدهم من أجل الحصول على أموال تقدمها لثورة بدأت تتحلل[٢].

ولكن حرب العصابات اندلعت في الجبل بمنطقة البطنان عبر سلسلة من الضربات المباغتة لتثبت استمرار سلطة السّنوسيّة بالرّغم من توسع القصف العشوائي من الجانب الإيطالي كما تتحدث النّشرات الإخباريّة لشهر مارس: الطيران الّذي لم يتوقف في كل الأيام التّي كان الطقس يسمح فيها بعمليات المسح والاستكشاف في كل المناطق وقصف النّجوع وتجمعات الثّوار فأصبح الثّوار يعيشون في قلق وتوتّر دائم بالرّغم من أن الأخبار الحديثة تتحدث عن عدم فاعليتها في مواجهة المسلحين لأنهم يستطيعون الإفلات منها بالهروب والاختباء في الكهوف العليا للأودية رغم أنها تسببت في إفلات كبير للماشية نتيجة لشظايا القنابل.

استمرّت أدوار الثّوار في الحركة داخل (الجشه) وتواجدت في بعض الأحيان (السروال) وبمعيتهم عائلاتهم وقطعانهم وأشيع أن (حسن الرّضا) لازال مع عمر المختار، وكان كل دور يقيم نجعه منفصلاً.

---

(١) نشرة ٤ فبراير ١٩٢٨.

(٢) نشرة ٣ مارس ١٩٢٨.

ولكن يبقى في مرمى نظر الدّور الأخر. ويعتقد أن الأدوار كانت مكونة على النّحو التّالي:

١ ـ البراعصه حوالي ٤٠٠ مقاتل منهم ٦٠ فارسًا وكانوا منقسمين أربعة طوابير.

٢ ـ الحاسه والعبيدات حوالي ٣٠٠ مقاتل و٥٠ فارسًا.

٣ ـ العبيد حوالي ١٠٠ مقاتل كلهم على الجياد كان تسليحهم جيّدًا في أغلبه بالبنادق موديل ٩١ وبنادق (مانليشر) مع ذخائر كبيرة من النّوع الأوّل وقليلة من النّوع الثّاني[١].

إذ كانوا يقومون يوميا بفرز مجموعات صغيرة من كل الأدوار يسمون (محافظيّة) توكل إليهم مهمة مراقبة حامياتنا إلى جانب خليتين تتكون كل منهما من ٢٠ إلى ٣٠ شخصًا من النّهّابين شوهدت في جنوب بنغازي وبالقرب من (خولان) و(الفايديه) و(وادي الكوف) و(سيدي جبرين) وثلاث مجموعات تتكون من حوالي ١٥٠ شخصًا في مجموعها في منطقة البطنان كان عملهم الحقيقي هو المطالبة بدفع الأعشار في شكل مواشي بما هي في الغالب نوع من النّهب المستتر[٢].

أجبر تصاعد نشاط العمليات القتاليّة[٣] الجنرال ميتزيتي على استدعاء

---

(١) نشرة ١٠ مارس ١٩٢٨ كما في النّصوص الأخرى فهذا النّص بدون تصحيح الأخطاء النّحويّة واللّغوية.

(٢) نشرة ٢٤ مارس ١٩٢٨ حسب هذا المصدر فإن دور البراعصه كان تحت قيادة (عثمان الشامي) ودور الحاسه والعبيدات كان تحت قيادة الفضيل بوعمر ودور العبيد تحت إمرة يوسف بورحيل المسماري وكان عمر المختار مع دور العبيد وحسن الرّضا كان في دور العبيدات وحسب نفس المصدر فقد أشار إلى أن قافلة كبيرة بحراسة أكثر من ١٠٠ مسلح قادمة من مصر في اتجاه الجبل قامت باكتساح حاميّة إيطاليّة على الحدود.

(٣) نشرة ٣١ مارس ١٩٢٨ أشارت إلى حدوث ثمانيّة في أسبوع واحد وهاجرت ٣٠٠=

قوّاته من منطقة سرت للقيام بعمليات تمشيط على مستوى واسع. ففي ٣١ مارس قام بتدمير قافلة بمنطقة (الشعفه) في (بلطة الزلق) وكانت حصيلتها ٢٠٠ قتيل وقتل ١٥٠٠ جمل وغنِمَ ٦٠ بندقيّة[١]. واستطاع استئناف الإيطاليين للهجمات العسكريّة أن يبطئ عمليات الثّوار المسلّحة لكنه لم يوقفها، لذلك قرّر الجنرال (ميتزيتي) أن ينشئ قوّات متحرّكة في الجبل مكلّفة بالتّحرّك المستمر في استقلاليّة عن التّنظيمات المناطقيّة وبقوّة ضاربة بحيث تستطيع بمفردها أن تواجه أي تشكيل للثوار[٢] ولكن بعد النّجاح الجزئي يوم ٣٠ يونيه في أعلى رأس (القرمه) لم تجد هذه الوحدات[٣] المتحركة أمامها إلاّ الفراغ، فتوزّعت الأدوار في خلايا صغيرة محميّة من السّكان وواصلت حرب العصابات على الخطوط الخلفيّة للإيطاليين. فقد أعلنت النشرات الإخباريّة عن هذا الارتباط الحميم بين الأدوار والسّكان المستسلمين للسّلطة الإيطاليّة على هذا النّحو: استطاع أغلبيّة الثّوار من الحاسه والعبيدات (مدعومين بحوالي ١٠٠ مسلح من البراعصه) التّسرب والاختلاط بسكان العبيدات المستسلمين لإيطاليا كما أرسل هؤلاء المتمردون مواشيهم إلى أرض العبيدات لتختلط بمواشي السّكان المستسلمين وهذا ما حدث لأكثر عائلاتهم وأمتعتهم[٤].

=خيمة إلى مصر مع ٢٥٠٠ جمل وحصان وأكثر من ١٥٠٠٠ رأس من الغنم وبلغت قوة عمر المختار ١٥٠٠ بندقيّة.

(١) نشرة ٤ أبريل ١٩٢٨ المصدر السّابق ميزيتي ص٢٥١ ـ ٢٥٣.

(٢) نشرة ١٨ أغسطس ١٩٢٨.

(٣) ميزيتي المصدر السّابق ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٤) نشرة ٣٠ يونيه ١٩٢٨ أشارت على كمين وقع فيه ٨٠ جندي من (الكرابينياري) والضابطيّة ونتج عنه خسائر كبيرة بالقرب من المرج ووقع حادث مماثل قبلها بأسبوع قرب مدينة درنه وفي ختام نشرى ٢٣ يونيه ١٩٢٨ كتب غرسياني بخط يده بعد أن=

في أرض العبيدات وجد الثّوار العون المعتاد من السّكان وحسب المعلومات المتأتّيه من سلاح (الكرابينياري) في درنه أن بعض النّجوع في بعض المناطق استضافت إلى غاية شخصين أو ثلاثة من الثّوار في الخيمة الواحدة، فقد تخلّص بعض هؤلاء من سلاحهم حتّى يتعذّر التّعرف عليهم في حال قمنا بالمداهمة والتّمشيط[١]. إذ سمح هذا التّكتيك الجديد من لدن الثّوار للسّلطات الإيطاليّة بنشر بلاغات انتصارات مبالغ فيها إلاّ أنّ الحالة العامّة في الجبل تبدو في مجملها هادئة بيد أنّ استمرار الخناق الّذي تقوم به قوّاتنا النّظاميّة وغير النّظاميّة أبقى الثّوار متفرّقين ومختفين فاقدي القدرة على شنّ أعمال عدائيّة في مواجهتنا مع الصّعوبة البالغة في إمكانيّة حصولهم على المؤن والذّخائر[٢]. واقع الأمر أنّ الأدوار كانت لا تزال تمتلك قدرات جيّدة وتستطيع دائمًا الاعتماد على مساعدة السّكان كما اعترف بذلك الجنرال ميزيتي في تقريره يوم ١٩٢٨/١٢/١ رغم رسمه حصيلة مبالغ في تفاؤلها لسنتين من توليه زمام الأمر: (منذ ١ أبريل ١٩٢٧ لم يستطع الثّوار أن يكلّلوا بالنّجاح عمليّة واحدة من عملياتهم سواء خلف خط (جردس العبيد) (مراوة، جراري، خولان) أو في باقي المستعمرة، إذا استثنينا استيلاءهم على جزء من قافلتين عسكريّتين صغيرتين ليستا ذات أهميّة كانت تنقصهما الحراسة القويّة وهذا يبرهن في رأي هذه القيادة أن السّيطرة العسكريّة على الأراضي الواقعة خلف الخط المشار إليه كاملة، وتبقى ظاهرة السّلب والنّهب حقيقة ماثلة للعيان إلاّ أنّها ظاهرة كثيرة

=اضطلع على هذه النّشرة وقبل توليه لمهامه في برقه هذه الملاحظة: (في المجمل فالوضع كما هو في العام السّابق ولم يقتنعوا بعد أن الفساد في برقه ينبع من المستسلمين المسلمين).

(١) نشرة ١٤ يوليو ١٩٢٨.

(٢) نشرة ١٣ أكتوبر ١٩٢٨.

التّعقيد كونها تفهم على أنّها أعشار تدفع للسّنوسيّة للإيهام بأنها عمليات نهب بل هو تبادل حقيقيّ للمواد والغلال، حيث تنتهي بنقلها برًّا إلى مصر وبيعها بواسطة أنصار الثّوار الّذين دأبوا على هذا العمل بما هو عادة متوارثة متواترة في سرقة الحيوانات وبيعها منذ عصور، ويمكن لهذه الظّاهرة أن تتناقص وتختفي فقط من خلال تطوّر التّنظيم السّياسيّ العسكريّ للمنطقة وهذا هو جوهر المشكلة. فالسّيطرة الكاملة على المنطقة لا يمكن أن تتحقّق إلاّ بتدمير قوّة الثّوار كتنظيم سياسي عسكري، فيكون هذا التّدمير تتويجا لعمل سياسي عسكري ناجع. فكلّما تمدّد في اتّجاه حدود المستعمرة تمّ تقليص بؤر الثّورة إلى الخلف وتتوالى الضّربات المتكرّرة من القوّات المسلّحة على الثّوّار وإخماد نشاطاتهم إلى الأبد)[1].

مجمل القول اعترف الجنرال (ميزيتي) بأنّ الحركة السّنوسيّة لا زالت تحتفظ بقوّتها بالرّغم من الحضور الإيطالي القويّ في الجبل والأراضي الدّاخليّة شبه الصّحراويّة، وتمثّل برنامجه في مزيد الضّغط العسكري الإيطالي ولمدّة غير محدّدة حتّى إبادة الخصم، بحيث لن تكون النتائج مضمونة إلاّ بتطبيق برنامجه المذكور آنفا.

---

(١) تقرير ميزيتي ١٩٢٨/١٢/١. وقد كتب ميزيتي بعد بضعة أسطر: «إن الهزائم التّي ألحقت بالمتمردين حتّى وإن استنزفت قواهم إلاّ أنها لم تحقق النّجاح الكامل».

III. هدنة سنة ١٩٢٩



١ ـ اتّفاقات شهر يونيه

تولّى موسوليني في ديسمبر ١٩٢٨ مسؤوليّة وزارة المستعمرات تاركًا المهام الفعليّة لوكيل الوزارة (دي بونو) أحد أهمّ القياديين في الحكومة الفاشيّة الّذي سبق أن تسلّم منصب حاكم طرابلس من يوليه ١٩٢٥ إلى ١٩٢٨[1]، وتولّى منصب الحاكم العام لإقليمي طرابلس وبرقه المرشال (بادوليو) بالرّغم من بقاء الإقليمين بإدارتين منفصلتين، وكان المرشال (بادوليو) من أهمّ القادة العسكريين وحتّى بتعيينه هذا احتفظ بمنصبه الآخر رئيسًا للأركان العامّة، ثمّ عيّن (بادوليو) نائبًا للحاكم العام بصلاحيات مطلقة في إقليم برقه الجنرال دومينوكو سيشيلياني (Domenico Siciliani) نظرًا لأن (بادوليو) كان يقيم في طرابلس وهذا الجنرال كان من أهمّ المعاونين المقرّبين إلى بادوليو ولكنّه كان جديدًا على الأوساط الاستعماريّة ولم يكن له صيت ذائع. أمّا فيما يتعلّق بالقيادة العسكريّة فقد أوكلت للجنرال رونكاتي (Ronchetti) الّذي سبق أن تولّى مناصب عسكريّة في إقليمي برقه وطرابلس. تمّت الموافقة على طلب

(١) في سبتمبر ١٩٢٩ تخلى موسوليني عن الوزارة لـ(دي بونو) الّذي عين بدوره (ليسونا) وكيلًا للوزارة وكان هذا تغييرًا شكليًا ذلك أن موسوليني واصل اهتمامه ببرقه وتدخل في اتخاذ كل الإجراءات الخطيرة تاركًا لـ(دي بونو) إدارة الوزارة.

(بادوليو) بإعطائه مدّة خمس سنوات لنشر السّلام وتطوير المستعمرتين واستهلّ عمله ببيان انتشر على نطاق واسع وعد فيه الثّوار بالصّفح عمّن يسلّم سلاحه ويستسلم للدّولة استسلاما كاملا وفي الوقت نفسه هدّد بالقمع الشّديد لمن لا يفعل ذلك وقال: «إذا اضطرّرت للحرب فسأشنها بأدوات ووسائل تكون من القوّة بحيث تبقى عالقة في الذّاكرة وسوف لن ينعم أي متمرّد أو أسرته أو أملاكه أو ورثته بالسّلام سوف أدمّر كلّ شيء بشرًا وأرزاقًا»[١].

وفي نفس الوقت قام بتعميم منشورين توجيهيين للسّلطات السّياسيّة والعسكريّة في المستعمرتين ينضح منها إنتقادات لواقع الأحوال الّتي تبيّنت له: المرشال طالب بالالتزام بالنّظام والتّنسيق والاستقامة تجاه الرّؤساء والمسؤولين وشدّد على احترام السّكان المحلّيين والاهتمام بأحوالهم. ولأنّ هذه المناشير الصّادرة في ٩ فبراير وعلى الأخصّ في نهايته تختصر خلاصة برنامج (بادوليو) الحكومة وموقفه من السّكان اللّيبيين بشكل لا يحتمل اللّبس نورد نصّه: «نحن هنا الأمّة المهيمنة الّتي طردت المحتلّ التّركي العاجز واحتلّت مكانه من أجل تكريس الرّسالة الرّفيعة للحضارة، العرب أو بالأحرى كلّ السّكان المحلّيين يجب أن يعوا هذه الحقيقة العميقة بأنّنا موجودون هنا وباقون إلى الأبد، ونحن هنا ليس من أجل الاستغلال ولكن من أجل تحسين ظروف الحياة في مناحيها في هذه الأوطان وهذا الالتزام سوف ننجزه مهما كانت التكاليف بعد أن وضعنا هذه المسلمة علينا أن نستخلص بذكاء النّتائج المترتّبة عنها، نحن لم نحتلّ هذه الأرض لاستصلاحها من أجل استغلالها ولكنّنا وضعنا تحت سلطتنا شعبًا وجب علينا الاعتناء به ودفعه إلى نظام حياة

---

(١) هذا الإعلان قام بنشره جيليو في كتابه (الأخويّة السّنوسيّة) مصدر سابق، ص١٣٣.
وحول هذه الأحداث انظر روشا مصدر سبقت الإشارة إليه، ص٩ وما بعدها.

أكثر مدنيّة. ومن الواضح أنّنا لا نستطيع تحقيق هذه الغاية مطلقًا إذا لم يشعر الشّعب بمصلحته الماديّة والمعنويّة في البقاء معنا وخضوعه الطّوعي لعاداتنا وقوانيننا. إذا لم يحدث ذلك فسنكون في صراع دائم تفوق كلفته الباهظة ما نتحمّله اليوم وإذا لم يتسنّ لنا ذلك فسنعيش دومًا فوق مخزن بارود قابل للانفجار في أي وقت، وإذا لم نستطع أن نحقّق هذا الهدف فقد نضطرّ في لحظة صراع أهوج أن نقضي حتّى على كلّ السّكان الأصليين ونحصل على السّلام ولكنّه سيكون سلام المقابر، والمقابر هي أمكنة للذّكريات الأليمة وليست للأعمال الفعّالة المثمرة لذلك:

- يجب أن نكون في درجة أعلى على السّلم ولكن نبقى في حالة من التّواضع.
- يجب أن نشعرهم بالتّفوق ولكن بالأعمال لا بالأقوال بل العكس فالأقوال لا تؤتي إلاّ بالإهانة.
- يجب ألاّ ننسى أنّه تحت العباءة المتّسخة قلب يحبّ ويكره كما هو تحت العباءة الأنيقة للميسور لذلك يجب ألاّ تزرع الأحقاد لأنّه لا يعطي إلاّ ثمارًا فاسدة.
- الاعتناء برفاهيّة السّكان الأصليين بكلّ الصّور الّتي يسمح بها القانون.
- الامتناع عن كلّ ما من شأنه أن يجرح الشّعور الدّينيّ أو الأسريّ.

وباختصار أؤكّد:

- على الموظّفين القيام بالمهام الّتي أوكلت لهم بالقانون والقرارات بضمير وإحساس كامل بالمسؤوليّة.
- التّصرف إزاء الأهالي المواطنين باتّباع سياسة الاعتزاز والشّموخ

الوطني مجسّدة في العدل والاهتمام الدّائم وبنبل في الشّكل والمضمون.

أمّا المغامرون الّذين يكتشفون أراضي جديدة لا يكونون معمّرين لعدم تحلّيهم بصفات المعمّر الأساسيّة، أن تكون معمّرًا لا يعني أنّك تحوز وتستحوذ وإنّما تتمتّع بخاصيّة التّنظيم أو بمعنى آخر أن تسيطر بمنهجيّة وعدالة وتفوّق ثقافي وأخلاقي هذا هو واجبنا وسنواصله باسم الملك (الدّوتشه) الزّعيم(١).

لم يكن لإعلان التّسامح والتّهديد الموجه للثّوار أي نجاح أو تأثير يذكر في إقليم طرابلس حيث شارف الاحتلال الإيطالي على نهايته (في نهاية ١٩٢٩ كانت قوّات الجنرال (غرسياني) قد وصلت إقليم فزّان

---

(١) منشور بادوليو بتاريخ ٩فبراير ١٩٢٩ بتعليمات سياسيّة وقد تمّ توزيعه على نطاق واسع شمل حتّى قادة الكتائب. انظر أ.و.ف.ط ١٠/١٧٤ وقد نشره (فيتالي) جزئيا في كتابه أحداث عسكريّة مصدر سبقت الإشارة إليه ص١٩٩ ـ ٢٠١. وقد وجّه بادوليو في رسالة إلى دي بونو نقدًا لاذعًا للأوساط الاستعماري في ١٩٣٠/٧/١ قائلًا: «في أوقات العمليات العسكريّة كثيرون من يستغلّون أو يحاولون استغلال هذه الظّروف وهم الموردون على اختلافهم ومتعاقدي النّقل وقد شاعت أخبار الأرباح الفضائحيّة فقد حقّقوا ثروات كبيرة في فترة زمنيّة قصيرة وعندما سوف تستقرّ الأمور فإنّ هذه المنافع سوف تنتهي، وثمّة بعض الفئات يعرفها القاصي والدّاني يعتقدون أنّ التّمرد يخلق لهم مناخ جيّدًا للإثراء بشكل مشروع وغير مشروع، ويجب قول كلّ الحقيقة حتّى وإن كانت مروة ذلك أنّ أمراء الكتائب العسكريّة ليسوا في منأى عن هذا الفساد، فقد تكشفت حالات عديدة وبرغم خطورة هذه الحالات إلاّ أنّنا نستطيع القول بأنّها استثنائيّة. وقد شاع حتّى الآن الرّأي القائل بأنّ حالة التّمرد تمكن من الحصول على فوائد في التّرقيات ممّا جعل عدم انجاز المهام إلى نهايتها القصوى وتضخيم الإشتباكات مهما كانت بسيطة وتافهة وما يتبعها من انهمار طلبات الأوسمة والتّرقيات حتّى أصبحت عبارة (سيكون القادم أفضل) من العبارات المعتاد سماعها عندما يستطيع العدوّ الإفلات بسهولة من ميادين القتال م.م.د.غ.

لتكمل احتلال الأرض وتشتّت آخر بؤر المقاومة) وحتّى في برقه لم يكن لها تأثير في البداية حيث استطاعت حرب العصابات أن تتوسّع في شهري فبراير ومارس بسلسلة مذهلة من الغزوات والكمائن المباغتة[١].

في كلّ الأحوال لم يتخلّ المرشال (بادويو) عن برنامجه في السّلام وكعربون لحسن النّوايا حصلت في شهر مارس الموافقة على إرجاع (محمد الرّضا) من المنفى في جزيرة (أوستيكا) إلى أرض الوطن. والتأمت بين أبريل ومايو محادثات سريّة ليس لدينا الكثير من المعلومات بخصوصها غير أنّها أفضت إلى إبطاء العمليات العدائيّة أعقبته في شهر يونيه هدنة حقيقيّة أعلنت بعد اللّقاءات الّتي ضمّت القادة الكبار لكلا الطرفين.

إنّ دراسة محاولة السّلام الّتي أطلقها المارشال (بادوليو) والجنرال (سيشيلياني) في صيف ١٩٢٩ غير هيّنة بسبب قلّة الوثائق والتّأويلات أحاديّة الجانب الّتي طبعت وجهة النّظر الإيطاليّة، ابتداء من الجنرال (غرسياني) ١٩٣٢ وانتهاء إلى دي ليوني ١٩٦٠[٢].

---

(١) في هذ الوقت استطاع عمر المختار تنظيم قوّاته في دُورَين فقط، وقد استطاع الدّور الّذي يقع في الجهة الغربيّة والّذي كان يحتوي على ٣٥٠ مقاتل من العواقير والعبيد والبراعصه من خوض معركة في منطقة جردس العبيد في موجهة كتيبتين وفصيلين إيطاليين يوم ١٣ مارس كانت خسائره ٢٠ مقاتلا وقتل ٢٠ رأس من الأبل و١٥ بندقيّة ولكنه تمكّن من قتل ٢٣ بين إيطاليين وعسكر. أُنظر (عشر سنوات) مرجع سابق.

(٢) انظر غرسياني المرجع السّابق ذكره ص١٢ و٤٦، ودي ليوني مصدر سابق ص٥٥و٥٤٩ فما بين هذين الرّوايتين وغيرهما من روايات المصادر الاستعماريّة مثل رواية (كانيفاري) لا توجد بينها إلاّ خلافات ضئيلة فعلى سبيل المثال غرسياني لم يكن أن يستطع باذوليو رئيسه المباشر الأعلى في الوقت الّذي كان فيه هذا الأخير هدفًا أساسيًا لهجوم أكثر الكتّاب الآخرين غير أن كل هذه الرّوايات تجمع على عداء العرب والدّفاع المستميت عن سياسة القوة وكذلك الخفة في تحريف الوثائق.

فمن وجهة نظر هؤلاء فإنّ (عمر المختار) اضطرّ أن يدخل في محادثات سلام بسبب الإرهاق الّذي نال من حياة النّاس وكذلك بسبب الخلافات الدّاخليّة بين قيادات الحركة السّنوسيّة فاستغّلت طموحات (بادوليو) و(سيشيلياني) وقلّة خبرتهما ليقدّم عمر المختار على خطوة الاستسلام الشّكلي الّتي لم يكن له أي نيّة حقيقيّة لاحترامها ولكنّها كانت جوهريّة ليتمكّن من إعادة بناء قوّاته المنهكة وشنّ الهجمات من جديد بعد إحكام سيطرته على الوضع.

يعسر تقييم حقيقة الأزمة الدّاخليّة للحركة السّنوسيّة وجدّيتها كما يعسر أن نعرف دوافع عمر المختار لأن المعلومات الإيطاليّة المتعلّقة بالثّورة لا تحظى بالوثوقيّة (غير أنّ المعلومات عن النّتائج المأساويّة على المواطنين في هذه الحرب واضحة وحقيقيّة) فإذا كان (غرسياني) نفسه قد بيّن بالأدلّة أنّ المحادثات في أبريل مايو لم تكن قد انطلقت على خلفيّة الاستسلام غير المشروط حسب إعلان (بادوليو)[1]، إذ عرض الجنرال (سيشيلياني) الاعتراف بالسّنوسيّة بكلّ تنظيماتها ومهامّها التّقليديّة مقابل إنهاء الحرب والاعتراف بالسّيادة الإيطاليّة، فكان هذا العرض مشوبًا بالغموض من حيث تقاسم السّلطة فمن جهة هو يحقّق نزع السّلاح الجزئي للمواطنين وذلك بتسليم نصف البنادق مقابل دفع ١٠٠٠ ليرة لكلّ فرد يسلّم سلاحه ومن جهة أخرى بقاء فصائل مسلّحة قويّة تحت الإمرة الرسميّة لحكومة إيطاليا والفعليّة تحت إمرة السّنوسيّة[2].

وقد تمّ التوصّل في بداية شهر يونيه إلى اتّفاق لا نعلم عنه سوى وجهات نظر مقتضبة ومتعارضة لكنّها تنطق عن الحلّ الوسط الّذي أمكن

---

(١) انظر جيليو (الأخوّة السّنوسيّة)، مصدر سابق، ص١٣٤/١٣٧.

(٢) غرسياني، نفس المصدر، ص٢٤ ـ ٢٨.

التّوصل إليه والّذي يحدّد وضع برقه إلى محادثات لاحقة. أمّا نهاية الأعمال الحربيّة فقد تّمت ضمن لقاءات حضرها عمر المختار وقادة آخرون من الثّوار مع الجنرال (سيشيلياني) يوم ١٣ يونيه ولقاء آخر مع المارشال (بادوليو) يوم ١٨ يونيه ثمّ لقاء أخير مع الجنرال (سيشيلياني) يوم ٢٨ يونيه وقد تمّت كلّها في أماكن مختلفة من الجبل. وحسب المصادر الإيطاليّة فقد تمّ في تلك اللّقاءات تهيئة استسلام (عمر المختار) ورفاقه بشكل رسميّ دون شروط وهذا ما أعلنه المرشال (بادوليو) غير أنّ (غرسياني) كان أكثر صدقًا من المؤرّخين المتأخّرين عندما كتب بشكل واضح أنّ الاستسلام لم يكن إلاّ خطوة أولى في اتّفاق شامل يقضي بإعادة السّلطة للسنوسيّة واحتفاظها بقوّاتها المسلّحة[١].

وحسب (عمر المختار) لم يتم في هذه اللّقاءات إلاّ الاتّفاق على هدنة لمدّة شهرين تسمح باستمرار المحادثات الّتي بدأت[٢] ويبدو أنّ كلامه كان صحيحًا بالنّظر إلى الملابسات الّتي صاحبت هذه الاجتماعات حيث أنّ (عمر المختار) ورفاقه قد قدموا إلى هذه اللّقاءات مع المرشال (بادوليو) أو الجنرال (سيشيلياني) بمعيّة قوّة كبيرة من المسلّحين ولم يقم بأيّ عمل أو موقف يشين الاستسلام كما كان متعارفًا عليه[٣].

بينما الحقيقة المؤكدة هي أنّ مخرجات محادثات شهر يونيه كانت تتوقّف على التّطوّرات اللاّحقة للقضيّة برمّتها لأنّ الثّورة السّنوسيّة لم

---

(١) غرسياني نفس المصدر ص٢٩ ـ و٣٠ وهذا لم يمنع غرسياني من وضع اللاّئمة أو الإنحاء باللاّئمة في فشل محاولة السّلام وبشكل حصري على عمر المختار والسّنوسيّة.

(٢) انظر تصريحات عمر المختار في ٢٠أكتوبر ١٩٢٩ في كتاب غرسياني المذكور آنفًا ص٤٤ ـ ٤٦.

(٣) هذه النّقطة قد أبرزها بشكل قوي (كانيفاري) في جداله مع بادوليو مصدر آنف الذكر ص٣٢٥ وما بعدها.

تكن قد هزمت في الميدان بل كانت في وضع يمكنها من عقد اتفاقات سلام من مركز القوّة[1].

ففي هذه الظروف لا يمكننا إلاّ أن نستغرب التّقرير الّذي تبنّاه بادوليو أمام (دي بونو/ موسوليني) عندما أبلغهما بأن استسلام عمر المختار ورفاقه قد تمّ نهائيًا ودون شروط وقد نقل لموسوليني كلمات على لسان عمر المختار في اجتماع يوم ١٣ يونيه في ما يلي: (لا تصفني بالمتمرّد لأنّني لم أستسلم للحكومة قبل اليوم بل بالعكس فقد حاربتها على الدّوام، اليوم سأستسلم وبالنّسبة إليّ فإنّ الجنرال بادوليو هو أوّل حاكم إيطالي استطاع السّيطرة على برقه ومنذ اليوم أصبحت في برقه حكومة واحدة وهي الحكومة الإيطالية، فبرقه ستدخل منذ اليوم في عصر جديد وهو عصر السّلام، أنا تحت إمرة الحكومة الإيطالية)[2].

ويواصل (بادوليو) قائلاً لـ(موسوليني): «غدًا الأحد سوف أسافر إلى بنغازي لاستلام عهد الاستسلام المهيب ويواصل في برقيّة إلى موسوليني بقلب تملؤه الغبطة: أبعث إلى سعادتكم هذه البرقيّة وإنّي على ثقة بأنّ برقه سوف تشهد عصرًا جديدًا»[3] وفي نفس الوقت قام المارشال (بادوليو) بإرسال برقيّة إلى (دي بونو) وكيل وزارة المستعمرات قائلاً فيها: لقد رفضت بكلّ قوّة كافّة الاقتراحات الّتي قدمت لي معلنا أن

---

(١) في الواقع كان عمر المختار واضحًا فيما يتعلق بلقائه مع بادوليو وسيشيلياني.باعتبار لقاء أنداد يمثلون حكومات من اختصاصها إقرار السّلام غير أن عمر المختار قد وضع كشرط لمواصلة وتطوير المحادثات اتصال الإيطاليين بإدريس السّنوسي والإعتراف به كقائد للدولة.

(٢) هذا النّص مذكور في دي ليوني مصدر سابق ص٥١٥. ليوني هذا الّذي كان يبرر أي عمل سياسي فاشي يقول ويعترف بأن عمر المختار لم يستسلم أبدًا ص٥٥٩.

(٣) مذكور في (دي ليوني) مصدر سابق، ص٥٥١.

السّبيل الوحيد للسّلام يجب أن يكون ما أعلنت عنه بوضوح لا يدع مجال للشّك أو التّفسير، الاستسلام الحاليّ يقوم على شرطين:

١ ـ نزع السّلاح

٢ ـ العفو

أتفق تمامًا مع النّتيجة التي توصّل إليها مقامكم الرّفيع بأنّ السّنوسيّة قد وصلت إلى الحضيض وخسرت كلّ أهميّة[١].

وفي الأيّام اللاّحقة كرّر (بادوليو) أكثر من مرّة قناعته بأنّ استسلام الحركة السّنوسيّة دون شروط كان بسبب أزمتها الدّاخليّة وأنّ زعماءها قد اختلفوا وذهبت ريحهم فيقول: «في الماضي لم يكن ثمّة تمييز بين المستسلمين لنا والثّوار لذلك وجدنا على جثث الكثير من القتلى في المعارك بطاقات المستسلمين هؤلاء يغذون الثّورة، حتّى أنّ (عمر المختار) رغم خسائره في المعارك كان لديه من يعوّض هذه الخسائر من الخزان البشري للمستسلمين. في هذه الظّروف الحياتيّة البائسة وفي هذه الحرب الشّرسة الّتي دامت عدّة سنين كان المستسلمون يعاملون معاملة الثّوار لذلك كان من الطّبيعي أن يتطلعوا إلى حياة هادئة وهذه الأسباب الّتي جعلتهم يتلقفون إعلاني لأنّه بات الإمكانيّة الوحيدة للحلّ، وعلينا مواصلة السّير في هذا الطّريق محاولين تحسين حالة هؤلاء المنكوبين، ولتطمئن الحكومة لأن كلّ ذلك سينفّذ[٢].

سيوضع كلّ الزّعماء السّنوسيين الآن ومستقبلا تحت المراقبة المشدّدة

---

(١) من بادوليو إلى دي بونو ١٦ ـ ١٧ يونيه ١٩٢٩ ورد في ر.م.د.س.خ المشار إليها بـ: ٢٢٤/ر وزارة المستعمرات في ملف دي بونو وقد تم نشره من (روشا) المصدر السّابق ص١٠.

(٢) من بادوليو إلى دي بونو ٢١ يونيه ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ١٥٠/٢١/ ٩٠.

وأجد نفسي أكرّر أنّ التّأثير السّياسيّ لهذه الحركة قد انتهى في برقه لأنّ أفراد الأسرة السّنوسيّة باستثناء (أحمد الشريف) هم عبارة عن مجموعة فاسدة ولا يبحثون إلاّ عن العيش الرّغيد ولا يوجد أي عضو من هذه الحركة يمكن أن يخلق لنا المتاعب على المدى المنظور[1]. فاستمرار التّلويح بفزّاعة السّنوسية أمر غير مجد أو هو غير مفهوم فالحركة السّنوسيّة أوكل أمرها إلى السّنوسيين الحاليين وهم شخصيات غبيّة أو عديمة الأخلاق أو موسومون بأشنع الصّفات لذلك وصلت إلى الحضيض كقوّة سياسيّة»[2].

هذا التّفاؤل المشبوب للمارشال (بادوليو) يعكس في المقام الأوّل إدراكه للقدرات المتدينة للقيادات والدّوائر الاستعمارية الإيطاليّة في تقييم عمق جذور الثّورة والإلمام بسلوك زعماء السّنوسيّة ولكن موقف المرشال (بادوليو) جنراله الأمين (سيشيلياني) له أسباب أخرى، فسياسة السّلام لـ(بادوليو) واجهت عداء قويا في الدّوائر الاستعماريّة لأسباب مختلفة (مثل الزّهو الوطنيّ أو فوائد وظيفيّة أو تجاريّة وكذلك بسبب العنصريّة) ولذا كانوا من أنصار استعمال القوّة في مواجهة السّكان، كما أنّ (دي بونو) وكيل وزارة المستعمرات كان يشعر بالغيرة من مارشالها ذي الصيت الذائع ويتمتع بكل هذه الاستقلاليّة في إدارة المستعمرة، لذلك لم يترك أيّة فرصة متاحة مع (موسوليني) ليشجب سياسات (بادوليو) التي يعتبرها ضعيفة ووسطيّة وتتعارض مع منهج النّظام في إظهار القوة وعظمة الإمبراطوريّة، وحتّى (بادوليو) لم يكن قد ولج طريق السّلام بعقيدة حقيقيّة ولكنه كان يأمل في إنهاء الحرب في أشهر قليلة بطموحه الشخصي كما لم يفكر حقيقة في تقاسم السّلطة مع السّنوسيين

---

(١) من بادوليو إلى دي بونو ٢٢ يونيه ١٩٢٩ أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

(٢) من باديوليو إلى موسوليني ٢٤ يونيه ١٩٢٩ ذكره دي ليوني المصدر السّابق ٥٥٢.

وإنما كان نصب عينيه التّوغل الإيطالي النّاعم والفعّال بدلا من الطريقة التّقليديّة القائمة على الحرب والعنف. لذلك لم يكن وضعه مريحًا وكان عليه أن يصارع على جبهتين ضدّ السّنوسيّة وضدّ الدّوائر الاستعماريّة وكلاهما يترصد أيّ خطوة خاطئة يرتكبها للاستفادة منها. لذا بدا لنا خياره في لعبة مزدوجة محفوفة بالمخاطر، فهو من جهة يطمئن الدّوائر الاستعماريّة في ليبيا وروما من خلال اختلاق استسلام عمر المختار النّهائي أو دون شروط بحيث يضمن إدارة سياسته دون تدخّلات خارجيّة ومن جهة أخرى يحاول الحصول من السّنوسيّة على سلام قائم على حلّ وسط تتمثّل قاعدته في تقاسم السّلطة في برقه لقناعته بأن أشهرًا قليلة من الهدنة يواكبه عمل متقن في إفساد الذّمم وبثّ الفرقة كفيل بأن يفكك الحركة السّنوسيّة ويوصل إلى سلام مبني على الهيمنة الإيطالية دون منازع (وهذا دليل حقيقيّ على قصور فهم الجذور الجماهيريّة للثورة). لهذه الأسباب جميعها كان (بادوليو) مستعدًا أن يتنازل كثيرًا لـ(عمر المختار) على الصّعيد المباشر دون الوصول إلى معاهدات مكتوبة ورسميّة كما كانت تطالب به السّنوسيّة من الجنرال (سيشيلياني) الّذي كان يماطل في الوعود لأنه كان متأكدًا من أنّ التّناقضات الدّاخليّة في صفوف الثّوار والتي كان يشجعها الإيطاليون بالعطايا والوعود وكذلك الإرهاق الّذي نال المواطنين في الجبل سوف تحقق في وقت قريب عدم إمكانيّة استئناف الحرب وستفتح الطريق تدريجيًا أمام الهيمنة الإيطالية الكاملة.

٢ ـ الهدنة:

في يوم ٢٩ يونيه كتب الجنرال (سيشيلياني) بشعور مفعم بالأمل في المستقبل: (إنّ الظروف العامة والسّياسيّة مرضيّة في برقه من وجهة نظري وسوف تصبح في غاية الرّوعة سواء في ظاهرها أو في جوهرها.

لقد أرغم المواطنون (عمر المختار) على الابتعاد عن السّلوك العدائي وكذلك الخضوع والاستسلام وسيقوم المواطنون كذلك بمنع القوات المسلحة للثوار من التّنصل عن التزاماتهم المتفق عليها أو تتحوّل من ثورة إلى حرابه. أخذت الأدوار الطّابع السّلمي في نجوعها وتقلّص عددها إلى عدد كبير لأن الكثير من أعضائها تشتتوا بهدوء في كلّ مكان ليتحسّسوا الوضع والتّوجهات الحقيقيّة للدولة فالكثير منهم كانوا عزّلا وبعضهم سلّموا أسلحتهم في نقاط التّفتيش بعدما حصلوا على وعد في إرجاعها لهم حال مطالبتهم بها إذا ابتعدوا عن الأمكنة المأهولة والمراقبة)[1].

في واقع الأمر كان الوضع أكثر تعقيدًا، إذ لم تحلّ الأدوار ولم يتمّ نزع السّلاح من الأهالي كما برهن الهدوء الّذي ران على الجبل على أنّ سلطة (عمر المختار) أكثر من فعل القوة المسلحة الإيطالية، بل أصبحت الحركة السّنوسيّة تمارس نشاطها في وضح النّهار وبكل سلطاتها من إدارة العدالة حتّى جباية الضرائب[2].

في منتصف شهر أغسطس اعترف الجنرال (سيشيلياني) بأنّ عمليّة السّلام الجارية كانت في منتهى العناء وخصوصًا فيما يتعلق بـ(عمر المختار) الذي عمل على تطبيق الهدنة بحذافيرها إلاّ أنّه رفض حلّ الأدوار التي يموّلها من الضّرائب التّقليديّة الّتي يقوم بجبايتها علنًا[3].

---

(١) من سيشيبياني إلى بادولو ٢٩ يونيو ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢/١٥٠ حيث كتب سيشيلياني عمر المختار يتعاون بالكامل بشرط أن يكون التّعامل معه وحده غير أن السّياسة الإيطاليّة تهدف إلى إعلاء قيمة ظاهرة المستسلمين ضد زعماء التّمرد.

(٢) دي بونو أخص نفسه وتدخله المباشر لمنع السّنوسيين من إقامة المشانق لأن هذا يرمز إلى السّلطة السّياديّة التّقليديّة، من دي بونو إلى بادوليو ١٤ يونيو ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

(٣) من سيشيلياني إلى بادوليو ١٦ أغسطس ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٢١/١٥٠/ ٩٠ وقد=

في كلّ الأحوال تحاشى المارشال (باديوليو) والجنرال (سيشيلياني) اللّجوء إلى أعمال القوّة الّتي من شأنها أن تعرّض الوضع للانهيار مفضلين استنزاف الحركة السّنوسيّة الّتي باتت تمزّقها صراعات المواقف الدّاخليّة. فتذكر المصادر الإيطاليّة والّتي ذكرنا فيما سبق عدم كفاءتها ومصداقيتها والاعتماد عليها في هذا الموضوع، أنّ (حسن الرّضا ابن محمد الرّضا) على رأس تيّار ينادي بقبول سلام الحلّ الوسط بينما (عمر المختار) كان على رأس تيّار آخر يفضل استئناف القتال على سلام يحدّ من استقلاليّة قبائل الجبل والسّلطة السّنوسيّة. وإنّ الصّدام بين هذين التّيارين كان يمكن أن يكون قويًّا إذا كانت أدوار البراعصه والدرسه حقيقة تحت تأثير حسن الرّضا والأهالي المستسلمين سينسحبون من إمرة عمر المختار إذا قبلوا باستلام الأموال الإيطالية حتّى يستطيعوا المحافظة على التّنظيم[1].

ولكن يبدو أنّ خطورة هذا الصّدام كان مبالغًا فيها بدليل أنّ المارشال (بادوليو) في منتصف سبتمبر قد شجع الجنرال (سيشيلياني) بتركيز الضغط على الجبل مبرقا: (تلقينا الأوامر من معالي الوزير (دي بونو) ونؤكد على القيام بالأعمال التّاليّة:

١ ـ حاول أن تجذب إلى منطقة سلطتنا العدد الأكبر من المعارضين دون الاستعانة بقياداتهم وحاول أن تدفع المستسلمين وعلى الأخص البراعصه والدرسه ضد المعارضين ليس بالأقوال وإنما

=كانت السّلطات الإيطالية تعطي مسلمي الأدوار نفس المعاملة للدوريات وهي مجموعة غير نظاميّة تأمر بأوامر السّلطات المحليّة وتقوم بدور الشرطة غير أن عمر المختار كان يرفض جباية الضرائب التّقليديّة رغم فقر السّكان حتّى يبقي على قدرة التّحكم لقواته ولتأكيد سلطة السّنوسيين.

(١) غرسياني المرجع السّابق ص٣١ ـ ٣٥ وكذلك من بادوليو إلى دي بونو ٢٥ أغسطس ١٩٢٩ في أ. و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

بالأفعال مستعينًا بقواتنا عند اللّزوم. حاول أن تبدأ وبالسّرعة الممكنة في مشاريع الأعمال العامة كما وردت في برقيتنا اليوم بشكل يستوعب أكبر عدد ممكن من المواطنين الأصليين.

٢ ـ هذه المهام يجب تنفيذها بشكل لا يقلب الأمور فجأة رأسًا على عقب وبشكل غير ملائم[١].

إنّ القليل من الأخبار المتاحة حول أحداث ذلك الصّيف تفيد أن محاولة تفتيت الحركة السّنوسيّة الّتي سعى إليها الإيطاليون ولم تصل إلاّ إلى نتائج محدودة ولكن مع ذلك اعتبر قادة الحركة أن الحفاظ على الهدنة يشكل خطرًا عليهم. وفي الواقع كان (بادوليو) قد منح امتيازات سريّة واسعة للحركة السّنوسيّة ولكنه كان يرفض أيّة التزامات رسميّة كما كانت تأمله الحركة، وعلى الأخص في رفضه التّعامل مع (إدريس السّنوسي) حتّى لا يعطي اعترافًا رسميا للسّلطة السّياسيّة، وما كان للسنوسيّة أن تقبل بذلك الحضور الإيطالي الطاغي في كلّ المجالات بسلام الأمر الواقع ودون ضمانات محدّدة لأنّ هذا الوضع كان سيقودها إلى الفقدان التّدريجي لسلطتها على الأرض. وأمام المحاولات الإيطالية الجديدة لإطالة أمر الهدنة وتمديدها دون الدّخول في محادثات سياسيّة ملائمة أعلن عمر المختار في ٢٠ أكتوبر قراره بعدم قبول أي تجديد للهدنة وأنه سوف يستأنف القتال ابتداء من يوم ٢٤ أكتوبر. بعد أن استعرض وبشكل مختصر المحادثات السّابقة بين الجانبين وشدد على

---

(١) من باديوليو إلى سيشيلياني ١٣ سبتمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ وقد كان سيشيلياني يظهر تفاؤلاً كبيرًا على العكس من ذلك ويرى أن الوضع هادئ وأن الاستسلام مستمر وكذلك عودة المهاجرين إلى الجبل وأن المتمردين السّابقين يغشون المواقع الّتي نسيطر عليها دون سلاح وكانوا كثرًا كما كانوا يظهرون سلوكًا مختلفًا ومنضبطًا (سيشيلياني إلى الوزارة ٢٣ سبتمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠).

مسؤوليّة الإيطاليين في عدم الوصول إلى نتائج محددة برفضهم الحوار مع السّلطة السّياسيّة المتمثلة في (إدريس السّنوسي) أردف (عمر المختار) قائلاً: «في الوقت الّذي بدأت فيه الهدنة تحتضر ولم أستلم أي إجابة من الحكومة الإيطالية حول مقترحاتنا في الاتّصال بأميرنا السّيد (محمّد إدريس السّنوسي) لذلك أرى مواصلة القتال وسوف لن أولي أيّ اهتمام لأيّ محادثات أو لأيّ وسطاء حتّى لو كانوا أفرادًا من الأسرة السّنوسيّة ما لم يحظَ بثقة الأمّة. أنا لم أفهم هروب الحكومة الإيطاليّة من التّواصل مع القائد المشار إليه مع علمهم الأكيد بأنّه الوحيد الّذي بيده الحلّ والعقد، إذا قرر أن يمضي في السّلام فلن أتوانى لحظة واحدة في اللّحاق به. ليعلم كلّ المجاهدين أنّ الهدف الوحيد للحكومة الإيطاليّة هو زرع الفرقة والمكائد بيننا حتّى تفرّق شملنا وتشتّت وحدتنا وتكون لها الغلبة وتنتزع كلّ حقوقنا المشروعة مثلما حدث في مرّات سابقة، ولكن ولله الحمد لم تنجح في كل هذا. ليشهد العالم أن نوايانا طيّبة تجاه الحكومة الإيطالية وأن ليس لنا أهداف سوى المطالبة بحريّتنا. أمّا غايات إيطاليا فهي السّعي إلى قمع أي حركة وطنيّة تهدف إلى يقظة الشعب الطرابلسي وتقدّمه، نحن الآن ندافع عن وجودنا ونضحّي بدمائنا من أجل استرجاع وطننا وتحقيق الغايات الّتي نبتغيها، لذلك نحن لسنا مسؤولين عن تردّي الوضع إلى هذه الحالة. وسنواصل الكفاح ما دام أولئك الأشخاص الّذين يهددوننا باستخدام القوّة لم يسلكوا الطريق القويم في معاملتنا بالصّدق بدل الغشّ والخداع[1].

---

(١) فيما يتعلق بتاريخ ونص منشور عمر المختار فنحن مضطرون إلى الاعتماد على ما ذكره غرسياني في المصدر السابق ص٤٤ ـ ٤٦ الّذي لا يعطينا بشكل دقيق وقت صدور المنشور أو متى وصل إلى علم السّلطات الإيطالية ومتى انتشر بين الأهالي.

٣ ـ استئناف الحرب

إنّ إلغاء الهدنة من طرف الثّوار لم يتبعه على الفور استئناف العمليات القتاليّة ولكنه وضع القيادة الإيطالية في حالة تيقظ واستنفار (يُلاحظ أن المؤرّخين الرّسميين للاستعمار الإيطالي تجاهلوا ذكر إعلان (عمر المختار) حتّى يستطيعوا وصمه بالغدر والخيانة) عندما تعرض فصيل من (الضابطيّة) لكمين في قصر بن قدم وسقط منهم أربعة قتلى يوم ٨ نوفمبر كانت إجابة الجنرال (سيشيلياني) جاهزة ليتمّ استئناف عمليات التّمشيط وإلقاء القبض على المقاتلين السّابقين وقتل كلّ من يبدي مقاومة، وكان شعار الجنرال (الحد الأعلى من البطش في كل المناطق) وكان الجنرال يشعر بمرارة لعدم قدرته على الانقضاض على عمر المختار لأنه كان في الطرف الآخر من الجبل. وبالرّغم من أن المعلومات التي وصلت من مصادر مختلفة تنفي عن عمر المختار المسؤوليّة المباشرة في واقعة قصر بن قدم إلاّ أن مجريات الأحداث في ٢٤ ساعة اللاّحقة أكدت استئنافه القتال[(١)]. استغلّ (دي بونو) هذه المناسبة لشجب (موسوليني) عن السّياسة التي كان يكرسها (بادوليو) في المستعمرة وأبرق للمرشال يوم ١٠ نوفمبر يقول: «للأسف لقد وقع ما كنت أتوقّع وما أشرت إليه في بلاغاتي المتعدّدة. بعد اطلاع رئيس الحكومة على مجريات الأحداث تمت موافقته على مقترحاتي التّالية:

١ ـ قطع جميع أشكال المباحثات والتّسامح مع الثّوار ومهاجمتهم أينما كانوا.

---

(١) من سيشيلياني إلى بادوليو ٨و٩ نوفمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ إنّ المسؤوليّة المباشرة لعمر المختار في كمين (قصر بن قدم) مستبعدة لأن هذا الزعيم الأسطوري إذا أراد استئناف القتال كان في إمكانه استعمال وسائل أخرى للأعمال المباغتة ولكن الواقعة تبقى في إطار قرار عمر المختار والسّنوسيّة استئناف القتال في الجبل الّذي توقف بعد الهدنة.

٢ ـ يجب مراقبة كل السّنوسيين الموجودين في المناطق تحت سلطتنا مراقبة صارمة وعلانيّة دون إعطائهم أي اعتبار أو مراعاة.

٣ ـ لا يمكن إعطاء صفة المستسلمين إلاّ لأولئك الّذين استسلموا فعلاً.

٤ ـ القادة الّذين يقعون في الأسر يجب تصفيتهم شنقًا».

نائب الحاكم الجنرال (سيشيلياني) الّذي أثبت بشكل واضح أنه ليس في مستوى ما كلف به، يجب استبداله على وجه السّرعة حالما يمكن فعل ذلك دون إعطاء هذا الاستبدال معنى الهزيمة(١). لإدراكه هشاشة وضعه ونتيجة للوخزة القويّة التي تلقاها من رئيسه (بادوليو) (الّذي استمر في الدّفاع عنه في وجه دي بونو اندفع الجنرال (سيشيلياني) في نشاط محموم بتنظيم التّمشيط ومناورات الالتفاف والتّطويق واستئناف القصف الإرهابي وإلقاء المناشير الّتي كان يهدف منها توجيه رسالة إلى الإدارات المسؤولة عن المستعمرات والتي تتهمه بالعجز) وتُعلم إحدى هذه الرّسائل البلاغيّة في صفة أوامر يوميّة بتاريخ ١٢ نوفمبر بنصّها: غدر عمر المختار أجبرنا على استئناف الأعمال الحربيّة ضد الثّوار، حرب شاملة دون مهادنة ضدّ كلّ من يرفع سلاحه في وجه الحكومة أو من يحمله دون موافقة منها وأن الطريقة التي تمّت بها عملياته سوف تبقى مفخرة له ومصدر إعجاب لنا، الطيّارون رجعوا إلى المعسكر متوّجين

---

(١) من دي بونو إلى بادوليو ١٠ نوفمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ هذه البرقيّة وأن نقل جزء منها دي ليوني مرجع سابق ص٥٤٥ وكان دي بونو أن الوضع خطير جدًا مما دفعه إلى الإقتراحعلى بادوليو بتأجيل بدايّة عمليات احتلال فزان ولكن بادوليو أجابه بأنه يملك القوة الكافيّة لمواجهة الأوضاع في برقه حوالي ١٤ ألف مسلح منظمين تنظيما جيدًا وكذلك القوة الكافية لإعادة احتلال اقليم طرابلس (من بادوليو إلى دي بونو ١٢ نوفمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠).

بالانتصار حتّى وإن اضطرت إحدى الطيّارات للهبوط في أرض المعركة وأسر طاقمها الباسل فإنّهم يؤسرون شاهرين سلاحهم في وجه الأعداء، هذه ليست خسارة وإنّما هي أبّهة البطولة في ذلك الطّريق الطّويل من الإقدام والشّجاعة والتّضحية المجيدة للطّيران الإيطالي. إنّ قلبي كنائب للحاكم وقلوب الإيطاليين جنودًا ومدنيّين في المستعمرة تخفق على الدّوام وبشكل متناغم مع إيقاع المحرّكات ناهيك عن قلوب الطيّارين البواسل الّتي لا تقلّ صلابة[1].

لم تكن أدوار عمر المختار تتوقّع أعمالاً عدائيّة آنذاك ففوجئت يوم ١٦ ـ ١٧ نوفمبر بهجوم قويّ ومفاجئ في قصر (مراغ) بمناورة إيطاليّة محكمة ممّا اضطرها إلى التّشتت ومنيت بخسائر[2].

عزا الجنرال (سيشيلياني) هذا النّجاح لاعتماد عمر المختار على قوّة ضئيلة بسبب تضاؤل هيمنته على السّكان المستسلمين[3].

وحقيقة الأمر أنّ أدوار البراعصه والدّرسه لم يدخلوا المعركة على الفور وانغلقوا على أنفسهم في نوع من الحياد المسلّح ممّا حدا بالجنرال (سيشيلياني) لتشجيعهم في الثّبات على هذا الموقف رافضًا دعوات دي بونو الّتي تطالب بنزع سلاح الأدوار بقوة، وحتّى في هذه المرة أخطأت السّلطات الإيطالية في تقييم عمق جذور الثّورة لأن عمر المختار سرعان

---

(١) بيان الأوامر اليوميّة الّتي أصدره سيشيلياني يوم ١٢ نوفمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ١٥٠/ ٩٠/٢١ المتعلق بسلاح الطيران أنظر لي أوني مرجع سابق ص١٥٩ ـ ١٦٠ قام سلاح الطّيران في برقه بين يومي ١٢ و٢٥ نوفمبر بعشرة غارات بالقنابل والرّشاشات و٣٦٠ ساعة من الطّيران الحربي وقد استهدف تشكيلات للمتمرّدين وقوافل ونجوع مشبوهة.

(٢) من سيشيلياني إلى دي بونو وبادوليو ١٨ نوفمبر ١٩٢٩ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

(٣) لقد قدّر سيشيلياني أنّ عمر المختار قد خسر ثلثي قوّاته خلال الهدنة وفي استطاعته التّعويل فقط على ٥٠٠ مقاتل مشاة و٣٠٠ فارس وقافلة تضمّ ١٠٠٠ جمل.

ما أمسك بزمام الأمور في الجبل وبمناصرة أغلب السّكان واستطاع أن يقنع أدوار البراعصه والدرسه في شق عصا الطاعة على (حسن الرّضا) الّذي كان يرفض العودة إلى الحرب فكسروا طوق الحصار الإيطالي وانضمّوا إلى عمر المختار وبهذا تقوضت السّياسة الإيطالية في التّهدئة وتفتيت الجبهة الدّاخليّة. انتهز (دي بونو) هذه الحادثة ليوجه إلى الجنرال (سيشيلياني) في ١٠ يناير لوما قاسيا موجها إليه مباشرة وإلى (بادوليو) الّذي يدعمه بشكل غير مباشر مبرقا: (للأسف لقد حدث ما كنت أعتقد أنّه سيحدث حتّى هذه المرّة، منذ أشهر وأنا أنصح بعدم إعطاء الثّقة لأي أحد على الأقل في خمس مناسبات وكنت أصرّ على نزع السّلاح من الأدوار غير أنّ سيادتكم فضلّت ملاحقة الأوهام وأضحى جليا لسيادتكم أّننا لم نخرج بمظهر لائق حتّى هذه المرّة، حاولت أن أفهم بكلّ الوسائل بأنّ أي تساهل مع الثّوار سوف يعتبرونه نوعًا من الضعف، هذا المشهد الأخير يحمل سمات التّمرد ولتكن سيادتكم على ثقة بأنّ (حسن) لم يلحق بجماعته فقط لأنّه لم يستطع فعل ذلك لذا يجب أن تزجّوا به في السّجن، يجب أن تتّخذ الإجراءات الّتي من شأنها عدم توسع التّمرّد وإمكانيّة انضمام المتمرّدين إلى عمر المختار)[1].

وفي الوقت نفسه بعث دي بونو برقيّة لبادوليو يطلب فيها إزاحة (سيشيلياني) عن منصبه وتكثيف وتيرة القمع يقول فيها: «لقد وقعنا بشكل متكرر فيما نبهت منه وأعلمك بما بعثت به إلى بنغازي، الجنرال (سيشيلياني) أكرر أنه ليس في مستوى المهام الموكلة إليه، سوف أترك لسيادتكم الإجراءات الواجب اتخاذها بتدبر لا يفضي إلى تشتت القوّة،

(١) من دي بونو إلى سيشيلياني ١٠ يناير ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ وقد تمّ نشرها في كتاب دي ليوني مرجع سابق، ص٥٤٥.

في رأيي يجب الوصول إلى معسكرات الاعتقال وهذا الإجراء يتّخذ حالما يتم ترتيب الأوضاع في إقليم طرابلس ولكن من الضرورة بمكان إعطاء الانطباع في برقه بأن الوضع قد تغيّر كليا وفي كلّ شيء»[1].

في محاولة الجنرال (سيشيلياني) اليائسة لإنقاذ وضعه المتردّي أعلن في نفس ذلك اليوم بيانا لتشديد القمع هذا نصّه: (إلى سكّان برقه، منذ شهر أبريل وحتّى شهر نوفمبر قد تذوقتم حلاوة التّهدئة وتمتعت البلاد بالخير وقامت الحكومة بمساعدة الشعب وصفحت عن الجرائم وأفرغت السّجون وانتظرت بفارغ الصّبر أن تتسلل إلى قلوب الثّوار الرّغبة في السّلام والتّخلي عن السّلاح. كلّ ذلك كان عبثًا لا طائل منه بعد خيانة عمر المختار واستئنافه القتال وإراقته دماء جديدة باسم إدريس والسّنوسيّة. دعاياته استطاعت أن تجر حتّى أولئك الّذين أعلنوا عن ولائهم بسوء نيّة فجزء من الأدوار المسلحة التّابعة لل(حسن الرّضا) تنكّرت للالتزامات الّتي أخذتها على عاتقها وتناسوْا المنافع الّتي حصلوا عليها من الحكومة فقاموا بغارات نهب على السّكان المستسلمين وعند ما قرّرت الحكومة معاقبتهم انضمّوا إلى عمر المختار وآخرون ثاروا عندما بدأت الحكومة تطبيق النّظام وأطلقوا النّار على قوّات الحكومة وهؤلاء قد تمّت إبادتهم. حسن الرّضا الّذي اعترف بهذا الإخلال الخطير للتّعهدات فضّل الانسحاب من صفوف هؤلاء والذّهاب إلى بنغازي ليعيش حياة هانئة مع أسرته. دم يسفك من جديد وثروة تتبدّد وسجون سوف تملأ، شناعة كل هذه الأضرار تقع على عاتق عمر المختار وعلى من يدفعه للبقاء متمرّدًا وعلى كلّ من يصطف معه. استمعوا إليّ أتذكرون كلمات صاحب المعالي الحاكم العام المارشال بادوليو (لمن لا زال على العهد ولا ينضم إلى الثّوار سوف يتمتّع بالسّلام والرّفاهيّة ومن هو في

(١) من دي بونو إلى بادوليو ١٠ يناير ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

صفوف الثّوار ويأتي متخلّيا عن سلاحه وذخيرته سوف يشمله العفو والأمان مثله مثل أولئك الّذين اختاروا هذه الخطوة الحكيمة). حرب دون هوادة ومن غير حدود ضدّ كل من يركب العناد ويبقى في صفوف الثّوار وكلّ من يساندهم لإطالة هذه الأعمال الّتي ستقود إلى تخريب الوطن)[١].

يقترح المارشال (بادوليو) مع تأكيده لمساندة (سيشيلياني) إجراءات إرهابيّة جديدة ذات خطورة استثنائيّة وهي النّقطة الوحيدة الّتي تتّفق عليها كلّ القيادات الإيطاليّة: (أوافق تمامًا على الإجراءات استمر في التّمشيط وسترى بعض الأشياء مجددًا، يجب أن تتذكّر أنّه يلزم لخوض المواجهة مع عمر المختار شيئان الأول: أن يكون لنا جهاز استخباراتي قويّ، ثانيًا ضرب مفاجئ للطّائرات بقنابل خانقة، أرجو أن تصلك هذه القنابل في أقرب وقت ممكن)[٢].

بقي المارشال (بادوليو) يدافع عن سياسة الجنرال (سيشيلياني) وفي برقيّة إلى دي بونو طلب منه أي قرار مرفق بتقرير طويل يشرح فيه النّتائج الّتي تحققت في برقه في ١٢ شهرًا[٣]. كتب (بادوليو): (في يناير ١٩٢٩ لم يكن هناك حدّ أدنى من الأمن في أي بقعة في المستعمرات على

---

(١) أمر نائب الوالي سيشيلياني يوم ١٠ يناير ١٩٣٠ أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠.

(٢) من بادوليو إلى سيشيلياني ١٠ يناير ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ لم يثبت لدينا أن الإيطاليين استعملوا الغازات السّامة في قمع المقاومة اللّيبيّة ولكن بالنّظر إلى الوثائق الّتي نشرها إريك سلارنو في كتابه (الإبادة في ليبيا الفظائع الخفيّة للمغامرات الإيطاليّة ١٩١١ ـ ١٩٣١)، ميلانو، ١٩٧٩، ص٤٥ ـ ٦٣ يثبت استعمال الغاز في مناسبات متعدّدة.

(٣) من بادوليو إلى دي بونو ١٠ يناير ١٩٣٠ في جوابه على برقيّة دي بونو في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ (لا ضرورة لأي إجراءات استثنائيّة يؤكد بادوليو الوضع أصبح قادرًا وقواتنا قادرة على مواجهته).

مسافة قريبة من تمركزاتنا، يمكن أن يكون أي شخص موضوعًا للعنف، السّلك العسكري الإيطالي كان في أزمة عميقة، كان موزّعًا على نطاق تمركز كثيرة لوحات لا يوجد بينها أي ارتباط عضوي وغير قادر على القيام بأي عمل هجومي لفقدانه الخدمات اللّوجيستيّة، وكان منخفض المعنويات بسبب الحصار المستمر الّذي أوجد فيه. كما أن السّكان الأصليين كانوا واقعين بين نارين فهم مستسلمون ظاهريا للحكومة ولكنّهم مكرهون على مؤازرة الثّوار في حقيقة الأمر وحتّى الجالية الإيطاليّة كانت في قلب دوّامة أزمة خطيرة تجلّت في أزمة ثقة وما تبعها من لا مبالاة عند أغلب الموظّفين المدنيين والعسكريين الّذين كانت الوشايات تطالهم والنّميمة حتّى وصلت إلى إيطاليا وبانتشار الفساد الإداري حتّى وصل إلى صحائف الإدّعاء (لمدعي الملك) في تلك الظّروف المعقّدة)، ثمّ يستطرد التّقرير بأنّ العمل في ظلّ هذه الصّعوبات هو الّذي أجبر (بادوليو) و(سيشيلياني) على قبول الهدنة الّتي كانت بمثابة خدعة لكسب وقت ثمين وكانت تتمثّل هذه الخدعة في برنامجهما بإعادة التّنظيم الكامل للقوّات المسلّحة لتكتسب سرعة الحركة وكان غياب قوّات مدرّبة سريعة هو ما أعاق الجنرال (سيشيلياني) صيف ١٩٢٩ من تجريد الأدوار من سلاحها وشقّ شبكة الطرق في الجبل لضمان العمل وحريّة التّنقل للسّكان وقدرة القوات المسلحة على الحركة وكذلك تنظيم خط التّحصينات لحماية السّكان المستسلمين من اعتداءات الثّوار. كلّ هذه البرامج قد تحقّقت بفضل الجنرال (سيشيلياني) وحتّى غدر عمر المختار الّذي أزعج (دي بونو) تم مواجهته بهدوء. بكلّ تأكيد إنّ الوصول إلى تهدئة كاملة قد تأجل ولكن استئناف حرب العصابات قد أصبح في غير مصلحة عمر المختار وهو ما عزّز الأمل في إخماد الثّورة نهائيا وفي أقصر الآجال. كشف الحساب لسنة من العمل كان غير إيجابي في نظر (بادوليو) وقد اختتم تقريره بهذه الكلمات للدّفاع عن نائبه:

وأكرّر أنّ نائب الحاكم العام (سيشيلياني) يحظى بثقتي اللاّمحدودة)[1] غير أنّ مداخلة بادوليو قد تجاوزتها الأحداث لأن (دي بونو) لن يغير الوقت، فقد حصل من (موسوليني) منذ يوم ١٠ يناير على الموافقة باستبدال (سيشيلياني) بالجنرال (غرسياني) الّذي كان أحد القادة في إعادة احتلال إقليم طرابلس والّذي كان في تلك الأيّام تحديدًا يقوم باستكمال احتلال إقليم فزّان فاستسلم (بادوليو) للقرار[2] ولكنّه حصل على الموافقة بإبقاء الجنرال (سيشيلياني) قائدًا لقوات إقليم طرابلس أي القيادة الّتي تركها (غرسياني) والّتي كانت ذات شأن حتّى وإن كانت أقلّ أهميّة بسبب التّهدئة المتواصلة الّتي تمّت في مستعمرة إقليم طرابلس.

---

(١) من بادوليو إلى دي بونو ١٠ يناير ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ بادوليو يطلب بأن كل الإجراءات يجب تعليقها حتّى فبراير عندما يأتي إلى روما لمناقشة الوضع البرقاوي مع موسوليني ودي بونو.

(٢) من بادوليو إلى دي بونو ١١ يناير ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥٠ بادوليو إطاعة الأوامر بشكل دقيق ويعفي سيشيلياني من منصبه ويستبدله بغرسياني على شرط أن يكمل غرسياني في فزّان قبل ذهابه إلى برقه وأن يستعيضوا به الجنرال بينتور ولكن موسوليني ودي بونو لم يوافقا على ذلك.

IV. عمليّات الجبل بين سنتي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١

١ ـ غرسياني وسياسة الحزم

ارتبط اسم (غرسياني) بسحق المقاومة في برقه في السّنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ وكان بطل هذا الإنجاز من أوجه عديدة فكان صانعه الأوّل وقد مجّدته دعاية النّظام أوّلا ثمّ مؤرّخو الحقبة الاستعماريّة ثانيًا حتّى غطّت على إنجازات رؤسائه ومرؤوسيه واختزلت التّراكم الاستثنائي للظّروف المساندة الّتي حقّق بها انتصاره، وتغاضت عن أخطائه وأكثر من ذلك تناست وبرّرت الكلفة الإنسانيّة العالية لسياسته المتشدّدة.

تعدّدت أسباب هذا النّجاح بالنّسبة لدعاية النّظام وللتّأريخ الاستعماريّ، إذ كان (غرسياني) جنرال الاستعمار الإيطالي قد حظي بشهرة كبيرة لحضوره في كلّ الحملات الاستعماريّة الإفريقيّة للنظام الفاشي وكان دون شك محظوظًا ويتمتّع بقدرات كبيرة مع براعة جسديّة في الحركات والإشارات المسرحيّة والبلاغيّة والشّعارات الهادفة ممّا جعله نموذجا للبطل الفاشي، كما أنّه كان مقرّبًا من جزء كبير من القيادات العليا وذلك بسبب نشأته وترقّيه الوظيفي، لأنه لم يكن ينتمي إلى المؤسسة الملكيّة للجيش (كان ينحدر من ضبّاط الاحتياط ولم ينتسب للأكاديميّة أو المدرسة الحربيّة وإنّما حصل على رتبه في ميادين القتال) لذلك كان مدفوعًا لخرق التّقاليد التّراتبيّة ويجد مساندة من

الزّعماء الفاشيين (دي بونو في هذه الفترة وموسوليني بعد ذلك) إلى جانب القدرات الّتي أظهرها وكثرة تصريحاته وتواترها في الولاء للنّظام، وربّما كان ما يظهر ويؤكّد شغفه بالإشهار والدّعاية كتابته لسيرته الذّاتيّة الّتي كانت غنيّة بالمعلومات ونشرها المبكّر في كتابه (برقه المهدّأة) هذا الكتاب الّذي يحوي أحداث السّنتين الحاسمتين في سحق المقاومة السّنوسيّة وقد تمّ إصداره بعد سنة فقط من تاريخها والّذي يعتبر حتّى الآن وثيقة في غاية من الأهمية والفائدة. (لم يكن لدى غرسياني احترام للحقيقة عندما يرى أنّها تؤذيه رغم وثوقه من نفسه ومن حماية النّظام إلى درجة أنّه لم يشعر بالحاجة لإخفاء ما قام به من قمع) وهذا الكتاب كان بمثابة صرح فخم للدّعاية الذّاتيّة وقد كان تقبُّلُه دون أي نقد من المؤرّخين لفترة الاستعمار. فغرسياني الّذي يظهر من خلال أبحاثنا في الأرشيف مختلفًا تمامًا عن شخصيته الّتي رسمتها الدّوائر الاستعماريّة التّقليديّة من سماته الواضحة تلهّفه لتوطيد وضعه الشّخصي ممّا جعله يعتبر أصدقاءه وأعداءه بيادق قابلة للاستعمال من أجل نجاحاته ومن ثمّة كان ينسب لنفسه المسؤوليّة عن الأفعال الأكثر خطورة وبغضاء إذا وجد فيها نفعًا له كما كان يكيد لرؤسائه ومرؤوسيه دون أي وخز للضمير حتّى يتسنّى له نسبة أي جدارة أو استحقاق لمصلحته مع شعوره الدّائم والعلني بفوبيا الاضطهاد الّذي لا يجد ما يبرره إلاّ جزئيا في أوساط الوصوليّة والفساد للاستعمار الإيطالي، إنّ قدرته التّنظيميّة والقياديّة المجرّبة في الحرب الصّحراويّة الحديثة تجعل من (غرسياني) بكلّ تأكيد الخبير الأهمّ في هذا النّوع من الحروب ما بين الحربين العالميتين، إذ لم تسنح له فرصة تطبيقها في أثناء حكمه لبرقه باستثناء حرب الكُفره، لأنّ الجبل كان له خاصيّة جغرافيّة وسكانيّة مختلفة مثلما سنرى بالتّفصيل أثناء قمعه المقاومة السّنوسيّة، فقد اظهر (غرسياني) قدرة تنظيميّة وقسوة باطشة أكثر من كونها عبقريّة سياسيّة استراتيجيّة حتّى وإن عزا لنفسه كلّ

أمجاد الانتصار، وكذلك اتّضح أنّ تباهيه بمعرفة العقليّة والبيئة العربيّتين كان قليل الأهميّة لأنها لم تكن نتاج اهتمام ثقافي أو اجتماعي وإنّما كان حصيلة تجربته الطّويلة للحكم الّتي قضّاها في المستعمرة والتي كان الاهتمام فيها منصبًا على علاقة القوّة المختلطة بالوطنيّة العنصريّة. وكان اختيار (غرسياني) كنائب للحاكم العام في برقه بعد إزالة (سيشيلياني) خطوة منطقيّة بالنّظر إلى سمعته كقائد عسكري وما عرف عنه من قسوة في اللّحظة الّتي اتّفق فيها كلّ المسؤولين على ضرورة العودة إلى سياسة القمع المعمّم هو ما يمثّل انتصارًا لـ(دي بونو) والدّوائر الاستعماريّة التّي كانت تسعى لعزل (بادوليو).

عندما اتّجه (غرسياني) إلى إيطاليا في شهر مارس ١٩٣٠ قبيل استلامه مهمّة نائب الحاكم لأخذ التّعليمات الوزاريّة (وكان قد أكمل لتوّه مهمّة احتلال فزّان في يناير وفبراير) استقبله (دي بونو) وكبار موظفي إدارة المستعمرات وأبلغوه بوعدهم الصّريح بدعمه في مواجهة رئيسه المباشر (بادوليو) إذا حاول هذا الأخير الحدّ من حريّته في العمل في تغليب مواصلة التّهدئة[1].

بدت الأوامر الّتي وجّهت إليه من موسوليني جليّة واضحة على أنّها لم تكن جديدة:

١ ـ التّمييز الواقعي والمادّي بين المستسلمين وغير المستسلمين سواء على المستوى المكانيّ أو مستوى العلاقات أو التّجارة.

٢ ـ إعطاء السّكان المستسلمين الأمان والحماية ولكن مع مراقبة تحرّكاتهم.

---

(١) في محفوظات غرسياني الرّسائل الّتي بعثت إليه من دي بونو ورئيس مكتبه دي روبياس عارضين بكلّ وضوح التّحالف معه في م.د.غ ١/٢/٢.

٣ ـ عزل السّكان المستسلمين عن أي تأثير للسنوسيّة والمنع المطلق لممثلي السّنوسيّة من تحصيل أيّ ضريبة أو أيّ نوع من الأعشار.

٤ ـ مراقبة الأسواق بشكل دائم ودقيق وإغلاق الحدود المصريّة بشكل فعّال لتجنّب إمكانيّة إمدادات للأعداء.

٥ ـ تطهير ممنهج وحاسم لتجمّعات السّكان الأصليين بداية من الأماكن الحضاريّة الرّئيسة وعلى الأخصّ بنغازي.

٦ ـ استخدام القوّات غير النّظاميّة لمكافحة الحرابة من جانب الأعداء والتّنسيق معها في شنّ هجمات انتقاميّة من أجل الوصول إلى الهدف النّهائي وهو تطهير الإقليم من أي تشكيل مُعادٍ[١].

عندما وصل (غرسياني) بنغازي يوم ٢٧ مارس[٢] كانت حرب العصابات في أوجها إذ فقد الثّوار ٣٨٠ مقاتلا و١٥٠ بندقيّة في الأشهر الخمسة الأخيرة (في شهر يناير جرح عمر المختار في موقعة (وادي محجة) غير أنّ الثّوار استطاعوا قتل ٦ ضبّاط و٦ ضبّاط صفّ من الإيطاليين و٢٠١ من أفراد العسكر وكانت المبادرة دائمًا بيد عمر المختار لأنّ حريّة تحرّكاته في الجبل لم تكابد أي خناق أو تضييق[٣] فكان كلّ اهتمام (غرسياني) منصبًا على تحليل الوضع القائم مع أنه كانت لديه آراء محددة مكّنته من وضع خطة مفصلة لتحديد العلاقة بين السّكان

---

(١) من دي بونو إلى بادوليو وغرسياني ٢٤ مارس ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ وفي أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ وقد نشره غرسياني مع شيء من التّعديل المصدر السّابق، ص٤٩.

(٢) وقد أعلن غرسياني عن نفسه أنه فاشيستي منذ اليوم الأوّل الّذي ألقى فيه التّحيّة على مواطنيه في بنغازي أنّ خدمتي ستكون مطبوعة بالولاء لمبادئ الدّولة الفاشيّة وباعتباري جنرالا في فرقة عاملة في الجيش أحرص على الإعلان بأن مبادئ فاشيّة محضة، راجع غرسياني، مصدر سابق، ص٥١.

(٣) عشر سنوات من تاريخ برقه سبق ذكره.

والسّنوسيّة في هذا التّقرير الّذي بعث به يوم ٥ أبريل ١٩٣٠ لكلّ من (بادوليو) و(دي بونو):

أ ـ تبسط السّنوسيّة نفوذها في كلّ مكان وعلى كل النّاس والجميع في الحكومة يأمل في تحقيق السّلام بتنازلات وصلت إلى منح امتيازات متنوعة لها مادامت تلك الغاية لا تحقق بقوة السّلاح، جميع الوجهاء على اختلاف مشاربهم وكل السّكان المستسلمين أو غير المستسلمين يعملون ما في مقدورهم من أجل إبقاء التّمرد على قدميه أي تعكير صفو الحياة العامة هذه حقيقة مطلقة ومن ينكرها كمثل من يرفض الإبصار إلى الواقع، يلزم فعل العكس وهو الاعتراف بوجودها ومحاولة اجتثاث تأثيرها المذهبيّ من جذوره لأنه هو المسؤول عن قيادة هذه القوّة النّاعمة الّتي كثيرًا ما تفلت من تصيّدها.

ب ـ عمر المختار ليس بحوزته اليوم أكثر من ٦٠٠٠ بندقيّة وبهذه القوّة يفرض الضّرائب على السّكان المستسلمين ويحاول توجيه ضربات لمؤسّساتنا ويقوم بغارات على السّاحل كما حدث مؤخّرًا في توكره وشحات ودرنه حيث تسلّل عدد قليل من الرّجال على هذه المواقع المأهولة وخرجوا دون أن يلحقهم العقاب بعد أن ارتكبوا أعمال حرابه.

ج ـ السّكان المستسلمون مرتبطون بحركة الإخوان السنوسيّين ومريديها بروابط مذهبيّة وقرابة دمويّة، وبما أنّ أدوارها مكوّنة من رجال ينتمون لكلّ القبائل الّتي تدفع الضّرائب اختيارًا أو جبرًا لذلك تراهم يكتفون بالدّفاع السّلبي عن أنفسهم وإذا قاموا بهجوم معاكس يكون عقيمًا بنسبة ٩٩٪ وزائفًا لأنّ هذا الهجوم لو كان حقيقيا لخمدت الثّورة في ١٥ يوما.

هو ذا الواقع إن لم تتمّ معالجته وبشكل جذري سوف يستمرّ هذا الحال لعشرات السّنين الأخرى، لأنّني أستبعد أن العمليات العسكريّة مهما كانت قويّة تستطيع أن تسحق الأدوار بشكل نهائي لقدرتها من على إعادة تكوين نفسها بتعويض خسائرها بما يفعله زعماء المستسلمين أنفسهم.

من وجهة نظري إنّ الوضع في برقه يمكن مقارنته بعضو متسمّم يظهر على الجسد غدة متقيّحة عمر المختار هو هذه الغدّة المتقيحة أي ما هو إلاّ نتيجة لحالة التّلوث وحتّى يمكن للجسد أن يتعافى يلزم استئصال أصل المرض وليس أعراضه(١).

هذا التّحليل مثله مثل أشباهه الّتي استعرضناها سابقًا وهو من سمات الثّقافة الاستعماريّة الّتي تمتلك قدرة على تشخيص الواقع وجوهر المشكلة وهو المتمثّل في القاعدة الجماهريّة للمقاومة السّنوسيّة، غير أنّ ما ينقصها تمامًا هو عدم الاهتمام بالأسباب الحقيقة للثّورة وطبيعة مجتمع الجبل الأخضر.

(غرسياني) كسابقيه لا يهمّه سوى الوصول إلى الهيمنة المطلقة على الأوضاع من خلال تفتيت النّسق الاجتماعيّ والسّياسيّ التّقليديّ، ففي سنة ١٩٣٠ كانت تتجلّى الإجراءات المتّبعة في إعطاء زخم أكبر للقسوة والتّشدد الّتي تم اختبارها سابقا، خلال فصلي الرّبيع والصّيف قام

---

(١) من غرسياني إلى بادوليو ودي بونو ٥ أبريل ١٩٣٠ في م .م.د.غ. ٢/٢/١ وكذلك في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ سبق أن نشره روشا ص١٣ كان تحليلاً موسعًا ومتناسقًا غير أنه لم يكن عميقًا ذلك الّذي نقله غرسياني في كتابه المذكور سابقًا والّذي تمّ نقل ملخص منه (كان كلّ الشعب البرقاوي ضدّنا يشاركون في التّمرد سواء كانوا ممّن يطلق عليهم بالمستسلمين أو أولئك الّذين يحاربوننا في الميدان بالسّلاح مجمل القول أنّ كلّ برقه كانت متمرّدة) غرسياني سبقت الإشارة إليه، ص٥٧.

(غرسياني) بإغلاق الزّوايا السّنوسيّة ونفي شيوخها ومصادرة كلّ الأموال المنقولة والعقاريّة للحركة السّنوسيّة (هذه الإجراءات كانت حتّى ذلك التّاريخ مستبعدة لحرص الحكومة الفاشيّة على عدم استعداء البلاد الإسلاميّة) وتبعها نفي قاس للزّعماء العرب الّذين كانوا يتقاضون مرتّبات من الحكومة وكثير من هؤلاء وقعت محاكمتهم بتهمة الخيانة، كما قام (غرسياني) بمكافحة كلّ أشكال الحياد أو التّواري من الصّراع ضد الثّورة، وقام بتجريد السّكان المستسلمين من السّلاح تجريدًا كاملاً وتتبع من يتستّر على الأدوار بمحاكمات صوريّة تستوجب الإعدام بمجرّد حيازة سلاح أو دفع العشر للحركة السّنوسيّة[(١)].

كما فكّك الكتائب اللّيبيّة وقلّص سرايا السّفاري والبوليس (الدّوريّة/ المجموعات غير النّظاميّة) التي غالبًا ما ساعدت الثورة بشكل مباشر أو غير مباشر، وقام بمنع أيّ نوع من التّجارة مع مصر لتسهيل كبح التّهريب الّذي كانت له أهميّة كبيرة في اقتصاد الجبل وتغذية المقاومة ثمّ أنشأ شبكة طرقات في الجبل وهو ما فشل سابقوه في تحقيقه[(٢)]. إنّ هذه

---

(١) غرسياني أسّس ما يسمّى بالمحاكم الطّائرة الّتي تتنقّل بالطّائرة في مختلف المناطق في برقه في محاكمات لحالات التّلبس في الجرائم وكانت تعقد أمام المواطنين وتنتهي بالإعدام المباشر للمدانين، في السّنة الأولى من حكومة غرسياني أقيمت ٥٢٠ محاكمة نتج عنها ١١٩ حكما بالإعدام و١١٧ مدانا بأحكام مقيّدة للحريّة (غرسياني نفس المصدر، ص١٤٤). كان رئيس هذه المحكمة الإستثنائيّة الجنرال أوليفياري وهو محام عسكري سيتضامن من ١٩٣٧ مع غرسياني في المجازر الّتي قام بها في أديس أبابا (انظر جورج روشا محاولة اغتيال غرسياني والقمع الإيطالي في أثيوبيا ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ نجده في مجلّة إيطاليا المعاصرة، ١٩٧٥، عدد١١٨). وحسب الرّوايات الشّائعة بكثرة فإنّ غرسياني أدخل على برقه طريقة إلقاء المتمرّدين المحكومين بالإعدام من الطّائرات ولكّننا لم نجد ما يثبت ذلك في الوثائق كما لم تكن الطّائرات الموجودة في برقه يمكن أن تقوم بمثل هذه اللّعبة المميتة.

(٢) لمزيد من التّفاصيل نحيل إلى كتاب غرسياني سالف الذّكر بالرّغم من عدم دقته ولكنّه=

الإجراءات قد تمّ الإعلان عنها بسيل من البيانات الطنّانة المشيدة ببعد نظر (غرسياني) وصلابته حسب النّمط الدّعائي الفاشي الّذي يصطدم مع توجهات (بادوليو)[1] غير أنّها كانت محلّ إعجاب روما، وعلى سبيل المثال فقد أبرق (دي روبرس) مدير مكتب (دي بونو) إلى (غرسياني) مستعملاً هذه المصطلحات: الإجراءات المتّخذة وجدت استحسانًا كبيرًا لدى الوزير وحماسًا حارًا لدى المسؤولين في الوزارة وإنّ النّمط الّذي كتبت به هذه البرقيّات كانت مثار إعجاب (برافو غرسياني)[2] وقد قدّم (دي بونو) إحدى هذه البرقيات إلى (موسوليني) بهذه الكلمات: (منه ترى نموذجًا جديدًا للحكومة في استبصار الأحداث والثّقة في النّجاح نأمل فقط في أن يتركه بادوليو يعمل)[3].

=يبقى يحمل الكثير من المعلومات من المصدر الرّئيسي وحول عمليات القمع الإيطالي في برقه. انظر ساليرنو مصدر سبقت الإشارة إليه وهو مصدر مطّلع ولكنّه فوضوي وليس واضحًا وصحيحًا دائمًا.

(١) بادوليو كان يعلم كيف أنّ هذه التّصريحات تهدف إلى الرّفع من قيمة غرسياني فكان يسدي إليه النّصح في الالتزام بالبساطة وعدم التّكلف وهذه بعض الفقرات من برقيّاته له: يجب أن تعلم أنّ أفضل دعاية هي الفعل) ١٠ أبريل (التّجريد من السّلاح هو العمل الوحيد الإيجابي وكلّ ما هو عداه هو ثرثرة) ١٢ أبريل، وعندما أبرق غريسياني (استمرارًا للعمل المنتظم في تفكيك واجتثاث كافّة المواقع القائمة وكلّ الآراء المسبقة الّتي نالت في الماضي من هيبتنا وأفرغت مضمون سيطرتنا الكاملة من محتواها أصدرت الأوامر باعتقال كلّ مشائخ الزّوايا السّنوسيّة) ٢٨ مايو، فأجابه بادوليو بكلّ غلظة (لقد سبق أن كرّرت مرارًا لسعادتكم بما جاء في مقدمة برقيّتكم لذلك أرى أنّه من نافل القول إعادتها في كلّ إجراء لذلك أطلب من سعادتكم الإكتفاء بقول ما تتّخذونه من إجراء) ٣٠ مايو. كلّ هذه البرقيات المذكورة موجودة في م.م.د.غ ٢/٢/١.

(٢) دي روبياس إلى غرسياني ٢ أبريل ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١.

(٣) من دي بونو إلى موسوليني ١ أبريل ١٩٣٠ في ر.م.د.س.خ سبقت الإشارة إليه ٣٨٩ ملف بادوليو.

على هذا الخطّ تطوّرت المراسلات بين (غرسياني) والوزارة من خلف ظهر بادوليو الّذي كتب دون طائل يوم ١٤ مايو لمرؤوسه (غرسياني): (للأسف فإنّ محاولة بثّ الشّقاق فيما بيننا كان نابعًا من الوزارة، بالنّسبة لي أنتم دائمًا (غرسياني) الذي أعرفه منذ سنة ١٩٢٢ والّذي عملت معه دومًا في تناغم كامل. في حياتي العسكريّة الطّويلة لم يحدث أن حصل لُبس في علاقة مع مرؤوسي وبالتّأكيد لن يحدث معك أعرف أنّك رجل مندفع ولكنّك في أعماقك وفيّ وشهم[(١)].

إنّ انتهازيّة (غرسياني) لا بدّ لها أن تمرّ من خلال غربال الواقع وهو الانتصار في الميدان، لأنّ سياسة التّشدّد يمكن أن تضعف الثّورة إلاّ أنّ العمل العسكري يبقى ضروريًا لسحق الأدوار. فبدأ (غرسياني) الّذي يعرف جيّدًا ذلك في تنظيم القوّات المسلّحة الّتي تحت إمرته وكان تعدادها خلال الصّيف حوالي ١٣ ألف مقاتل (١٠٠٠ بين ضابط وضابط صفّ و٣٠٠٠ جندي إيطالي و٩٠٠٠ عسكري أغلبهم إرتريون يكوّنون ثمانية كتائب إرترييّة، ثلاث فصائل مصفّحات، فرقة واحدة، شاحنات، عدد٢ بطاريّة مدفعيّة متنقّلة، عدد ٢ فصائل صحراويّة، عدد٤ فصائل سفاري، إلى جانب فرقة من الميليشيات، وكتيبة لمهام الحراسة، وسريّة نقل من ٥٠٠ سيارة، ومن ٣٠ إلى ٣٥ طائرة استكشاف، وقاذفات قنابل خفيفة[(٢)].

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ١٤ مايو١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ إنّ سطحيّة ووقاحة الوزارة قد بلغت الحدّ الّذي جعل دي روبياس يكتب فيه إلى غرسياني يوم ١٣ يونيه هذه البرقيّة بمناسبة قيام بادوليو بزيارة برقه: (هذه المعلومات خاصّة بكم وتقضي بعدم جمع شيوخ القبائل للقاءه وبعدم الإستمرار في الإتّصالات على الطّريقة التّقليديّة). حتّى يعطي الإنطباع بأنّ القوّة الّتي أعطيت لغرسياني لم تخبو أمام وهن سلوك بادوليو في م.م.د.غ ٢/٢/١، أُنظر كذلك روشا في كتابه سبق ذكره ١٤ ـ ١٥.

(٢) غرسياني المصدر السّابق ص٨٠ ـ ٨٤، و(ليو) مصدر سابق صفحة ١٦٥.

بدت هذه القوّات كافية لتصفية الأدوار بالرّغم من التّجربة السّلبيّة في السّنوات الماضية، لذلك أعدّ (غرسياني) بعناية فائقة عمليّة منسّقة لعشر طوابير متنوّعة في أصنافها ومنشئها، وباستعمال عدد كبير من العربات من أجل تطويق وتدمير قوّة (عمر المختار)، واتّخذت هذه العمليات من منطقة (فايد) مقرًّا لها بإجراءات أمنيّة كبيرة حتّى يمكن استقبال الحاكم العام بادوليو للاحتفال بالنّصر[1].

في يوم ١٦ يونيه بدأت العمليّات ولكن حتّى هذه المرّة علمت الأدوار في الحال من طرف السّكان ومن العسكر الهاربين من الجنديّة الّذين قسّموا في خلايا صغيرة استطاعت أن تخترق الصّفوف الإيطاليّة وبخسائر محدودة نسبيًا (٥٠ قتيلاً و٣٢ بندقيّة تمّ الاستيلاء عليها خلال كلّ زمن العمليّات). استطاع (غرسياني) أن يتباهى فقط باحتلال الأرض وكأنّه انتصار غير أنّ (بادوليو) لم يضيّع هذه الفرصة ليضع (غرسياني) في زاوية ضيّقة فكتب: (أنتظر من سيادتكم معلومات دقيقة أرجو موافاتي بها، معلوم أنّ الهدف الرّئيسي للعمليّات الحاليّة مركّزة في الشّمال والجنوب لتلقين الثوّار درسًا قاسيًا مثلما فعلنا سويًا في منطقة (الشويرف)، ولم يكن الهدف احتلال بعض المواقع الشّيء الّذي يمكن مساعدتكم على فعله متى أردتم)[2].

---

(١) حول عمليّة منطقة (فايد) انظر غرسياني المصدر المذكور ص١٥١ ـ ١٥٣، وكذلك عشر سنوات من تاريخ برقه مصدر سبق ذكره، وحول الدّعوة الموجّهة إلى بادوليو انظر البرقيات المتبادلة بين غرسياني وبادوليو يوم ٣و٤ يونيه ١٩٣٠ في م.م.د.غ ١/٢/ ٢ حيث يوجد به طلب بادوليو من غرسياني في ٨ يونيه باطلاعه على المعلومات بشكل دقيق حول الإعداد للعمليات العسكريّة قائلاً: «بما أنّ المسؤوليّة عن كلّ ما يحدث في المستعمرتين تعود إليّ أنا بالكامل».

(٢) من بادوليو إلى غرسياني ١٩ يونيه ١٩٣٠ في م.م.د.غ ١/٢/٢.

ازدرد (غرسياني) هذه اللّقمة المريرة ولكنّه احتج بأنّ رأيه كان دائمًا يؤكّد عدم إمكانيّة سحق منظمة مسلّحة متمرّدة بالعمل العسكريّ فقط[1].

٢ ـ تهجير السّكان

بناء على ذلك أخذ (بادوليو) زمام المبادرة واقترح بقوّة ووضوح قفزة نوعيّة قمعيّة، وهي تهجير سكّان الجبل، بما هي الوسيلة الوحيدة الّتي في تضمن خلق فراغ حقيقي حول أدوار عمر المختار إذ تمثّل الرسالة التالية إشارة البداية للمرحلة النّهائيّة للمقاومة على الجبل: (لقد تركت لمعاليكم استكمال المرحلة

الأولى من العمليّات دون تدخلي المباشر سواء لعدم عرقلة العمل أو للنّزول عند رغبتكم في تأجيل موعد قدومي إليكم حتّى تنتهي العمليّات حسب البرقيّة الّتي بعثتم بها إليّ. ولكن الآن أصبح من واجبي التدخّل لأنّ مسؤوليّة العمليّات تخصّني مباشرة قبل أن تبلغ بها الوزارة. في برقه كلّ عمليات الفيالق الّتي عملت متكاتفة من مراكز انطلاق بعيدة، أو بمعنى آخر كلّ التّكتيكات الّتي تعرف بالعمليّات الواسعة، كانت وستكون دومًا فاشلة، مادامت الظّروف الحاليّة باقية على حالها. ذلك أنّ السّكان وكذلك الهاربين من الجنديّة (مثلما حدث أخيرًا ولم يكن الحال الحادث الأوّل) يتعاونون مع جهاز الحماية والمعلومات التّابعة للثّوار، لذا فأي حركة تقوم بها تصل إليهم في الوقت المناسب هذه الخدمة المعلوماتيّة القيّمة هي الّتي جعلت عمر المختار خليقًا بتمتّعه بهذه البراعة كما أنّه ليس رجلاً مصابًا بهوس العظمة كما كان عليه الأخوة (سيف النّصر) في موقعتي (بيرعافيه) و(الشويرف)، ولكنّه رجل يقيّم قوّته بهدوء ويعرف إمكانياته ويستخلص النّتائج لذلك رفض خوض الحرب المباشرة

---

(١) من غرسياني إلى بادوليو ٢٠ يونيه ١٩٣٠ م.م.د.غ ٢/٢/١.

وأخفى قوّاته. وتعزى قدرته هذه في نشر القوّات وإخفائها بشكل سريع إلى درايته بتحرّكاتنا بفضل عيونه المبثوثة هنا وهناك وزرع أتباعه بين القبائل وإعطاء الأوامر للاستسلام الشّكلي والتّراجع في الوقت المناسب. إذا تمعنت سيادتكم في تاريخ كلّ العمليّات ستجد أننا غالبًا ما كنا نستولي على قطعان المواشي ولكنّنا لم نلحق ضربة قاصمة للعدوّ بسبب استمرار الظّروف سالفة الذكر. وأكرّر هنا ما سبق أن ذكرته مرارًا من أن الغرض من مجمل هذه العمليّات ليس كما وصفتموه سعادتكم بأنّه يهدف لترسيخ أقدامكم على أرض العدوّ بعد طرده منها، ولكن الهدف الحقيقي كان ولايزال يستوجب إخضاع العدو وتوجيه الضربة القاصمة له. هذه النّتيجة لم تتحقّق لا بسبب أخطاء في الأوامر أو قصور في التّطبيق ولكن ببساطة للأسباب الّتي ذكرتها آنفا. فعمر المختار يشتّت قوّاته ما دام يشعر بالحركة من حوله ثم يقوم بتجميعها بتوجيه ضربة مباغته حتّى يشعرنا بأننا لم نحقّق شيئًا يذكر.

ما هي الطّريقة الّتي يجب اتّباعها؟ لقد أشرت إليها سيادتكم بشكل استثنائي عندما أبلغتني قرارك بترحيل أي قبيلة يشتبه بتواطؤها إلى (طلميته). يجب قبل كلّ شيء إنشاء فاصل مكاني عريض وفي غاية الدّقة بين المتمرّدين والسّكان المستسلمين، لا أستطيع أن أخفي ضخامة هذا الإجراء وخطورته بما يعني هلاك هؤلاء السّكان أو ما يسمّى بالمستسلمين، ولكنّ هذه الطّريقة قد رسمت أمامنا وما علينا إلاّ اتّباعها حتّى النّهاية ولو هلك كلّ سكان برقه. وهذا يتطلّب إذن حشد كلّ السّكان المستسلمين في منطقة يسهل مراقبتها بشكل مناسب وضرورة إيجاد منطقة عازلة منفصلة عن المتمرّدين. بعد استكمال ذلك حينئذ تبدأ العمليات ضدّ المتمرّدين.

سعادتكم منذ أكثر من سنة وأنتم تعملون بأوامري المباشرة وبمتابعة يوميّة. تعلم أنّني لا أرفض النّقاش وأنّني دائمًا على استعداد للرّجوع في

قراراتي إذا بدر ما هو أفضل من رأيي. لقد فصّلت أفكاري بشكل واضح بقدر المستطاع، وإذا كان لسيادتكم اعتراضات أرجو أن تبعث بها، وإذا لم يكن لك أي اعتراض إبدأ التّنفيذ بالشكل المشار إليه)[١].

في واقع الأمر منذ شهر مايو بدأت الاستعدادات الأوّليّة لترحيل السّكان فكان ذلك مجرّد تجميع القبائل في منطقة واحدة على أراضيهم الّتي تكون بالقرب من القواعد الإيطاليّة لتسهل مراقبتها على سبيل المثال ٩٠٠ خيمة للعبيد جمعت في سهل (المرج) و١٤٠٠ خيمة للدرسه في منطقة (طلميته) و٣٦٠٠ خيمه لقبيلة العبيدات في منطقة (درنه)[٢].

في تلك الفترة بدأ برنامج التّوسع في التّرحيل القسري ففي ٢٥ يونيه أعطى غرسياني الأوامر بتنفيذ توجيهات (بادوليو) بإخلاء الجبل ونقل كلّ السّكان إلى المنحدر أي من (طلميته) إلى شاطئ البحر[٣].

في ١ يوليو بعد عدّة اجتماعات مع (غرسياني) وجولات تفتيشيّة قام (بادوليو) بتلخيص الاستراتيجيّة في مذكّرة طويلة إلى (دي بونو) بما فيها من فقرات تخصّ عمر المختار: (التّمرد يتمحور حول شخص واحد لأنّه يتمتّع بسلطة ومهابة مطلقة، عمر المختار لا يتقاسم سلطته مع أحد، له فقط مريدون منضبطون لذلك ليس في الإمكان استعمال الوسائل المعتادة في التّسلل من خلال الغيرة والحقد والمنافسة الّتي تظهر عندما يكون ثمّة تعدّد للزعماء في كلّ الأوقات وفي كلّ الأحوال تبقى إرادته الحازمة

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ٢٠ يونية ١٩٣٠ م.م.د.غ ٢/٢/١ وقد نشر جزئيا من روشا مرجع سابق ص١٦ ـ ١٧.

(٢) غرسياني، مصدر سالف الذكر، ص٩٩.

(٣) غرسياني، مرجع سالف الذكر، ص١٠١ ـ ١٠٢ المخيمّات يجب أن تتجمّع قبل منتصف شهر يوليو في مناطق عين الغزالة، عكرمه، طبرق، درنه، شحات، طلميته، الأبيار، أجدابيا، العقيله.

بمثابة قانون، وقيادته وتنظيمه تدلاّن على البراعة والمهارة، حيازته لتنظيم استخباراتي كامل يسمح له بتجنب المعارك الّتي لا تكون في مصلحته وله جهاز صارم للتّجسّس المضاد بحيث لا تذاع معلومات إلاّ تلك الّتي يريد إذاعتها لذلك فهو يتمتّع بحماية مضاعفة. إلى جانب المعرفة الجيّدة بطبيعة الأرض وعلى الأخصّ المناطق الواسعة من الغابات والأودية المنحدرة تسهل له تحرّكاته أمّا تبّعه فهم أشخاص ليست لهم أي مهنة أو عمل منذ سنين إلاّ التّمرد إذ اعتادوا حياة المغامرة والتّشرد والحرب مدفوعين بهوس البطولة والأمجاد. إنّهم يشبهون إلى حدّ كبير (البرافي) وقطّاع الطّرق في جنوب إيطاليا في الأزمنة الغابرة وكلّ من يولّي الأدبار أو يشتبه أنّ ذلك يراوده يكون جزاؤه الموت. غير أنّه من الجليّ أنّ مجموعة كهذه رغم تمتّعها بقائد من الطّراز الأوّل وبمريدين مستعدّين لكلّ المتاعب والأخطار لا تستطيع أن تصمد لفترة طويلة أمام قوّة تبلغ ١٠ أضعاف قوّتهم على الأقلّ إذا لم تستند على تنظيم قويّ ومعقّد لضمان وجودها ومن هنا يصبح التّحليل صعبًا ومعقدًا للغاية وحتّى لا نتوه علينا أن نتمسّك بالمعطيات الإيجابيّة. فما هو ثابت لدينا بصورة غير قابلة للنّقاش أنّ السّكان يشايعون الثورة بكلّ الوسائل، ويقدّمون كلّ وسائل الحياة والحرب. في محيط مثل هذا ستعترض القيادة صعوبات عديدة وفي غاية الخطورة لذلك وجب التّأكيد فورًا على هذا المبدأ وذلك بعد أن غدر عمر المختار في العام الماضي فلا يمكن القيام بأيّ نوع من الحوار معه، لا مجال للّين والتّساهل وإنّما فقط لعملية جراحيّة، وعليه يجب رفض أيّ تدخل من قبل أفراد العائلة السّنوسيّة، أو أي من شيوخ هذه القبيلة أو تلك، سنبدأ من الأساس وهذه هي اللّحظة الّتي يجب فيها التّوضيح الكامل وبصورة شاملة. إذا توافقنا على أنّ القوّة فقط تسمح لنا بتفكيك هذه العقدة العويصة فلننظر كيف نستخدمها إذا كان بمواصلة القتال ضدّ الأدوار فقط كما حدث في

الماضي فذلك لن يأتي بنتائج مختلفة عمّا سبق، الأدوار سوف تشتت نفسها ولن تقوم بعمل لبعض الوقت ثم تبدأ بإعادة تنظيمها عندما ينفك عنها الخناق، المسلك الوحيد الّذي يجب أن يتبع أولاً وقبل كلّ شيء هو عزل الأدوار عن باقي السّكان وقطع أيّة علاقة بينهما. لا ننكر أنّ هذا الإجراء خطير ومعقّد ولا يعطي نتائج سريعة ولكنه الإجراء الوحيد الّذي أراه ممكنا وهو الآن قيد التّطبيق. كلّ القبائل سوف ترحل من أعالي الجبل وتحشر في السّفح بين الجبل والبحر.

ولكن ما هو السّلوك الّذي سينتهجه الثّوار؟ إذا أرادوا الحياة وجب عليهم تتبّع حركة السّكان عن بعد أو يضحي الاتصال والمبادلات صعبة جدًا ومتروكة للمصادفة. وبذلك سنحقّق فائدتين انتزاع الثّوار من معاقلهم في المناطق الصّعبة في أعالي الجبال فتضيق مساحة المراقبة ممّا يعطي نجاعة وتأثيرًا أكبر لعملياتنا، وفي نفس الوقت سوف نسعى لانتهاز أي فرصة لضرب قوّة المتمرّدين حتّى نستطيع تنفيذ هذا الأمر يلزمنا القيام بأمرين:

١ ـ وحدات من قوّاتنا تهاجم أوكار الثّوار وتتابعهم لتوفّر لنا المعلومات الّتي تنقصنا حتّى وإن كانت محدودة هذه المهمّة تقوم بها مجموعة (عاكف).

٢ ـ وحدات متحرّكة بروح قتاليّة متحفّزة وموالية بالضّرورة ولذلك يجب أن تكون مكوّنة من الإرتريين لحراسة مناطق بعينها يجوبونها دون انقطاع.

بذلك لن تكون ثمّة أعمال مسلّحة حاسمة وإنّما عمليات استنزاف تكون مصلحتها النّهائيّة إنهاك العدوّ. في هذا الوقت يجب عدم التّسرع والتّحلي بأعصاب قويّة وعدم الانحراف عن هذه الخطّة حتّى وإن سنحت

فرصة قد تبدو ملائمة لأنّه يجب أن تكون لنا قناعة جذريّة بأنّ هذه الفرص برّاقة ولكنّها خادعة»[1].

بعد أسبوع قام (بادوليو) بتوضيح التّحركات الجارية إلى (دي بونو) الّذي كان في طريقه إلى برقه: «إجراءات حشد السّكان المستسلمين تسير حسب أوامر صارمة، (العواقير) قد تمّ تجميعهم بين مناطق (جردينا) و(سلوق) و(قمينس) وقد وجّهت لهم صباح الأمس تحذيرًا شديد اللّهجة، وغدًا سيتمّ تجميع (البراعصه) و(الدّرسه) و(العبيد) بين (طلميته) و(توكره)، والثّلاثاء القادم سيبدأ ترحيل (العبيدات) حوالي ٧٠٠٠ خيمة بين توكره وبنغازي هذه التّحركات الضّخمة ستكون مكتملة في حدود العشرين من الشّهر الجاري، حالما يتمّ هذا التّحشيد سوف تبدأ إعادة تنظيم العائلات وإحصاء مشدّد للسّكان والماشية، ولأوّل مرّة سوف نحصل على إحصاء دقيق وحقيقيّ، موسم حصاد الشّعير سوف ينتهي مع نهاية هذه التّنقلات لذلك سوف لن يكون ثمّة سبب لتواجد أي أحد من السّكان الأصليين في المرتفعات، وأي شخص يقبض عليه في هذه الأمكنة سيعدم كمتمرّد. لقد سيطر على السّكان الإحساس بالرّعب والارتباك لأنّهم أدركوا أنّ المتمرّدين لا يمكن أن يستمرّوا بعد هذا العزل[2].

---

(١) من بادوليو إلى دي بونو ١ يوليه ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ نقل جزئيا ونشر من قبل روشا في المصدر المذكور سابقًا ص١٧ ـ ١٨. كانت خطّة بادوليو للأهالي تقضي باختصار في آخر مذكراته بأن تتّخذ في مواجهة الأهالي في المناطق المحدّدة كلّ الإجراءات الّتي من شأنها أن تخفّف عنهم الضّنك ولكن دون تخفيف الضّغط أيا كانت النّتائج المترتبة عليه.

(٢) من بادوليو إلى دي بونو ٧ يوليه ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٠/٢١/١٥ وفي نفس اليوم كتب بادوليو منشورًا إلى المسؤولين في برقه: «تحرّكات الأهالي المستسلمين يجب أن تخضع للأوامر والتّدابير الصّادرة رغم ضخامة حجم أعدادهم، الأهالي قد استقبلوا=

وفي الأسبوع الثّاني من شهر يوليه قام كلّ من (بادوليو) و(دي بونو) بزيارة برقه[1] لتفحّص الخطّة السّياسيّة والاستراتيجيّة الجديدة الّتي لا بدّ أن يكون لها انعكاس عالمي بفعل معارضة الدّوائر الوطنيّة العربيّة.

ويظهر من كلّ الوثائق أنّ (بادوليو) كان هو المبادر في تهجير السّكان وقد لخّص هذه الاستنتاجات في تعليمات للجنرال غرسياني: (أعلم سيادتكم بأنّ وزير المستعمرات قد عبّر عن ارتياحه وصادق على الطّريقة الّتي تمّ بها طرح المشكل السّياسيّ والعسكريّ للمستعمرة لم يبق إلاّ التّقيد الصّارم بهذه الخطّة ولمزيد من الدّقة في الجانب السّياسي يتحتّم ما يلي:

١ ـ أن تكتمل حركة التّحشيد للسّكان المستسلمين وأن يحاطوا بشبكة من الحراسة.

٢ ـ على موظّفينا المدنيّين أن يقوموا بإحصاء دقيق للسّكان والماشية.

٣ ـ أن تستمر ممارسة الضّغط على المستسلمين حتّى يجلبوا أقرباءهم ويقنعوهم بترك الأدوار والدّخول في النّجوع.

=هذه الإجراءات دون ردود فعل رغم قسوتها بل بالعكس فقد امتثلوا لها بطاعة كاملة كما حدث عند تجريدهم من السّلاح فهم قد أدركوا أنّ القوّة بيد الحكومة ليس ذلك فقط وإنّما فهموا أنّ الحكومة مصمّمة على اتّخاذ أشد الإجراءات للحصول على تنفيذ الأوامر بشكل كامل» م.م.د.غ ٢/٢/١.

(١) غرسياني يذكر زيارة دي بونو في شهر يونيو ويقلّل من أهميّة إقامة بادوليو اللاّحقة، غرسياني المرجع السّابق ص٩٩ ـ ١٠٠. ومن مقارنة الوثائق يتّضح أنّ دي بونو في برقه في الأسبوع الثّاني من شهر يوليو بينما بادوليو بقي هناك حوالي شهر ابتداء من العشرة الأيّام الأخيرة من شهر يونيه وذلك لاختبار عمل غرسياني وفحص مراحل العمليات القمعيّة اللاّحقة والّتي تتمثّل في تهجير الأهالي وفي كلّ الأحوال فلم يشأ بادوليو أن ينسب لنفسه هذه المرحلة الحاسمة في تدمير المقاومة البرقاويّة لأنّه لن يضيف الكثير لأمجاده تاركًا لغرسياني أن ينسب لنفسه هذا النّجاح.

لذلك يلزم التّوقف بعض الشّيء في انتظار ما تسفر عنه هذه الإجراءات فلا يجب التّسرع ويجب اتّخاذ الحيطة الكاملة من أيّ خطوات خاطئة. إذا لم تفرز إجراءات الاستسلام للمتمرّدين النّتائج المرجوّة يجب اللّجوء إلى نوع آخر من الوسائل القويّة وهي:

١ ـ تجميع كلّ أقارب المتمرّدين تحت المراقبة المشدّدة وفي أضيق معسكر للتّحشيد لجعل ظروف حياتهم أكثر عسرًا.

٢ ـ القبض على زعماء القبائل ووجهاء بنغازي الّذين قد أظهروا في السّابق أعمالاً معاديّة لنا ونفيهم إلى إيطاليا في المواقع الّتي ستعيّنها الوزارة ومن غير المفيد وضع برنامج أكثر من هذا الوقت والأحداث سوف ترشدنا إلى الإجراءات الواجب اتّخاذها. ويجب وضع فكرتنا في تضييق الخناق موضع اعتبار مع تصعيد شدّته واستمراره على المتمرّدين والسّكان المستسلمين[١].

ترحيل السّكان شبه الرّحل من الجبل (عرض بيانات بالأرقام في الباب الثّاني بالتّفصيل) قد تمّ في شهر يوليو وشهر أغسطس ودون حوادث تحت حماية الوحدات العسكريّة الإيطاليّة المتنقلة، الأدوار لم يشنّوا هجمات في ميدان مفتوح ولكنّ الحركة السّنوسيّة استطاعت أن تبقي على تواصلها مع المخيمات الجديدة ممّا اضطرّ (بادوليو) في منتصف شهر أغسطس أن يقرع ناقوس الخطر في مراسلة له مع (غرسياني): (كما يتّضح من تقرير سيادتكم أنّه بالرّغم من تحشيد السّكان المستسلمين في مخيمات على طوال السّاحل لا زالت تظهر

(١) من بادوليو إلى غرسياني ١٦ يوليو ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ نشرت جزئيا من روشا المرجع السابق ص١٧ فقد أعرب دي بونو بعد مغادرته برقه عن توافقه التّام مع بادوليو موضّحًا وحدة المقاصد والعمل بين المسؤولين عن السّياسة الإيطاليّة في المستعمرة دي بونو ١٧ يوليو ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١.

وبأشكال مختلفة خروقات لهؤلاء المستسلمين لمصلحة المتمرّدين، لقد أشرت إلى احتمال أنّهم لا زالوا يدفعون العشر من خلال وضعهم المواشي خارج الخطوط المسموح بتجاوزها ويدعون بأنّها كانت نتيجة لغارات نهب ولكن كلّ ذلك يدعو للاعتقاد بأنّها لم تكن إلاّ شكلا من أشكال تسليم المواشي للثّوار كما هي العادة، يعني ذلك أنّ شبكة الحماية أو بمعنى آخر العزل حول السّكان لم تكن مكثّفة وقادرة على توفير الضّمانات الّتي تمنع أي تواصل مع الخارج)[1].

(غرسياني) طلب وقتًا إضافيًا آخر حتّى يستطيع تنفيذ الأوامر الجديدة واستكمالها مخاطبًا بادوليو: (مع تحفّظي بكتابة تقرير مفصّل لسيادتكم سوف أسرع بتحديد بعض النّقاط الأساسيّة بعجالة:

- ترحيل الخاضعين إلى المناطق الشّاطئيّة لم يكتمل حتّى الآن لأنّ مخيّم (الحنيه) لا زال في طور الإعداد وسينتهي العمل فيه آخر الشّهر، ترحيل هذه الأعداد الكبيرة من السّكان والمواشي والخيام تتطلب عملاً حمائيًا شاقًا من قبل الوحدات العسكريّة الّتي استخدمت بكاملها وقامت في نفس الوقت وفي كافّة المواقع بالحماية ضد محاولات المتمردين وبنتائج مثمرة منعت أي هجمات مباغتة على طوابير المرحّلين الّتي وصل طول بعضها ١٦ كلم كما في حالة قبيلة العبيدات، كما أنّ العمل جاري في ثمانية مواقع لشقّ الطرق التي سيعهد بحمايتها لكتيبة مكوّنة من مجموعة سرايا منتقاة من كل الكتائب.

بعد العمليات الأخيرة في شهر يونيه قامت الأدوار بإعادة الانتشار في مجموعات قليلة من البطنان حتّى منطقة سرت ممّا اضطرّنا للقيام بمراقبة

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ١٣ أغسطس ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ وفيها يقترح بادوليو تكريس قوّة أكبر من القوّات المتحرّكة لمراقبة معسكرات الاعتقال.

دائمة لكلّ المنطقة لذا فإن تنظيم حراسة مشددة على المخيّمات للسكان المستسلمين ستعود تدريجيًا إلى طبيعتها وسنتخذ إجراءات هيكلة القوّات المسلّحة بشكل نهائي.

أنا على قناعة بأنّ ظاهرة التّستر قد بدأت تفقد الكثير من حضورها ولكنّها لم تنته بعد ولذلك يلزم الاستمرار في التّشدّد على نفس إيقاع ما نفعل الآن حتّى نتوصّل إلى اجتثاثها باعتبارها مظهرًا له صلة بالتّضامن الرّوحي. وفي الختام أعتقد أنه قد بات جليًّا الآن أنّ تطوّر المرحلة الأولى لابد أن يستتبع بمرحلة أطول حتّى تعود الأوضاع إلى حالتها الطبيعيّة»[١].

من أجل القضاء على العلاقات بين السّكان المهجّرين وحرب العصابات في الجبل تقرّر في شهر أغسطس نقل العدد الأكبر من المخيمات إلى المنطقة السّاحليّة بين بنغازي والعقيلة وتمّ ذلك خلال فصلي الخريف والشّتاء، وفي الوقت ذاته أصبحت ظروف الحياة في مخيّمات الاعتقال لا تطاق: (كلّ المخيمات طوقت بالأسلاك الشّائكة، وكلّ الأغذيّة خضعت لنظام الحصص، والمراعي مراقبة والتّجوّل يخضع لتصاريح خاصّة)[٢].

كما أقرّ (غرسياني) أنّه أعطى الأوامر لمصادرة كلّ المواشي الّتي وجدت خارج الخطوط المسموح بها وقرّرت الدّولة بكلّ برود أن توصل

---

(١) من غرسياني إلى بادوليو٢١ أغسطس ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١ ويمكن ملاحظة هذا الإعتراف النادر لفكرة (التّضامن الرّوحي في التّمرد).

(٢) غرسياني مصدر سابق ص١٠٤، ويمكن أخذ صورة مكتملة حتّى من الصفحات من ١٠٣ ـ ١٠٩ مع ملاحظة أنّ التّواريخ المذكورة غير دقيقة بشكل عام وأنها كانت ترمي لاستباق الأحداث.

السّكان إلى المجاعة إذا لم يخضعوا إلى الأوامر وبشكل مطلق كانت هذه الأوامر واجبة الاتباع من جميع ممثلي الدّولة في النّواحي النّائية[1].

وتنفيذا لتعليمات بادوليو تمّ إنشاء مخيم (العقيله) الّذي أصبح معسكر عِقابٍ لأسر الثّوار ومثيري القلاقل واحتوى ٧٠٠٠ شخص كما حصل (غرسياني) على الموافقة في نفي حوالي ٤٠ شخصًا إلى جزيرة (أوستيكا) وهم شخصيات من الحركة السّنوسيّة وبعض الوجهاء[2].

ثمّ اقترح في نوفمبر نفي ١٥٠ شخصًا آخرين كان قد قبض عليهم للتّو وكتب غرسياني: (السّكان يجب أن يحكموا بهذه الكيفيّة دون زعماء وتحت التّأثير المباشر لموظفي الحكومة يساعدهم في ذلك (المدراء) الّذين سوف أنتقيهم بين (الشمباشيّة القدماء) ومن الكتائب اللّيبيّة والضّابطيّة)[3].

---

(١) غرسياني مصدر سابق ص١٥ حتّى يضمن طاعة المستسلمين أدخل مبدأ المسؤوليّة الجماعيّة وهو مساءلة نجع كامل عن أعمال قام بها بعض أفرادهم وإليكم مثالا على ذلك أقتبس من أحد مناشير غرسياني يوم ٧ أكتوبر ١٩٣٠ بمنشور يعمّم على الأهالي بعد هروب خمسة رجال من قبيلة العبادلة البيض (قمت بعقاب كافة أعضاء النّجع البالغ ٨٠ خيمة بمصادرة كلّ مواشيهم ونقلهم جميعًا إلى معسكر (العقيله) ونفس العقوبة سوف تطبّق في المستقبل على أيّة قبيلة تقوم باقتراف نفس الجرم لأنّه من غير الممكن قبول فكرة أنّ زعماء وأهالي هؤلاء لا يعرفون نوايا الهاربين) غرسياني مصدر سابق ص١٠٥

(٢) ليست لدينا بيانات كافية حول المنفيين من زعماء التّمرد إلى إيطاليا وكلّ ما لدينا أنّه في ٢٨ سبتمبر أبحر إلى جزيرة أوستيكا ٣ من مشايخ الزوايا مع الحسن الرّضا، غرسياني مصدر سابق ص١٢٧، وفي ١١ أكتوبر تبعهم ٨ آخرون من الأعيان. مثبت في رسائل متبادلة بين غرسياني والوزارة في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ وفي شهر فبراير التّالي نفي إلى أوستيكا زعيم من السّنوسيّة تمّ أسره في الكُفره وبعض هؤلاء المنفيين نقلوا إلى جزيرة فينتوأني وكذلك إلى جزيرة ترياميتي.

(٣) من غرسياني إلى بادوليو ودي بونو ٤ نوفمبر ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠=

٣ ـ منعطف العمليّات في الجبل

بعد فشل العمليات الكبيرة لتطويق الثّوار في منطقة (الفايديه) في شهر يونيه حدث تغيّر عميق في الاستراتيجيّة الإيطالية على الجبل فقد تمّ التّخلي عن أوهام سحق الأدوار في معارك ميدانيّة حاسمة لاتّباع استراتيجيّة استنزاف بعيدة المدى تستند إلى قاعدة تهجير المواطنين. حسب مقولة شهيرة لماوتسي

تونغ «إن المقاتل أو الفدائي يجب أن يعيش في محيطه مثل سمكة في الماء» وفي الواقع إنّ قوّة المقاتلين السّنوسيين كانت تنبع من تضامن المواطنين أكثر ممّا تضفيه الطّبيعة التّيبوغرافيّة الجبليّة الصّعبة للأرض وبدفع تصور ماوتسي تونغ إلى غايته القصوى تضحى الطّريقة الأكثر جديّة في القضاء على (السّمك المقاتل) أو هو غزال الماء بالكامل أو بمعنى آخر القضاء على المحيط الّذي يعيش فيه بكلفة سياسيّة وإنسانيّة عالية يمكن تخيّلها وهي في مجملها مجرّمة غير أن إيطاليا الفاشيّة كانت مستعدة لتحمّل هذه الكلفة لأن الرّأي العام الوطني قد تم تحييده بعناية من خلال حجب الوقائع المرعبة للقمع في المستعمرة وكذلك الرّأي الأوروبي ما كان معنيا بمصير شعب صغير بالشّمال الإفريقي (كان الفرنسيون والإنجليز والبلجكيون والإسبان قد قاموا كذلك بمذابح أكبر من تلك) لذلك استطاع (موسوليني) و(دي بونو) أن يصدروا الأوامر لبادوليو وغرسياني بتهجير سكاّن الجبل دون قلق كبير، بحيث يحرمون المحاربين السّنوسيين من قاعدتهم الجماهيريّة مصدر إمداداتهم ومحيط

=وكان نفي هؤلاء لم يحدث مشكلة ماليّة كما بيّن غرسياني لأنه في لحظة اعتقالهم تمّ إيقاف صرف عطاياهم الماليّة وقد رفض موسوليني نفي ١٢٠ زعيم آخر كانوا سينقلون إلى إيطاليا وتمّ اعتقالهم في (بنينه).

تحركاتهم، وبما أنّ تقنية ذلك العصر ليس في قدرتها تدمير الجبل بغطائه النّباتي فكان تهجير ٨٠,٠٠٠ من السّكان ومئات الآلاف من الماشية كفيلا بتحويل الجبل الأخضر إلى صحراء مجرّدة من الحياة والموارد.

إبتداء من شهر يولو ١٩٣٠ كان باستطاعة (بادوليو) و(غراسياني) التّعويل على انهيار المقاومة على المدى المتوسّط بشروط هي محاصرة أي نوع من الإمدادات وإيقافها مع الضّغط العسكري على الجبل حتّى إن لم تحقّق نتائج كبيرة ملموسة، إلاّ أنها تمنع الأدوار من التقاط الأنفاس وإيجاد خيار تكتيكي آخر. بهذه الاستراتيجيّة الجديدة لم يعد ضروريا تغيير البرامج العسكريّة الإيطاليّة في الجبل التّي كانت ترتكز كما في السّابق على وحدات متحرّكة مكوّنة كلّ منها من كتيبة إرتريّة ووحدة سفاري كما كان يتحتم تغيير عقليّة القيادات الإيطالية الّتي اعتادت الخروج الرّوتيني المريح للقيام بسلسلة عمليات خفيفة وقصيرة وتسويقها وكأنّها معارك حاسمة، لذلك ما فتئ (بادوليو) و(غرسياني) يوجهان النقد للدوائر العسكريّة الإيطاليّة في برقه مستعملين كل هيبتهم للضّغط على الضبّاط الإيطاليين لإقناعهم بضرورة القيام بنوع جديد من القتال أكثر جديّة ومبني على استمراريّة الحركة ويستهدف وضع الأدوار في حالة استنفار مع قليل من الصّدام بدلا من تحقيق انتصارات كبيرة في الميدان ويقول (بادوليو) في إحدى النّشرات الموجّهة للقيادات المسلّحة في برقه يوم ٧ يونيو: «أرغب أيّها السّادة الضّباط أن تصلكم جميعًا كلمتي هذه التي تحمل التّأنيب والتّحريض، يجب التّخلي نهائيا عن الطّريقة العربيّة في إطلاق الرّصاص من مسافة بعيدة واعتبار إرغام العدوّ على التّراجع باعتباره نتيجة مرضيّة، هذا الأسلوب لا يوصل إلاّ لإطالة الحرب إلى ما لا نهاية كما يتعارض مع الطّبيعة القتاليّة والحماسة الهجوميّة لعساكرنا الإرتريين البواسل لذلك يجب استعمال إطلاق النّار في الحدود الضيّقة واعتماد الأساليب الرّاديكاليّة في الهجوم بالأسلحة البيضاء والمطاردة

الّتي لا تقف أمام أي عائق، وملاحقة شرسة لا تعرف اللّين فتكون عمليّة قنص للمتمرد وبذلك يثمر كلّ عمل جسور. مع اعتماد التّضييق على المتمردين دون استرخاء أو تردّد وفي نشاط دائم بلا هوادة وبلا حدود ولا يستمرّ لأيّام أو أشهر وإنّما لسنين متوالية حتّى يعطي نتائجه النّهائيّة»[1].

في منشور آخر بعد شهر من منشور (بادوليو) طالب (غرسياني) كذلك بشحذ المزيد من الرّوح الهجوميّة: بعد الإخلاء الكامل للنُّجوع في الجبل والّذي سيتم خلال أيّام ليبقى الميدان مفتوحًا وخاليًا من العوائق أمام القوات المسلحة الّتي يجب أن تعمل في وحدات متحرّكة وكل قائد من قادة الأقسام ستكون تحت إمرته كتيبة إرتريّة وفصيل مسلّح يمكّنه من التّفوق في كلّ الظّروف فحسب المعطيات الحاليّة يجب استمراريّة الحركة حتّى وإن كانت دون هدف واضح كما يجب عدم الاهتمام بالمعلومات الّتي تعوزها الدقّة بنسبة ٩٩٪ وأنّ اقتفاء أثرها سيكون في خدمة العدوّ كما يجب تفتيش الأراضي في كلّ زواياها والبحث عن كلّ المتمرّدين وإخراجهم من مخابئهم وقتلهم في كلّ يوم ومنع الاحتشاد في تجمّعات والسّعي إلى المباغتة على الدّوام وعدم البوح بالأسرار والأخذ بالمكر والخداع مع ضرورة التّذكر دومًا أنّنا هنا في حرب حقيقيّة وقد ذكرت آنفًا أنّ من مفاتيح انتصار المجموعات المتحركة هو ألاّ تخلد للرّاحة أو المهادنة وأن ينسوا حياة الحيطان وأن يناموا دومًا تحت الخيام وأن يتحركوا على الأرض جيئة وذهابًا تحت الشّمس والمطر في كلّ وقت وفي كل فصل، والإجراءات الّتي كانت تعتبر ممكنة التّطبيق تمّ اتخاذها في أربعة أشهر من أجل توضيح الواقع السّياسي وإزالة كلّ العوائق الّتي تعترض القوّات، من هذا اليوم أنتظر من

---

(١) منشور بادوليو ٧ يوليه ١٩٣٠ سبق ذكره.

القوات عطاء أكبر من ذلك ذاك الّذي أعطوه حتّى الآن كي أستطيع حقيقة أن أقول لهم (لكم) كلّنا نستطيع أن ندرك معنى هذه الصّيحة وأن نجنيها بشرف[1].

كان (بادوليو) قلقًا من عدم إمكانيّة الحصول على تشديد الخناق بشكل دائم في الجبل وكان يتابع بكل انتباه سير العمليات كما يظهر من برقياته: (من التّقرير الأسبوعي أرى أن مطاردة (البدوي) مستمرة وذات نتائج مهمّة وأنّ الإمدادات من الحدود أصبحت عسيرة فالخطّة إذن جيّدة وعلى الجميع أن يقتنعوا أنّ شعارنا الآن هو اللاّإسترخاء، ستكون مسألة وقت ولكن هذه المرّة سينتهي التّمرد (برافو غرسياني استمر)[2].

ويعيد (بادوليو) في مناسبة أخرى: (أسجّل غبطتي وامتناني لكلّ الضّباط والجنود الّذين شاركوا في العمليّة العسكريّة الأخيرة. وأكرّر على مسامعهم الكلمة المأثورة (لا للتّراخي) واستمرار هذه الوطأة السّاحقة سوف يحسم هذه المعضلة التي تثقل كاهل الوطن)[3].

في ١ أكتوبر عاد (غرسياني) لهذا الموضوع مجدّدًا من خلال منشور موجّه لكلّ الضباط والموظّفين لخّص فيه الإجراءات التي اتخذت في ستة أشهر من حكومته والنّتائج التي تحقّقت والخطط المستقبليّة: «على المجموعات العسكريّة المتحرّكة في الجبل أن تتحوّط تحتاط لحماية ورش شقّ الطّرق وحركة المرور وأن تتحفّز ككلاب العراك للانقضاض على الأدوار المتمرّدة بنهشهم وتتبّعهم في كلّ مكان وعندما تسنح الفرصة يقومون بسحقهم فينازلونهم رجلاً رجلاً حسب ما تسمح به حرب العصابات العسيرة وما تفرض علينا فعله فرحين باستمراريّة

(١) منشور غرسياني ١٦ أغسطس ١٩٣٠ وقد نقل في كتاب عشر سنوات من تاريخ برقه.
(٢) من بادوليو إلى غرسياني ٩ سبتمبر ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١.
(٣) من بادوليو إلى غرسياني في ٩ أكتوبر ١٩٣٠ في م.م.د.غ ٢/٢/١.

النّجاحات رغم محدوديتها، ألاّ يتركوا المجال أبدًا لمباغتتهم لأنّه إذا حصل ذلك فسيمنون بالهزائم، لقد نسوا حياة الدّعة ويعيشون تحت الخيام في كلّ الأحوال الجويّة، وعلى أي نوع من الأراضي يقاتلون مهاجمين ويطلقون القليل من النّيران مستعملين في أغلب الأحوال السّلاح الأبيض بمعنى أنّهم يهاجمون دائمًا وفي كلّ مكان، لا يعرفون هدنة أو توقفا، ينازلون العدو ندًّا لندّ بل هم أكثر قوة ونشاطًا»[1].

في نفس هذا المنشور عرض (غرسياني) التّنظيمات العسكريّة الجديدة في المستعمرة وإعادة نشر القوات المتحركة كما يلي:

١ ـ المنطقة العسكريّة مرماريكا (البطنان) الكتيبة الإرتريّة الثّالثة عشر ووحدة مصفّحات وخمسون فارسًا غير نظامي.

٢ ـ المنطقة العسكريّة للجبل ٤ كتائب إرتريّة، السّادسة عشر ومقرّها (القبه) والثّامنة عشر ومقرّها (بلقس) والخامسة عشر ومقرّها (مراوة) والواحدة والعشرون ومقرّها (جردس العبيد) مع أربعة

---

(١) منشور غرسياني في ١ أكتوبر ١٩٣٠ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ وننقل هنا لائحة الإجراءات التي اتخذها غرسياني:
أ ـ تجريد الأهالي من السّلاح وكان حصيلته منذ أول أبريل ٥٢١٨ بندقيّة و١٥٣ مسدس و٢٠٨ إطلاقة.
ب ـ تخفيض عدد المجندّين غير النّظاميين المسلّحين ببنادق نموذج ١٨٩١ إلى ٩٠٠ مسلح وقد تمّ اختيارهم بدقة وبمراقبة مشددة.
ج ـ إلغاء الكتائب اللّيبيّة الّتي لازال يظهر عليها التّأثر بالتّشيع للتمرد.
د ـ تشريع عقوبة الإعدام على كل من تثبت عليه تهمة التّواطئ مع المتمردين أو الهروب من الجنديّة.
هـ ـ حشد نجوع منطقتي البطنان وسرت تحت أقدام الجبل وعلى السّواحل.
و ـ إقفال الزوايا السّنوسيّة ومكافحة التّأثير السّنوسي أينما كان.
ز ـ إغلاق تام للحدود البريّة مع مراقبة مشدّدة للحدود البحريّة مع مصر.

سرايا سفاري ومجموعات غير نظاميّة في درنه تقدر بـ ١١٠ رجل وفي شحات ١١٠ رجل بعضهم من الفرسان وفي المرج ٢٧٥ رجلاً.

٣ ـ منطقة بنغازي كتيبتان من الإرتريين الكتيبة السّادسة عشر في الأبيار والثّانية في سلوق وسريّة من المصفّحات ومجموعتين من غير النّظاميّين تتكوّن من ١٠٠ فارس.

٤ ـ المنطقة العسكريّة أجدابيا سريّة مصفحات وسريتان من السّفاري[1].

المنطقة العسكريّة المسؤولة على الحرب ضدّ قوّات (عمر المختار) هي منطقة الجبل وقائد هذه القوة هو المقدم جوزيبي مالطا (Giuseppe Malta) منذ بداية شهر يوليو الّذي ترقي فيما بعد إلى رتبة عقيد وكان أحد أفضل الضّباط في منطقة طرابلس قبل ذلك، ففي تقريره المتميز حول عمليّات الجبل من شهر يوليو ١٩٣٠ إلى شهر ديسمبر ١٩٣١ قد أعطى نبذة في ديباجة التّقرير عن القوّة الّتي يعتمد عليها (عمر المختار) في صيف ١٩٣٠ حسب معلومات القيادة الإيطالية: «دور البراغيث (عبيد

---

(١) منشور غرسياني ١ أكتوبر ١٩٣٠ الّذي سبقت الإشارة إليه. وفي ديسمبر أنشأت كتيبة إرتريّة ثامنة من أفراد جمعوا من كتائب أخرى وكان يأتي آخرون للإنضمام إليها وأوكل لها منطقة أجدابيا لتحل محل السّفاري الّذين اتجهوا لاحتلال واحة الكفره وأضيفت للقوات المتحركة مجموعة (عاكف) الّتي كانت تحتوي على بضع مئات من الفرسان الطرابلسيين الّذين أتوا مع غرسياني لمطاردة الأدوار في الجبل، وبالرّغم من الأمال التي كانت معلقّة على مجموعة (عاكف) لم تحقق هذه المجموعة نجاحًا يذكر فقلّص من أعدادهم وبعد ذلك أرجعت إلى مواطنها مع العلم بأن المشاة والفرسان في القوات المتحركة كانت مشكّلة من الإرتريين واللّيبيين فقط فيما عدا القادة بينما القوّات المتمركزة في الحاميات والتي لم تدج هنا وكذلك الوحدات الفنيّة مثل الطيران والنّقل والمدرّعات فكانت مؤلّفة من الإيطاليين فقط.

وعواقير) تحت إمرة عبد الحميد العبّار ٣٠٠ رجل، دور البراعصه والدرسه تحت إمرة (عثمان الشّامي) ٣٨٠ رجلاً، دور الحاسه والعبيدات تحت إمرة (الفضيل بوعمر) ٣٨٠ رجلاً ومجموعة أخرى من البراعصه ٥٠ رجلاً والدرسه ٤٠ رجلاً»[(١)].

مثلما أشرنا كان تهجير سكّان الجبل قد سهل بشكل كبير مهمّة (جوزيبي مالطا) الّذي انصبّ اهتمامه فقط على استنزاف الأدوار المستعصية والّتي خارت قواها بسبب انقطاع الإمدادات[(٢)].

فقد كتب مالطا أنه اقترح هدفين:

١ ـ فقزة نوعيّة في استخدام الفرق المتحرّكة.

٢ ـ إنشاء مكتب للإستخبارات

حتّى يتحقّق الهدف الأول كان لا بدّ من تحسين مستوى تدريب القوات وإكسابهم عادة العمل الجماعي في كلّ الظّروف إذ لم تكن هناك حاجة للقيام بعمليات عسكريّة كبيرة بقيادة من مركز العمليات استنادًا إلى معلومات غالبًا ما تكون غير مكتملة ومتأخرة والاستعاضة عنها بسلسلة من عمليات التّمشيط والتّطهير المستمرّة، بهجمات سريعة كلّما حدث احتكاك فتهرع تشكيلات النّجدة الفوريّة بمبادرة القوّات المتحرّكة ليس

---

(١) جبل برقه العمليات النّهائيّة ١٩٣١ تقرير كتبه العقيد مالطا يتكوّن من ٨٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة محفوظ في أ.م.ت.ج ١٤/١٥٨ وهو تقرير مفصّل بالغ الأهميّة حتّى وإن كان يحاول عزل هذه العمليات عن إطار الحرب الشّاملة وسنشير إليه بعبارة تقرير مالطا.

(٢) فيما يتعلّق بعمليات الجبل ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ يجب مراجعة (عشر سنوات من تاريخ برقه) في المحل الأول وهو مرجع سبق ذكره، وكذلك تقرير مالطا السّابق لأن كتاب غرسياني يعتمد بشكل كبير على هذه الوثائق رغم أنّه أقلّ مصداقيّة في المجمل.

للاشتباك مع القوّات المعادية فقط بل لقطع الطّريق عليها ومنعها من الانسحاب بمبادرة ذاتيّة ودون انتظار للتّعليمات.

خلال فصل الصّيف كانت قوّات (جوزيبي مالطا) مكرّسة لحماية تهجير السّكان ولكن ما بين شهر سبتمبر وديسمبر استطاعت أن تلتحم في القتال مع الأدوار عشرات المرّات محرزة انتصارات مهمّة كما في شهر سبتمبر في منطقة شحات (حوالي ستين قتيلاً من بينهم الفضيل بوعمر أحد أهمّ مساعدي عمر المختار) وفي أكتوبر في (وادي السّانيه) حوالي سبعين قتيلاً وعمر المختار نفسه قد أرغم على الانسحاب تاركًا نظّارتيه في أيدي الملاحقين بسبب هربه المتسرّع. في الحالات الأخرى استطاعت الأدوار الانسحاب بأقلّ الأضرار وكانت خسائرهم لا تتعدى ١٠ أو ١٥ قتيلاً وعددًا من البنادق ممّا برهن من النّاحية التّكتيكيّة أنّ حرب العصابات لا زالت متماسكة رغم انتقال المبادرة إلى الجانب الإيطالي، ففي الفترة ما بين سبتمبر وديسمبر لم يتمكن الثّوّار من أخذ زمام المبادرة إلاّ مرّة واحدة حيث قاموا بالهجوم على قافلة من الإبل في نواحي درنه كما أصبحت خسائر الأدوار تعوّض بصعوبة كبيرة بعد انقطاعها وعزلها بمعسكرات المهجرين ولم يتسنّ لقوّات (عمر المختار) إلاّ الاعتماد على المساعدات الّتي تستطيع الحركة السّنوسيّة إرسالها من مصر في رحلة طويلة وبطيئة وخطيرة[١].

الهدف الثّاني للمقدّم (مالطا) في إنشاء جهاز استخباراتي ناجع فلم

---

(١) في النّصف من سنة ١٩٣٠ فقدت الأدوار حوالي ٢٥٠ رجلاً و١٤٠ بندقيّة (عشر سنوات من تاريخ برقه) مصدر سابق. وهي أقل من الخسائر التي تكبدتها الأدوار في السّنوات السّابقة ومن المرجح أن تكون الأعداد التّي أعلنت عنها السّلطات الإيطالية بعد تهجير الأهالي القسري هي أرقام للمحاربين الحقيقيين بينما قبل ذلك فكانت أعداد القتلى تضم حتّى النّساء والرّعاة الّذين قتلوا من قبل القوات الإيطالية خلال العمليات الحربيّة بنيران رشاشات الطيران بقصد إدخال الرّعب في روع الأهالي.

لـم يستطع تحقيقه إلاّ جزئيًا، فالتّجربة اليوميّة أثبتت أنّ امتلاك القدرة على سحق الأدوار يتطلّب تحديد مواقعها وتتبّعها باستمرار ودقّة الأمر الّذي لا يستطيع الطّيران القيام به، وبما أنّ تهجير السّكان قلب المعادلة جذريا وذلك بحرمان الثّوار من جهاز استخباراتهم النّاجع الّذي كان يتأتّى من مراقبة السّكان لتحرّكات القوّات الإيطاليّة وإبلاغها للثّوار كما كان في السّابق وهذا ما فسّر صعوبة القدرة على أخذ زمام المبادرة، ففي ظلّ هذه الظروف المستجدة تمكّنت القيادة الإيطالية من أن تبدأ في محاولة تنظيم جهاز استخباراتيّ ـ إذ لو حدث هذا في ظروف عاديّة لاستطاع الثّوار تدميره على الفور ـ وإيجاد أشخاص على استعداد للتعاون بشكل أسهل من ذي قبل من أجل طرد قوّات السّنوسيّة. ففي خريف ١٩٣٠ نجح المقدم مالطا في الحصول على بعض المخبرين الموثوقين والّذين تمّ تجنيدهم من الحاكم المدني للجبل داودياس (Daodiace) حيث انتقاهم من المجموعات المتعاونة من قبل، هؤلاء المتعاونون هم من ساهموا في انتصار وادي (السّانيه) في شهر أكتوبر حيث قاموا بتحديد مواقع الأدوار وقيادة القوات المتحرّكة إليها، غير أن الثّوّار أدركوا خطورة هذا التّهديد فقاموا بملاحقة هؤلاء الجواسيس والقضاء عليهم فكتب مالطا: (لقد وجدنا الطريقة الصّحيحة ولكنها تتطلب تقوية الجهاز وذلك ليس بإيكال المهامّ لأفراد بعينهم وإنما لخلايا استكشافيّة لها القدرة على التّعامل مع الهجمات)[1].

٤ ـ استنزاف حرب العصابات في الجبل

في فصل الشّتاء تحوّل الاهتمام من الجبل إلى الصّحراء من أجل الاستيلاء على واحة (الكفره) الّتي امتصّت القدر الأكبر من الموارد

(١) تقرير مالطا سبق ذكره.

المتاحة وعلى الأخصّ الطّيران والسّيارات والإبل والمؤن، إذ كانت واحة (الكفره) مركز الحركة السّنوسيّة وهي المنطقة الوحيدة الّتي لم تصل إليها القوّات الإيطاليّة وكانت محميّة طبيعيًا بما توفّره ٨٠٠ كلم من الصّحراء فهاجر إليها مئات الثّوار من مناطق إقليم (طرابلس) و(فزّان) وبقى العلم السّنوسي يرفرف عليها غير أنّ هذه الصّحراء العصيّة قد تمّت الهيمنة عليها بفضل التّفوق التّنظيمي والتّقني الإيطالي فدحرت كلّ الغزوات الّتي انطلقت منها بكلّ سهولة من قوّات المقدّم ماللّيتي (Maletti) أحد الضّباط الاستعماريين المجربين والّذي كان على رأس قيادة القوّات في منطقة أجدابيا لذلك ما عادت هذه الواحة تشكّل خطرًا على الاحتلال الإيطالي ولكن احتلالها أملته اعتبارات الهيبة والنّفوذ.

فكلّف (بادوليو) (غرسياني) بهذا العمل وبعد استعدادات ودراسة دقيقة قاد حملاته بين شهري ديسمبر ١٩٣٠ويناير ١٩٣١ وكانت متكوّنة من مجموعة من الفصائل الصحراويّة (مهريستي ليبيين) وسيارات مصفّحة وطائرات استكشاف وشاحنات وآلاف الإبل فوصل إلى الواحة واحتلها. كل ذلك لم يتم دون عنف وانتقام ضد السّكان فكتب غرسياني: (احتلال الكفره كان ضربة موجعة لهيبة السّنوسيّة وأحبط معنويات الثّوار الّذين كانوا يقاتلون في الجبل) ولكنه ما فتئ أن وقع في التّناقض عندما استطرد: لم يكن لسقوط الكفره أي أثر حتّى من النّاحية اللّوجستيّة على ما يحدث في الجبل والّذي يعتبر حالة متفرّدة ويعيش حياته الخاصّة المنفصلة[١] لذا يبدو هذا الرّأي الأخير الأقرب إلى الحقيقة.

يتجسّد التّأثير الحقيقيّ على حرب العصابات بالجبل في الوسائل التي تم اتخاذها، من حيث المنع الكامل للتبادل التّجاري مع مصر مثلما سبق

---

(١) غرسياني مصدر سابق ص١١٩ ـ ١٢٠ ونحيل إلى هذا الكتاب لمزيد من المعلومات حول الحملة على الكفره.

أن أشرنا فالسّنوسيّة كانت تدير تقليديا التّبادل التّجاري بين الجبل ومصر (مواش وجلود وزبدة في مقابل حبوب وسكر ومنتوجات صناعيّة) ولم تستطع الحراسة الإيطاليّة إيقافها في السّابق بسبب الحماية الإنجليزيّة والمصريّة التي تحظى بها التّنظيمات التي تقوم بالتّهريب، غير أنّ تهجير السّكان غيّر بشكل جذري هذا الوضع فمن ناحية أنهى التّبادل بشكل تلقائي ومن ناحية أخرى أصبحت المساعدات التي تنقلها الحركة السّنوسيّة لعمر المختار من مصر ذات أهمية حاسمة إذ هي المصدر الوحيد الّذي تعتمد عليه الأدوار، لذا فإنّ قطع تهريب هذه الإمدادات أصبح الهدف الأوّل عند (غرسياني) الّذي حاول من خلال الممثل الإيطاليّ لدى القاهرة السّيد (كانتالوبو) أن يحصل عليه لكن دون جدوى.

كانت إجابة السّيد (كانتالوبو) المفعمة بنجاحاته الدّيبلوماسيّة الّتي حصل عليها مذكّرا بأنّ حركة التّمرد لا يمكن القضاء عليها إلاّ بالسّلاح كما ورد في برقيّته إلى (غرسياني) في شهر فبراير ١٩٣١: (أتفق معكم في أن احتلال الكفره لن يجبر عمر المختار على الاستسلام الفوري ولكن لا أوافقكم الرّأي بأنّ مصر هي العامل الوحيد في استمرار المقاومة، واقع الأمر أن التّهريب عبر الحدود قد وصل حدّه الأدنى أما القول إنّ عمر المختار يحصل على السّلاح من هنا فهذه فرضيّة غير ثابتة أبدًا وما دام ثمّة حديث عن تهريب السّلاح يجب تقديم أدلّة واضحة الأمر الّذي لم أستطع القيام به، لأنّ حكومة برقه لم تمدّني بأي دليل ملموس. حتّى الإشارة الأخيرة بأن قافلة سلاح متوهمة قد اجتازت برقه أمر لم يبرهن عليه واعتبرته الحكومة المصريّة خبرًا زائفًا كما سوف أعرضه في تقرير منفصل. بما أنّني لا أملك أي حقّ أو صفة تخوّلني الإدلاء بأيّ رأي في الوضع الدّاخلي لبرقه وما دامت الظّروف على حالها ولم تحدث عوامل جديدة فإنّني أوضح بشكل نهائي أفكاري: (أعرف

تمامًا أن الأوضاع في برقه لن تتغيّر بمعجزة وأن الحلول يجب أن تكون تدريجيّة أنا لا أرى مبرّرًا للتّشاؤم مادامت نجاحاتنا تتوالى بشكل ملموس في مواجهة التّردي الواضح في صفوف التّمرد ومن جهة أخرى لا أخالني بأي حال متعلّقًا بحزم الحكومة المصريّة الحدودي في هزيمة عمر المختار، فالمتمرّدون في برقه يجب أن يهزموا وإلى الأبد في برقه، وبغض النّظر عن ذلك فإنني سأبرهن لوزارة الخارجيّة أنّه في خمسة أشهر من العمل الدّيبلوماسي المتناغم مع وزارة الحربيّة في حكومة برقه قد لمست مفوضيّة القاهرة تناقصًا في التّهريب عبر الحدود كل هذا دليل أكيد على ثقتي في التّعاون بين القاهرة وبرقه أو بين وزارة الخارجيّة والمستعمرات وهذا يعني أن الأوضاع الحدوديّة التي كانت خطرة بشكل خاص على سياسة برقه قد تحسنت بشكل لا يمكن تصوّره)(١).

---

(١) من كانتالوبو إلى غرسياني ٩ نوفمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٩/٣/٢ تقلّد كانتالوبو وكيل وزارة المستعمرات في السّابق وكان يتمتع بالثّقة من الأوساط الاستعماريّة وقد أجاب غرسياني في ١٠ مارس على كانتالوبو بالآتي: «لا وجود للتشاؤم من طرفي وليس لدي غير الواقعيّة إلى درجة الهوس ليس ثمة ادعاء بأن هزيمة عمر المختار مرتبطة في هذه الآونة على صرامة الإجراءات المصريّة الّتي لا يعتقد فيه أحد وفي كلّ الحوال فإن سور الأسلاك الشّائكة ما بين (البردي) و(الجغبوب) سوف يوضح الوضع أكثر من أي شيء آخر، دون الأخذ بهذه الاعتبارات يصبح من السّهل القول أنّ المتمردين البرقاويين سوف يحاربون في برقه إلى ما لا نهاية حيث يستطيعون أن يموتوا فردًا فردًا مادامت المعركة الحاسمة غير ممكنة أما عن التّهريب فلم ينته أبدًا، تحول فقط من نشاط تجاري حرّ إلى إمداد حربي هادف قاعدته في بلاد أجنبيّة لا أستطيع اجتياحها، لذلك فإن ما ينقص الحملة عاملين أساسيان الأول أمن الحدود وهو في يد حكومة سيئة النّيّة لا تعرف ماذا تريد وحتّى إذا أرادت فليس لها المقدرة على ذلك العامل الثّاني ويتمثل في ضرب العدو في القلب أي في قاعدته مثلما برهنت على ذلك هذه هي قواعد الحرب الثّابتة وقوانينها الخالدة التي لا يستطيع أي دبلوماسي شرقي أن يهدمها بخداعه، عمر المختار ومن يناصره ينتظرون واهمين في إماطة اللّثام عن وجهي ليروا=

اتّخذ إنهاء التّهريب من الأهميّة عند (غرسياني) حتّى أصبح شغله الشاغل بعد انتهاء حملة الكفره في نهاية شهر يناير فاقترح على بادوليو اتخاذ قرار حاسم يتمثل في إنشاء حاجز بطول ٢٧٠ كلم على الحدود المصريّة ليقطع تدفق الإمدادات لحركة التّمرد، وبفضل الدّعم الكامل من (بادوليو) و(دي بونو) وغوارليا (Guariglia) ممثل وزارة الخارجيّة تمت الموافقة على بناء هذا الحاجز في شهر فبراير وتمّ الانتهاء منه في ستة أشهر أي من شهر أبريل حتّى شهر سبتمبر ١٩٣١ مجتازًا عقبات بيئيّة ليست بالقليلة. كان سياجا بطول ٢٧٠ كلم وبعرض عدة أمتار يمتد من ميناء البرديّة حتّى واحة الجغبوب محروسًا من الطيران ومن فصائل عسكريّة محمولة على السّيارات، غير أن ذلك لم يكن ليمنع اختراق بعض المجموعات المنظّمة جيّدًا ولكنّها تبطئها وتنبّه لوجودها ومتابعتها بالوسائل الحديثة أو كانت تضطرهم إلى التفاف طويل إلى الجنوب من خلال الصّحراء[1].

عهدت مراقبة الطّرق المباشرة بين الجبل والحدود المصريّة إلى القوّات المرابطة في (البطنان) فيما كلفت بحراسة المنطقة الصحراويّة بين خط العرض ٢٩ إلى ٣٢ درجة لتشكيل قوّة (وادي مارا) الّتي تتكوّن من ثلاث مجموعات صحراويّة وفصيل مصفّح وأسراب من الطيران للمراقبة نتج عن ذلك صعوبات كأداء لتزود الجبل بالمؤن حتّى ولو أن بعض الخلايا الصغيرة من الرّجال والجمال استطاعت التّسلل من جدار المراقبة الإيطالي، في يناير وفبراير رانت على الجبل فترة هدوء بسبب استعمال الجزء الأكبر من العتاد الحربي في عمليات الكفره وكذلك بسبب أنّ

=حمارًا في فروة أسد ولكنّني سوف أخنقهم طال الزّمن أو قصر بقسوتي الواقعيّة الغربيّة الحديديّة ولو أمكن أقول بوحشيّة وثنيّة كلمتي هذه كلمة فاشيّة صادقة وأنت تدركها بكل تأكيد».

(١) غرسياني مصدر سابق، ص٢١٩ وما بعدها.

القوات المتحركة للمقدّم (مالطا) كانت منشغلة بحراسة المهجّرين حوالي ١٠ آلاف من قبيلة العبيدات الّذين اتّجهوا من معسكرات منطقة البطنان إلى المعسكرات الأكثر حراسة وقسوة في منطقة سرت ويذكر بأن هؤلاء (حاولوا الهروب الجماعي بمساعدة الأدوار) وقد تم اختيار الطريق البالغ ١١٠٠كلم جنوبي الجبل ومن خلال الصّحراء لمسيرة هؤلاء المهجرين باعتباره الطريق الأكثر أمنا وقد تم ذلك دون حوادث ولكن بكلفة بشريّة عالية حسب ما كتب (غرسياني) بأن العبيدات قد دفعوا غاليا محاولتهم التّمرد. في منتصف شهر فبراير عادت القوات المتحركة إلى الجبل بينما كان (عمر المختار) قد استغل فترة الهدوء وتوقف التّمشيط لتنظيم صفوفه من جديد ومحاولة أخذ زمام المبادرة في الإغارة على منطقة سوسه وبهذا افتتحت المرحلة الأخيرة من حرب الجبل مع فارق في ميزان القوى الّذي بدأ يظهر متسارعًا وجليًّا بسبب وقف الإمدادات وتفعيل جهاز التّجسس للجيش الإيطالي ذكر المقدم مالطا في تقريره أنّ استبدال الجواسيس السّابقين الّذين ما كان لهم النّجاة من قنص المتمردين بعد إخلاء الجبل من السّكان بخلايا استطلاع جيّدة التّسلح ومدرّبة على العمليات الحربيّة من شأنه إعطاؤهم القدرة على تعقّب الأدوار دون أن يكونوا لقمة سائغة لعمليات مباغتة لتصفيتهم هؤلاء الجواسيس الجدد تمّ تجنيدهم من معسكرات الاعتقال من بين أولئك الّذين تعاونوا أو كانوا أفرادًا في الأدوار المحاربة نفسها ويستطرد المقدم (مالطا): في الوقت الّذي تم فيه التغلب على الحركة السّنوسيّة ووقوع المتمردين في صعوبات كبيرة حدث شرخ كبير في التّضامن الاستثنائي الّذي أظهره سكّان الجبل شبه الرّحل للسنوسيّة وبدأت تطفو المصالح الشخصيّة والأحقاد التّقليديّة(١).

---

(١) يستحيل القيام بتحليل المجتمع البرقاوي من خارجه وعلى الأخص إذا كرست=

السّلطة السّياسيّة عارضت لمدة طويلة استخدام البدو في القوّات المسلّحة وخاصّة المتمردين السّابقين وحتّى ربيع ١٩٣١ لم تكن القوّات المتحرّكة تمتلك مستطلعين فيما عدا فرقة واحدة، في واقع الأمر كان ولاء المجندين الجدد حقيقيا بعد الخيبات الكثيرة للتّجارب السّابقة والّتي لم يستطع فيها الجواسيس التّحرر من تبعيّة (عمر المختار). هؤلاء المجنّدون الجدد تمّ اختيارهم ومراقبتهم بتبصّر وتعقّل كبيرين حتّى اللّحظة التي يقع فيها التّعرّف عليهم من المتمرّدين ويتمّ افتضاحهم بشكل نهائي فيقطع عليهم خط الرّجعة (يلاحظ أن رئيس الجواسيس على سبيل المثال كان يحقد على عمر المختار بشكل شخصي بسبب مشاكل عائليّة قديمة) ويستطرد المقدم (مالطا): (إنّ هذا الوضع هو ما كانت تسعى إلى تحقيقه القيادة الإيطالية بتوريط الجاسوس لدى العدوّ فيصبح مرتبطًا

=المصادر غير الموثوقة كالمصادر الاستعماريّة الإيطالية لذلك سوف لن نتعمق في هذه الإشكاليات وإنما نكتفي بالتّذكير بأن مقاومة أهالي الجبل كانت في الواقع أكثر تماسكًا وتضامنًا من خلال ما أظهرته دراسات حركة المقاومة. كان قسم من المستسلمين وخاصّة أولئك الّذين اندمجوا في النّشاط الاقتصادي للمدن قد أظهروا انحيازًا وولاء للإيطاليين كما أنّ قادة الكتائب الليبيّة والسّواري وممتطي المهاري وجدوا دائمًا المتطوعين الّذين هم في الحاجة إليهم (حتّى وإن حلت الكتائب الليبيّة للاشتباه في تواطؤهم مع الثّوار إلاّ أن السّفاري فقرة المهاري أظهرت ولاء غير مشكوك فيه في حربهم ضدّ السّنوسيّة) ومع ذلك فإن مجتمع الجبل في مجمله كان متضامنا بشكل غير عادل مع المتمردين حتّى سنة ١٩٣٠ متناسين خلافاتهم وصراعاتهم الدّاخليّة لأنّ السّنوسيّة أظهرت قدرتها في السّيطرة والتّحكم من النّاحيتين الاقتصاديّة والسّياسيّة بفضل بنيتها الخاصة في الوسط الاجتماعي والاقتصادي غير أن تهجير السّكان أحدث أزمة لقبضة السّيطرة السّنوسيّة وذلك في آليّة التّحكم الاجتماعي ففتح الباب أمام انفجار التّناقضات الكامنة وفي الصراع من أجل البقاء وكذلك الطموح الشخصي والقبلي وهذا ما سهل على الإيطاليين الحصول على المخبرين من داخل معسكرات الاعتقال للعمل ككشّافة لمواقع المتمرّدين، بينما بقت الأدوار في أعالي الجبل تشعر بانتمائها لمجتمع متماسك (رغم عدم وجوده) ممّا أعطاها القدرة على المقاومة.

بقضيتنا على الدّوام وفي نفس الوقت الإغراء بالمال وإذكاء النّعرات الثّأريّة)[1].

هؤلاء المستطلعون الجدد جواسيس تدفع لهم مرتّبات وتقدم لهم جوائز لقاء القبض على المطلوبين وإعطاؤهم الحق في الإغارة والنّهب والأهمّ إعطاؤهم وعدًا بالخروج من معسكرات الاعتقال والرّجوع إلى مواطنهم في الجبل، فكانوا مقسمين إلى مجموعات صغيرة جيدة التّسليح يجوبون الجبل بناء على المعلومات الحاصلة وإشارات الطيران الاستكشافي، وعندما يكتشفون مجموعة من المتمرّدين يتتبّعونهم ويبلغون القيادة الإيطاليّة بذلك ثمّ يرشدون القوّات إلى الهجوم بينما مجموعات أخرى منهم يتوزّعون لسد الطرق الممكنة للفرار، حتّى وإن لم تكن هذه الكمائن ناجحة دومًا وذلك لاحتراس الأدوار. أنّ مجرّد وجود المستكشفين سمح للقوات الإيطالية أن تتحرك في الجبل ببصيرة وفي أغلب الأوقات بمعلومات مؤكدة لذلك تمّ اجتياز جدار كراهية السّلطات السّياسيّة لهؤلاء، وفي ربيع ١٩٣١ أصبحت لكلّ الفرق العسكريّة المتحرّكة خلايا مستكشفين. لم تقع خلال فصل الرّبيع والصيف من سنة ١٩٣١ أي معركة كبيرة وإنما عشرات الصّدامات الّتي غالبًا ما تكون على هذا النّحو: (رصد مجموعة من المتمرّدين من قبل الطّيران أو المستكشفين تتقدم واحدة أو أكثر من القوات المتحركة محاولة المباغتة ونصب الكمين يتشتت المتمردون في وحدات صغيرة ويتسللون من بين صفوف العدوّ تتبعها مطاردة من قبل سلاح الخيّالة أو الطيران أو من الكتائب العسكريّة الّتي تتبعها كتائب (غرسياني) في جرد أحداث سنة ونصف من الحرب: (لقد وقع المتمرّدون في وضعيّة حصار مضيّق مع دكّهم بضربات مستمرّة ممّا عجّل بهبوط معنويّاتهم والّذي تجلى في حاجتهم إلى تغيير

---

(١) تقرير مالطا مذكور سابقًا ونحيل إليه لمن يريد الإطلاع على المشكلة برمتها.

تكتيكاتهم، فبينما كانوا يحتفظون في السّابق بقدرة على المبادرة والهجمات المباغتة وبأعداد كبيرة ونصب الكمائن وإذا هوجموا يظهرون مقاومة عنيدة ويخوضون المعركة حتّى النّهاية أما الآن وبعد عمليات ربيع ١٩٣١ انتهى بهم الأمر إلى التّخلي عن كلّ مبادرة قتاليّة وتركوا حشد المقاتلين مبعثرًا على الجبل مكتفين ببعض الغارات التي تشارك فيها أعداد بين ٥٠ إلى ١٠٠ مقاتل كحدّ أقصى وممتطين الجياد على الدّوام) والنّتيجة الأولى الملموسة التي تحققّت كما كتب (غرسياني) في خطابه إلى (دي بونو): إنّ المبادرة في العمليات قد انتقلت إلى أيدينا بشكل كامل ليس هذا فقط بل إنّ هذه الخلايا التي ذكرناها شرعت في استعمال تكتيك جديد فعندما يهاجمون لا يدافعون أبدًا بل بالعكس ينسحبون على الفور من الصدام متفرقين في مجموعات صغيرة معالجين الموقف بالهروب في كلّ الاتجاهات وينجحون في التخلّص بمهارة من أيّ عمليّة مركزيّة معدة من قواتنا التي لا تملك المرونة ذاتها فتفلت منها الطريدة وتضيع منها فرصة الإمساك بها وتدميرها)[١].

بالرّغم من التّفوق في القوة والوسائل والتّنظيم الجيد الّذي وضعه المقدم مالطا إلاّ أن الفرق المتنقلة الإيطالية لم تكن مهمتها سهلة كما عبر عن ذلك مالطا نفسه: (في مساحة من الأرض في حجم جزيرة صقليّة وبخمس مجموعات متمركزة في نقاط شتى وتطمح إلى أنها تستطيع قطع مسافات كبيرة دون أخطاء وتلتقي بدقة في جوف اللّيل في نقطة مرسومة سلفًا على خريطة بمقياس ٤٠٠,٠٠٠ وتوقع في شراكها عدوًّا مناورًا من الدّرجة الأولى لا يمكن بلوغ هذا الهدف إلاّ بالمناورة والاستفادة من الأخطاء[٢].

---

(١) من غرسياني إلى دي بونو ١٨ سبتمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٢/٣/١١.

(٢) تقرير مالطا مذكور آنفا.

لقد كان الجهد المطلوب من القوات الإيطالية بتضييق الخناق الدّائم على المتمردين مدعوما بالإمدادات الكبيرة وإمكانيّة المناوبة من أجل الرّاحة وكذلك الرّوح المعنويّة العالية التي تأتت من مجموعات الانتصارات المتلاحقة ومن وعيها بأن الموقف بكامله في قبضتها قد بدأ يحقق النّتائج المرجوة منه أما بالنّسبة لأدوار عمر المختار فليس لدينا شهادات مباشرة عن أوضاعها ولكن كلّ المؤشرات تدلّ على أنها في حالة خطرة بسبب نقص الإمدادات واستحالة الاختفاء من التّمشيط المستمر إلا بتحرك دائم، أما على المستوى التّكتيكي فكان المتمردون متماسكين جيدًا ونجحوا في تلافي تحطيم قوتهم بيقظة شديدة ومرنة[1] ولذلك فإن فقدانها لمائتي قتيل من شهر أبريل إلى شهر سبتمير (حسب المصادر الإيطاليّة) يعتبر عددًا قليلاً إذا ما أخذنا في الإعتبار عدم التّناسب في القوة والمعدات على أرض الميدان وقارناها بالخسائر الكبيرة التي لحقت بهم في السّنوات السّابقة التي شهدت صدامات وانتصارات أكبر[2].

---

(١) فعلى سبيل المثال جمع عمر المختار كلّ الفرسان في دور واحد أوكل إليه تحمل العبء الأكبر من القتال بينما قسم فرق الرّاجلين إلى مجموعات صغيرة حتّى يتمكنوا من الإفلات من عمليات التّمشيط وعندما علم الإيطاليون بذلك قاموا بتوحيد فرق السّواري إلى فيلق واحد كلهم من راكبي الجياد وبفضل توفر الوسائل استطاعوا أن يتفوقوا بشكل كبير واكتسبوا القدرة الكبيرة على الحركة والمقاومة.

(٢) تقرير عشر سنوات من تاريخ برقه المذكور آنفًا يعطي الأرقام التّاليّة عن الخسائر من شهر أبريل إلي شهر سبتمبر ١٩٣١ مؤكدًا أنّ ثلثي هذه الخسائر قد سجلت في الجبل والثّلث الثّاني في المناطق شبه الصحراويّة الّتي كانت تمر بها قوافل التّموين وكان عدد قتلى المتمردين٢٦٧ قتيلاً و١٤٦ بندقيّة غنمت وعدد رؤوس الماشية التي تمّالإستلاء عليها ٥٦١ وعدد الإبل الّتي قتلت ١٦٦ إلى جانب ٦٩٨ تمّالإستلاء عليها حيّة وقتل ٤٤ من الخيول واستولي على ٥١ منها أمّا عن خسائر الإيطاليين ٢٣ عسكريا قتيل منهم ٥ إيطاليين، وما يثير الإستغراب في هذه الأرقام العدد القليل من الأغنام=

تدلّ قلّة الخسائر الإيطالية لنفس الفترة (بين ٢٠ و٢٥ شخص) على عدم قدرة الأدوار في شن هجمات فقد كان همها هو الاختباء من ضغوط العدوّ والتّحرك والهروب المنظم، قوّة تمرّد الحركة السّنوسيّة وعلى رأسها عمر المختار تتجلّى في تمسّك الأدوار العجيب في ظروف صعبة وغير مواتيّة بتنظيماتهم حتّى النّهاية في سنة ١٩٣١. خلال فترة الصيف كان انطباع القيادات الإيطالية أنّ المقاومة على الجبل قد وصلت إلى رمقها الأخير وهذا ما كتبه (كانتالوبو) من القاهرة (ثمة إحساس أن حركة التّهريب قد انخفضت وهي تتناقص في كلّ يوم وأنّ الاستئناف الّذي ظهر في فصل الشّتاء قد انتهى في رأيي أنّ هذا التّراجع الحادّ كان لسببين تمثل السبب الرّئيسي الأول في سور الأسلاك الشائكة والمراقبة العسكريّة النّشطة التّي يقوم بها الجنرال (غرسياني) على الحدود وتمظهر السّبب الثّاني في العجز التّمويلي الّذي وصل إليه منسقوّ الحركة السّنوسيّة المقيمون على التّراب المصري، ومضاربة المهربين، هؤلاء المهربون لا يستطيعون ولا يريدون المجازفة بأموالهم وتعريضها للمخاطر النّاجمة عن عائق سور الأسلاك الشائكة والمواجهات المتكررة مع قواتنا، لذلك يحاولون دائمًا التّقليل من إرسال القوافل وإذا فعلوا فيبعثون بقوافل صغيرة، ليس هذا فقط بل حتّى أولئك الّذين يتقبلون مواجهة المخاطر يقع اكتشافهم في النّقطة التي خرقوا فيها السّياج وتتمّ ملاحقتهم من قواتنا المتحركة ومحقهم بلا رحمة، أفضت هذه السّياسة إلى نتائج جيدة وهو انتشار الإحباط في صفوف المهرّبين ودون أن نضخّم هذا التّفاؤل يمكن

=المغنومة في منطقة كانت تعج بمئات الآلاف من الماشية حتّى العام السّابق وهذا يعد دليلاً على عمليات التّدمير الّتي لحقت بالحياة في الجبل أمّا العدد الكبير للإبل الّتي غنمت أو قتلت فذلك مرّده إلى ما تعرضت له قوافل الإمداد بين الحدود والجبل.

ملاحظة التّزامن بين انتهاء إنشاء سور الأسلاك الشائكة وانقطاع التّهريب في الواقع)[١].

كتب (غرسياني) في منشوره منتصف أغسطس محاكيا هذا التّقرير: (نستطيع أن نقول إنّ قرارات العزل الكامل للمتمرّدين قد بلغ كماله بالإنتهاء من سور الأسلاك الشائكة في أواخر الشهر هذه الإجراءات قد قلبت الأوضاع رأسًا على عقب لمصلحتنا من النّاحية السّياسيّة والعسكريّة وأسقطت المتمرّدين في مأساة قاسية)[٢] ويختتم (غرسياني) بقوله: (سيستمرّ التّمرد لأن عمر المختار لن يخضع بتاتا).

٥ ـ أسر عمر المختار وموته

في أوائل شهر سبتمبر وصلت أنباء للقيادة الإيطالية في الجبل بأن أدوار البراعصه والدرسه قد تكون تعززت بأدوار العبيدات تحت قيادة عمر المختار وأنها تتمركز جنوب البيضاء لنهب المواشي من محيط منطقة شحات لضرورة الإعاشة. وعلى الفور أعلنت القوات المتحركة حالة استنفار وأرسلت فرق المستكشفين (الجواسيس) إلى المنطقة، وقد شاهد هؤلاء الجواسيس في ظهيرة يوم ٩ هذه الأدوار بالقرب من (سلنطة) على مسافة قصيرة من مركز حراسة إيطاليّة (مما يظهر قدرة المتمرّدين على الاستمرار في التّنقل على الجبل). في يوم ١٠ حشد

---

(١) من كانتالوبو إلى وزارة الخارجيّة ٢٤ يوليه ١٩٣١ محفوظ في م.م.د.غ ٩/٣/٢.

(٢) منشور غرسياني إلى كلّ السّلطات التّابعة له بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٣١ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ وكذلك في منشور آخر أصدره في نفس اليوم يدعو فيه المسؤولين الكبار في المستعمرة ألاّ يقيموا أي اتّصال أو أي توافق مع السّنوسيّة كما تدعو إليه أصوات من كلّ الإتجاهات بسبب الأوضاع السّيئة الّتي يعاني منها المتمرّدون إلى رغبتهم في الاستسلام خوفًا من الإعدام. وينبه غرسياني على أن أي محادثات لا يجب أن تعقد إلاّ تحت مسؤوليته الشخصيّة.

مالطا في المنطقة ثلاثة كتائب إرتريّة وسرية السّفاري وعند فجر يوم ١١ سبتمبر هاجموا هذه الأدوار وكان تعدادها حوالي مائة فارس في وادي (بوطاقة). كانت الأدوار حينذاك في حالة حركة حسب القاعدة الحكيمة لعمر المختار القائمة على تقديم موعد الرّحيل لإحباط أي هجوم مباغت، وعلى الفور انقسم المقاتلون مجموعات صغيرة مخترقين الصّفوف الإيطالية، شوهدت إحدى هذه المجموعات من الطيران الّذي يراقب المنطقة فنبّهت بذلك إحدى مجموعات السّفاري القريبة التي اندفعت في تعقبها التّي خذلت من حالة الإجهاد التّي وصلت إليها الجياد بسبب الفترة الطويلة من التّنقل وقلة الغذاء لذلك تم إدراك أحد عشر منهم وقتل الواحد تلو الآخر وكان الثّاني عشر هو عمر المختار الّذي تم التعرّف عليه وإبقاؤه على قيد الحياة فتوقفت العمليّة على الفور ونقل الأسير المهاب إلى سوسه تحت حراسة مشددة(١).

في يوم ١٢ سبتمبر تم نقل عمر المختار إلى بنغازي على متن طرّاد وتمّ التّحقق من هويته رسميًا من قبل كبار الموظّفين الإيطاليين الّذين سبقت معرفتهم به وفي واقع الأمر إنّ عمر المختار لم يخفِ هويّته كما لم ينكر أعماله. انتشرت أخبار أسْر عمر المختار في طرابلس وإيطاليا يوم ١٢ سبتمبر، ولم يضيّع (بادوليو) الوقت فطالب برأس هذا الشيخ المناضل في رسالة وجّهها إلى دي بونو: (في حالة التّحقق من أنّ هذا الشخص الّذي تم أسره هو بالفعل عمر المختار سيكون من المناسب إجراء محاكمته محاكمة اعتياديّة والتي سيكون قضاؤها دون أدنى شك بالإعدام وسيتم ذلك في إحدى التّجمعات الكبيرة للبادية المهجّرين)(٢).

---

(١) تقارير القيادة الإيطالية الّتي شاركت في عمليّة (بوطقة) في م.م.د.غ ٢/٣/١١ ويراجع روشا في هذه الأحداث المرجع السّابق صمن ٢٥ إلى ٢٩.

(٢) من بادوليو إلى دي بونو ١٢ سبتمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٢/٣/٢ هذه البرقيّة والبرقيات اللاّحقة تم نشرها من روشا المصدر السّابق ص٢٥و٢٦.

غرسياني الّذي كان وقتها في روما ويتهيّأ للتوجّه إلى باريس رجع على عجل لبنغازي التي وصلها يوم ١٤ حيث وجد أمامه برقيّة من دي بونو: (حسَنا لتقام المحاكمة ويتبعها تنفيذ مزلزل)[١]. وبرقيّة أخرى من بادوليو الّذي طار إلى روما: (لقد أشرت على وزارة المستعمرات قيام محكمة جنائيّة اعتياديّة حالا ولن تقضي إلاّ بحكم الإعدام حسب الأعراف المحليّة وفي أهمّ معسكر لاعتقال البدو)[٢].

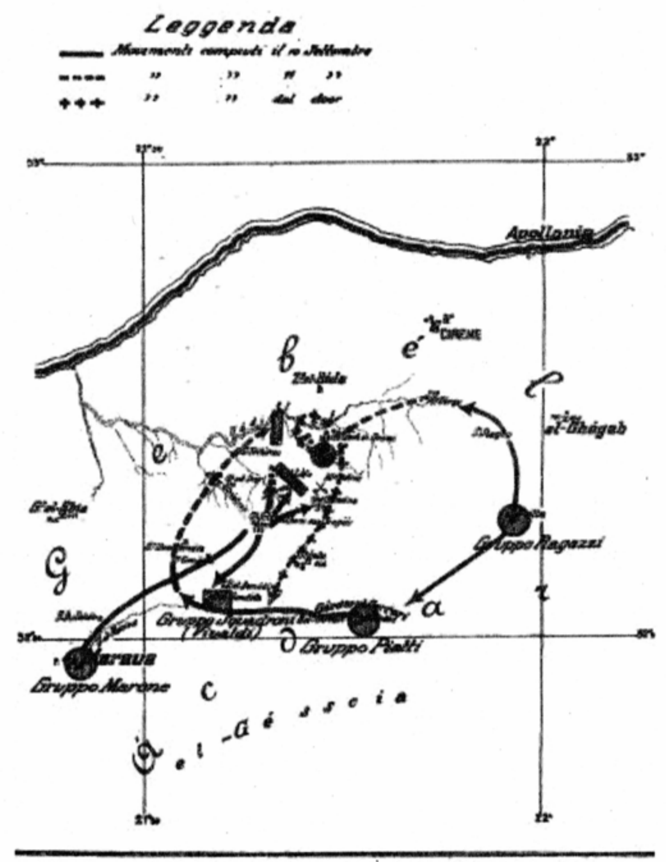
بهذه المقدّمات قامت المحاكمة أمام محكمة خاصة وباحتفاليّة مهيبة يوم ١٥ سبتمبر ولم تكن في الواقع تمثيليّة هزليّة مأساويّة أضاءت جوانبها فقط تلك الكرامة والعفة ورباطة الجأش الّتي بثّها (عمر المختار) في الجلسة بل تكفي الإشارة إلى أن محامي الدّفاع عنه النّقيب لونتانو (Lontano) قد عوقب من (غرسياني) بالحبس المشدّد عشرة أيام للأسباب التالية: (معيّن من الإدارة للدفاع عن رئيس متمرّدين معترف بكلّ ما وجّه إليه من تهم يترافع عنه الدّفاع بلهجة حماسيّة اعتذاريّة تتناقض مع رمزيّة الفاعل والظّروف الخاصّة للموقع والمحيط الّذي قامت فيه هذه المرافعة)[٣].

---

(١) من دي بونو إلى بادوليو ١٤ سبتمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٢/٣/٢.

(٢) من بادوليو إلى غرسياني ١٤ سبتمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٢/٣/٢ ونحن ننقل هذه البرقيات للتوضيح أن المسؤوليّة في إعدام عمر المختار لا تعزى فقط لغرسياني (بالرّغم من أنّه نسب لنفسه هذا المجد) ولكن يجب أن يتقاسمه كلّ الأشخاص ذوات الصّلة.

(٣) يتّضح هذا العقاب من منشور العقيد نازي وهو نائب غرسياني في قيادة قوات برقه ففي ١٢ نوفمبر ١٩٣١ قام بإبلاغ الضّباط بسلسلة من الإجراءات ضد زملاءهم من باب التّحذير هذ ا المنشور محفوظ في م.م.د.غ.١/١١/٦ وهو لا يذكر اسم الضّابط المعاقب بالحبس عشرة أيام غير أن مطابقة ذلك بالقرائن والسّياق ويؤكد أنه النّقيب لونتانو الّذي عيّن مدافعًا عن عمر المختار ومما يؤكد هذا عدم وجود محاكمة أخرى لزعيم سنوسي غير عمر المختار في تلك الفترة. انظر: روشا مرجع سابق، ص٢٦=



L'azione militare di Slonta che portò alla cattura di Omar al-Mukhtar (10-11 settembre 1931)

=وهذا المشهد يعطي صورة واضحة عن البؤس الأخلاقي الشّديد لغرسياني فيما نقله على صفحات كتابه.

شنق (عمر المختار) يوم ١٦ سبتمبر في مدينة (سلوق) أمام ٢٠ ألف بين مهجّرين ووجهاء تمّ استدعاؤهم بهذه المناسبة، يقول (غرسياني) واصفًا المشهد: (إنّ الأثر الّذي خلفه كان كبيرًا جدًّا)[١].

لقد توّج هذا الحدث تلك الحقبة من السّياسة الغاشمة والقمع الوحشي. ففرنسا إحدى القوى الاستعماريّة الأكثر حذرًا، قد عرفت كيف تتجنب الحكم بالموت على زعماء معروفين أمثال (عبد الكريم الخطابي) و(عبد القادر الجزائري) غير أنّ إيطاليا الفاشيّة لم تستطع التّخلي عن العقليّة الثّأريّة حتّى لو كانت سوف تجني فوائد من عمل يظهر شيئًا من التّسامح ويمنع من لتحويل قائد أسطوري للمقاومة في (برقه) في السّبعينات من العمر إلى شهيد لحركة الاستقلال العربيّة والعقيدة الإسلاميّة[٢].

إنّ موت (عمر المختار) بلا شكّ أضرّ كثيرًا بوضع حرب العصابات حيث أفقدها زعيمها غير المنازع في قيادته وممّا زاد الطّين بلة انتهاء العمل بسور الأسلاك الشّائكة الحدوديّ والإغلاق الكامل للحركة بين الجبل ومصر، فعلى سبيل المثال شوهدت يوم ١١ أكتوبر من قبل دوريّة (مهريستي) قافلة تضم ٥٠ جملا و٢٥ شخصًا بين جالو وأجدابيا غربي الجبل وحتّى تتلافى الالتقاء مع فصيل المهريستي وسريّة المصفّحات وكتيبة الإرتريين المحمولة على السّيارات تغلغلت في الصّحراء بمسافة

---

(١) غرسياني، مصدر سابق، ص٢٧٣.

(٢) يجب التّنبيه إلى أنّ العقوبة لم تكن شرعيّة باعتبار أنّ عمر المختار لا يمكن اتهامه بالخيانة وكان يجب إعتباره أسير حرب (انظر: دي ليوني) مصدر سابق، ص٥٥٩. ولكن ما كان يمكن أن يرتجى من السّلطات الفاشيّة أن تحترم القانون فعمر المختار بالرّغم من أنّه لم ينكر تزعّمه للتّمرد وكان يعتبره واجبًا تجاه قائده الشّرعي فقد أظهرته الدّعاية الفاشيّة والمؤرخون الاستعماريون كمجرم معترف بجرائمه.

حوالي ٤٠٠ كلم جنوب الجبل ولكن بعد أيام من البحث المركز اشتركت فيه كلّ الطّائرات المتاحة تم العثور عليها يوم ١٥ أكتوبر على بعد ٢٠٠ كلم من الحدود وتمّ ملاحقتها وقصفها منِ الطّيران لمدة ثلاثة أيّام وتم تتبعها من فرقة المهاري وإبادتها يوم ١٧ أكتوبر على بعد ١٠٠ كلم من الحدود. كما إنّ كفاءة تنظيم حراسة ببنيته وعتاده الحديث أغلق الحدود بشكل منيع على كلّ المواشي والقوافل وحتّى مجموعات الخيّالة لم يكن باستطاعتهم اجتياز هذا السّياج إلاّ بأكلاف عالية[١].

وانتهز (غرسياني) فرصة الارتباك التي حدثت بموت (عمر المختار) فقام بإصدار أمر يوم ١٧ سبتمبر يقضي بالتّعهد بالعفو عن كل المتمرِّدين الّذين سيجنحون للاستسلام، ممّا جعله محلّ انتقاد (بادوليو) بشدّة[٢].

لم يكتب لهذا القرار النّجاح. فخلال شهر ونصف من إعلانه، لم يستسلم عدا عشرة أشخاص فقط. فانهيار المقاومة يعود إلى النّقص الحادّ في الإمدادات وإلى غياب التّخطيط المستقبلي، ففي يوم ٩ ديسمبر اجتمع حوالي ٦٠ من قادة المقاومة وقرّروا إنهاء الكفاح وترك الحريّة للأفراد يختارون بين الاستسلام أو الهجرة إلى مصر[٣]. وفي الأيّام اللاّحقة كانت تلك الأدوار الّتي صعب إخضاعها قد تفككت نهائيّا، إذ استسلم العدد الأكبر إلى الإيطاليين أمّا القادة الأكثر شهرة فقد بحثوا عن

---

(١) غرسياني مصدر سابق، ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٢) في ١٧ سبتمبر أبرق بادوليو إلى غرسياني: (الإجراءات الّتي تمّ اتخاذها تتطلّب تعديلا في الخطط المعتمدة حتّى الآن، وكان يتوجب أن تطلب الإذن المسبق مني، وليكن معلوما لديكم أنه لا سبيل لتوقف العمليات ويجب الضّرب بيد من حديد) في م.م.د.غ ١/٢/٢. كما أنّ بيان غرسياني منقول في المصدر السّابق ص٢٧٨، وكذلك رسالة بادوليو إلى القوّات المسلّحة يحرض فيها القوات المسلحة على الضرب بقوّة وعدم التّهاون.

(٣) غرسياني مرجع سابق، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

ملجأ خلف الحدود. ولم يجد المنعطف الّذي فرضته هذه الأحداث موافقة كاملة من (بادوليو) الّذي كان متخوفًا من أنّ المقاومة لا زالت تحتفظ بإمكانيّة انبعاثها من جديد فيقول مخاطبًا (غرسياني): (هؤلاء المتمرّدون الأخيرون الّذين يمثلون المجموعات الأكثر تصلّبًا أفضّل أن أراهم قتلى من أن أراهم مستسلمين حيث أنهم سوف يكونون دومًا مدعاة للفوضى وفي كل الأحوال مادام الأمر قد اتخذ فيلزم الوفاء بالتّعهدات)(١)، بعد مقتل (يوسف أبو رحيل) خليفة عمر المختار في قيادة الثّورة في اشتباك مسلح أوصى (بادوليو): (لا نعتبر الثّورة قد انتهت إلاّ بعد شهر من قتل آخر متمرّد)(٢).

وبناء على أنّ المقاومة المنظّمة قد خمدت قامت الدّوريات الإيطاليّة بتصفيّة الأشخاص المعزولين والمنهكين من العوز وقلّة الحيلة(٣) حتّى أنّ (بادوليو) قد اقتنع أخيرًا ـ كي لا يفقد مكان الصّدارة في الاحتفاء بالنّصر ـ قام بتسليم (غرسياني) يوم ٧ يناير صيغة الأمر اليومي لإذاعته وتعميمه في ثوب احتفالي يوم ٢٤ يناير الذكرى الأولى لاحتلال واحة الكفره:

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ٢١ ديسمبر ١٩٣١ في م..د.غ ٢/٢/١.

(٢) من بادوليو إلى غرسياني ٢٢ ديسمبر ١٩٣١ في م.م.د.غ ٢/٢/١ يوسف بورحيل قتل يوم ١٩ ديسمبر بالقرب من سور الأسلاك الشّائكة الحدودي وهو يقاتل وقد تمكّن بعض مساعدي عمر المختار الأخرون مثل عبد الحميد العبّار من اجتياز الحدود إلى مصر أمّا عثمان الشامي فقد استسلم للإيطاليين.

(٣) حسب تقرير مالطا مرجع سابق فإنّ الخسائر في الجبل ما بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ فقد كانت كالتّالي: ٣ قتلى من الإيطاليين و٦ جرحى ومن العسكر ٤٥ قتيلاً و١١٧ جريحًا ومن المتمردين ٦٢٤ قتيلاً ٢٣٤ أسيرًا و٩٥ مستسلمًا و٣٣٨ حصانًا بين قتيل وغنيمة والإستحواذ على ٣٤٢ بندقيّة في الميدان و٥٤ بندقيّة تمّ تسليمها وحسب غرسياني فإنّ الخسائر من مارس إلى ديسمبر ١٩٣١ في كلّ برقه كانت ١٣٨ قتيلاً و٢٧٠ جريحًا في صفوف الإيطاليين و١٦٤١ قتيلاً و٥٤١ مستسلما في صفوف المتمردين مرجع سابق ص٢٩٧.

(أعلن أنّ التّمرد في برقه قد تمّ القضاء عليه بشكل كامل ونهائي لا يسعنا إلاّ أن نتذكّر في هذه المناسبة معالي رئيس الحكومة ووزير المستعمرات اللّذين ساندانا في هذا العمل ودعمانا بكلّ الوسائل وأشيد بالجميل والعرفان الّذي يكنّه كلّ المقيمون الإيطاليون في إقليم طرابلس وبرقه للجنرال (أدولفو غرسياني) الّذي نفذ بكلّ ذكاء وحيويّة واستمراريّة الأوامر الّتي أصدرتها له واستطاع أن يحقّق تمامًا الرّسالة الّتي عهدت إليه. لأوّل مرّة وبعد عشرين سنة من وصولنا إلى هذه الأصقاع يتمّ الاحتلال والتّهدئة الكاملة لهاتين المستعمرتين وهذا الحدث لا يعطي فقط المشروعيّة لابتهاجنا وفرحتنا وإنّما يجب اعتباره كذلك نقطة انطلاق للتّنمية والتّطور الجديد لهاتين المستعمرتين[١].

كان (بادوليو) على حقّ عندما اعتبر أنّ المقاومة البرقاويّة قد انتهت بالكامل وليس ثمّة إمكانيّة لعودتها من جديد لأنّ الظّروف الّتي ولدت المقاومة وغذّتها قد تغيّرت جذريًا، بتهجير سكّان الجبل والإبادة الّتي كرّست في معسكرات الاعتقال، والقضاء الممنهج على المواشي الّتي تشكّل الدّخل الأساسي لشعب من البدو الرّعاة، كلّ ذلك كان نتيجة منطقيّة هي تدمير المجتمع القائم في الجبل من أساسه. فاللّحظة الحاسمة للقمع تتمثّل في تهجير السّكان والماشية من المرتفعات وعندما اكتملت وجد (عمر المختار) ورفاقه أنفسهم يقاتلون على أرض يعرفونها جيّدًا ولكنّها أضحت غريبة عنهم لافتقادها أوجه الحياة، فلم تعد لهم فيها جذور ولا منافع، فلمّا فقدت المقاومة السّنوسيّة قاعدتها السّكانيّة كانت نهايتها السّريعة والحتمية أمرًا مقضيًا.

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ٧ يناير ١٩٣٢ في م.م.د.غ ١/٢/٢ نص الأوامر اليوميّة مقرونًا بالرّسالة انظر: غرسياني مرجع سابق، ص٣٠٧.

٧. توطيد الاحتلال الإيطالي

١ ـ معسكرات الاعتقال

لا نعرف للأسف إلاّ الشّيء القليل عن معسكرات الاعتقال الّتي سجن فيها شعب الجبل والمنطقة شبه الصّحراويّة لأنّ كتّاب المذكرات ومؤرّخي المرحلة الاستعماريّة تجاهلوا هذه القضيّة بالكامل (إذا استثنينا بعض الإشارات الدّفاعيّة لغرسياني) وحتّى تنقيبنا في أرشيفات وزارة إفريقيا الإيطاليّة والجيش و(غرسياني) لم تثمر نتائج مرضيّة ممّا يعطي الانطباع بأنّ الحديث وعلى الأخصّ الكتابة في هذا الموضوع كان أمرًا غير مرغوب فيه إلاّ في نطاق ضيّق أو هو مسكوت عنه قصدًا[١].

سنحاول لمّ شتات هذه المعلومات الّتي تمّ الحصول عليها لتوضيح فداحة هذا الجانب من القمع وضرورة تسريع البحوث المنظمة لهذا الموضوع[٢].

---

(١) مثلما سبق وأشرنا فإنّ فحصنا للمحفوظات الرّسميّة لا تعطي الضمانة الكافيّة في شموليتها والإسترشاد بها بسبب الفوضى الّتي هي عليه لذلك فنحن نأمل في البحوث المنهجيّة قبل ذلك التّنظيم الأمثل للمحفوظات حتّى تسمح بإعطاء نتائج أكثر اكتمالا في المستقبل.

(٢) هذا الفصل يتناول ويطور بحوثنا في ما نشرناه سنة ١٩٧٣ (روشا مصدر س ص٢٩ ـ ٣٩) بوثائق أكثر. ففي المقالة (إبادة أهالي برقه كما يراها روشا) نشره في سنة ١٩٧٩=

بالنّسبة للهدف الأوّل وهو الأكثر وضوحًا في عدم إمكانيّة الحصول على معلومات كافية عن واقع الشّعب البرقاوي وعن خسائره في سنوات الاحتلال الإيطالي فاستنادًا إلى الإحصاء التّركي الّذي وقع سنة ١٩١١ عشيّة الغزو الإيطالي يبلغ سكان برقه ١٩٨,٣٠٠ فرد باستثناء الكفره ليتراوح العدد ما بين ١٨٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ في إحدى التّقييمات الإيطاليّة لسنة ١٩٢٩[١].

في ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ قامت أوّل دراسة وافية عهد بها إلى خبير في هذا المجال هو العقيد إنريكو أوغستيني الّذي أحصى السّكان بإجمال ١٨٥,٤٠٠ نسمة منهم ١٨١,٧٥٠ عرب و٣٦٥٠ يهوديًا[٢].

تحدّث الباحث الإنجليزي (إيفانز بريتشارد) عن سكّان يقدرهم بـ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ربعهم يعيشون في المدن[٣]. وحسب التّقديرات الرّسميّة الإيطاليّة في نهاية سنة ١٩٢٨ قد وصل تعداد السّكان الأصليين

=في (مجلة أنترفانيتو) عدد٣٨ و٣٩ اعترض دليوني على طريقة عرض المسألة بما في ذلك المصادر والأرقام الّتي وردت في مقالتنا سنة ١٩٧٣ مشددًا على أن اتهام السّياسة الفاشيّة بالأبادة في برقه يمكن القول به فقط في أجوار العداء والتّعصب ضد إيطاليا وبفعل الآراء المسبقة ولكن للأسف فإنّ دي ليوني لم يدعم بحثه هذا بغير الشتائم الشخصيّة الثّرثرة الإرتجاليّة وليّ عنق الحقائق وتزييف البيانات والوثائق. انظر: جورج روشا (الإبادة البرقاوية والمنهجيّة التّاريخيّة الاستعماريّة) في بلفاغور، ١٩٨٠، عدد ٤، ص٤٤٩ ـ ٤٥٥.

(١) إليو ميليونيري الأرض والسّكان روما ١٩٥٥ برعاية لجنة الوثائق والأعمال الإيطاليّة في إفريقيا ص٩٨ نأخذ هذا العمل كنقطة ارتكاز وهو يعبّر عن الثّقافة الاستعماريّة الرّسميّة غير خال من المثالب والتّناقضات فميليونيري على سبيل المثال يجاهل فيما كتب دراسة (دي أغوستيني) لسنة ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ والتي كانت الدّراسة الأكثر تفصيلا وأهميّة في كلّ الحقبة الإيطاليّة.

(٢) إنريكو أوغستيني، سكان برقه، بنغازي، ١٩٢٣، برعاية حكومة برقه.

(٣) إيفانز بريتشارد، مصدر سابق، ص٣٩ ـ ٤١.

إلى ٢٢٥,٠٠٠ نسمة[١] أمّا الإحصاء السّكاني في ٢١ أبريل ١٩٣١وهو الأوّل الّذي قام على التّقنيات الحديثة وكانت فيه المنطقة تخضع بالكامل للسلطات الإيطاليّة قد انخفض فيه عدد السّكان المحليين إلى ١٤٢,٠٠٠ نسمة و١٦,١٠٠ إيطالي و٢٤٠٠ أجنبيّ، وهذه الأرقام تمّ تعزيزها بالإحصاء الّذي قام يوم ٢١ أبريل ١٩٣٦ والّذي حدّد عدد السّكان بـ ١٤٢,٥٠٠ نسمة[٢]. من هذه الأرقام يبرز هبوط أعداد برقه بشكل جليّ في سنوات القمع، لكن من الصّعب تحديد حجمه إذا أخذنا قاعدة البيانات أوغسطيني والإحصاء الّذي تم في سنة ١٩٣١ يكون المفقود من السّكان مابين ٤٠,٠٠٠ و٤٥,٠٠٠ نسمة ليرتفع إلى ٦٠,٠٠٠ نسمة إذا اعتمدنا تقييم (إيفانز بريتشارد) وإلى ٨٠,٠٠٠ نسمة بالنّظر إلى تقديرات ١٩٢٨. هذا التّناقص السّكاني يمكن أن يكون في جزء منه ناتجا عن الهجرة إلى مصر في سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ فحسب بعض المصادر مثل (غرسياني) و(إيفانز بريتشارد) يقدّران هؤلاء بـ: ٢٠,٠٠٠ نسمة[٣]، يبقى في كلّ الأحوال إيجاد تبرير تناقص عدد السّكان بعشرات الآلاف ولكنّ المصادر الإيطاليّة لا تعطينا أيّ مؤشّرات مباشرة بهذا الخصوص. يجب الأخذ في الاعتبار بأنّ التّعداد السّكاني لسنة ١٩٣١ كان يعتمد معايير النّفعيّة السّياسيّة أكثر من الضّوابط العلميّة بكلّ وضوح إلى درجة أنه لم يسجل التّهجير القسريّ في معسكرات منطقة سرت والّتي كانت تضم

---

(١) حوليّة الإحصاءات الإيطاليّة ١٩٢٨ يجب التّذكير بأنّ هذه الإحصائيات لها هامش من الأخطاء ولكنّها قبلت من أفضل المؤرّخين للحقبة الاستعماريّة.

(٢) حوليات الإحصاءات الإيطاليّة للسّنوات الّتي نحن بصدد ميليوريني مصدر سابق، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٣) مذكّرة من غرسياني إلى دي بونو ١ أبريل ١٩٣٢ في م.م.د.غ ٦/١/١ وبريتشارد نفس المصدر ص١٩٧.

عددًا لا بأس به من سكّان برقه واعتبروا مقيمين في المناطق التّقليديّة ومن المحتمل أنهم اعتبروا المهاجرين إلى مصر مقيمين بشكل جزئي[١].

من الممكن اعتبار إحصاء السّكان لسنة ١٩٣٦ أكثر مصداقيّة حيث أعلى عدد السّكان ١٤٢,٥٠٠ نسمة ولكن ذلك لا يزكي نتائج إحصاء ١٩٣١ لأنّه في الإجمالي السّكان لسنة ١٩٣٦ ضمّ عدة آلاف من العائدين من المهجر بمصر، بالمقارنة بين الأرقام المعطاة في سنوات مختلفة يجب أن نأخذ في الاعتبار الزيادة الطبيعية للسكان، بين تعداد ١٩٣١ ـ ١٩٣٦ فعلى سبيل المثال زاد سكان إقليم طرابلس من ٥١٢,٠٠٠ إلى ٦٠٠,٠٠٠ بينما بقي سكان برقه على حاله.

في الختام نقدّر أن التناقص الّذي حدث في عدد سكان برقه باستثناء الإيطاليين والأجانب من ١٨٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٢٣ إلى ١٤٢,٥٠٠ نسمة سنة ١٩٣٦ وإذا قبلنا بأنّ الّذين في مصر يتراوح عددهم بين ١٠,٠٠٠إلى ١٥,٠٠٠ من النّازحين سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ يكون لدينا حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة قد ماتوا في سني الاحتلال الإيطالي دون اعتبار الزيادة الطبيعيّة للسّكان الّتي سوف ترفع هذا العدد إلى ٤٥,٠٠٠ نسمة أو إلى ٧٠,٠٠٠ إذا قبلنا بتقديرات (إيفانز برتشارد) أو بالتّقديرات الإيطاليّة سنة ١٩٢٨[٢].

حسب المصادر الإيطالية فقد أدّت العمليات العسكريّة إلى مقتل ٦٥٠٠ شخص من سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٣١[٣].

---

(١) ومن الأهميّة التّذكير بأنّ لجنة التّوثيق للأعمال الإيطاليّة في إفريقيا سالفة الذّكر لم تبدي أي شك في سلامة الإحصاء ١٩٣١ الوارد في (الأرض والسّكان) كما لم تظهر أي اهتمام للتناقص السّكاني الّذي أبرزته الأرقام.

(٢) ليست لدينا أي عناصر تؤيّد أو يدحض صحّة تقديرات سنة ١٩٢٨ حتّى وإن كانت هذه التّقديرات مبالغًا فيها إلاّ أنها تثبت أنّ عدد سكان برقه في تزايد حتّى فترة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ لذلك فإن التّناقص يجب أن يعزا إلى سنين القمع الشّديد تحت حكم غرسياني.

(٣) عشر سنوات من تاريخ برقه مصدر سابق.

ونحن نضيف الموتى من السّكان الّذين شملهم التّطهير بشكل مباشر من هنا فنستنتج أن تناقص عدد السّكان يعزى في جزء بسيط منه إلى العمليات العسكريّة ولكن في أغلبه كان نتيجة الظروف القمعيّة للقمع الإيطالي مثل (الجوع البؤس والأوبئة) وإلى التّهجير السّكاني القسري وما تطلّبه من السّير لمسافات بعيدة والموت داخل المعسكرات لسوء التّغذية والأوبئة وعدم القدرة على التّواؤم مع المحيط القاسي الجديد.

إنّ ما بحوزتنا من المعلومات لا يسمح لنا بالتّمييز بين كل هذه الأسباب المختلفة وتحليل أشكال المذبحة وصورها وتواريخها مع عدم إغفال أنّ المدن قد تمّ تحييدها عن كلّ تلك المآسي وأنّها وقعت على سكان الجبل والمناطق شبه الصّحراويّة فقط.

وثمّة رزمة أخرى من المعطيات الموازية تدلّنا على الأساليب الّتي اتخذت من أجل قمع التّمرد، ففي أعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ نلمح التّدمير الممنهج للماشية ورغم أننا نحوز على معلومات غير كاملة وتقريبيّة وفي بعضها تناقض غير أنّها كافية لرسم السّياسة الإيطالية ونتائجها القاسية. إذ أنّ الإحصاء التّركي سنة ١٩١٠ سجّل ١,٢٦٠,٠٠٠ رأس من الأغنام والماعز و٨٣,٣٠٠ من الإبل و٢٧,٠٠٠ من الخيول و٢٣,٦٠٠ من الأبقار[١].

إنّ العمليات في الجبل أحدثت هبوطًا فادحًا في الثّروة الحيوانيّة فمن سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٢٨ قتلت أو غنمت ١٧٠,٠٠٠ رأس[٢] ولكن سنة

---

(١) بريتشارد، مصدر سابق، ص٣٧، ويتعلق الأمر بأرقام تقريبيّة إلاّ أنّ الدّارسين الإيطاليين والإنجليز تقبّلوها دون نقاش.

(٢) عشر سنوات من تاريخ برقه، مصدر سابق، التّقرير يعرض أرقاما إجماليّة سنويّة دون التّمييز بين الأغنام والخيول والإبل ولا يبين الحيوانات الّتي قتلت من تلك الّتي غنمت، بكلّ وضوح هي بيانات مقدّمة من القيادات العسكريّة مبنيّة على عمليات=

١٩٢٨ لا زال يحصى حوالي مليون رأس من الضّأن والماعز[١].

فإخلاء الجبل أحدث هبوطًا مباغتًا حيث كانت الماشية التي استصحبها المهجرون تقدّر بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ رأس[٢] وهي بدورها قد تناقصت بسرعة نتيجة لانعدام المراعي وللإجراءات الّتي اتّخذتها القيادة الإيطالية حتّى تمنع المتمرّدين من المؤن وحتّى في هذه الحالة لا نستطيع أن نتتبع تفصيليًا المراحل المختلفة لتدمير الماشية والّتي تبدو نتائجها الصارخة بشهادة الأرقام التّالية وهي متأتيّة من تقرير للجنرال (غرسياني).

=متفرّقة لذلك يجب أخذها باحتايط كبير بالرّغم منها مفيدة على المستوى الدّلالي وهذه هي التّفاصيل:

ـ ١٩٢٣، ٢٤ ألف رأس/ ١٩٢٤، ٢٥ ألف راس/١٩٢٥، ١٦ ألف رأس/ ١٩٢٦، ٣٧ ألف رأس/ ١٩٢٧، ٢٦ ألف رأس/ ١٩٢٨، ٢٠ ألف رأس/ ١٩٢٩، ٢٥٠٠ رأس/ ١٩٣٠، ٢٦ ألف رأس/١٩٣١، ٢٥٠٠ رأس.

(١) حسب جون دي بوا في كتابه (الاستعمار الإيطالي) في ليبيا، باريس، ١٩٣٥، وقد اطلعنا عليه من خلال كتاب ميغ مرجع سابق، ص١٨٠، يتبيّن أنّه في سنة ١٩٢٦ كان عدد الأغنام في برقه ٨٠٠ ألف رأس، والإبل ٧٥ ألف رأس، والخيول ١٤ ألف رأس، والحمير ٩٠٠٠ رأس، وحسب شاكا المصدر السابق، ص٥٥١. كان عدد الأغنام في ٣٠ أبريل ١٩٢٨ مليون رأس والماعز ١٠٠ ألف رأس وبين ١٠ الآلاف و١٥ ألف رأس من البقر، و٤٠ ألف من الإبل. وبالرّغم من تضارب هذه الأرقام إلاّ أنّها تتّفق على حدوث انخفاض كبير بالمقارنة بسنة ١٩١٠ في أعداد الإبل والخيول والأبقار وأقلّ منها في أعداد الأغنانم وتجدر الإشارة إلى أنّ دي بوا كان عالم جغرافيا مشهور وكانت له معرفة مباشرة بليبيا الإيطاليّة بينما شاكا كان أحد كبار مؤرّخي الحقبة الاستعماريّة.

(٢) جيلو، الأخوانيّة السّنوسيّة، مصدر سابق، ص١١٤، وبريتشارد مصدر سابق ص١٨٩.

	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
الأغنام	٢٧٠,٠٠٠	٦٧,٠٠٠	١٠٥,٠٠٠	٢٢٢,٠٠٠
الماشية	٤,٧٠٠	١,٨٠٠	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠
الجمال	٣٩,٠٠٠	١٦,٠٠٠	١١,٠٠٠	١١,٥٠٠[(١)]

هذه الأرقام بالرّغم من الثّغرات والتّعارض تشير بوضوح إلى هلاك من ٩٠ إلى ٩٥٪ من الغنم والماعز والخيول و٨٠٪ من الأبقار والإبل. (غرسياني) نفسه يتباهى في ١٩٣٤ بالإعادة الجزئيّة لبناء الثّروة الحيوانيّة في المستعمرة مقارنا بين بضعة آلاف من الرّؤوس التي نجت سنة ١٩٣٢ وبرنامجه القادم مبرّرًا هلاك الماشية: (أين أولئك المتشائمون الّذين تنبّأوا بنهاية الاقتصاد البرقاوي بعد هلاك الماشية الذي حدث جرّاء تجميع النّاس أمام هذا الّذي يحدث اليوم هل يجب أن نضحّي بهيبتنا من أجل سلامة الأغنام؟ هيبتنا هي الثّروة غير القابلة للمبادلة باعتبارنا الأمّة المسيطرة أمّا الأغنام فهي ثروة قابلة لإعادة البناء في فترة من الزمن وجيزة)[(٢)].

إنّ نظرة على كشف الأرقام من الوثائق الّتي بحوزتنا في موضوع التّهجير ـ وهي على قلّتها ونقائصها ـ تكشف أنّ سكّان المدن كانوا

---

(١) من غرسياني إلى بالبو وإلى دي بونو وبادوليو للإطلاع ٢٦ أبريل ١٩٣٤ في م.م.د.غ ٦/٩/٥ وهو تقرير حول الأوضاع العامّة في المستعمرة قد كتبه غرسياني في لحظة تركه لمنصبه كنائب للحاكم العام. تراجع أرقام دي بوا في كتاب ميغ المذكور ص١٨٠ بريتشارد مصدر ص٣٧ حيث تشير إلى هذه الأرقام لسنة ١٩٣٣. ٩٨ ألف رأس من الأغنام ٢٥ ألفًا من الماعز ٢٦ ألفًا من الإبل ٨٧٠٠ من الأبقار ١٠٠٠ من الخيول ٥٠٠٠ من الحمير هنا تبرز بعض التّناقضات إلاّ أنها لا تؤثّر في مسار الظاهرة.

(٢) خطاب غرسياني في مجموعة من المعمرين في بنغازي ٢٥ فبراير ١٩٣٤ في م.م.د.غ ١١/٨/٤.

حوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة وسكان الواحات الدّاخليّة ما بين ٥ إلى ١٠,٠٠٠ إلى إضافة إلى المجموعات التي انغمست في الاقتصاد المدني أو كان موثوقًا بها سياسيًا، كل هؤلاء السّكان استثنيت من قوانين التّهجير حسب (غرسياني) (٤٥٠ خيمة) للعرفه حول منطقة المرج و١٣٥٠ خيمة للحاسه حول سوسه و١٤٠ خيمة في محيط مدينة درنه و١٢٠٠ خيمة في عين الغزالة من العبيدات حيث أن أعداد الأشخاص لكل خيمة أي عدد العائلات يختلف باختلاف الغنى والتّقاليد وخسائر الحرب فاقتصر التّرحيل على البدو الرّحل وشبه الرّحل الّذين يحترفون الرّعي والزّراعة الموسميّة في الجبل وفي مناطق البطنان وبنغازي وسرت، وشهادات مختلفة تتكلّم عن ٨٠,٠٠٠ مهجّر دون تفاصيل أخرى[1].

يبدو أنّ هذه الأرقام منخفضة للغاية إذا ما جمعنا حوالي ٨٠,٠٠٠ أو ٧٠,٠٠٠ مستثنين من هذا الإجراء إلى عدد ٢٠,٠٠٠ شخص هاجروا إلى مصر يمكننا اعتماد هذه الأرقام فقط إذا قبلنا بالتّقييم الأكثر انخفاضًا لشعب برقه ثمة نقطة ارتكاز أكثر مصداقية وتفصيل نستخلصها من تقرير يتناول معسكرات الاعتقال بشكل خاصّ وهو ما بعث به (غرسياني) يوم ٢ مايو ١٩٣١ إلى (دي بونو) كمعطى رقمي.

---

(١) انظر: جيليو، الإخوانيّة السّنوسيّة سالف الذّكر، ص١٤٤ وكذلك غرسياني مصدر سابق، ص١١٥ وبريتشارد ص١٨٩ وقائع البرلمان الإيطالي في دورته ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤ ومضابط مجلس النّواب وثيقة ١٠٠٠/٨٠ وتقرير لجنة الميزانيّة النّفقات التّقديريّة في وزارة المستعمريات في السّنة الماليّة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ص١٥ كلّ المعلومات حلّ التّهجير الّتي نوردها وعلى الأخصّ كشف العائلات المستثناة وتوزيع المهجرين على المعسكرات المختلفة حتّى يوليو ١٩٣١ متأتية من كتاب غرسياني مصدر سابق ص١٠٤.

	عدد الأفراد
معسكر الأبيار	٣,١٢٣
معسكر سلوق	٢٠,١٢٣
معسكر سيدي أحمد المقرون	١٣,٠٥٠
معسكر مرسى البريقه	٢١,١١٧
معسكر العقيله	١٠,٩٠٠
معسكر أجدابيا	١٠,٠٠٠[١]

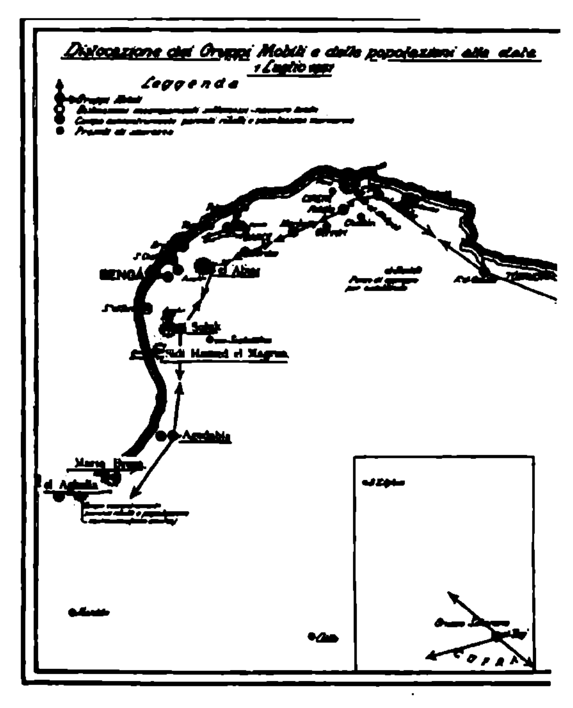
إذا كان مجموع المعتقلين في هذه المعسكرات يبلغ ٧٨,٣٠٠ نسمة حسب هذه القائمة وإذا أضفنا ١,٥٠٠ معتقل من قبيلة المغاربة الّذين نقلوا إلى معسكرات العقيله والنّوفليّه فعليه يكون العدد الإجمالي ٧٩,٨٠٠ شخص إلاّ أنّه يبقى أقل من المجموع الحقيقي لأنّ هذا التّقرير لا يذكر في المقام الأول مجموعة من المعسكرات الصّغيرة والتي ذكرها (غرسياني) في كتابه مثل معسكر دريانه ومسعكر سيدي خليفة ومعسكر بنغازي نفسه أو سوانيتريا وثانيًا إنّ هذه الأرقام تشير إلى تاريخ شهر مايو ١٩٣١ متجاهلة أولئك الّذين قضوا أثناء نقلهم سيرًا على الأقدام إلى المعسكرات وكذلك الموتى داخل هذه المعسكرات في ٨ أو ١٠ أشهر من الاعتقال التي سبقت تاريخ هذا التّقرير.

يبدو لنا أعداد المهجرين قد وصل حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة وإذا

(١) من غرسياني إلى دي بونو ٢ مايو ١٩٣١ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ هذا الكشف يثير الإستغراب لأنّه لا يذكر معسكر سوانيتريا الّتي وردت في التّقرير ويذكر معسكر أجدابيا الّذي لم يتناوله التّقرير أمّا عن معسكر العقيله فالتّقرير يعطي إجمالي عدد المعتقلين ٣٠٠٠ من قبيلة المغاربة و٧٩٠٠ من أقارب المتمرّدين في معسكر العقاب. وأضاف ١٥٠٠ معتقل من قبيلة المغاربة في معسكر النّوفليّة.

أخذنا في احتساب عدد الّذين هاجروا إلى مصر وأعداد الأشخاص الّذين استثنوا من قرار التّهجير يكون عدد سكان برقه قبل وصول (غرسياني) قريبًا من ٢٠٠,٠٠٠ نسمة وهو التّقدير الوسط بين الإحصائيات الّتي تقدمت فيكون عدد الخسائر في الأرواح حوالي ٥٠,٠٠٠ نسمة في فترة القمع.

فالأرقام الّتي ذكرها (غرسياني) عن عدد المهجّرين في كتابه ما بين شهري يوليو وأغسطس ١٩٣١ تبدو منخفضة وإن كانت المقارنة المباشرة صعبة جدًّا.



I campi di concentramento delle popolazioni del Gebel

كان (غرسياني) يتحدث عن ١٥,٢٠٠ خيمة مع ٧٠٠٠ شخص في معسكر التّأديب في العقيله بما مجموعه بين ٦٠ و٧٠,٠٠٠ شخص، فهذا الانخفاض الكبير هل نحمله على الاختلاف في تجميع الوثائق أو إلى نسبة الوفيات العالية الّتي كانت سمة كلّ مراكز الاعتقال؟ في هذه النّقطة بالتّحديد لا توجد لدينا معلومات دقيقة وإنّما مجموعة من العناصر المتفرّقة وإن لم تكن كافية ومحدّدَة حاسمة إلاّ أنّها بليغة في دلالتها.

فلنبدأ بمقارنة معطيات (غرسياني) الّتي قدمها في تقريره سالف الذِكر في شهر مايو ١٩٣١ مع أخذنا في الاعتبار أنّه في ذلك التّاريخ قد تمّ إنشاء المعسكرات في صفوف منتظمة ومكثّفة من الخيام المنصوبة على رمال ساحل البحر والمحوطة بسورين من الأسلاك الشّائكة وبحراسة متيقظة لرصد كلّ تحرّكات المعتقلين كما كانت لا تحتوي على مرافق كافية للخدمات العامّة. من بين المعسكرات المذكورة في التّقرير معسكران كانا متوسطي الحجم بـ ٣١٠٠ معتقل سواني التريّة بعدد غير محدّد ولكنّه أصغر من الأوّل بكل تأكيد[1] وأنّ الحياة في كليهما كانت لا إنسانيّة نسبيًا. وكان في حوزة المعتقلين في الأبيار حوالي ١٥٠٠ رأس من الغنم مع تموين كاف من الحبوب والأعلاف وقد قاموا بزراعة الشعير والقمح (ترحيل جماعات تمارس الزراعة عادة أمكنها استصلاح أراض زراعيّة وخلق مواقع عمل ومداخيل) حسب (غرسياني) وكذلك في معسكر تريا كانت لهم إمكانيّة جيدة للعمل حسب وجهة نظر السّلطات الإيطالية التي تقول: (بانضمام المجموعات الّتي كانت تقليديا تمتهن الزراعة أصبح في الإمكان إعادة العمل في كثير من المزارع الصّغيرة

---

(١) في الخريطة حول مواقع المعتقلات في أول يوليه ١٩٣١ صفحة ١٠٤ من كتاب غرسياني، يظهر أنّ معسكر سوانيتريا يحوي مائة خيمة ومعسكر الأبيار يحوي ٩٢٤ خيمة ويتبيّن من جملة المراسلات أنّ كلّ خيمة كانت تأوي من ٣و٤ أشخاص.

بالمناطق المهجورة منذ زمن وتم بذلك ضمان إعالة مجموعة كبيرة من الأسر وكانت الظروف الاقتصاديّة لهؤلاء السّكان المهجّرين في هذا المعسكر لا تثير القلق لأنّ مواردهم الزراعيّة وثروتهم الحيوانيّة كافية لاحتياجاتهم[1] وعلى العكس من ذلك فإن النّقص كان في المنشآت العامّة، مدرّس واحد للعربيّة وآخر للإيطاليّة وعيادة واحدة وخيمة للإسعاف هذا في مخيم الأبيار أمّا في سواني التريّة فلا يوجد أي شيء من هذا. في كلا المعسكرين كان يجري العمل لإنشاء مراكز للبوليس (الكرابينياري) وكوخ لدراسة الحشرات في الأبيار وعيادة في سواني التربة. كانت الظروف مختلفة جدًا في المعسكرات الكبرى (سلوق، سيدي أحمد المقرون، مرسى البريقه، العقيله) الّتي كانت تحوي في مجموعها ٦٥,٠٠٠ معتقل في كل هذه المعسكرات كانت البنيّة التّحتيّة في حدودها الدّنيا طريق للدخول والخروج وآبار مشتركة للبشر والحيوانات ومراحيض غير صحيّة وقليلة وشبكة من الأسلاك الشّائكة تحيط بها.

لم تكن ثمّة إمكانيّة للاكتفاء الذّاتي في الغذاء بهذه المعسكرات ذلك أنّ الحيوانات الّتي نجت من الهلاك وكذلك زراعة الحبوب التي سعوا فيها لم تكن تكفي لتأمين ضرورياتهم الحياتية في حدّها الأدنى. وبما أنه لم يكن في مخطط الإيطاليين تزويد المهجرين بالغذاء على نفقة الدّولة، سارعت السّلطات إلى حل هذه المعضلة بإنشاء شبكة من الطرق مثل طريق العقيله بنغازي وتشغيل بعض المعتقلين ليحققوا حدًّا أدنى من الدّخل على غرار ما في تقرير (غرسياني) إلى (دي بونو): (خطة العمل هذه يقصد بها تشغيل المعتقلين بغية تحسين ظروف سكّان المعتقل (سلوق). والأعمال الجارية في معتقل سيدي أحمد المقرون وكذلك في

---

(١) من غرسياني إلى دي بونو ٢ مايو ١٩٣١ مصدر سابق.

طريق قمينس سوف تحسّن من الظروف الاقتصاديّة للنّاس، هذا وسوف نبذل كلّ جهد في وضع دراسة لإعداد خطّة لمشاريع في هذه المواقع ليكون العمل وما يحققه من دخل للسّكان كاف لسدّ حاجياتهم. مجموعة كبيرة من العبيدات ومن البطنان يشتغلون الآن في أعمال الطّريق الرّابط بين أجدابيا بنغازي وسيستمرّون في العمل حتّى ينظم السّكان المهجرين في مرسى البريقه للقيام بأعمال اقتصاديّة مستقلّة[١].

إنّ الوصول إلى توفير الإحتياجات الغذائيّة ذاتيا في المعسكرات سوف يبقى هدفًا أساسيًا وسيكون تحقّقه باستصلاح ٢٠ هكتارًا في سلوق و٢٠ هكتارًا في العقيله و١٥ هكتارًا في مرسى البريقه وبهذه الطّريقة يمكن أن تصبح مرسى البريقه مركزًا اقتصاديًا للعديد من الأسر الزراعيّة وتطويرًا للأنشطة الزّراعة وتوابعها ومتعلقاتها في مناطق لم يحدث فيها شيء من هذا القبيل في السّابق[٢].

وكذلك نتأمّل في تحوّل الأهالي شبه الرّحل إلى صيّادي أسماك ولذلك بعث بقاربين إلى مرسى البريقه ووعد بإرسال قاربين إلى العقيله ويؤكّد (غرسياني) على أنّ هؤلاء المعتقلين يفضّلون الأسماك وعلى الأخصّ إذا كانت مملّحة إضافة إلى القيام بتوزيع أقمشة وأصواف على النّساء الفقيرات حتّى يتمكّنّ من صنع خيام وسجاد، كما شجّعت السّلطات على فتح البقالات المختلفة في المعسكرات فعلى سبيل المثال في معسكر سيدي أحمد المقرون حاول المكتب الحكومي تفعيل مبادرة الحرفيين وتشجيعهم على بناء محلاّتهم لممارسة أعمالهم حتّى تكتسب هذه المعسكرات شكل الأحياء الصّغيرة المتطوّرة لمستقبل غير بعيد[٣]

(١) من غرسياني إلى دي بونو ٢ مايو ١٩٣١ مصدر سابق.
(٢) من غرسياني إلى دي بونو ٢مايو ١٩٣١ مصدر سابق.
(٣) من غرسياني إلى دي بونو ٢ مايو ١٩٣١ مصدر سابق.

فتمثّل هذه المحلاّت فضاءات الأنشطة الوحيدة في المعسكرات آنذاك حتّى أنّ ثمّة خطّة لإنشاء مراكز للشرطة ومكاتب للإدارة وعيادات ومدارس، (سلوق) فقط كانت لها عيادة تضمّ ١٣ سريرًا ومدرسة مع مكان لإقامة المدرس أما التّجهيزات الصحيّة فهي تعتمد على طبيبين كل واحد منهما مسؤول على معسكرين يحويان أكثر من ٣٠,٠٠٠ نسمة وبعض الخيام كعيادات وبعض الممرضين الّذين قاموا بتطعيم الجميع ضدّ مرض الجدري.

إنّ الصورة الّتي يرسمها هذا التّقرير مزعجة حيث عشرات الآلاف من الأشخاص مكدّسون واحدًا خلف الآخر كما تشهد بذلك الصّور الّتي نشرها (غرسياني) في كتابه دون وسيلة إغاثيّة وبأجر زهيد من أعمال الطّرق غير المنتظمة[(١)].

وبقليل من المحلاّت الصّغيرة والبقّالات كنقاط وحيدة للالتقاء

(١) في سنة ١٩٣٤ صرّح غرسياني بأنّ مجمل الأنفاق على أعمال الطّرق في أربع سنوات بلغ ٤٥ مليون ليرة في مقابل مليون و٥١٦ ألف يوم عمل للعمالة الإيطاليّة أي بمعدل ٣٠ ليرة يوميًا و٥٧ مليون ليرة مقابل ٥ مليون و٦٤٦ ألف يوم عمل للعمّال اللّيبين أي بمعدل ١٠ ليرات في اليوم، في خطاب غرسياني ٢٥ فبراير ١٩٣٤ سبق ذكره ومن باب الدّلالة فلو قام بنصف العمل الأشخاص القابعين في معسكرات الاعتقال خلال الفترة مابين ١٩٣١ ـ ١٩٣٣ لكانت مدّة عملهم مئتي يوم وتقاضوا في مقابله ٢٠٠٠ليرة لكلّ عائلة في ٣ سنوات. وفي خطاب غرسياني ورد كذلك أنّ إجمالي النّفقات على ما وزع من القمح والشّعير والطّحين والأدوات العمل وما شابهها بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ بلغت ١٢,٦٨٨,١٠٠ ليرة فلو افترضنا جدلا أنّ ثلثي هذا المبلغ قد خصّص لمعسكرات الاعتقال نخلص إلى أنّ كلّ أسرة حصلت على ٥٠٠ ليرة في ٣ سنوات، هذه الإحصائيات ليست كفيلة قطعًا بتقييم مستوى الحياة للأهالي المهجرين ولكنّها كافية لإعطاء فكرة عن المستوى المتدنّي للجهود الّتي قدّمتها السّلطات الإيطاليّة لإبقاءهم على قيد الحياة، ولم يثبت لدينا أنّ السّلطات قد قدمت عونًا آخر غير ما ذكرناه أعلاه وهو التّشغيل في أعمال الطّرق.

وبخدمات صحيّة تكاد تكون منعدمة في الوقت الّذي تمّ فيه الانتقال القسريّ من الحياة البدويّة الغنيّة باللّحم والحليب إلى حياة المعسكرات المكتظّة على شاطئ البحر وبغذاء مختلف إضافة إلى هلاك الماشية. فهذا الفقر الغذائي كان من شأنه أن يساعد على تفشي الأمراض المتوطنة، وقد سكتت التّقارير الإيطاليّة عن ذكر الظّروف الحياتيّة في المعسكرات وكذلك عن الوفيات التي تبدو عالية للغاية من خلال إشارات وأرقام متفرّقة، في الوقت ذاته كانت الدّعاية الاستعماريّة تنشر صورًا مثاليّة كما في هذا الموقف الّذي رسمه (غرسياني) في منتدى صحفيّ في شهر يونيه ١٩٣١ : (لم يحدث أي تغير جدي في حياة النّاس (يقصد المهجّريين قسريّا) ولم يحدث أي اضطراب نتيجة لنقلهم إلى السّهل غرب بنغازي مثلما عاشوا من قبل تحت خيمة مع قطعانهم هم اليوم يعيشون في نجوعهم الجديدة، وهنا أريد أن أؤكّد أنّها ليست معسكرات اعتقال حقيقة كما قد يتصوّر البعض لأنّ معسكرات الاعتقال تنشأ عندما يجمع في مكان ما أناسًا مستقرين يعيشون في أحياء سكنيّة أمّا في حالتّنا هذه فنحن بصدد انتقال يسير بشعب من الرّحل محتفظين بعاداتهم الحياتيّة في مأواهم الجديد حتّى وإن كان مطوقًا ومحروسًا، بل بالعكس إنهم في المناطق الّتي نقلوا إليها غرب بنغازي ومنطقة سرت فسوف يتمتّعون بالرّعاية الصّحيّة والاقتصاديّة الّتي كانوا محرومين منها بسبب ترحالهم المستمرّ[١].

---

(١) في خطاب لغرسياني لمجموعة من الصّحفيين في بنغازي ٩ يونيو ١٩٣١ منشور في كتاب (عشر سنوات من تاريخ برقه) مصدر سابق، وقد كانت نجاحات الرّعاية الصحيّة في المعتقلات من المواضيع المفضّلة للدّعاية الاستعماريّة، يرجع التّقرير الّذي أعدّه البروفيكة تيدسكي مدير مستشفى درنه غرسياني العمل الآنف ذكره ص١١١ ـ ١١٢ ويذكر فيه أنّه من بين أساليب الوقاية الحديثة كان يعتمد تطبيق قواعد الوقاية في تعقيم المصابين بالزّهري.

٢ ـ تفيكيك معسكرات الاعتقال

بكلّ وضوح كان (بادوليو) و(غرسياني) يفكّران في إبقاء معسكرات الاعتقال لزمن غير محدود وتوطين المهجرين بشكل نهائي في منطقة سرت حتّى يخلى الجبل لمصلحة المعمّريين الإيطاليين. في شهر مايو ١٩٣١ أنهى (غرسياني) تقريرًا سابق الذكر إلى (دي بونو) بهذه الكلمات: (كما يبدو لسيادتكم فإنّ ترتيبات نقل البدو الرّحل إلى جنوب بنغازي وإلى غرب المستعمرة قد تمّ إنجازه. فالمعسكرات في طريقها إلى الاكتمال النّهائي فقد قطعوا كلّ صلة بالمتمرّدين ويستعدون للمستقبل كشعب مطيع ومعتاد على العمل وبكلّ تأكيد سوف يتمسّكون بالبقاء في الأراضي الجديدة الّتي نقلوا إليها وسيفقدون بذلك عادة التّرحال مكتسبين عادات المجتمعات المستقرّة بما توفّره من متطلبات الرّاحة والّتي نبني عليها سياسة التّهدئة والتّنمية في برقه)[١].

في نهاية سنة ١٩٣١ عندما خمدت المقاومة كان (غرسياني) لا يزال مصرًّا على ضرورة استمرار الحراسة الصّارمة للحدود مع مصر وإبقاء السّكان مبعدين عن الجبل حتّى يبتعدوا عن شبح التّمرد من جديد. وقد كتب (غرسياني) لدي بونو أنّ التّرتيبات في منطقة سرت للمهجرين يجب أن تستمر لفترة طويلة: تجهيزات المعسكرات للمستسلمين تسير إلى الأفضل إذا أعطى الموسم الزّراعي محاصيل جيدة فنستطيع القول إننا قد تغلّبنا على المشكل الاقتصادي في الرّبيع القادم مع التّوسع في المراعي الّذي سوف يعطي زيادة في الثّروة الحيوانيّة[٢].

---

(١) من غرسياني إلى دي بونو ٢ مايو ١٩٣١ سبق الإشاره إليه.

(٢) من غرسياني إلى بادوليو ودي بونو ٢٢ ديسمبر ١٩٣١ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ غرسياني يطلب استبدال المسؤولين الاستعماريين الإيطاليين: يلزم استبدال الكثير من الموظّفين الكبار بآخرين لم يسبق لهم الإقامة في هذه البلاد ولم يسبق أن عرفوا=

يتفق (بادوليو) تمامًا حول السّياسة المتشدّدة تجاه السّكان والحركة السّنوسيّة كما تثبتها هذه الرّسالة التي تحمل التّوجيهات في يوليو ١٩٣١: (هذه التّعليمات يجب التّسليم بها دون جدال)

١ ـ مادام ثمّة فرد واحد من السّنوسيّة على قيد الحياة فسيبقى دومًا عدوًّا مبينًا لنا وسيسعى بكل الطرق أمرين هما:

أ ـ الإبقاء على أفكار الحركة السّنوسيّة حيّة والتّرويج لها.

ب ـ محاولة إيذائنا بكل الوسائل الظاهرة والباطنة مستخدمين كلّ الفنون الّتي تزخر بها العقليّة الشّرقيّة.

٢ ـ الحكومة المصريّة لن تتخذ أبدًا موقفًا حربيًا مناصرًا لنا ومضادًّا للسنوسيّة.

٣ ـ الإدارة الإنجليزيّة لن تحرك ساكنا لصالحنا إذا كان هذا التّحرك يجلب عليها نقمة المصريين.

٤ ـ الحكومة المصريّة سوف تعرقل إلى درجة الحظر رجوع المهاجرين كما تفعل حكومتا تونس والجزائر بمهاجري منطقة طرابلس.

٥ ـ يجب أن نعوّل فقط على قوّاتنا وأخذ الحيطة من عداء جيراننا.

=شخصًا واحدًا من الزّعماء والوجهاء الكبار أو الصّغار ممّن هم في المنفى (وإذا كان هؤلاء سيرجعون طلقاء في يوم من الأيّام وسيظهرون على مسرح الأحداث من جديد) لذلك يجب التّوقي من تأثيرهم عليهم لم يسبق لي أن وجدت في أيّة مستعمرة من القبل رجالا ينصاعون بكلّ سهولة (للفيروس الشرقي) وللإيدولوجيات المختلفة الّتي تتناول الاستعمار والتّفوق العرقي والتّعاون وهكذا دواليك كلمة السّيطرة الكاملة مع احترام الأهالي وإدخالهم بشكل بسيط ومطلق تحت قوانينا لازالت مجهولة من كلّ هؤلاء الرّجال الّذين أقاموا هنا من عدة سنوات.

بعد وضع المسألة الّتي نعتقد جميعًا أنّها حقيقة لا جدال فيها بهذه التّحديدات فالواجب ألاّ نحيد عن:

١ ـ اعتبار أيّ قياديّ سنوسيّ عنصرًا يجب محاربته حتّى القضاء عليه بكلّ الوسائل وعلى الدّوام ورفض أي اتّصال به ومنع دخوله للمستعمرة وعدم عقد أي اجتماع أو نقاش معه حتّى من خلال وسطاء.

٢ ـ عدم محاولة إعادة المهجّرين فمن الأفضل فقدانهم وإلى الأبد.

٣ ـ عدم تفكيك أي شيء من آلياتنا العمالتيّة في القيادة والتي تعتمد على الأسوار الشائكة والمعتقلات والمراقبة والاختبارات الدّقيقة للظروف هي وحدها التي ستملي علينا إذا كان يتحتم توسيع هذه التّجهيزات ويجب أن نتذكر جيدًا أن الأمر ليس رهين أشهر وإنما سنوات بعد مرض استمرّ ٢٠ سنة ففترة التّعافي سوف تكون بالتّأكيد طويلة.

٤ ـ الجبل يجب أن يكون تحت سيطرة المعمّرين الإيطاليين.

٥ ـ مواصلة البحث عن الأسلحة للاقتناع بأنّ الكثير منها لا زال مخبأ بنفس الطريقة التّي نعتمدها في إقليم طرابلس.

٦ ـ توجيه كلّ العناية لمعسكرات الاعتقال بحيث تستمر حتّى نصل إلى اللّحظة التي نقتنع بعدم جدواها وقناعة البدويّ بأنّ هذه المعسكرات أصبحت وطنه الدّائم ويجب تسهيل إمكانيّة بقائه على الأرض بترغيبه في بناء المنازل وتوزيع الأراضي.

٧ ـ العناية الكاملة بمنظمات الشباب في التّعليم والتّربيّة للحصول على العناصر لكتائبنا.

هذه هي الخطط التي يجْب أن تتبع والتي كنّا حدّدناها مسبقا، أنا متأكد من أنه سيكون [كلمة غير مفهومة في النّص الأصلي] في الحالات

التي أدرجناه أعلاه والتّعامل معه كما هو متوقع، أعيد يجب ألاّ نفزع إزاء أيّ خبر أو أي اقتراح، طريقنا قد رسم وعلينا ألاّ نحيد عنه كما كنّا دائمًا[١].

توجيهات (بادوليو) هذه قد تمّ تجاوزها جزئيا في ما يتعلّق بمعسكرات الاعتقال فقد بدأ تفكيكها بالفعل فمعسكر الاعتقال الّذي كان مخصّصا لأقرباء المتمرّدين في العقيله تمّ إخلاؤه يوم ١ أبريل ١٩٣٢ لأنّه حسب ما كتب (غرسياني) إنّ الاستمرار في معاقبة أقرباء المتمرّدين في الوقت الّذي تمّ فيه العفو على كلّ المتمرّدين أنفسهم لم يعد له معنى، لذلك فهؤلاء وأقرباؤهم يجب إرسالهم إلى المعسكرات الّتي توجد فيها قبائلهم في مرسى البريقه وسلوق وسيدي أحمد المقرون أو يقيموا في العقيله ولكن في معسكر عادي بينما إرجاع قبيلة الحاسه والعرفه إلى سوسه والمرج[٢]. وافق دي بون على ذلك ولكنّه انتقد نشر ذلك في الصّحافة: لا أعتقد أنّه كان مناسبًا إعطاء كلّ هذا الزّخم الإعلامي لمثل هذه الإجراءات الّتي اتخذتها الحكومة في ما يتعلق بالسّكان الأصليين المستسلمين للتهدئة والتي سوف تنشر في إيطاليا والعالم بشكل مبالغ فيه[٣].

كان تفكيك معسكر الاعتقال العقابي في (العقيله) إجراءًا استثنائيًّا غير أنّه في نهاية يونيه ١٩٣٢ قام (دا أودياشي) الحاكم المدني للجبل بتقديم

---

(١) من بادوليو إلى غرسياني ٢٩ يوليه ١٩٣٢ في م.م.د.غ ٢/٢/١.

(٢) من غرسياني إلى بادوليو ودي بونو ٢٩ مارس ١٩٣٢ في أ.و.ف.ط ٥٠/٢٢/٩٨، في ١١ فبراير قام غرسياني بالعفوعن المنفيين السّياسيين.

(٣) من دي بونو إلى غرسياني ٦ أبريل ١٩٣٢ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ التّدخل الرّقابي الّذي طلبه دي بونو يشرح لنا الصمت المطبق من الصحافة الإيطالية حول معسكرات الاعتقال.

اقتراح لغرسياني الّذي قد طلبه منه صراحة على ما يبدو بتقديم خطّة لرجوع السّكان للجبل ولكن ليس في مواطنهم الأصليّة التي هجروها بسبب متطلبات المعمّرين الإيطاليين التي يجب أن تعطى الأولويّة فكتب بكلّ تفاؤل: (تعلم معاليكم (غرسياني) وتدرك حجم البؤس الّذي تردّى فيه سكان برقه ولكن لا بدّ أنكم على قناعة أنّ ثمّة إمكانيّة لإنعاش الاقتصاد بشكل سريع وتحسين أوضاع السّكان الاقتصاديّة إذ يكفي موسم زراعي جيّد وسنتان أو ثلاث من المرعى الخصب في حريّة وسكينة أن تحوّل هؤلاء إلى ميسورين)[١].

حسب الوثائق لم نر سببًا واضحًا وصريحًا لتفكيك المعسكرات ورجوع السّكان إلى الجبل ولكن ثمّة سببان يمكن استخلاصهما من مجموعة المكاتبات والمراسلات: أولهما الإخفاق في مشروع تحويل معسكرات الاعتقال بمنطقة سرت إلى مستوطنات قارّة بسبب استحالة توفير الغذاء والظّروف الصحيّة بمجرد البقاء على قيد الحياة، ثانيهما حاجة الإيطاليين إلى اليد العاملة الرّخيصة لتطوير الجبل ومن ذلك نرى أنّ (دا أودياشي) يرجع مرّة أخرى حاثا على عودة السّكان في وثيقة مهمّة لأنّها تشير إلى السّكان المحلّيين: (أقول لمعاليكم (يقصد غرسياني) تجد الدّعوة لعودة السّكان مقاومة عنيفة من شرطة الكارانبانياري وعلى

---

(١) مذكّرات الحاكم غرسياني أعدّها مفوّض الجبل دا أودياشي في ٢٧ يونيه ١٩٣٢ في م.م.د.غ ٨/٨/٤ يقترح هذا الأخير إبقاء قبيلة العرفه والّتي أفلت الكثير منهم من التّهجير أن يبقوا حول مدينة المرج أو الإنتقال إلى الشّاطئ ما بين توركه وطلمية وقبيلة العبيد الّذين تناقص عددهم أن يوضعوا في منطقة أمّ الجوابي حيث يمكن لهم إعادة فتح بئر روماني قديم، وتنقل قبيلة الدرسه الّذين تناقص عددهم كذلك إلى حوالى ٥٠٠٠ فرد إلى نواحي طلمية والحنيه أمّا قبيلة الحاسه فتبقى في نواحي شحات وكذلك البراعصه الّذين تناقصت أعدادهم لأنّهم منيوا بخسائر أكبر فينقلون إلى منطقة مراوا وجرجس الجراري، وقبيلة العبيدات يمكن نقلهم إلى أمّ الرّزم ومرتوبه وخولان.

الأخص صف الضّباط والضابطيّة أي المرؤوسين وليس الضّباط وكذلك في صفوف السّكان الإيطاليين وعلى الأخصّ المجموعات الأكثر جهلا والأقل أهميّة وكذلك من وصل إلى المستعمرة مؤخرًا، هذه العدائيّة لا تجد أسبابًا واضحة ومحددة ولكنّها تنبع من مخاوف غامضة بأنّ رجوع السّكان لهذه الأرض سوف يقلّل من رفاهيتهم أو يمنعهم من الاستيلاء على الأراضي بشكل سريع، أنا لا أشاركهم في شيء من هذه التّخوّفات لأنّني أعتقد أنّ في الجبل ومنحدراته نحو الجنوب ثمة مكان للجميع معمّرين وسكان أصليّين. وكذلك أستبعد أن تحدث في المستقبل المنظور أي نوع من الحرابه كتلك التي استأصلت قريبًا، فالحرابه في برقه كانت تمثّل تنظيمًا سياسيًا واستمرّت لعدة سنوات لأنها تقوم على هذه الفكرة، اليوم قد انتهى هذا التّنظيم السّياسي وهذه الشّبكة من المصالح بين التّنظيم المتمرّد والشّيوخ والأهالي إلى الأبد فالأوّلون قد اختفوا والآخرون قد فقدوا أيّ أهميّة لأنّهم أصبحوا مكروهين في قبائلهم ويعزى لهم كلّ الخراب الّذي حلّ بهم. فالسّكان قد استسلموا للطّاعة وليس في إمكانهم النّزوع إلى العصيان والتّمرد على حكومتنا)[١].

تأجّل رجوع السّكان إلى الجبل لأسباب أمنيّة على الأرجح، في النّصف الثّاني من سنة ١٩٣٢ أطلق سراح عبيدات البطنان ومن المحتمل كذلك المغاربة الّذين كان لهم دور هامشي في التّمرد ويقطنون الأراضي شبه الصحراويّة الّتي لا تهم برنامج المَعمرين[٢].

---

(١) من دا أودياشي إلى غرسياني ٥ يولية ١٩٣٢ في م.م.د.غ ٨/٨/٤.

(٢) إطلاق سلاح عبيدات البطنان موثّق في مراسلات غرسياني في رسائل إلى الوزارة يوم ٢ أغسطس ١٩٣٢ وإلى بادوليو في ٢ أكتوبر ١٩٣٢ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ والإفراج على المغاربة غير موثق ويبدو لنا إمكانيّة وضعه بكلّ تأكيد في النّصف الثّاني من عام ١٩٣٢ إذا لم يكن قبل ذلك (وبالنّسبة للقبائل الّتي كانت تسكن في منطقة سرت فإنّ التّهجير كان وقعه عليهم أقلّ قسوة على ما يبدو)، أمّا العبيدات الذين=

في بداية سنة ١٩٣٣ عندما اتّجهت الحالة العامّة للبلاد نحو الاستقرار[1] بقي سكّان الجبل والعواقير معتقلين في معسكر سلوق وسيدي أحمد المقرون ومرسى البريقه وأغلب الظنّ داخل معسكرات أخرى صغيرة في محيط مدينة بنغازي، (ليس لدينا معلومات عامّة عن الظّروف في هذه المعسكرات ولكن في مقدرتنا تقديم بعض الأرقام عن معسكرات سلوق. وسيدي أحمد المقرون) في ربيع ١٩٣٣[2]. معسكر سلوق كان يحوي ١٣,٠٠٠ معتقلاً من العواقير والعبيد والعرفه والقبائل الملحقة بهم بفارق كبير مقارنة بـ ٢٠,٠٠٠ الّذين هجروا قبل سنتين ولم يعط أيّ مبرر لذلك ولكن الاحتمال هو الهلاك داخل المعسكر[3].

فمعسكر سيدي أحمد المقرون كان يحوي ٨٤٠٠ من قبيلتي البراعصه والدرسه والقبائل الملحقة بهم وحتّى في هذه الحالة ثمّة انخفاض في عدد المهجّرين بالمقارنة بـ ١٣,٠٠٠ سيقوا إليه سنة ١٩٣١.

=يسكنون الجبل والّذين اشتركوا في التّمرد منذ بدايته فقد تمّ الإبقاء عليهم في الاعتقال حتّى العام اللاّحق ولكننا نجهل تاريخ الإفراج عنهم.

(١) في ٢٨ يناير ١٩٣٣ أبلغ غرسياني الوزارة بإطلاق سراح ١١ شخصًا سياسيًا كانوا معتقلين ولم يبقى سوى ٣ أشخاص في برقه وأولئك المنفيين في جزيرة أوستيكا في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠.

(٢) جميع هذه الأخبار الآتيه مأخودة من وثيقتين لإيجيدي Egidi المفوض الأقليمي لبنغازي مرسلة إلى غرسياني ١٨ فبراير ١٩٣٣ وإلى إدارة الشّؤون المدنيّة والسّياسيّة لحكومة برقه في ٦ مارس ١٩٣٣ في م.م.د.غ ٨/٨/٤.

(٣) في ٢ أغسطس ١٩٣٢ أمر غرسياني بترحيل العواقير من معتقل سلوق إلى معتقلات تتوفر فيها ظروف حياة أفضل (هذه الرّسالة سبق ذكرها) ولكنّ هذا الإجراء لم ينفذ لأنّه في سنة ١٩٣٣ يمثّلون ثلاثة أرباع المعتقلين في هذا المعسكر ويلاحظ أنّ أعداد المهجرين في كل معتقل كان يجب أن يتزايد بدل الإنخفاض لأنّه في سنة ١٩٣٣ قد تم وضع المتمردين السّابقين وأقرباءهم القادمين من معتقل العقيله للعقاب والّذي تمّ اقفاله وبما أنّه لم يثبت القيام بإجراءات صراح فرديّة ذات أهميّة لذلك ليس ثمّة مجال للشّك في أنّ انخفاض أعداد المعتقلين يرجع إلى ارتفاع أعداد الوفيات نتيجة للظروف البيئيّة ونقص في الغذاء ممّا سبب في انتشار الأمراض والأوبئة المتوطنة والجديد.

كلّ هؤلاء كانوا يفتقرون إلى وسائل العيش لأنّهم فقدوا عمليًا كل ثروتهم العمليّة (٣٤٠٠ بين عبيد وعرفه لا يملكون إلاّ ٢٢٠ رأس ماشّة و٨٤٠٠ من براعصه ودرسه يملكون ١٠٠٠ رأس ماشية و٦٢٠٠ من العواقير يملكون ٦٨٠٠ شاة و١٢٦ جملا و٧ بقرات و١٨ حصانًا و١٧٦ حمارًا) وكلّ ممتلاكتهم خيام وملابس وأدوات وركائب لا يتعدّى وزنها من ٣٠ إلى ٤٠ كغ للشخص الواحد وفي معسكر سلوق كان منتشرًا انتشار وباء التّيفود في ذلك الوقت ومن خلال تقرير صادر يوم ١٨ فبراير تتّضح فيه محاولة السّلطات تخفيف حجم المخاوف منه ولكنّها في ٦ مارس اعترفت بخطورة الوباء في هذا التّقرير: (الوضع في معسكر سلوق بدأ يسوء تدريجيًا ودون مؤشرات على إمكانيّة توقفه، في خلال شهر زادت الخيام الموبوءة إلى ٧٠ خيمة، بالنّسبة إلى السّيد المدير الصحي يبدو أن فترة الانتظار التي طلبناها قد تم اجتيازها التّيفود الدّملي في الانتشار، أرجو من إدارتكم الموقرة إمدادي بالتّعليمات والوسائل الضّروريّة حتّى نستطيع مواجهة الوباء)[١].

كانت مصلحة الصّحة في المعسكر الّتي طالما تباهت بها وسائل الدّعاية الإيطاليّة في الواقع في حالة بائسة بنقص في الخيام والملابس ممّا لا يتيح عزل المرضى ولا توجد حتّى غلاّية واحدة لتعقيم ملابس الّذين يحتمل تعافيهم، في انتظار حالة الازدحام في المعسكر والّتي طولب بها بإصرار كإجراء وقائي جوهري، كان جواب السّلطات هو اللّجوء لإجراءات أكثر قمعيّة بعزل مخيم العبيد والعرفه بالأسلاك الشّائكة باعتباره المخيم الأكثر إصابة بالوباء ولكنّ إدارة الصّحة أفادت أن فعاليّة هذا الإجراء هو محض وهم لأنّ الوباء قد انتشر حتّى في مخيمات العواقير الثّلاثة[٢].

---

(١) إيجيدي تقريره إلى الإدارة المدنية والسياسية ٦ مارس ١٩٣٣ سبق ذكره.

(٢) للأسف فإنّ الوثائق لا تقدّم لنا أي أرقام مباشرة عن الوفيات في معسكرات الاعتقال.

كانت الحالة في منتهى الخطورة حتّى أنّ (غرسياني) تدخّل بسرعة وأمر بتخفيف ازدحام معسكر سلوق: (منذ وقت وأنا على قناعة بضرورة أن يتمّ توزيع معتقلي مخيم سلوق، ومن الضّروري اتخاذ القرار اللّوجيستي بتفريقهم في المأكل والإقامة بتطبيق القاعدة المتّبعة في الجيش أي التّشتت والانتشار من أجل البقاء دون مراعاة أي اعتبار آخر، كما يجب أن تطبق قاعدة التّآزر والتّلاحم لخوض المعارك مع الاستعداد لمواجهة ما تنطوي عليه هذه الإجراءات من مخاطر، أنا متأكّد من أن تريّثكم وقدرتكم كفيلة بمجابهة هذا الخطر لذلك أفوضكم لاتّخاذ كلّ الإجراءات الملائمة في ما يتعلق بالعواقير بمعسكر سلوق وتوزيعهم بالشّكل الملائم لمتطلبات المخيّم، يجب أن يبقى في هذا المعسكر (العبيد والعرفه) فقط حتّى تتّحسن أوضاعهم إلى الأفضل، آمل اتّخاذ الإجراءات في أسرع وقت ممكن)[١].

في الأسابيع اللّاحقة تمّ اتخاذ القرار بتفكيك كافّة المعسكرات خلال تلك السّنة وعودة المهجرين إلى مناطقهم الأصليّة وفي الحدود الّتي تسمح بها الأولويّات التي تتطلّبها احتياجات التّعمير الاستيطاني الإيطالي والنّظام العامّ. في شهر مايو نقل العبيد من سلوق إلى مخيم المرج حيث كتب غرسياني: (هؤلاء سيخضعون إلى اختبار آخر للتّأطير والتّجميع قبل أن يسمح لهم بالرّجوع إلى موطنهم الأصليّ في جردس العبيد وبشكل نهائي، وفي الوقت نفسه يشرع في تجهيز هذا التّجمع على غرار ما تمّ اتّخاذه في المعسكرات الّتي آوتهم في منطقي سرت وبنغازي)[٢].

وفي نفس الفترة قام (غرسياني) بإعطاء الأوامر في نقل (البراعصه)

---

(١) من غرسياني إلى المفوض الحكومي لشؤون العواقير ٦ مارس ١٩٣٣ في م.م.د.غ ٤/ ٨/٨.

(٢) من غرسياني إلى بادوليو ٢٩ مايو ١٩٣٣ أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠.

إلى (جردس جراري) وقبيلة (الدرسه) إلى (طلميته) الّتي أنشئت فيها بنية تحتيّة في حدّها الأدنى مثل مركز بوليس ومكاتب إداريّة وعيادة ومدرسة ومسجد وما شابه[١].

هذه التّنقلات (وغيرها) الّتي شملت السّكان الآخرين والتي لا نملك معلومات مباشرة عنها) قد حدثت بين شهري أغسطس وسبتمبر بدليل أنّ (غرسياني) قد صرّح في أوائل الخريف أنّه قد أكمل تفكيك كلّ معسكرات الاعتقال دون إلحاق أي عراقيل بنشاط المعمرين الإيطاليين في الجبل بل على العكس من ذلك فقد سهلت لهم توفير اليد العاملة[٢] مثلما بيّن غرسياني للمعمّرين الإيطاليين في فبراير ١٩٣٤ قائلاً: (لقد تم جلب كلّ السّكان الأصليين إلى المواطن المناسبة لحياتهم مع مراعاة المبدأ الأساسي الّذي يقضي بأنّ الجبل باعتباره العمود الفقري للاقتصاد الزّراعي للمستعمرة يجب أن يبقى خاليا منهم وموجّها للمعمرين الإيطاليين وقد تمّ اتّخاذ مجموعة كبيرة من الضّمانات لمصلحة هؤلاء النّاس الّذين مرّوا بمحنة كبيرة بسبب التّمرد، وذلك دليل على أريحيّة الحكومة الفاشيّة التي تستند إلى التّراث الرّوماني العظيم الّذي أسبغ عليهم بتفكيك معسكرات الاعتقال وإطلاق سراح المنفيين وتحرير

---

(١) من غرسياني إلى السّكريتير العامّ لحكومة برقه ١٦ مايو ١٩٣٣ في م.م.د.غ ٨/٨/٤ في معسكر سيدي أحمد المقرون بقي البراعصه والدرسه الّذين انهمكوا في زراعة الخضراوات وكذلك العواقير المشاغبين وهذا دليل على أنّ معسكرات الاعتقال بقت تمارس نشاطها على الأقلّ مؤقّتا كأداة للقمع الإنتقائي.

(٢) من غرسياني إلى بادوليو ودي بونو ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ في أ.و.ف.ط ٩٨/٢٢/١٥٠ ويمكننا أن نذكر الحالة الوحيدة الّتي تتوفّر فيها أرقام وهي قبيلة الدرسه الّتي كانت أعدادها بين ٤٠٠٠و ٥٠٠٠ في شهر يونيه ١٩٣٢ كما ورد في مذكّرات دا أودياتشي إلى غرسياني في ٢٧ يونيه ١٩٣٢ مصدر سابق هذه الأعداد قد انخفضت إلى ٢٦٠٠ عند عودتها إلى الجبل (رسالة غرسياني إلى بالبو) ٢٦ أبريل ١٩٣٤ سبق ذكرها.

المحكومين في جرائم سياسيّة بسيطة ولم يبق اليوم غير خمسة عشرة من المنفيّين في إيطاليا وأقل من ٤٠٠ معتقل في برقه أكثرهم من مرتكبي جرائم الحقّ العام)[١].

بعد شهر من هذا التّاريخ حدثت خطوة أخرى إلى الإمام في طريق إعادة الوضع إلى طبيعته في برقه كما يظهر من رسالة (غرسياني) إلى (بادوليو): (بمناسبة عيد الأضحى، تمّ إطلاق سراح آخر المعتقلين في جزيرة أوستيكا وفي نفس الوقت تم نقل سكان قبيلة العبيد من المرج إلى جردس العبيد وموطنهم الأصليّ بهذين العملين اكتمل البناء الإثني للمستعمرة وعمّ السّلام النّهائي في النّفوس فسوف تمضي برقه بكل نشاط وحماس إلى مستقبلها الاقتصادي والتّنموي المتمدّن الأكيد)[٢].

في لحظة مغادراته برقه كتب غرسياني في أبريل ١٩٣٤ مستعرضًا الإنجازات الّتي تحققت: بإعادة توطين قبيلة البراعصه في منطقة جردس جراري تكون كافة المكونات العشائريّة قد رجعت إلى مواطنها الأصليّة قبل تهجيرها إلى مناطق سرت وجنوب بنغازي مع الأخذ بعين الاعتبار

---

(١) خطاب غرسياني ٢٥ فبراير ١٩٣٤ سابق الذكر.

(٢) من غرسياني إلى بادوليو ٢٦ مارس ١٩٣٤ في م.م.د.غ ٢/٢/١ أخذ وضع اللاّجئين في مصر في الرّجوع إلى حالته الطّبيعة كما يظهر من نشرة المعلومات لقيادة قوّات برقه في أ.م.ت.ج ١٧٧/١ بعد المرحلة القاسية الأولى الّتي مات فيها الكثير من اللاّجئين بسبب الجوع النّشرة رقم ٧ ديسمبر ١٩٣٢ ـ مارس ١٩٣٣ في أواخر ١٩٣٤ بقى في مصر حوالي ١٢٠٠٠ مهاجر من البرقاويين و٤٠٠٠ من الطّرابلسيين ورجع ٢٢٥٠ إلى برقه (النّشرة رقم ١١ أغسطس نوفمبر ١٩٣٤) وحسب نائب القنصل الإيطاليّ في السّلوم فإنّ ٢٠٠٠ من البرقاويين المهاجرين كانوا من ألدّ أعداء إيطاليا و٢٠٠٠ استطاعوا الحصول على مأوى لدى أقارب لهم و٨٠٠٠ وهم الأغلبيّة كانوا يرغبون في العودة إلى أرض الوطن وذلك بسبب الطّلب المتزايد على الأيدي العاملة في الجبل الّتي تضمن لهم مستوى أفضل من العيش مقارنة بالبؤس الّذي يعانون منه بسبب الأزمة الاقتصاديّة في مصر.

مناطق المرتفعات الّتي خصّصت لأهداف هيئة المعمّرين والتي وجب إبقاؤها خالية من المواطنين الأصليين والاستثناء الوحيد يتمثل في بعض بطون قبائل العبيدات وبالتّحديد فروع (فايزه وعبد القادر) المنتمين لعائلة منصور ويبلغ تعدادهم حوالي ٢٠٠٠ نسمة وكانوا يقطنون في الجبل بين (القبه وسلنطه) فهؤلاء تم نقلهم إلى منطقة (زاوية أم الرّحى) في البطنان بين (مرسى لك) و(البردي) حيث تتوفّر لهم سبل العيش الجيدة، نحن أمام مجموعة متعصّبة في تكتلها وتجانسها داخل تقاليدها التّاريخيّة لذلك يجب إبقاءؤها هناك ليس فقط لأسباب أمنية على الجبل وإنّما بسبب مكان إقامتهم القديم الّذي أصبح جزءًا من منطقة هيئة الإعمار».

الخريطة المرفقة لهذا التّقرير (مفقودة) تبيّن الصورة العامّة للترتيبات العشائريّة الحاليّة للمستعمرة وهي مطابقة لواقع الحال ما عدا الّذي تحدثنا عنه سابقًا وهذه هي مواضع قبائل برقه:

- المغاربة بين العقيله ومرسى البريقة وأجدابيا.
- الفواخر على الخط الّذي يفصل أجدابيا عن العواقير.
- العواقير في المنطقة المتشابكة مع منطقة بنغازي.
- العبيد في منطقة جردس العبيد.
- العرفه في سهل المرج.
- الدرسه في طلميته.
- الحاسه في نواحي سوسه ومنها لم يتم نقلهم إلى أي مكان.
- البراعصه في منطقة جردس جراري.
- العبيدات من مدينة درنه إلى مدينة طبرق.
- البطنانيون أي المجموعات التي تضم (غيث، مريم، الشواعر، المنفه، حبّون...) بين طبرق وبردي.

كما يبدو من هذا التّوزيع فإن تموضع هذه القبائل يتطابق مع ما كانت عليه في الأصل لكن هذا لا يعني أنّها رجعت إلى حياتها الحرّة في التّرحال بل العكس فإنّ الحياة الجديدة فبالرّغم من إعطائهم المرونة في احتياجاتهم الرّعويّة والزراعيّة إلاّ أنّها كانت تستجيب إلى المتطلبات الصارمة لمعايير الحراسة والمراقبة السّياسيّة للسكان ولأول مرة أصبحوا يشعرون أنهم تحت حكم وإدارة حقيقيّة، في السّابق كان سكان برقه متروكين لحياة التّرحال الحرّة يتحركون داخل الأراضي الخاصة لكل قبيلة، إلى درجة يصعب معها تحديد مواقع تواجدهم لدى الموظفين وحكام المستعمرة. هذا الأمر لا يمكن حدوثه أو قبوله الآن فلم تعد ثمة أراض قبليّة خاصة والخطوط التي تحدد الأراضي الممنوحة إلى التّجمعات المختلفة كما هو موضّح في الخريطة المرفقة (المفقودة) يشير فقط إلى الحدود الإداريّة للنّجوع ولا تعنى باتساع أو رحابة الأراضي القابلة للتنقل لهذه المجتمعات. واقع الأمر أن هذه المجموعات السّكانيّة قد تمّ وضعها داخل أطر محددة من الأراضي يسمح لها بالحياة الرّعويّة والزراعيّة أمّا حريّة التّنقل والتّرحال الجماعي فلا تعطى إلاّ بعد اتخاذ تدابير دقيقة لمراقبة مخيمات الرّعاة أينما وجدت. يبقى من الضروريّ استمرار هذه الحالة لفترة طويلة حتّى تأتي الأجيال القادمة التي ستترعرع وتتربى في ظل هذا النّظام السّياسي الجديد وتخلف هذه الأقوام الّتي لا ترى معنى للحياة إلاّ في التّرحال ومناصبة العداء لأيّ نوع من النّظام والتّمرّد على أيّ تنظيم سياسيّ أو اجتماعيّ. في السّابق كان السّكان الأصليّون لا يعرفون أي نوع من السّلطة إلاّ سلطة مشائخهم. أمّا الآن، فهؤلاء الشيوخ لا وجود لهم. فالسّكان يأتمرون فقط بالموظفين وبالمدراء ومساعديهم من (مختاري النّواحي)، والمدراء لم يعودوا خاضعين لمكر شيوخ القبائل وخداعهم وإنّما لعناصر نشطين ونزيهين في تعاملهم لأنه قد تم اختيارهم من السّكان الأصليين بسبب ثقافتهم ومواقفهم وولائهم

وماضيهم السّياسي فهم أفضل ضمانة لتقديم الخدمات المنوطة بمسؤولي الحكومة. وكل المدراء الحاليين يتكلمون ويكتبون باللّغتين العربيّة والإيطالية وأغلبهم تخرجوا من مدارسنا. فهؤلاء مسؤولون أمام سلطاتنا المحليّة على تحقيق الأمن والنّظام في النّجوع ولهم كافّة السّلطات الّتي كان يتمتع بها شيوخ القبائل[1].

في هذه السّياسة لا يجب فقط النّظر إلى طرد القبائل شبه الرّحل من الأراضي الخصبة في الجبل وإخضاعهم إلى التّحكم السّياسي والعسكري وإنما يلزم معرفة المخطط الأكبر والمتمثل في تدمير المجتمع التّقليدي لمربّي الماشية وتحويلهم إلى احتياط من الأيدي العاملة رخيصة الثّمن. لقد أعلن (غرسياني) بكل وضوح عن خشيته المرضيّة من الثقافة العربيّة لسكان برقه عندما كتب في سنة ١٩٣٢ : (حياة التّرحال يجب اعتبارها خطرًا دائمًا ولذلك يلزم مراقبتها على الدّوام بكلّ شدّة وكبحها). كما كتب: (ولأسباب سياسيّة واقتصاديّة فإن البدو ولطبيعتهم العدائيّة للزراعة والتّطور فلديهم استعداد فطري للتمرّد)[2].

في تناقض صارخ مع هذه المقدمة كان (غرسياني) ينوي توطين أغلبيّة السّكان الّذين تمّ طردهم من الأراضي الأكثر خصوبة في الجبل إلى المناطق ما قبل الصحراويّة أي في تلك المساحات الجدباء بين

---

(١) من غرسياني إلى بادوليو في ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مذكور سابقًا غرسياني كان يطلب الحفاظ على النّظام العسكري على الحدود مع مصر حتّى تصل السّيطرة على الجبل إلى الهيمنة الكاملة وكان يخشى حدوث هجمات من العناصر السّنوسيّة (وأنّ أي مجموعة من أربعة أو خمسة أشخاص من قطّاع الطّرق قد تنجح في الدّخول إلى برقه وتتمكّن من نهب عائلة واحدة من عائلات المعمّرين في الجبل تكفي لإحداث موجة من الهلع بين كلّ المعمّرين وبالتّالي يتمّ تعطيل برامجنا الإستيطانيّة الّتي تواصل نجاحاتها).

(٢) غرسياني مرجع سابق، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

المرتفعات والصّحراء والتي لا تصلح إلاّ لتربية المواشي وفي حالة ترحال بدلا من تشجيعهم على الاستقرار في الأراضي الخصبة أمّا من تبقى من القبائل في أعالي الجبال فقد حكم عليهم بحياة التّرحال والعوز بحيث تبقى على الدّوام في حالة من الدّونيّة وفي محميّة بدويّة حقيقيّة. وفي واقع الحال قد كانت إعادة ازدهار الثّروة الحيوانيّة تتقدم ببطء شديد في السّنوات اللاّحقة(١).

لأنّ السّياسة الاستعماريّة الفاشيّة فضلت التّنميّة الزراعيّة في الجبل من أجل جلب المعمرين الإيطاليين. أصبحت التّربيّة التّقليديّة للمواشي نشاطًا اقتصاديًا ثانويا وكان الهدف الرّئيسي هو الإبقاء على خزّان الأيدي العاملة التي تعاني من البطالة الجزئيّة دون أي مساعدة من الدّولة لتغترف منه الأنشطة الاقتصاديّة عمالا يشتغلون في أعمال ثانويّة ومؤقتة. حسب (غرسياني) في ربيع ١٩٣٤ تم تشغيل بين ٢٠ إلى ٢٥ في المائة من المطرودين من الأراضي الخصبة في مشروعات طرق ومبان حكوميّة على سبيل المثال ٣٨٠٠ شخص هو ما بقي من قبيلة العبيد رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخًا قد أعطت ٨٠٠ عامل وقبيلة الدرسه ٢٦٠٠ عامل وآخرين ٦٨٠ عاملاً(٢).

---

(١) في سنة ١٩٣٣ لازال يحصى ٢٢٢٠٠٠ رأس من الأغنام والماعز ٣٠٠٠ رأس بقر ١١٥٠٠ جمل (من غرسياني إلى بادوليو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مذكور سابقًا) بعد بضع سنوات كان العدد ٢١٠٠٠٠ رأس غنم و٧٠٠٠٠ من الماعز و١٠٠٠ من الجياد و٥٥٠٠ من الحمير و٩٠٠ من الإبل و٩٥٠٠ من الأبقار. هذه الأبقار ازدادت أعدادها بحاجة الإعمار الإيطالية (النّادي السّياحي الإيطالي في ليبيا مصدر مذكور سابقًا ص١٢١) وإذا أخذ في الاعتبار أنه بين سنتي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ تم استيراد ١٦٠٠٠٠رأس من الماشية من طرابلس فإن النّتائج لا تبدو باهرة وتدل على عدم العناية إلى المراعي التي خصصت لتربيّة المواشي.

(٢) من غرسياني إلى بالبو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مذكور سابقًا.

فنسبة مائويّة عالية إلى هذا الحدّ توحي بأنّ ثمّة أوامر أعطيت لجلب العمّال لمصلحة الشركات المقاولة لتحقيق أرباح كبيرة، (غرسياني) نفسه يقول إنّ يوميّة العامل الإيطالي كانت ٣٠ ليرة بينما يوميّة العامل العربي كانت ١٠ ليرات فقط، ومن هذا المبلغ يتم استقطاع الاستحقاقات مثلما وصفها (غرسياني): (في هذه الظروف الاقتصاديّة التي يمكن أن يقال عنها مفرحة أمام الأزمة الاقتصاديّة العالميّة كان من الضّروري أن تتدخّل الحكومة لفرض التّوفير على النّاس من أجل مصلحتهم ومن أجل إعادة إنماء الثّروة الحيوانيّة ولهذا الغرض فقد تم استقطاع ليرتين من كل أجرة لكل يوم وتودع في كتيب البريد للتوفير باسم كل عامل هذا التّوفير الّذي تم تحقيقه حتّى اليوم بلغ حوالي مليون ونصف المليون ليرة وسيكون مخصصًا لشراء المواشي التّي ستبقى ملكًا لهؤلاء الموفّرين[١].

تتويج هذا العمل الّذي كان يهدف إلى تشكيل طبقة عماليّة تحت بروليتاريّة وتحت الطلب كطبقة مغتربة نتيجة لتدمير التّقاليد العريقة تتم بإنشاء معسكرات للشّباب الّتي ضمّت سنة ١٩٣٤، ٢٨٠٠ عنصرًا. أوّل هذه المعسكرات أنشئ في منطقة سيدي أحمد المقرون حسبما كتبه (غرسياني) في سنة ١٩٣١ من أجل رعاية الشّباب اللّيبيين اليتامى أو الّذين تمّ التّخلي عنهم بين ٦ إلى ١٥ سنة، النّتائج السّريعة والمذهلة التي تم الحصول عيها من الخليّة الأولى التّي كانت تضم ٦٠ شابًا دفع الحكومة الإيطاليّة إلى توسيع إنشاء هذه المعسكرات في مراكز أخرى من المستعمرة ويستطرد (غرسياني): (اليوم توجد معسكرات نظمت على غرار معسكر (سيدي أحمد المقرون ومعسكر سلوق) في كلّ من طبرق وأجدابيا والمرج وشحات وحتّى في الكفره إلى جانب المعسكرات

(١) من غرسياني إلى بالبو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مذكور سابقًا.

الرّياضيّة في قمينسوس وانيتيرا وجردينا والقوارشه وكركوره وفي كلّ التّجمعات السّكانيّة في المستعمرة)[1].

في معسكر (سيدي أحمد المقرون) ضمّ ٥٣٩ شابًا من البراعصه والدرسه (ويتّضح من النّص أنّ هؤلاء لم يلحقوا قبائلهم في رجوعهم إلى الجبل) وكذلك ١٢٠ شابًا من العواقير. كان التّنظيم المعمول به في هذه المعسكرات عسكريًا صرفًا حسب القواعد القانونيّة للوحدات الخاصة بالسّكان الأصليين وقد طبقت بالشّكل المناسب: القوّة مقسمة لوحدات مائويّة وهذه بدورها مقسمة إلى فصائل، الحاملين للرتّب يتمّ اختيارهم من بين هؤلاء الشباب الّذين يظهرون تأهيلا أفضل ويجتازون الامتحانات النّظريّة والعمليّة أمّا قيادة النّظام العام في المعسكر فهي منوطة بأحد ضباط الصّف من القوات الإيطاليّة في المستعمرة. يوميا تؤخذ ساعة للتّدريب العسكري (نفس التّدريبات العسكريّة للقوات النّظاميّة للسكان المحليين) وساعة للتّدريبات الرّياضيّة. أغلبيّة شباب هذه المعسكرات يوجه إلى تعلّم الحرف حسب إمكاناتهم الجسديّة والذهنيّة.

لهذا الهدف يوجد في المعسكر مدرسة حرفيّة بمعلمين إيطاليين مقسمة إلى النّجارة، التّصليح الميكانيكي، الحدادة، إنتاج الصّفائح، والإسكافيّة والخياطة والتّمريض[2]، وينطبق هذا التنظيم ذاته على بقيّة المعسكرات. من هذه المؤسّسات الثّقافيّة الإيطاليّة والتّربيّة المدنيّة المهنيّة والعسكريّة سوف تبرز الخلايا الأولى للجيل اللّيبي الجديد هكذا يختتم

(١) من غرسياني إلى بالبو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مشار إليه سابقًا.

(٢) من غرسياني إلى بالبو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مذكور سابقًا وكانت التّكلفة الاجماليّة للمعسكرات السّبعة للشباب بلغت حوالي ٢ مليون ليرة وهو ما يعادل ٧٠٠ ليرة نفقات الشاب الواحد سنويا وتجدر الإشارة إلى أن معسكر سلوق كان يحوي على ٣٤ فتاة من بين ٢٨٠٠ شاب.

(غرسياني): (من هؤلاء ستتوفر للمستعمرة العناصر المؤهلة لسدّ الحاجات الزراعيّة والإداريّة والبدنيّة وعلى الأخص الفرق العسكريّة اللّيبيّة التّابعة للمستعمرة والتي بدأت تتدفق من البطنان طلائعها الأولى وفي يوليو القادم سوف ينظم حوالي مائة من الشباب الّذين بلغوا سن الثّامنة عشرة من معسكرات المقرون وسلوق إلى الكتيبة السّابعة والكتيبة التّاسعة حديثة التّأسيس[1].

في الواقع إنّ النّتيجة الكبرى الّتي حقّقتها هذه المعسكرات كانت تتمثل في تقديم المجنّدين للكتائب اللّيبيّة الّتي تم إنشاؤها والّتي بعد ذلك بقليل وبقيادة (بادوليو) و(غرسياني) استطاعت أن تسهم في نقل الحداد والأحزان الفاشيّة لأثيوبيا.

---

(١) من غرسياني إلى بالبو ٢٦ أبريل ١٩٣٤ مصدر سابق.

الباب الثّالث:

أسْر عمر المختار ومحاكمته وموته في إطار السّياسة الفاشيّة لإعادة احتلال ليبيا

الكاتب : رومان راينارو (Romain Rainero)

لا يمكن النّظر إلى المشهد السّائد الّذي طبع حملة التّهدئة الّتي أرادتها الحكومة الفاشيّة في المستعمرة اللّيبيّة المتوّجة بمقتل (عمر المختار) بمنأى عن السّياسة العامّة الفاشيّة ونزعتها الإمبراطوريّة الّتي أخذت تترسّخ منذ بداية الثّلاثينات.

لقد تمّ تجاوز السّياسة اللّيبراليّة الّتي كانت متّهمة بتدني الشّعور بالوطنيّة التّوسعيّة فكان تبنّي الأفكار الدّاعية إلى رفض الإرث اللّيبراليّ بما في ذلك المعاهدات والاتّفاقات الّتي أبرمت بين القادة اللّيبيين المحليّين وكلّ من (بارتوليني) و(كلوزيمو)، فهذه السّياسة اللّيبراليّة القديمة لا يجب المبالغة في ليبراليّتها وإن كان من الضّرورة الإشارة إليها، فبين عام ١٩١٥ و١٩٢٢ كان يحيطها كثير من الغموض واللّبس الّذي انقشع نهائيا برفض أيّ نوع من الحوار أو التّوافق مع المتمرّدين منذ (الزّحف على روما)[١].

لقد أضحى هذا التّسلّط الاستعماري الّذي ظهر في الفترة المسمّاة (ليبراليّة)[٢] عقيدة جامحة وتمّ تكريسه في خطّة القمع الممنهج ضدّ

(١) الزحف على روما هو مصطلح أطلق على المسيرة التي قادها موسيليني والفاشيست إلى روما وانتهت باستدعاء موسيليني من قبل الملك بتعيينه رئيسًا للوزراء.

(٢) يقصد الملف الفترة الليبرالية هي تلك الفترة التي تقع ما بين ١٩١١ بداية إعلان الحرب على ليبيا التركية وسنة ١٩٢٢ وهي بداية العهد الفاشي في إيطاليا.

السّكان المحلّيين متزامنا مع حملة التّهدئة. فكان توسّل القمع دليلاً على سياسة قصر النّظر وهو ما دفع في أغلب الأحيان إلى المقاومة خصوصًا مع بداية الزّخم العسكريّ الفاشيّ على مسرح معقل الثّوار في (الجبل الأخضر)، وكذلك كانت مواصلة سياسة حكومة روما الوطنيّة الشّوفينيّة قمعها في ما وراء البحار دافعًا بكامل قضيّة العلاقة مع اللّيبيين إلى أزمة مفتوحة هيمن عليها تأجيج العنف بما هو منهج للحكومة من جهة والمحاولة العبثيّة لاستعادة الاتّفاقات الّتي قرّرت الحكومة الإيطاليّة الفاشيّة أن تتنكر لها بكلّ حزم من جهة أخرى. وعلى هذه الخلفيّة الحسّاسة بين تصلّب الحركة السّنوسيّة والإرادة الفاشيّة العنيدة الّتي تطمح إلى تصفية القضيّة اللّيبيّة السّياسيّة بالقوّة العسكريّة، بحيث لم يكن ثمّة بدّ من دخول الأزمة في طريق مسدودة تجلّت في ردود فعل عسكريّة مدفوعة بتعصّب السّلطات الفاشيّة وإلحاحها على تصفيّة المعضلة بأسرع وقت ممكن بغرض تنفيذ التّوطين السّكانيّ الجماعيّ وبشكل سافر على السّاحل الرّابع .

في مرحلة ما بين استيلاء الفاشيين على السّلطة في إيطاليا ووصول الحاكم العسكريّ مارشال بادوليو إلى طرابلس يوم٢١ يناير ١٩٢٩ لم يحدث أي نجاح ناتج عمّا كان يحثّ عليه الفاشيون حكّامهم العسكريين منذ سنوات وهو الأمر بسحق التّمرد ليظهروا للعالم قوّتهم وقدرتهم على الحسم.

ورغم التّنكر وإلغاء اتّفاقيات (الرَّجْمَة) ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠، واتّفاقيّة (بومريم) ٢٠ أكتوبر ١٩٢١ إلاّ أنّ الفاشيّة لم تستطع أن تتمكّن من المتمرّدين السّنوسيين بشكل كامل طيلة هذه السّنوات السّبع بل بالعكس فبعد النّتائج الّتي تمخّضت عن مؤتمر (غريان)[1] في ١٨ نوفمبر ١٩٢٠

---

(١) مؤتمر غريان انعقد في شهر نوفمبر ١٩٢٠ حضره بعض قادة وشيوخ القبائل وكان=

أصبحت القضيّة تبدو أكثر وطنيّة من ذي قبل لأنّها تمّت تحت قيادة السّنوسيّة ممّا دفع إلى الخشية من توحيد (طرابلس)، و(برقة)، و(فزّان) في الدّفاع عن الوطن اللّيبيّ.

بعد سبع سنوات من الحرب تمّ إحراز بعض النّتائج على مستوى توسّع رقعة الاحتلال الإيطاليّ في (الجبل الأخضر)، ولكن كانت تلك الأراضي المحتلّة تفتقد بالكامل إلى الأمن والأمان. وقد دلّت كلّ الدّراسات الزّراعيّة وجميع خطط الإعمار السّكاني تدلّ على أنّ هذه المنطقة هي المكان الوحيد الّذي يمكن أن تقام عليه مستوطنات زراعيّة إيطاليّة، مع العلم أنّ زيارة موسوليني في شهر أبريل ١٩٢٦ إلى ليبيا وما تحمله من دلالات لا في ما يتعلّق بتصريحاته المزلزلة في وسم كامل المشكلة اللّيبيّة بها ولا في رغبته نقل العسكريّة الرّومانيّة (الخالدة) إلى ضفاف الشّاطئ الإفريقي ولكن بالأحرى في إرادته الرّاسخة بنقل الشّعب الرّومانيّ إلى هذه الأصقاع[1]، فالهياج الّذي أثارته هذه التّصريحات في أوساط المعمّرين المتشدّدين كان بلا حدود. إذ احتفى الجنرال (غرسياني) بهذه التّصريحات بشكل ضخم في كتابه (نحو فزّان) قائلاً:

=انعقاده بعيد فتن كبيرة اجتاحت البلاد ومنها مقتل رمضان السويحلي والحرب العربية البربرية في الجبل الغربي، وجدير بالذكر أن عبد النبي بن الخير وسليمان الباروني لم يحضرا هذا المؤتمر رغم أن انعقاده كان يهدف إلى وأد الفتن ولم شملَ الليبيين وكان من مقرراته انتخاب أحمد المريّض رئيسًا لهيئة الإصلاح المركزية، وقد أعلن المؤتمر أن الحالة التي آلت إليها البلاد لن تتحسن إلا بإقامة حكومة قادرة على ما يحقق الشرع الإسلامي بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة وكان ذلك إشارة واضحة أن هذا الشخص هو السيد إدريس السنوسي.

(١) خطاب موسوليني كما نشر في الأعمال الكاملة، مجلّد ٢٢، صفحة ١١٥. حول الرّحلة ومراحلها (الإمبراطوريّة الرومانيّة) ويبقى العدد الخاصّ لمجلة (البناء) الصّادرة في ٥مايو١٩٢٦، ومقالها (مع موسوليني في أفريقيا) في غاية الأهميّة وقد نقلنا منه استشهاد داريو ليسكي، ص١.

«إنّ وصول الزّعيم موسوليني إلى ليبيا كان بمثابة التّعميد لمصيرنا العظيم في البحر المتوسّط المخضّب بلون الدّم الّذي أهرق في الكامبيدوليو[١] (يقصد محاولة اغتيال موسيليني من قبل جيبسون في عشيّة هذه الزّيارة). وعلى المستوى السّياسي العام لم تعد القضيّة مقتصرة على تأكيد الاتّفاقيات المبرمة مع الزّعماء المحلّيين بل فقدت صلاحيّتها وأصبحت في حكم الملغاة لغاية إقرار استمراريّة عهد روما على هذه الأرض إلى الأبد».

لقد أوضح الصّحفي الفاشيستي ليسكي (Lischi) بشكل أفضل أهميّة البادرة الرّئاسيّة الّتي كانت النّقطة الحاسمة في مصير إيطاليا وهي الاستحضار الجسور للماضي الموغل في الزمن الّذي لم يكن ليزول بل بقي يتعاظم في عمق التّاريخ العالميّ.

كان برنامج (موسوليني) الطّموح لحلّ المشاكل المتعلّقة بالبطالة وتزايد عدد السّكان في الأرياف ذا أهميّة كبيرة لذلك أصبح دأب الحكومة الاستيلاء على الأراضي الخصبة الّتي يسيطر عليها المتمرّدون السّنوسيّون في (الجبل الأخضر) هو الهدف الّذي لايمكن التّخلي عنه. فأضحى تداخل المعضلة الرّيفيّة والسّكانيّة في السّياسة الفاشيّة أمرًا حتميًا بشكل غير قابل للانفصال وهذا ما أثبتته الدّراسات الحديثة من خلال فحص التّوجيهات المتنوّعة الّتي صدرت وقتئذ.

(١) الكامبيدوليو وهو اسم أحد الهضاب السبعة التي أقيمت روما عليها وأصبح يطلق على المبنى القديم المشيد فوقها وهو مقر حكومة روما وبلديتها، وقد وقع في هذا المبنى محاولة اغتيال موسوليني من قبل السيدة جيبسون وهي ابنة البارون إدوارد جيبسون في يوم ٧ أبريل ١٩٢٦ عند خروجه من هذا المبنى وبعد افتتاحه مؤتمرًا للجراحة ولم يسفر إلا عن خدش في أنفه وتم عقد محكمة استثنائية لها ولم يحملها الحكم المسؤولية عن أفعالها بسبب اختلال العقل وهذ ا الحدث سبق زيارة موسوليني إلى ليبيا بيوم واحد.

في سنة ١٩٢٦ ومع بداية حملة تشجيع زيادة السّكان أصبحت حملة توطين المعمّرين في ليبيا غاية قصوى وضروريّة غير أنّ مشكلة التّهدئة بقيت تراوح مكانها بالرّغم من كلّ المجهودات الّتي بذلت بعد مضيّ ثلاث سنوات من زيارة موسوليني لطرابلس ولم يكن بالإمكان البدء في سياسة التّوطين على مرتفعات (الجبل الأخضر) الّذي اعتبرته هيئة توزيع الأراضي الزّراعيّة أمرًا لا غنى عنه لسياسة توطينيّة زراعيّة جادّة.

في ٢١ يناير ١٩٢٩ فقط شهدت السّياسة الإيطاليّة تغييرًا نوعيا بوصول المارشال (بادوليو) الّذي تمّ تعيينه في ١٨ ديسمبر ١٩٢٨ حاكمًا وحيدًا لمستعمرتي (طرابلس) و(برقه) ويعني هذا التّعيين الجديد وصفة (الفردانيّة) الّتي رافقته إعطاءه تفوّقًا تراتبيًا واضحًا بالمقارنة مع أيّ شخص سبقه في تولّي هذا المنصب.

أراد (بادوليو) الّذي وعد بالهيمنة على التّمرد خلال سنوات خمس أن يضفي على ولايته شكلا استثنائيا من منظور الآفاق العسكريّة المتوخّاة، وفي هذا الإطار يبدو لنا في غاية الأهميّة ذلك البيان الّذي ألقاه بمناسبة تسلّمه السّلطة فاشتهر في ما بعد بشكله التّسلطي (الرّوماني) وباستدعائه المتكرّر للشّعارات الحربيّة الإسلاميّة الخادعة كترديد كلمة (اسمعوا) الّتي حازت على مديح بعض صحافة النّظام باعتبارها تنمّ عن الفخر والوفاء أكثر منها تعبيرًا عن القوّة[1] إلاّ أنّها قوبلت بشيء من التّحفظ من قبل المستشرقين الجادّين، فعلى سبيل المثال كتب نيللينو (Nallino) في مجلّة المعهد الشّرقيّ دون تردّد: (لا أعرف إن كان من المناسب الاستمرار في إذاعة نصّ هذا البيان الّذي يعتبر في نظر الكثيرين

---

(١) هذه كلمات ماكالوزو أليو، القضاء على التّمرد في برقة، في مجلّة الستراسيوني كونولياني، عدد ١ديسمبر ١٩٣٠، ص٢٥.

مجانبًا للتّوفيق سواء من ناحية بعض التّعابير المتطرّفة أو من ناحية الصياغة رغم الاحترام والعرفان المتوجّبين للمارشال المتميّز بادوليو)[1].

كانت هذه الملاحظة مدعاة لردود أفعال سياسيّة لأنّها تتأمّل في اتّخاذ سياسة تتوافق أكثر مع الأدبيات الوطنيّة للسّنوسيّة وليست تقليدًا متكرّرًا للسّياسة الّتي كرّست في أرتريا، ولم يجد البرفسور (نيللينو) أيّ حرج في التّذكير بأنّ ترديد كلمة (اسمعوا) ثلاث مرّات تبدو وكأنّها موجّهة لشعوب مثل أرتريا أو الصّومال وليست للّيبيّين. لم يمرّ هذا النّقد مرور الكرام فكان أوّل من تصدى له الباحث ماكالوزو أليو (Macaluse Aleo) الّذي اتّهم مجلّة (الشّرق الجديد) بأنّ لغة تحريرها شاذّة فلا هي إيطاليّة ولا هي شرقيّة، وأنّ فهمها لم يتعدّ فهم أكثر من عشرين شخصًا من الباحثين في أكثر الأحوال لذلك هي لا تسير على نهج الأزمنة الحديثة. لم يغب عن التدّخل في هذا الموضوع حامل لواء الأزمنة الحديثة الجنرال (غرسياني) الّذي أخذ على البروفيسور (نيللينو) ليس فقط انتقاده لإعلان بادوليو وإنّما كذلك انتقاده لأحد خطابات غرسياني الّتي وصف فيها السّنوسيّة بالطّائفة العُصبة ولم يسمها (بالأخوّة) كما هو اسمها الحقيقي. ففي مداخلة له يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٣٠ بالمعهد الثّقافيّ الفاشيّ في بنغازي قال: «عندما تكون ثمّة أخوّة تكرّس هذا النّوع من السّياسات فأنا لا أتردّد لحظة واحدة في وصفها بالعُصبة».

عندما خاض البروفيسور (نيللينو) جدالا مع البروفيسور (ماكالوزو) قال: «لِمَ نطلق عليها عُصبة أخطبوطيّة؟ ألأنّها تقوم بضمّ المُريدين وتسعى إلى التّمدّد؟ فإيطاليا الفاشيّة إذن أخطبوطيّة. ها أنا ذا أتّهمه

---

(١) نالّلينو في مراجعته لكتاب ماكالوزو آليو، الأتراك والسّنوسيون والطليان في ليبيا، بنغازي، ١٩٣٠، في مجلّة (الشّرق الجديد)، عدد أكتوبر ١٩٣٠، ص٥١٨.

أمامكم بعد ما أبلغت أمره إلى السّلطات العليا وقال يبدو أنّ البروفيسور (نيللينو) لم ير أو يرقب عن قرب خيمة بدويّة»[1].

ينطقُ هذا الجدل النّاريّ عن رغبة غرسياني في أن يظهر بمظهر الرّجل (الجديد) الّذي يشقّ طريقًا مختلفة في التّعامل مع التمرّدين في قطيعة تامّة عن السّياسات القديمة بغية الانتصار المطلق ورفض أيّ نوع من التّنازلات الديبلوماسيّة وهو موقف يجب أن يخضع للمقاربة مع سياسة (بادوليو) الّتي كرّست الانفتاح الديبلوماسي في الحوار مع المتمرّدين فقط لكسب الوقت حتّى يمكّن القوّات المتمركزة في (الجبل الأخضر) من تنظيم صفوفها ووصول الإمدادات الجديدة الضّخمة (طائرات ودبّابات) الّتي طلبها وتمّت الموافقة عليها من روما لتنفيذ المخطّط .

أظهر (بادوليو) نوعًا من التّسامح من خلال نائبه في (برقة) الجنرال (سيشيلياني) في فترة الحوار مع المتمرّدين، ففي شهر مايو ويونيه ١٩٢٩ أجريت محادثات ولقاءات ولكن نتيجة لطبيعتها الغامضة والمتردّدة لم تثمر إلاّ مزيدًا من عدم التّفاهم والأزمات، ويمكن أن نرى اللّقاء الّذي وقع في ٢٩ يونيه ١٩٢٩ في منطقة (سيدي رحومة) بين المارشال (بادوليو) والجنرال (سيشلياني) من جهة وقائد التّمرد في برقه (عمر المختار) من جهة أخرى نموذجا بالغ الأهميّة في هذا الإطار، إذ وصلت الالتباسات ومسبّباتها الّتي وقعت في هذا الاجتماع إلى إفراز وجهتي نظر متناقضتين يلزم استعراضهما وفحصهما. فالغاية من اجتماع ١٩ يونيه[2] حسب وجهة نظر الجنرال غرسياني هي إعادة التّأكيد على الاستسلام

---

(١) غرسياني، الوضع البرقاوي، بنغازي، ١٩٣٠، ص٢٧.

(٢) ورد في النص الأصلي خطأ أن هذا الاجتماع عقد يوم ١٣ يونيه فقمنا بتصويبه.

الّذي صرّح به عمر المختار أمام الجنرال سيشيلياني في اجتماع ١٣ يونيه ولم يكن هذا الاجتماع إلاّ مناسبة احتفاليّة بهذا الحدث أمام أعلى سلطة إيطاليّة في المستعمرة وممثلة في المارشال (بادوليو).

لا تترك شهادة (غرسياني) الّتي عرضها في مذكّراته مجالا للشّك حيث كتب: (في اجتماع ١٣ يونيه صرّح عمر المختار بهذه الجمل لا تصفوني بالمتمرّد لأنّني لم أكن خاضعًا البتّة قبل اليوم للحكومة بل بالعكس كنت في حرب دائمة معها وهذا ما يأمرني به ديني، اليوم سأستسلم مع كلّ الذين هم معي، منذ اليوم سوف يعمّ السّلام الكامل والنّهائي برقة، يجب على الجميع طاعة الحكومة الشّرعيّة الإيطاليّة تجوّلوا أينما شئتم وأوقفوا دوريات الحراسة وأزيلوا المخافر كلّ ذلك لا تحتاجونه ففي برقة قد انتهت الحرب)[١].

كانت تلك مواقف (عمر المختار) حسب المصادر الإيطاليّة الّتي انتهى إليها الاجتماع الّذي عقد في منطقة (المرج)، وقد قامت وكالة الأنباء (ستيفاني) ببثّها في أخبار عاجلة لم تترك مجالا للشّك في الوقائع

---

(١) التّصريحات الّتي نسبت إلى عمر المختار ونقلها غرسياني في مؤلّفيه (برقة المهدئة)، ميلانو، ١٩٣٢، ص٣٠. وكذلك في (ليبيا المحرّرة)، نابولي، ١٩٤٨، ص٤٦. قد لحق بها تحريف سواء في النّص المعاصر لأعمال غرسياني للكاتب جيليو، (الأخويّة السّنوسيّة)، بادوفا، ١٩٣٢، ص١٣٦. أو في نص ديليوني، (استعمار إفريقيا الشّماليّة)، بادوفا، ١٩٦٠، ص٥٥١، والذّي تحوّر كثيرًا: (اليوم أستسلم وأنّ الجنرال بادوليو بالنسبة لي أوّل حاكم إيطالي سيطر على برقة، منذ اليوم في برقة لا توجد إلاّ حكومة واحدة وهي الحكومة الإيطاليّة، ومن اليوم يوجد مسلحون للحكومة وتدخل برقة في حقبة جديدة وهي حقبة السّلام أنا أضع نفسي تحت تصرّف الحكومة أعطوني وقتا لتهدئة وطمأنة كلّ أولئك الّذين معي وجميع من هو موجود في الشّرق أو الغرب حتّى لا يبقى متمرّد واحد بمعنى أنّ السّلام نهائي منذ اللّحظة اِذهبوا أينما شئتم ألغوا الحراسات وفكّكوا المخافر فكلّها أشياء لا فائدة منها بعد اليوم في برقة، منذ اليوم انتهى التّمرد).

والنّتائج المترتّبة عليها حيث بثّت: (في برقة قد وقع حدث في غاية الأهميّة السّياسيّة، أغلبيّة زعماء التّمرد قد أعلنوا استسلامهم في يوم ١٣ يونيه وفي موقع ليس بعيدًا عن مدينة المرج. زعماء التّمرد ومن بينهم عمر المختار القائد الأعلى للعصيان الّذي تزعمه بصلابة ومهارة منذ سنة ١٩٢٣ حتّى اليوم ومعه سيدي حسن بن محمد الرّضا السّنوسي ابن الرّضا المعروف الّذي تقدّم إلينا في السّنة الماضية والفضيل بوعمر قائد قبيلة البراعصه تقدّم هؤلاء جميعًا إلى نائب الحاكم العام الجنرال (سيشيلياني) معربين عن وضع أنفسهم بين أيدي السّلطات الإيطاليّة دون شروط مع التزامهم التّقيد بالشّروط الّتي حملها إعلان المارشال (بادوليو) في يوم تسلّمه منصب الحاكم العامّ لإقليمي طرابلس وبرقه حتّى أنّ عمر المختار قد قبل من الجنرال (سيشيلياني) ساعة كهديّة تشير إلى ساعة السّلام وقد أشير إلى ذلك باعتباره برهانا على حدث الاستسلام.

ولكنّ وجهة النّظر العربيّة تنكر عمليّة الاستسلام بتاتا، وتقول إنّ الاجتماع كان يراد منه توضيح الشّروط الّتي أعلنت من جانب السّنوسيّة فقط من أجل التّعايش وإعلان الهدنة من السّنوسيّة في حال تمّ الاتفاق.

لم تكن هذه التّناقضات قليلة أو ثانويّة، فالشّخص الوحيد الّذي لم يتسرّب إليه الشّك في حقيقة استسلام قائد التّمرد ورفاقه هو المارشال (بادوليو) الّذي بعث ببرقيّة مشبعة بعبارات الانتصار إلى الزّعيم (موسوليني) وهو يتأهّب للذّهاب إلى (سيدي رحومة) وكانت برقيّته تفتقر إلى الحيطة سواء في الشّكل أو في فخامة الألفاظ فيقول بادوليو في برقيته: «سأذهب الأحد إلى بنغازي لأستلم فروض الطاعة والاستسلام، وبقلب تملؤه الغبطة أكتب هذه البرقيّة إلى سعادتكم لثقتي بأنّ حياة جديدة سوف تبزغ في برقة».

كان يمكن أن تشي هذه البرقيّة بالاستخفاف والارتجال بالنّظر إلى

تعقّد الأزمة في برقة[1]. بعد (سيدي رحومة) ولم تتضّح هذه الأمور كما لم تتأكّد صلابة وجهات النّظر الّتي تبنّاها (بادوليو) والّتي مفادها أنّ (عمر المختار) ورفاقه سوف يستسلمون. فقد اصطدمت هذه الرّواية بمصدر للسّنوسيّة يقول إنّ تلك المحادثات كانت ترمي إلى العمل لاستقلاليّة جديدة يعترف من خلالها بالسّلطة السّنوسيّة على البلاد وهذا ما لم يتحقّق.

وتظهر هشاشة الرّواية الإيطاليّة من خلال المباحثات اللاّحقة الّتي استمرّت حول هذا الموضوع يوم ٢٨ يونيه في (بير جندوله) مع نائب الحاكم العام الجنرال (سيشيليانى)، فلم تحدث هذه النّتائج المأمولة للاتفاق بل إنّ تطّور الأحداث اللاّحقة قض على مصداقيّة الطّرح الّذي تبنّاه بادوليو، ويكفي أن نذكّر أنّه في كتاب (كارلو جيليو Carlo Giglio) شبه الرّسمي الّذي نشر سنة ١٩٣٢ وقد قدّمه (غرسياني) لم يتردّد في إبراز وهن حجة بادوليو بل زاد في تأكيده: «في هذا الحدث الكبير ثمّة روايتان الرّواية العربيّة والرّواية الرّسميّة ولحكومتنا من الصّعوبة بمكان تقرير درجة مصداقيّة كليهما ومعرفة كيفية تجسيد الأحداث واقعيا، فيبدو أنّه حسب المصادر العربيّة وفي ربيع ١٩٢٩ قد تمّ الحوار بين حكومة بنغازي وسيدي إدريس لإقناعه بأن يصدر أوامره لعمر المختار للتّوقف عن التّمرّد ولأنّ عمر المختار قدّر بأنّ هذه المباحثات سوف تستمر طويلا، وبالتّفاهم مع سيدي إدريس تمّ الالتزام بالحفاظ على الهدوء طيلة فترة المباحثات لذلك فإنّ لقاء (سيدي رحومة) لم يكن لاستسلام عمر المختار وإنّما السّماح بقيام هدنة، لأنّ الاستسلام يسبقه تجريد من السّلاح وهو شرط لازم وهذا ما لم يحدث. كذلك وحسب المصادر العربيّة فإنّ ما حدث كان ناتجا عن سوء فهم الجنرال (سيشلياني)

(١) برقيّة رقم ٦٤٥٩ منتهى السّريّة، يوم ١٤ يونيه ١٩٢٩، في المحفوظات التّاريخيّة بوزارة إفريقيا الإيطاليّة ٩٠/٢١/١٥٠.

وتفسيره الخاطئ لموقف الشّيخ عمر المختار الّذي التزم بالهدنة فقط وظلّ ملتزما بها حتّى انهيار المفاوضات فاتّخذ حريّة القرار في استئناف القتال، وحسب هذه المصادر نفسها فإنّ وزارة المستعمرات قامت بإلقاء اللّوم على حكومة بنغازي وأعطتها الأوامر بوقف المفاوضات واستئناف الحرب على السّنوسيّة وعليه فقد واصل عمر المختار حربه علينا غير أنّ وجهة النّظر الحكوميّة قد أعطت تفسيرًا مختلفًا للأحداث[1].

من الواضح أنّ الجانب الفاشي كان يعاني من الحيرة والارتباك وأخذت تلوح من خلال كتاب (جيليو) الاتهامات لبادوليو موجّها له نعوت الحماقة والجهل خصوصًا بعدما نشرت رواية (عمر المختار) عن الأحداث في جريدتي (المقطم) و(الأخبار) المصريّتين يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩ والّتي جاء فيها ما يحمل على الاعتقاد بأنّها الأكثر مصداقيّة وأنّ المحادثات في كلّ مراحلها لم يتوصل فيها المفاوضون لا في (سيدي رحومة) ولا في غيرها إلى استسلام الثّوار.

أمّا عن الهدنة المشروطة بأربعة نقاط الّتي اقترحها (عمر المختار) فقد قبلت من المارشال (بادوليو) كما قبلها الجنرال (سيشيلياني) من قبله[2] فحسب هذه الوثيقة العربيّة كانت المحادثات تبدو مجدية إلاّ أنّها أوقفت

---

(١) جيليو، مصدر سابق، ص١٣٦، لا يفهم لماذا يردّد جيليو صفة الجنرال لبادوليو وليس صفة المارشال.

(٢) النّقاط الأربعة تتضمّن:

١ ـ العفو العام على جميع الجناة في الجرائم السياسيّة سواء أولئك الّذين يتواجدون داخل البلاد أو خارجها.

٢ ـ سحب جميع الحاميات الّتي أقيمت في حرب ١٣٤١هـ الموافق لـ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣م بما في ذلك حاميات الجغبوب وجالو.

٣ ـ حقّي في جباية الأعشار الشّرعيّة من العرب المقيمين حول الحاميات الإيطاليّة على الشّاطئ.

٤ ـ مدّة الهدنة شهرين يمكن تمديدها.

بنوايا مبيّتة من إيطاليا لإفشال الاتّفاق الّذي بإمعان النّظر في أسسه ما كان لها أن توافق عليه لتعارضه مع ما كانت تردّده الحكومة الفاشيّة في إيطاليا حول عزمها إعادة احتلال برقة بالكامل ودون أي تنازلات للمتمرّدين مع استخدام الأراضي الخصبة في الجبل الأخضر لمصلحة المعمّرين الطّليان، وما كان لـ(عمر المختار) أن يفوته إدراك فشل محادثات (الاستسلام) طالما لم يواكب التّحوّل نحو هدنة تقدّم حقيقي في الحوار بعد انقطاعه والأدهى من ذلك أنّ هذه الهدنة استغلها الإيطاليون لمواصلة تعزيز قوّاتهم لوجستيا واستراتيجيا حسب مخطّط (بادوليو) الّذي قُبل طلبه الدعم من روما وعبّر عمر المختار عن خيبة الأمل بأُحتجاج صارخ عندما كتب: «فليعلم إذا أيُّ مقاتل أن هدف هذه الحكومة الإيطاليّة زرع الشّقاق وإثارة الفتن والمكائد بيننا للقضاء على جهادنا وتكاتفنا وتراصّ صفوفنا وتفسّخ وحدتنا حتّى تستطيع هزيمتنا بيسر وسهولة وسلب كلّ حقوقنا المشروعة، كما حاولوا عدّة مرّات من قبل ولكن لم يفلحوا في شيء من هذا ولله الحمد، وليشهد العالم أنّ نوايانا نحو الحكومة الإيطاليّة نوايا طيّبة وليس لنا أيّ قصد سوى المطالبة بحريّتنا. إنّ أهداف الحكومة الإيطاليّة هي قمع كلّ حركة وطنيّة تهدف إلى نهضة الشّعب الطّرابلسيّ وتقدّمه، وفي كلّ الأحوال نحن لا نستطيع القول إنّ كلّ الشّعب الإيطاليّ يؤيّد فكرة الحرب خاصّة في هذا الوقت الّذي نرى فيه أمما أخرى تخفّف قبضتها على الشّعوب الرّاقية بل العكس فثمّة رجال سياسة ينزعون للسّلام حبًّا في أوطانهم لعلمهم ما تجلبه الحرب من خراب ودمار. كما أنّ ثمّة قلّة من الأفراد ترغب في تدمير الشّعب الطّرابلسيّ بكلِّ الوسائل وندعو اللّه ألا يوّفق هذه الفئة في الوصول إلى أهدافها. لا يوجد شعب لا يعرف أنّه في سبيل الحريّة يجب بذل كلّ غال ورخيص. نحن اليوم ندافع عن وجودنا ونضحّي بدمائنا فداء للوطن من أجل الوصول إلى مرامينا الّتي نهفو إليها.

نحن لسنا مسؤولين عمّا آلت إليه الأوضاع حتّى يرتدع أولئك الّذين يسوّقون لاستعمال العنف ضدّنا ويتّبعون سواء السّبيل صادقين في عهودهم مبتعدين عن الغواية والدّسائس».

ومن المهمّ في هذا الإطار تفحّص الرّواية الأخيرة لـ(غرسياني) الّتي نشرها سنة ١٩٤٨ فيما يتعلّق بأُجتماع (سيدي الرحومة) وفشل ذلك السّلام الغامض، تلك الرّواية الّتي كان من دواعيها ذلك التّنافر والتّنافس القديم مع المارشال (بادوليو) الّذي تجدّد في الأحداث اللاّحقة حيث كانا يقفان على طرفي نقيض. فبادوليو كان لسان حال الهدنة مع الحلفاء بعد سقوط الفاشيّة، بينما تخندق (غرسياني) مع الفاشيّة وكان المسؤول العسكريّ عن مصير جمهوريّة سالو[1] أو المهزلة الفاشيّة. فقد كتب غرسياني في كتابه (ليبيا المحرّرة) جزءًا ممّا سبق أن رواه في كتابه قبل ١٦ سنة مضت في نشوة انتصاراته في كتاب (ليبيا المهدّأة) ثمّة جزء يتعلّق بهذا الموضوع مشيرًا إلى أنّ المشاكل الّتي لحقت بالصّحافة جرّاء دعاياتها وتطبيلها الّذي لا يتناسب ونتائج اجتماع (سيدي رحومة) المفخم أثار حفيظة السّلطات الّتي قامت بتحقيق سياسيّ مخصوص واستدعي على إثره مدير الصّحيفة اليوميّة (مستقبل طرابلس) من قبل إدارة المكتب الصّحفي في روما. فأظهر التحقيق أنّ هذه الإشادة والإطراء لشخص (بادوليو) وتضخيم نتائج (سيدي رحومة) كانت من تأليف (بادوليو) نفسه من أوّل كلمة إلى آخره وبخطّ يده على ورق رسميّ للحاكم العامّ لليبيا فانقلب حنق روما إلى سخريّة بلا حدود[2].

---

(١) جمهورية سالو: هي مدينة صغيرة تقع على ضفاف بحيرة (جاردا) شمال إيطاليا وقد اتخذها موسوليني عاصمة للجمهورية الإيطالية الاشتراكية الّتي أسّسها بعد إطلاق سراحه من السجن على أيدي النازيين وقد استمرت هذه الجمهورية من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٥ وتمتد سلطتها على المناطق التي لم تزل تحت سيطرة الجيش الألماني.

(٢) وفي الملاحظة الّتي وردت في ص٥٨ من المرجع المذكور نجد هذه الواقعة وكذلك=

ما حدث في برقة بعد الهدنة شيء معلوم، ولكن ما لم يكن معلوما هي القضايا السّياسيّة والعسكريّة الّتي دفعت (بادوليو) للتّخلي عن مساره في انتهاج سياسة تفاوض حتّى يضطّر إلى التّضحيّة بمساعده الجنرال (سيشيلياني) في خضم هذا التّغيير. إلاّ أنّ إقصاء هذا الأخير لا يمكن إسناده حقيقة إلى (بادوليو) وإنّما إلى السّلطة المركزيّة من خلال وزارة المستعمرات ووزيرها (دي بونو) الّذي غالبًا ما اقحم (موسوليني) في هذه التّدخلات. ومن الأهميّة القصوى في هذا الإطار البرقيّة الّتي أرسلها (دي بونو) إلى بادوليو في ١٥ نوفمبر ١٩٢٩، وقد أعلن فيها عن السّياسة الجديدة للنّظام الفاشيّ في برقة لتتجلّى فيها وحشيّة العنف بكلّ جلاء.

يبرق (دي بونو) قائلاً: «للأسف إنّ كلّ ما توقعته وبيّنته في مختلف المراسلات بدأ يتحقّق، بعد اطّلاع رئيس الحكومة على الوضع صادق على المقترحات التّالية:

١ ـ قطع أيّ نوع من التّفاوض أو التّسامح مع المتمرّدين ومهاجمتهم دون هوادة.

٢ ـ يجب وضع كلّ الأفراد السّنوسيين الّذين هم في قبضتنا تحت حراسة مشدّدة وعلانيّة دون إبداء أيّ نوع من المراعاة.

٣ ـ عدم التّحدث عن الاستسلام إذا لم يتحقّق فعلاً.

٤ ـ شنق جميع الزّعماء المقبوض عليهم».

لقد أظهر نائب الحاكم العام الجنرال (سيشيلياني) بوضوح أنّه ليس

=قصّة السّاعة الّتي كان يراد منها رمزيّة توقيت السّلام والّتي حطّمها عمر المختار على الأرض حنقًا على إعلان الحاكم الشّهير في كلمات (اسمعوا اسمعوا)، وكذلك قصّة (الأسد الّذي يعزى إلية عمر المختار أذان الحمير).

في مستوى ما أنيط بهم لذلك وجب إعفاؤه من هذا المنصب في أوّل مناسبة دون استشعاره بما حاق به من فشل[1].

وعند هذه النّقطة بات جليا أنّ المسألة البرقاويّة برمّتها قد تدحرجت في وهاد القمع العسكريّ المعتاد أمّا المقاومة فقد استؤنفت في بعض الأمكنة بعد انتهاء الهدنة فقضت على أيّ أمل في التّفاوض، أمّا (بادوليو) الّذي كان متردّدًا في أخذ العبرة من عواقب نزَقِه في (سيدي رحومة) والّذي لا زال يأمل في إذكاء الخلاف بين القوّة السّنوسيّة فقد عاجله وزير المستعمرات (دي بونو) بلهجة قاسية قائلاً: «في رأيي لا يجب انتظار ما إذا سيقوم متمردون سابقون باقتفاء أتباع (عمر المختار) وإنّما يلزم المنع الصّارم لإمكانيّة حدوث ذلك.

أرى أنّه من المناسب بعد كلّ الذي حدث أن يتمّ نزع سلاح (الأدوار) مثلما حدثتني به سعادتكم شفويا بأنّنا نستطيع أن نجردّها من السّلاح متى شئنا.

أنا لست قلقًا من الموقف ولكنّني متأكد من أنّنا لم نخرج من ذلك التّفاوض بصورة مشرّفة لأنّ كل السّياسة البرقاويّة كانت مبنيّة على إعلان التّهدئة ولم تنتج غير إبراز عمر المختار باعتباره الصّانع الرّئيسي للسّلام[2].

حتّى الجنرال (سيشيلياني) الّذي اعتبر فجأة بأنّه المسؤول عن التّغرير الّذي وقع فيه (بادوليو) لم يسلم من الإتّهامات القاسية قبل تنحيته، فأبرق له (دي بونو) هذه البرقيّة: «منذ أشهر وأنا أوصي بعدم الثّقة في

---

(١) برقيّة رقم ٧٣٢٥، في ١٠ نوفمبر ١٩٢٩، في محفوظات وزارة إفريقيا الإيطاليّة ١٥٠/ ٩٠/٢١.

(٢) برقيّة رقم ٧٣٣٥، في ١١ نوفمبر ١٩٢٩، المحفوظات التّاريخيّة وزارة إفريقيّة الإيطاليّة الملف المذكور سابقًا.

أحد وقد ألححت في خمس مناسبات على الأقلّ بنزع سلاح (الدّور) ولكنّ سعادتك كنت دومًا متشبثًا بالأوهام وقد توافقني يا صاحب السّعادة على أنّنا حتّى الآن لم نظهر بصورة لائقة: حاولت بكلّ الوسائل أن أفهمكم بأنّ أي تنازل من جانبنا يعتبره المتمرّدون ضعفًا[١].

وهنا يجب أن نتفحّص عن قرب هذه المسألة وهي حقيقة ما إذا كان الجنرال (سيشيلياني) قد كان متشبّثا بالأوهام أم أنّ ذلك كان يرجع بالأحرى إلى عدم وضوح السّياسات الحكوميّة سواء كان ذلك في صدق نواياها أو في برامجها المتعلّقة بالسّكان الأصليين، ويبدو لنا أنّه من المجحف اتّهام (سيشيلياني) كما فعل (دي ليوني) بأنّه كان ينقصه الحسّ السّياسي المرهف الّذي كان يحظى به (فولبي) أو للحكمة والتّعقل اللّتين أملتا على (دي بونو) بألاّ يبتعد عن النّهج الّذي سلكه سلفه أو لأنّ اهتمامه منذ وصوله هو طموحه في ربط اسمه بحدث كبير ومُميّز، فكلّ هذه المواقف لا يبدو أنّ لها ما يبررها[٢].

حريّ بنا أن نضع على عاتق الحكومة الفاشيّة إرادتها في التّلاعب على الغموض واللّبس في علاقتها مع المتمرّدين من أجل كسب الوقت حتّى تتمكن من تعزيز قوّاتها عددًا وعدّة ووصولها إلى (برقه) واستكمال خططها التّكتيكيّة الجديدة حتّى يكون في مقدور الحكومة الإيطاليّة تحقيق هدفها الأوحد وهو التّصفيّة الجسديّة للتّمرد. في هذا الإطار كان لتعيين الجنرال غرسياني وإزاحة الجنرال سيشيلياني في ١٥ مارس ١٩٣٠ هدفان حاسمان على المستوى السّياسي، صيت (غرسياني) الذّائع بالتّصلب والشّدة الّتي اشتهر بها في حملاته اللّيبيّة خلقت منه صورة من

---

(١) برقيّة رقم ١٣٢، في ١٠ يناير ١٩٣٠، في المحفوظات التّاريخيّة وزارة إفريقيّة الإيطاليّة، أُنظر الهامش رقم ١٠.

(٢) دي ليوني، مصدر سبق ذكره، ص٥٥٠.

غاليياني[1] (Galliéni) وليس رجل دبلوماسيّة وحصافة كما عليه الجنرال سيشيلياني. عبّر السيّد (جيليو) وهو أحد المعجبين بمناقب غرسياني قائلاً: «لقد كان رجل المرحلة الخبير العارف بروح الشّعوب اللّيبيّة الجنرال العظيم الّذي يحظى ـ إلى جانب الحدس والفطنة ـ بتلك الحكمة الّتي تخلّقت في شعبنا بفعل المحن والمعاناة والأهمّ من ذلك أنّه ليس مقيّدًا بأيّ ضرب من الأفكار المسبقة»[2].

أمّا كونه غير متأثّر بالأفكار المسبقة فكان باديا للعيان من فحوى التّقرير الخطير الّذي رفعه إلى (بادوليو) في ٥ أبريل ١٩٣٠ وقد أبدى فيه عزمه على التّخلي وبشكل حاسم عن المسار الّذي اتّبع حتّى الآن، أي أنّه وبشكل صريح يريد وأد أي نوع من الديبلوماسيّة السّابقة الّتي كان يكرّسها (بادوليو)، وضرورة الاحتكام إلى السّلاح وحده لتصفيّة التّمرد.

يبدو التّحليل السّياسي للقضيّة البرقاويّة في غاية الجلاء والوضوح غير أنّ العناصر الّتي ساهمت في إبراز هذه الوثيقة الّتي كتبت يوم ٥ أبريل بهذا الحجم من الخطورة والأهميّة لا يمكن قبولها من دون تحفظ، فقد كان يسيطر على اهتمام (غرسياني) تبنّي نهج سياسي شخصاني حذر يهدف في إحدى جوانبه إلى تدمير أسطورة استسلام بعض السّكان المحلّيين وإمكانيّة البناء عليها مستقبلا ومن جهة أخرى أراد أن يصوّر قوّة الأعداء بشكل مبالغ فيه حتّى يضفي على السّلطات الإيطاليّة الّتي سبقته في حكم الإقليم صفات الضّعف وعدم الاقتدار.

---

(١) غاليبني هو أمبراطور روماني غاليوتنوس (٢١٨ م ـ ٢٦٨م) قاتل الفرس والقبائل البربرية الجرمانية وأقصى مجلس الشيوخ من التحكم في العسكر وأعطى اختصاصاتهم للجنرالات، كما وضع استراتيجية جديدة للدفاع عن الامبراطورية بإنشاء مفارز متحركة من الفرسان.

(٢) جيليو، مصدر سبق ذكره، ص٥٥٠.

وإنّه لمن المجدي إلقاء الضّوء على الأقسام الثّلاثة الّتي احتواها هذا التّقرير بالتّحليل والتّفحّص فملاحظته بأنّ نشاط السّنوسيّة كان يشمل الجميع وفي كلّ مكان، ما كانت تعني الاعتراف للسّنوسيّة بأيّة سيادة سياسيّة بقدر ما كانت تعني توجيه الاتّهام الخطير لنمط السّياسة الاستعماريّة لأسلافه الّذين يعدّون لاستسلام إيطاليا أمام التّمرد، هذا التّصريح يزداد وضوحًا عند قراءة الفقرتين الآتيتين في تقرير (غرسياني): (يرى الجميع أنّ الحكومة مادامت لم تستطع فرض السّلام بالقوّة سوف تجبر على الاستسلام ومنح التّنازلات المتعدّدة. وكلّ الأعيان والأهالي المستسلمين وغير المستسلمين يساهمون بقدر المستطاع في امتداد التّمرد والإبقاء على حالة الاضطراب والسّلام الأهلي فهذه حقيقة جليّة ونكرانها يعني رفض إرادة الإبصار)[١].

في الواقع إنّ الحقيقة لم تكن واضحة وجليّة كما يدّعي (غرسياني) الّذي لم يفوّت أي فرصة لتحقير عمر المختار وأتباعه مدفوعًا إلى هذا القول برغبته القويّة في إظهار فشل سياسة استسلام المواطنين المحلّيين الّتي كرّستها السّلطات الاستعماريّة الإيطاليّة حتّى ذلك الوقت كنموذج للقمع. إنّ تحليل (غرسياني) الّذي يشبّه فيه الوضع في (برقه) بحالة جسم متسمّم على أحد أعضائه ورم متعفّن يظهر بجلاء قصده في أنّ أعمال الحرابة الّتي يقوم بها رجال عمر المختار ناجمة جميعها عن قصور القوّات المسلّحة الإيطاليّة بالرّغم من تفوّقها في العدّة والعتاد وكذلك بسبب سياسة الانتظار والاتّفاقيات الّتي عقدت في ذلك الحين وإلى غياب الشّدة والقسوة في مواجهة السّكان الأصليّين الّذين يساعدون المتمرّدين أو يتواطؤون معهم بشكل مباشر أو غير مباشر. كان مشروع

---

(١) النّص الكامل لتقرير غرسياني لـ(بادوليو) وزير المستعمرات في ١٥ أبريل ١٩٣٠، ٢٢/١٥٠ ملف رقم ٢٨، المحفوظات التّاريخيّة لوزارة إفريقيا.

(غرسياني) إعادة تنظيم الأوضاع في برقة بما لا يحتوي ما سبق ذكره فقط وإنّما بانتهاج التّشدّد في القمع إلى حدوده القصوى.

يتحتّم على الهيمنة الإيطاليّة الكاملة ممارسة أقصى حدود القسوة من خلال تكريس المسؤوليّة الجماعيّة للسّكان المحلّيين. فما كان ينوي (غرسياني) تطبيقه في المجالين العسكريّ والسّياسيّ يستدعي اتّخاذ سلسلة من التّدابير تهدف إلى إقامة تنظيم مناطقي أكثر تجانسًا وذلك بإنشاء مفوضيّة الجبل الّتي يكون في مقدورها ترتيب أفضل للمناطق وفرض أجواء من التّشدد القاسي والتّطبيق الفوريّ للعقوبات على الهاربين من الخدمة العسكريّة واعتبار التّواطؤ جريمة ترقي إلى مستوى خيانة الدّولة لتصل عقوبتها إلى الإعدام واعتبار أنّ الأساس في التّهدئة هو تجريد جميع النّاس من السّلاح.

كما يطرح تقرير الخامس من أبريل معادلة من أبسط المعادلات وهي طالما أنّ المقاومة ضدّ إيطاليا قد تبنّاها كلّ العرب لذلك لا يجب التّمييز بينهم فهم جميعهم أعداء للدّولة على الأقلّ على مستوى (الإمكان) وعلى هذا الأساس تجب معاملتهم. وبقرار كهذا يذهب (غرسياني) إلى التّعارض حتّى مع التّعليمات الموجّهة إليه من (موسوليني) في برنامج النّقاط الثّمانية الّتي قام (دي بونو) وزير المستعمرات بتوضحها عشيّة تعيينه نائبًا للحاكم العام وبترحيب من البرلمان يوم ٢١ مارس ١٩٣٠ ومن بين هذه النّقاط:

١ ـ التّفرقة الحاسمة بيمن المستسلمين وغير المستسلمين سواء على مستوى المكان أو على مستوى العلاقات والنّشاطات.

٢ ـ إعطاء المستسلمين الأمان والحماية مع مراقبة كلّ أنشطتهم[١].

---

(١) غرسياني كتاب: (برقة المهدئة) مرجع سابق، ص٤٩. ومن دي بونو إلى بادوليو وغريسياني ٢٤ مارس ١٩٣٠، في محفوظات وزارة إفريقيا الإيطاليّة ٩٨/٢٢/١٥٠.

إنّ مجمل سياسة (غرسياني) وطموحاته هي تحويل ولايته كنائب للحاكم العام إلى قاعدة مثلى لتحقيق تطلّعاته الشّخصيّة على حساب رئيسه المباشر المارشال (بادوليو) (الحاكم الأوحد) فاتّخذ من التّطرف والصّلف قاعدة لقراراته وتصرّفاته في معالجة الأوضاع.

وصلت التّعزيزات العسكريّة المتمثّلة في الطّيران لاستكشاف عدوّ دائم الحركة على أرض صعبة التّضاريس وكذلك تمّ استخدام طرق أخرى لم تكن معروفة من قبل مثل المحاكم الطّائرة الّتي قلّصت إجراءات العدالة العسكريّة وقلّلت من فرص تباطؤها ممّا أفرز محاكمات صوريّة من قبل محاكم استثنائيّة متنقّلة جوّا وقد حازت على ارتياح (غرسياني) وامتنان رئيس المحكمة الجنرال (أوليفياري) إذ كتب: «هذه الطّريقة جعلت العدالة سريعة وهيّنة كلّما وصلت إشارة في إلقاء القبض على شخص في حال تلبّس للجريمة تتحرّك المحكمة وتهبط العدالة من السّماء حتّى أصبح من المعتاد سماع همهمة المواطنين بكلمة (المحكمة) حالما تهبط الطّائرة في مكان ارتكاب الجريمة»[١].

يستحيل استئناف هذه الأحكام أو إعادة النّظر في هذه الأحكام بعد أن تصدرها المحكمة لأنّ إجراءات المحاكم الخاصّة الاستثنائيّة لا تنصّ على ذلك، في الحقيقة كانت عدالة لا تعبأ بضرورة التّحقيق والتّحرّي في أغلب الأحوال، أمّا الاتّهامات الّتي انطلقت في العالم العربيّ وكانت تقول بإلقاء المُذنبين من الطّائرات هي غالبًا خالية من الصّحة وعدم المصداقيّة.

صاحب هذه التّدابير ثلاث إجراءات ذات أبعاد تكتيكيّة هي: إعادة تنظيم القوات المسلّحة، وتهجير المواطنين الرّحل ووضعهم في

---

(١) تقرير الجنرال أوليفياري في برقة المهدئة، غرسياني، ص١٤١.

معسكرات، وإنشاء حاجز من الأسلاك الشّائكة على الحدود مع مصر. وتطبيق هذه الإجراءات الثّلاث على أرض الواقع هو ما ساهم في تحقّق المشهد الأخير في أسر عمر المختار ونهاية المقاومة لدى أتباعه.

وللوقوف على أغراض الخطّة الّتي كانت تتوخّاها قيادتنا لا يجب إسنادها إلى إعادة تنظيم شؤون التمّويل فقط بل في الأساس إلى جملة القرارات الّتي اتّخذها (غرسياني) لإعادة تنظيم القوّات المسلّحة.

فاستخدام مبدأ الاسترشاد في إعادة تنظيم القوّات المسلّحة الّذي يرجع إلى منشور ٦ مايو ١٩٣٠ تضمّن تفكيك قوّات المرتزقة اللّيبيين وتجريدهم من السّلاح باعتبارهم قليلي المنفعة في محاربة المتمرّدين وبالتّزامن مع هذه الإجراءات تمّ دعم القوّات الخاصّة وتشكيلها كقوّات متحرّكة وهي مكوّنة في أغلبها من الإرتريين وتمّ توزيعها وتكليفها في المناطق المتمرّدة (البطنان، والجبل، ومناطق العواقير في نواحي بنغازي، ومنطقة سرت) وكان وصف غرسياني لهذه الوحدات المتحرّكة المزوّدة بأسراب طيران في منشوره المؤرّخ في ١ أكتوبر ١٩٣٠ في منتهى الوضوح: «الوحدات المتحرّكة الّتي تحرّرت من أعباء التّعالي السّياسي الّذي كان يعرقل حركتها أو يلبس عملها رداء التّردّد والتّشكيك أصبحت اليوم كلابًا مفترسة (ماستيني)[١] للـ(أدوار) تعقرهم وتلاحقهم في كلّ مكان وتستفزهم على القتال رجلًا برجل متّبعين القواعد الّتي تفرضها المعركة وكلّنا رضى بما يتحقّق من إنتصارات نسبيّة متلاحقة. لا يؤخذون على حين غرّة لأنّهم يعلمون أنّ المباغتة هي مكمن الهزيمة تاركين حياة الدّعة ويعيشون تحت خيام في كلّ الأجواء وعلى كلّ نوع من الأرض يقاتلون مهاجمين باستعمال الحدّ الأدنى من الرّصاص

---

(١) ماستيني: هي نوع من الكلاب الضخمة والشرسة يستخدمها الجنود في الهجوم على خنادق الأعداء لإرهابهم.

ومستعينين بالحراب أغلب الأوقات ويكرّون دومًا وفي كلّ مكان لا يعرفون هدنة أو استراحة ويقفون موقف الأنداد لأعدائهم بل هم أكثر حركة ونشاطًا[1].

وفي خطّ مواز لهذا العمل التّنظيمي بدأ يلوح في الأفق خطّ آخر وهو زمن التّطهير الكبير على أوسع نطاق ومنَسّق في كلّ القطاعات. إذ وضعت السّلطات الإيطاليّة برنامج معسكرات الاعتقال لكلّ سكاّن الجبل والّذي يرجع اقتراحه إلى شهري مايو ويونيو سنة ١٩٣٠. فليس من الممكن إغفال مثل هذا الإجراء بخطورته لأنّه يمثّل نقلة نوعيّة حقيقة في العلاقة مع أهالي المستعمرة الّذين لم يقاسوا هذه المعاناة من قبل في ظلّ الاحتلال الإيطاليّ.

تجاهلت الأبحاث التاريخيّة الإيطاليّة الرّسميّة لفترة طويلة حقيقة هذه الإبادة وسماتها ضدّ سكّان (برقه) بل روّجت لتزييف ما حدث باعتباره مجموعة من التّدابير الاحترازيّة الّتي كانت تهدف إلى الرّعاية الاجتماعيّة لأهالي (برقه) وتضمن لهم نشاطًا اقتصاديًا جديدًا وآمنا بالعمل في مجالي الزّراعة والرّعي بكلّ حريّة على حدّ قول بادشي (PACE)[2].

يتجلّى لنا الآن من خلال الوثائق أنّ التّهجير القسري لسكّان الجبل كان موضوعًا آخر في غاية الألم وفي منتهى الكلفة في الأرواح والمعاناة، إذ كان مبتغى الاحتلال الإيطالي لهذا التّهجير القضاء النهّائي على كلّ روابط المساعدة والتّأييد البسيطة ـ ولكنّها أساسيّة ـ تلك الّتي تتلقّاها المقاومة من الأهالي في الجبل.

توزّعت المعسكرات الخمسة الّتي أنشئت ما بين أواخر سنة ١٩٣٠

---

(١) منشور غرسياني، رقم ٣٥٠٠، في ١ أكتوبر ١٩٣٠، ص٣.

(٢) بادشي، معسكرات الاعتقال، في مجلّة (لاسيوني كولونيالي)، روما، ٢٥ أبريل ١٩٣٣ ص٢.

وأوائل سنة ١٩٣١ ـ وكانت تأوي حوالي ٨٠,٠٠٠ نسمة ـ على مساحة واسعة من الأرض الّتي أصبح بالإمكان مراقبتها بالطّيران في الجّو ومن الكتائب المتحرّكة على الأرض بكلّ يسر وسهولة واعتبر كلّ شخص يتواجد داخل محيطها هدفًا مشروعًا باعتباره متمردًا وحسب التّقرير الّذي صدر في ٢ مايو ١٩٣١ والّذي أعلن فيه نهاية عمليّة التّهجير والزّج بالأهالي في المعتقلات العامّة والمعتقلات الخاصّة للمشتبه بهم وأقرباء الثّوار فإنّ العدد الإجمالي بلغ ٧٨٣١٣ فردًا من السّكان الأصليين[١].

فاقمت هذه المعسكرات المعزولة عن العالم بالأسلاك الشّائكة والحراسة العسكريّة المشدّدة قسوة الظّروف الحياتيّة للأهالي الّذين حتّى ذلك الوقت كانوا شهودًا على مجريات أحداث الحرب ولكنّهم لم يتّخذوا قرار المشاركة فيها، فكانت لهذا التّهجير من المواطن الأصليّة للأهالي إلى هذه المعسكرات نتائج مأساويّة على المستوى الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسّياسيّ وقد عاش هؤلاء وآلامهم وعذاباتهم دون أن يجدوا من العالم ذلك التّضامن وتلك الأصداء الّتي تقتضيها ممارسة سياسة إجراميّة كهذه. لقد شلّ التّضامن الاستعماري كثيرًا من ردود الفعل في العواصم الرّئيسيّة في أوروبا وإفريقيا وآسيا منساقًا بسلبيّة وراء الدّعاية الفاشيّة الّتي برعت في إظهار ذلك التّهجير بأنّه كان ضروريا للقضاء على المقاومة التّقليديّة ضدّ النّظام واحترام القوانين من قبل البدو الرّحل الّذين جبلوا على العنف والاغتصاب والسّرقة وإن كانت هذه الاحتجاجات

---

(١) حسب تقرير نائب الحاكم العام غرسياني في ٢ مايو ١٩٣١ في (ترتيب أوضاع الأهالي البدو المهجّرين)، فإن المعسكرات الأساسيّة كانت (الأبيار) تضمّ ٣١٢٣ شخصًا، (سلوق) وتضم ٢٠١٢٣ شخصًا، (سيدي أحمد المقرون) وتضمّ ١٣٠٥٠ شخصًا، (مرسى البريقة) ويضم ٢١١١٧ شخصًا، (أجدابيا) ١٠٠٠٠ شخصًا، أمّا المسكر الخاصّ في منطقة (العقيله) ضمّ ١٠٩٠٠ مشبوه. محفوظات وزارة إفريقيا الإيطاليّة، ٢٢/١٥٠، ص٩٨ ملف ٧.

قليلة إلاّ أنّها لم تنعدم بالكامل فهي ذات قيمة ومن هذه الاحتجاجات ما شهد به الاشتراكي (ف فرج) حول التّهجير والسّياسة الإيطاليّة في ليبيا فاعتبرت أكثر الشّهادات التراجيديّة الّتي أثارت السّخط والاستنكار: (٨٠,٠٠٠ إنسان عربي قد تمّ اجتثاثهم من الجبل الأخضر في برقه حيث عاشوا قرونًا طويلة، وهذه المنطقة الّتي يمكن زراعتها دون كبير عناء وتتوافق بالكامل مع النّمط الزّراعيّ الأوروبي أيقظت شهوة الطّمع للمعمّرين الإيطاليين الّذين أرادوا الاستحواذ عليها، فما كان منهم إلاّ تهجير هذه العائلات والقبائل من مواطنها بصورة جماعيّة ولم يعطوهم غير خمسة أيّام لجمع ما يمكن جمعه من المتاع والمؤن القليلة لتبدأ مسيرة التّيه في حراسة الشّرطة فهل كانوا يعلمون إلى أين يساقون؟ بعد سفر مضن على طريق الآلام لأيّام عديدة عرفوا أنّ مضاربهم الجديدة سوف تكون في صحراء سرت)[١].

وحتّى لو لم يكن ردّ فعل جريدة إفريقيا الفرنسيّة (Afrique Française) شبه الرّسميّة على هذه الدّرجة من الوضوح بسبب انتماءاتها الاستعماريّة إلاّ أنّها كانت على جانب كبير من الأهميّة فبالرّغم من أنّها لم تستنكر سياسة (غرسياني) بالكامل وبكلمات صريحة إلاّ أنّها أبدت مجموعة من التّحفظات حول جدوى هذه القرارات[٢] وموقف كهذا من جريدة استعماريّة يدلّ بوضوح على ما خالجها من تأثّر وحيرة. في كلّ الأحوال إنّ تهجير أهالي الجبل ووضعهم في معسكرات اعتقال أثار موجة من

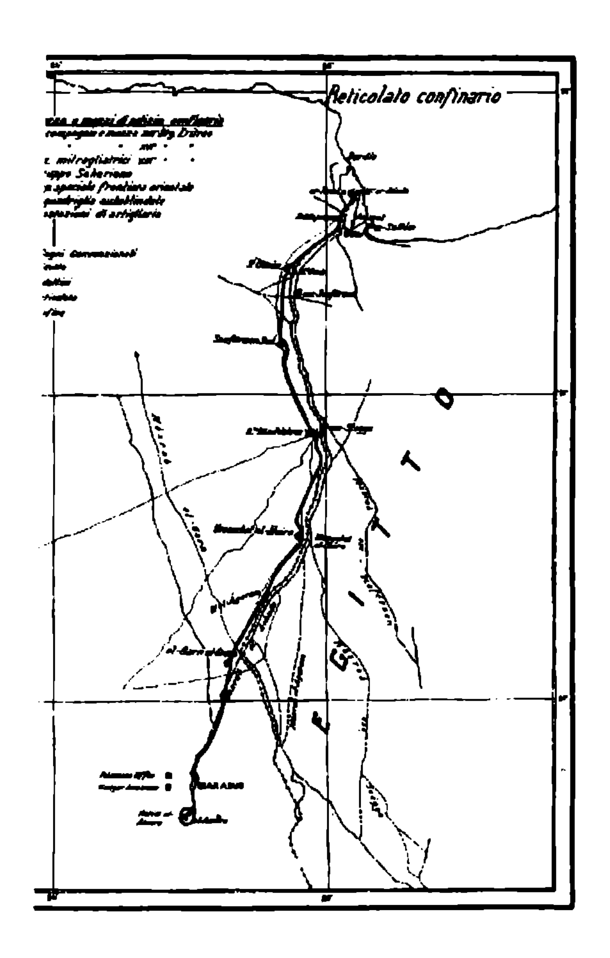
---

(١) ذكره (ماريون) في الإسلام يتهم، في لو كوتيديان، باريس، ٢٢ سبتمبر ١٩٣١.

(٢) المقالات في مجلة إفريقيا الفرنسيّة في سنة ١٩٣٠ لم تكن كثيرة أو عديدة ولكنّها في مجملها كانت تتّسم بنغمة توسليّة إِسترحاميّة مركّزة على أفضليّة السّياسة الفرنسيّة تجاه الأهالي بعكس السّياسة الإيطاليّة الّتي تمخّضت عن معسكرات الاعتقال وهذا يسير على نهج (ليانتي) في الصّحافة الفرنسيّة.

الاستنكار خاصّة بعد التّصريحات الفاشيّة المتكرّرة بانتهاء التّمرد الّذي حتّى لو سلّمنا بصحّته فإنّ الآلام والمآسي الّتي رافقته لم تكن ضرورة مبرّرة، وفي هذا السّياق ثمّة أسئلة قد برزت في مناسبات أخرى من البهرجة والتّفخيم الفاشيّ وهي لمن تعزى هذه المبادرة هل للحاكم العام الأوحد (بادوليو) أم إلى نائب الحاكم الأهوج (غرسياني)؟ أو إلى وزير المستعمرات دي بونو أو شخص آخر؟

حسب نصّ الرّسائل الّتي بعث بها (بادوليو) إلى (غريسياني) في ٢٠ يونيه ١٩٣٠ ومن (بادوليو) إلى (دي بونو) في ١ يوليو نستطيع أن نعزي هذه المبادرة إلى الحاكم العام بادوليو لإذ بالرّغم من تجاهل (غرسياني) في مذكّراته هذا الجانب وادّعائه أنّه صاحب هذه الفكرة، وهذا يمكن أن يؤسّس لفصل جديد من القصّة الطّويلة في المنافسة بينهما لرغبة (غرسياني) في تجاوز رئيسه ربط صلة مباشرة مع السّلطات العليا في روما سواء مع (دي بونو) أو مع (موسوليني) وفي كلّ الأحوال يبقى مجديا فحص هاتين الوثيقتين بالغتي الأهميّة وهما تعليمات (بادوليو) إلى (غرسياني) في ٢٠ من شهر يونيه ومذكرة بادوليو إلى (دي بونو) في ١ يوليو. الأولى تحتوي في حقيقة الأمر ولأوّل مرّة على فكرة تهجير السّكان خارج الجبل والطّرائق الواجبة لتحقيق ذلك فتقول يجب الفصل بين العصاة والسّكان المستسلمين بتباعد على الأرض قصيّ ودقيق، لا أتجاهل حجم الخطورة الّتي ستلحق بهؤلاء الأهالي المستسلمين من خراب ودمار ولكنّها الطّريق الوحيد الّذي رسم ولا مندوحة لنا من عبوره حتّى النّهاية حتى لو أدّى ذلك إلى هلاك كلّ أهالي برقه، لذلك يجب الإسراع في تجميع كلّ الأهالي المستسلمين في أماكن ضيّقة مع مراعاة فصلهم الكامل وبمسافة متباعدة عن المتمرّدين بحيث تسهل مراقبتهم وعند الانتهاء من هذا العمل ننتقل إلى التّعامل مع العصاة.



بعد أيّام قليلة من هذه الأوامر الموجّهة إلى (غريسياني) قام (بادوليو) بتأكيد هذه الإجراءات الّتي تتمحور على تهجير واعتقال الأهالي لوزير المستعمرات (دي بونو): «إنّ الطّريق الوحيد الواجب اتّباعه هو عزل (الأدوار) المتمرّدة عن بقيّة الأهالي وقطع أواصر الاتّصال بينهما.

لا تغيب عنّا خطورة هذا الإجراء وتعقيداته ونتائجه المستقبليّة ولكنّه السّبيل الوحيدة الممكنة التي بدأ تطبيقها في الواقع، فكلّ القبائل سوف تنزح من أعالي الجبل وتحشر بين السّهل والبحر».

إذًا قسوة هذه الإجراءات الخطيرة كانت متوقّعة وتمّت الإشارة إليها دون خجل عندما يقول (بادوليو) إنّ هذه السّياسة لا يمكن أن تتغيّر حتى لو أدّى ذلك إلى هلاك جميع سكّان برقه. وبالنّظر إلى ما سبقت الإشارة إليه يمكننا أن نعزي أبوّة هذه المبادرة للمرشال (بادوليو رغم أنّ (غرسياني) لم يكن أقلّ منه تشدّدًا عندما ردّد المقولة اللاّتينيّة الشّهيرة «salus publica supremalex»[1] ومعناها أنّ القانون الأعلى هو سلامة الأمّة وهذا يدلّ بوضوح على تبنّيه هذه الإجراءات حتّى وإن كانت من خلال العبارات الطّقوسيّة اللاّتينيّة الّتي تستدعي أمجاد الإمبراطوريّة الرّومانيّة.

تمثّل الرّكن الثّاني لسياسة (بادوليو) و(غرسياني) الجديدة في سور الأسلاك الشّائكة على طول الحدود مع مصر حيث كان بمثابة فخّ قاتل لكلّ الّذين وجدوا في مصر ملاذا آمنا وقاعدة للتّموين لأنّ (غرسياني) كان ضدّ كلّ محاولة للهروب أو التّهريب من مصر لمصلحة المتمرّدين في الجبل ربّما أنّ الكثير من سكان برقة والسّنوسيون على رأسهم قد لجؤوا إلى مصر فكان (عمر المختار) ورجاله يرون في مصر قاعدة استراتيجيّة مهمّة لفائدة المقاومة المسلّحة معتبرين أنّ تلك الحدود الوهميّة على الخرائط الّتي تفصل مصر عن المستعمرة الإيطاليّة غير قادرة على منع التّسلل مهما كانت درجة الحصار والتّطويق. كشف جلب السّلاح وانتقال المسلّحين عبر الحدود أنّ كلّ الإجراءات الّتي تتّخذها القيادة الإيطاليّة غير مجدية عبر المنطقة الشّرقيّة. لذلك كان سور الأسلاك الشّائكة لا مفرّ منه للتّضييق على حركة المقاومة (فخّ فئران) كما وصفته صحيفة (إفريقيا الفرنسيّة). ويتّضح من الإصرار على تنفيذ هذا الحاجز

---

(١) هذه العبارة ترجمتها الحرفية (إن القانون الأسمى هو رفاهية الشعب) وهذه المقولة لازالت تكتب على شعار الجيش الإيطالي وهي متوارثة من القانون الروماني الذي يقضي بأن الفرد يتلاشى عندما يتعلق الأمر بسلامة الشعب.

رغم الصّعوبات التقنيّة والتكاليف الماديّة العالية أنّ الحكومة الإيطاليّة الفاشيّة قد قرّرت تصفيّة عمر المختار وأتباعه بشكل نهائي ومهما كلّفها الثّمن.

في إطار الرّغبة السّياسيّة للحكومة الفاشيّة في إنهاء العصيان إزاء إرادة المقاومين الصّلبة في دحر العدوان، تندرج المرحلة الأخيرة لإعادة التّهدئة عن طريق العمل العسكريّ وقد سبقها حدث ظلّ طيَّ النّسيان إلاّ أنّنا نراه في غاية الأهميّة وهو إحياء الذّكرى التّاسعة عشر للغزو الإيطاليّ بسريّة من قبل اللّيبيين وحتّى الآن لم يذكر أحد هذا المنشور الطّويل الّذي ظهر في سوريا ومصر وتونس وانتشر كذلك داخل ليبيا، إذ الغريب في الأمر أنّ المؤرّخين اللّيبيين لم يأتوا على ذكره وقد استطعنا الحصول عليه من محفوظات وزارة المستعمرات وفي اعتقادنا أنّ نصّ هذا المنشور يكتسب معنى مهمّا حسب المفهوم المحبّب لـ(مصطفى أشرف) فيما يتعلّق بالمقاومة المستمرّة لشعوب شمال إفريقيا.

وفي إحياء ذكرى اليوم الأسود لتنزيل قوات الاحتلال الإيطاليّ على الشّواطئ اللّيبيّة منذ تسعة عشرة سنة لم يتوان كتبة هذا المنشور عن إلقاء الاتّهامات الخطيرة على السّلوك الحربيّ للجنرال (غرسياني) فيقول المنشور: (لو أدار الإيطاليون الحرب كرجال وأبطال لهان الأمر ولكنّهم بالرّغم من تفوّق قوّتهم الباطشة ووهن قوّتنا فقد استعملوا كلّ أنواع الإرهاب والقسوة وأصناف التّعذيب والدّمار وإرغام النّاس على ترك دينهم والدّخول في المسيحيّة وانتهاك الحرمات وقتل الأطفال والشّيوخ واحتقار النّاس والاستخفاف بمعتقداتهم وإفساد عادات البلاد وتقاليدها والقضاء على اللّغة العربيّة وإحلال لغتهم محلّها وطمس مصالح البلاد وثقافتها والاستيلاء على أموال السّكان المحليّين وأراضيهم وتسليمها للمعمّرين حتّى يغدو الطّرابلسيون المفقّرين عُمّالا يرصفون في لجج الإهانة والبؤس. تعجّ السّجون اليوم بالأبرياء الّذين يكابدون كلّ أنواع

التّعذيب الّتي لم يشهدها التّاريخ من قبل. تدين اليوم المحاكم بكلّ قسوة ووحشيّة المسلمين. والإرساليات الدينيّة تنتشر في كلّ أنحاء البلاد، والدّماء تهرق في كلّ مكان والجثث مهملة وعظامها مبعثرة. ومع كلّ هذه الفظائع المخالفة لجميع الشّرائع الإنسانيّة يقول الإيطاليون دون حياء لشعبهم إنّ مناطق برقه تتمتّع بالأمن والسّلام وإنّ سكّان البلاد يتغنّون بمحبّتهم للحكومة الفاشيّة (هل يصدق أنّ الهدوء يسود في كلّ مكان ولا وجود للحرب أو الأزمات هنا وأنّ الحياة تسير في طبيعتها كما هي عليه في بلدان أوروبا المتحضرة؟).

لِمَ كلّ هذه الأكاذيب أيتها الحكومة الإيطاليّة ماذا ستجنون من قلب الحقائق وزائف القول؟ حتّى متى ستستمرّ هذه السّياسة المبنيّة على التّفاخر والعناد؟! حتّى متى ستخفون الحقائق في بلادكم؟ لماذا لا تعترفون بأخطاء الماضي وخطورة الأوضاع الحاضرة وضبابيّة المستقبل؟! على من ستخفون قسوتكم الّتي تمارسونها في وطننا في زمن لا يكمن فيه طمس الحقائق مهما كانت الوسائل المكرّسة لهذا الطمس؟ ألم تكفكم عشرون سنة لأن تغيّروا سياساتكم رغم أنّه لم يمرّ يوم واحد لم تحصلوا فيه على هدنة أم أنّه لم يسعدكم عدم خضوع شعب برقة وطرابلس للذلّ والهوان؟! ثمّ ماذا استفدتم من سياسة التّرهيب والقسوة؟! ألم تستطيعوا إدراك أخطاء سياستكم حتّى بعد توالي أربعة عشر واليا على حكم البلاد حتّى اليوم)[١]، ثمّ أطلقوا نداء في ذيل هذا المنشور إلى جميع الأهالي اللّيبيين يذكرونهم بالعسف الّذي أصابهم ومواصلة الكفاح الّذي لا يني كطريق وحيد للتّخلص من نير الاستعمار الفاشيّ.

بعد الانتهاء من إقامة السّياج الحدوديّ مع مصر في زمن قياسي ووضع قواعد جديدة للاشتباك مع المقاومة دخلت عمليّة إعادة الاحتلال

(١) هذا المنشور كتب باللغة العربية ولم نستطع العثور عليه.



الإيطاليّ في مرحلة جديدة من القسوة وعمليات جديدة لاحتلال المناطق النّائية من جهة أخرى. لا تخفى عن العيان الظّروف المأساويّة للمتمرّدين الّذين وقعوا بين المطرقة والسندان في موطن خلا من سكّانه بفعل التّهجير القسريّ في معسكرات الاعتقال والعزلة الّتي أحدثها السّياج الحدودي ومرابطة القوّات الإيطاليّة في مراكز وحاميات قارّة، ممّا حدا بـ«شكيب أرسلان» أحد زعماء حركة الاستقلال العربيّ لأن يعلن من منفاه في جينيف: (نحن نتوجّه بالسّؤال إلى السّادة الإيطاليين الّذين يتفاخرون باعتقال ثمانين ألفًا من العرب العزّل مع مواشيهم ومنذ فترة طويلة في شريط ضيّق من سهل (سرت) بقصد إبادتهم وإعطاء أراضيهم في برقه للمعمّرين الطّليان، واليوم يفتخرون بأسرهم لمائة شخص من الأطفال والنّساء في واحة (الكفره) الّتي لا تعدّ غير بضعة مئات من السّكان. هبّوا لدحر عدوّهم بأسلحة بدائيّة، إلى أي صنف من المدنيّة نستطيع أن نصنف هذا السّلوك. في عصرنا الحديث لم يعد مقبولا التّصرّف بهذه الطّريقة الّتي تذكّرنا بالعصور الوسطى كما أنّها لا ترفع من شأن الفاشيّة أو مقام إيطاليا ومكانتها في العالم. وهل تعتقد إيطاليا بأنّها بهذه الأساليب يمكن أن تحقّق طموحاتها الكبرى في الشّرق سياسة واقتصادًا؟)[١].

لم تكن أصداء هذه الحوادث قليلة في العالم العربيّ ولكن الأخبار الخطيرة عن الانتصارات الإيطاليّة ثبّطت العزائم وساهمت في رسوخ الاعتقاد بأنّ المقاومة أضحت ميؤوسًا منها لاستنفاذ قوّتها ووقوعها محاصرة بين الحديد والنّار ومعزولة عن خطوط إمداداتها.

قد أظهرت العمليات العسكريّة في (الفايديّة) والانتصار الخاطف

(١) أرسلان، الإمبرياليّة الإيطاليّة في طرابلس، في (الأمّة العربيّة)، جينيف، فبراير ١٩٣١، ص١٥.

الّذي حدث في (البطنان) إصرار غرسياني على اتّباع أقصى درجات الشّدة لتصفية معضلة (عمر المختار) فاحتلال (الكفره) الّذي تحقّق نتيجة استخدام وسائل النّقل التّقليديّة بشكل مبالغ فيه (٧٠٠٠ جمل) وكذلك الوسائل الحديثة (٢٠ طائرة) أكثر من (٣٠٠ شاحنة) مع عدد كبير من السّيارات المصفّحة أفرز أنّ هذه العمليّة الّتي انتهت يوم ١٩ يناير ١٩٣١ باحتلال منطقة (الواحات) كانت مؤشّرًا على احتضار الثّورة في الجبل وقد حوصرت دون أيّ سبل للإمداد أو للنّجاة. ورغم أنّ عمليّة الكفره كانت انتصارًا للقوّات الإيطاليّة إلاّ أنّه كان ثمّة مخاطر في بقاء هذا الانتصار معزولا كالعادة عن التّأثير في قوّة المقاومة الرّئيسيّة في الجبل لذلك برزت التّساؤلات المحيّرة في أذهان القيادات الإيطاليّة التي أطلقها (غرسياني) في إحدى منشوراته وفحواها لماذا لا يزال المتمرّدون مستمرّين في المقاومة؟ غير أنّه بعد النّجاحات الأولى أجاب (غرسياني) نفسه عن هذا السّؤال: أوّلا وقبل كلّ شيء إنّ عمر المختار لن يستسلم أبدًا لأنّه دائمًا في وضع يمكّنه (هذا البطل العجوز الّذي يفلت دائمًا من الفخّ) من الهروب الأخير إلى مصر (كما هي العادة القديمة لزعماء القبائل) إنّه سوف يصمد إلى النّهاية ليس آملا في نصر يرفع عنه معاناته الماديّة والمعنويّة ولكن في انتظار تدخّل العناية الإلهيّة لإيمانه كبقيّة المسلمين بالقضاء والقدر، كما أنّه يأمل كالآخرين من المستسلمين أو الثّوار أن تتغيّر على حين غرّة توجهات الحكومة من القتال إلى المساومات القديمة التي انتهت إلى غير رجعة. كما أن الاضطرابات التي اثارها رجاله الأشقياء لتعكير الحياة الهادئة في برقة قد تقذف في روعه شيئًا من الأمل بأنّ الحكومة قد تتراجع عن قراراتها المتّخذة من أجل القضاء على هذا الوضع غير الطّبيعيّ[1].

---

(١) منشور رقم ١٨٩٠ لنائب الحاكم (غرسياني) في ١٧ أغسطس ١٩٣٠، ص١١، في (تعليمات سياسيّة عسكريّة).

مشكلة الثّورة وبقاؤها متعلق بالأمن الحدوديّ إذ يبدو أنّ السّياج الشّائك لم يحلّها وهو ما بدا جليًا من البرقيّة الّتي أرسلها الجنرال (غرسياني) إلى سفير إيطاليا في القاهرة (روبارتو كانتالوبو) إذ أكّد فيها أنّ سقوط (الكفره) لن يرغم (عمر المختار) على التّخلي عن الجبل الأخضر ما دامت الحدود تؤمّن له تدفّق العتاد والمؤن الّتي أصبح من المستحيل الحصول عليها من المواطنين. غير أنّ السّفير (كانتالوبو) قد عقّب على هذه البرقيّة موضحًا أنّ إدّعاءات (غرسياني) في استمرار المقاومة بالتّواطؤ المصري أو تجارة التّهريب عبر سور الأسلاك الشّائكة ليست هي السّبب وإنّما هيمنة المتمرّدين في برقة بالسّلاح وبشكل مطّرد[١].

إذا كان هذا هو وضع السّلطات الإيطاليّة فإنّ وضع (عمر المختار) ورفاقه لم يكن أحسن حالا، فتجدر الإشارة إلى أحد العناصر السّلبيّة في إقليم برقة ذات الطّابع الخاصّ والّتي يجب أن تكون ماثلة للعيان وهو بروز توجّه من بعض السّكان المحلّيين للعمل كمخبرين لدى السّلطات الإيطاليّة بدافع ماديّ وليقينهم بأنّ النّصر سوف يكون حليفًا لإيطاليا في مواجهة الثّوار، فدورهم هذا لم يقلّل من أهميّته، حتّى أنّ غرسياني قد استعمله في مذكّراته في تلك المرحلة من الصّراع فيقول: «كانت المهام الملقاة على عاتق المخبرين هو تعقّب المتمردين أينما وجدوا وباعتبارهم عارفين بطبيعة الأرض وبعادات المتمرّدين واحتياجاتهم وبمنابع المياه والمراعي الأكثر ارتيادًا للملاجئ المفضّلة لديهم ومخازن الشّعير فهم يعلمون بشكل يقيني أين يتوجّهون للبحث في منطقة بعينها، عندما يلحظون أي (دور) أو جزء منه يبقى بعضهم يتابعه بالعين المجرّدة والبعض الآخر يذهب للإبلاغ عنه ويقود القوّات إلى أماكن تجمّعهم.

---

(١) برقيّة رقم ٣٠٠ في ٤ فبراير ١٩٣١ من غرسياني إلى كانتالوبو البرقيّة رقم ٤٥٣ في ٩ فبراير من كانتالوبو إلى غرسياني في محفوظات وزارة الخارجيّة سبق الإشارة إليها.

يحدث أحيانًا أنّ الطيران في رحلاته الاستكشافيّة اليوميّة يلحظ تحرّكات مشبوهة في منطقة معيّنة فتقوم القيادة في الجبل بناء على هذه المعلومات بدفع المخبرين إلى المكان لتفتيشه بدقّة. وسارت العمليات في الجبل على هذا النّحو حتى تمّ القبض على عمر المختار يوم ١١ سبتمبر هذه هي الطّريقة الوحيدة الّتي كانت متاحة لاستخدام القوّات المسلّحة في تلك الظّروف، أي التّحرك على بينة من الأمر، وهذا ما كان يعتبر عملاً مفيدًا وأعطى نتائج ملموسة(١).

بغض النّظر عن قضيّة الجوسسة فقد كان الوضع العام حرجا للغاية بالنّسبة للثّوار الّذين فقدوا الأمل في إمكانيّة استمرار المقاومة وهذا الوضع لم يكن ليخفى عن عمر المختار. ويحتفظ الأرشيف الإيطالي ببعض الرّسائل الّتي وجّهها عمر المختار في مناسبات مختلفة لقادة برقه المهاجرين في مصر ومن مضامينها نستطيع أن نتأكّد من وضوح الأزمة في رأس قائد المقاومة عمر المختار وهو ما تشي به هذه الرّسائل ويهيمن على لغتها.

فمن بين إحدى وأربعين وثيقة احتجزت يوم ٢٥ أغسطس ١٩٣١ في عمليّة عسكريّة في (بير حمرين) ضدّ قافلة صغيرة تتكوّن من خمسة جمال نجد شهادة واضحة عن القمع والمخاطر الّتي أصابت المقاومة في تلك الآونة(٢) وحتّى الوثائق الّتي عثر عليها ضمن أوراق حقيبة عمر المختار في لحظة أسره وكذلك تلك الّتي ضبطت في حوزة مراسل الثّوار الّذي قتل في ٢٧ سبتمبر ١٩٣١ في (وادي المعاطن) كلّها تلقي الضّوء على المرحلة الأخيرة من المقاومة. فعلى سبيل المثال في ٢٢ أغسطس

---

(١) غرسياني، مصدر سبقت الإشارة إليه، ص٢٣٣.

(٢) جميع هذه الرّسائل موجودة الآن بمحفوظات وزارة الشّؤون الخارجيّة ١٩٣١ /ب /١ ملف رقم ٥ ترتيب ٣/١ رسالة في ٥سبتمبر ١٩٣١ موجّهة إلى وزير المستعمرات.

١٩٣١ كتب عمر المختار موضّحًا إلى أحد أمراء الأسرة المصريّة الحاكمة عن (الفظائع والبطش الّذي يتعرّض له المستضعفون من إخوانكم المسلمين في ليبيا. والمحن التي لحقت بالرجال والأطفال والنّساء والأرزاق وكيف يعيش مجتمع مسلم منذ أكثر من عشرين سنة تحت وطأة الجوع والحرمان من ضرورات الحياة ولا أحد يسمع استغاثته أو يهبّ لنجدته إلاّ اللّه وذوي الغيرة على الإسلام وزعماء الأمة المصريّة ومشائخ العرب في مصر الّذين يذودون عن حياض الإسلام). وفي رسالة أخرى موجّهة إلى شخص يدعى (الوريدي) يعبّر عمر المختار بصراحة عن الألم والحسرة الّتي يحسّ بها بسبب قلّة التّضامن والنّصرة للقضيّة البرقاوية قائلًا: «لقد أبلغتموني بأنّ بعض النّاس الذين وصلوا إلى هناك (مصر) مغتمّون على ما ألمّ بنا في هذا الزّمان ولكنّ الغمّة والحسرة أقلّ بكثير من أن تعبّر عمّا وصلت إليه أحوالنا فمن يطّلع على ما نحن فيه حريّ به أن يبكي لأنّ أوضاعًا على هذه الدّرجة من السّوء لم تحدث للبشريّة في أي زمن».

وضدّ أولئك الّذين تصدّقوا عليه ببعض الأرادب من الفول السّوداني ضجّ صائحا: «إنّ حاجتنا لا تقضى بالفول السّوداني وما شابهه، وإنّما بالمؤن الّتي يحتاجها هؤلاء المجاهدون الجوعى الّذين يحملون السّلاح ليلًا نهارًا».

وفي نفس اليوم ثمّة رسالة أخرى إلى أحد الزّعماء السّنوسيين يبيّن فيها: (أنّ أجأر بالشّك ولا أراه نقيصة وإنّما من الواجب أن أبيّن حقيقة ما نحن فيه من محن لم تمر مثلها على بني الإنسان منذ دهور، كلّ ذلك نكابده من أجل الإسلام وتقرّبًا لنبيّنا محمّد صلى اللّه عليه وسلّم، غير أنّ آلامنا قد وصلت ذروتها وقد قمنا بواجبنا وأكثر ومن واجب الآخرين اليوم تحمّل ولو نزر يسير منه حتّى لو أدّى ذلك إلى بيع مقتنياتهم، وعذرُ المجتهد شفيع لغلبته).

وفي رسالة أخرى إلى زعيمين من الجبل ذكّرهما فيها بأرجوزة شعبيّة تقول: (من سوء طالعك أن تكون تحت رحمة عبدك) ولكن لا بأس فهذا قدرنا وإيماننا لا زال قويا وأملنا لا زال كبيرًا).

المعاناة الّتي حفّت بالمقاومة وبـ(عمر المختار) ورجاله تبدو جليّة من شهادات تبدو مهمّة لأشخاص قد التقوا (عمر المختار) غداة سقوط واحة الكفره وهي شهادة (محمد أسد) الّذي كتب في مذكّراته واصفًا إحدى مهامه الّتي قام بها في الجبل الأخضر وكان هذا الرّجل هو المبعوث الشّخصي لزعيم السّنوسيّة وقد التقى (عمر المختار) بعد صعوبات جمّة وتنقّلات مختلفة بسبب المخاطر الّتي كانت محدقة به من القوّات الإيطاليّة، فقال إنّ (عمر المختار) أسرّ إليه بأخبار حزينة ولكن ما كان يبدو عليه أي نوع من الرّيبة والشّك في مواصلة الكفاح ويقول: (كانت نبرات صوته عميقة في جديّتها خالية من أي تذمّر أو إحباط، وعندما تحدّث عن طول مسيرته في النّضال من أجل الحريّة كان يعلم أن لا مناص في اختتامها بالشّهادة ولم تكن تقلقه فكرة الموت كما أنّه لم يكن يسعى للموت ولكنّه لم يكن يخشاه، وأنا على يقين بأنّه حتى لو كان يعلم أي نوع من الموت في انتظاره ما كان سيحاول تلافيه، كان يدرك في كلّ ما يفعل وبكلّ جوارحه أن قدر الإنسان محتوم مهما فعل وأينما يمّم وجهه)[١].

وكما سلف فإنّه يبدو واضحًا منذ أوائل شهر سبتمبر أنّ أحوال المقاومة في الجبل أصبحت ميؤوسًا منها نتيجة للجوع ونقص الذّخيرة وأنانيّة السّنوسيين في مصر وكذلك نتيجة لشدّة القمع العسكريّ الإيطاليّ

(١) محمد أسد، الطّريق إلى مكّة، باريس، ١٩٧٩، ص٣٠٩. وهذا الكتاب يضمّ مذكّرات النّمساوي ليوبولد فيس الّذي اعتنق الإسلام وكان منغمسًا في كلّ المسائل العربيّة في تلك الحقبة.

وسياج الأسلاك الشّائكة على الحدود والطّيران الّذي يراقب كلّ شيء. في هذا الإطار كان لِنبأ أسر عمر المختار في صباح يوم ١١ سبتمبر في منطقة (سلنطة) وقع الصّاعقة وطعم آخر للأنباء الجسام الّتي سبقت نهاية المقاومة في برقه.

أمّا الأسباب الّتي أدّت إلى أسر زعيم المقاومة فهي بسيطة في فهم عناصرها وتواتر مراحلها، ورغم التّنقيب في المحفوظات الإيطاليّة لم نعثر على معلومات جوهريّة في تأكيد بعض الشّائعات الّتي تدّعي تعرّضه للخيانة من أحد زعماء القبائل يدعى (حمروش).

وبناء على ذلك يتوجّب الرّجوع إلى التّقرير الكامل الّذي ضمّنه الجنرال (غرسياني) إلى الملف السّريّ والّذي يختزل علاقات كلّ الوحدات الّتي استخدمت في هذه العمليّة[1] في هذه الأضبورة من الوثائق لا يبدو العمل الاستخباراتي مختلفًا عن غيره من الوثائق المتعلّقة بأحداث أقلّ أهميّة وخطورة. لا يؤكّد (غرسياني) في مقدّمة تقريره فكرة الخيانة وإنّما يعزو الحدث للمباغتة الرّوتينيّة للعمليات فكتب: (في الأيّام الأولى من شهر سبتمبر كانت المعلومات الّتي بحوزتنا تفضي إلى أنّ (أدوار البراعصه والدرسه) احتشدت بمعيّة عمر المختار في جنوب مدينة البيضاء بهدف الإغارة على مواش بمنطقة (شحات) بعث آمر حامية (سلنطة) ببرقيّة صوتيّة يوم ٩ سبتمبر يصف فيها المشهد وكأنّه لقاء مصادفة فيقول: (في السّاعة ٢٤ وصل ثلاثة من الكشّافة من فرقة الشّباب كانوا قد توجّهوا إلى منطقة (بلقس) مساء يوم ٨ مع خمسة من الكشّافة الآخرين وكان خطّ سيرهم (قصور الصّخر تلغزه) (غوط المسلقون)

---

(١) تقارير حول الأحداث الّتي أسفرت عن أسر عمر المختار رسالة رقم ١٦٩٧٢، ١٨ مارس ١٩٣١ من غرسياني إلى دي بونو محفوظات وزارة إفريقيا الإيطاليّة ملف فولبي ترتيب ٢/٥.

بمحاذاة (معطن العروس) في منطقة (جيفاس) فشاهدوا حارسين للمتمرّدين وبقوا في (جيفاس) حتّى السّاعة ١٧ يتتبّعون التّحركات المشبوهة واستنتجوا وجود الأدوار ولكن بسبب طبيعة المنطقة وكثافة الأحراش وكثرة الكهوف لم يستطيعوا تقييم أعداد هذه الأدوار غير أنّهم استدلّوا على كثرتها بصهيل الخيل وأصوات الأطفال والنّساء فبقى في الموقع خمسة من الكشّافة لمراقبة تحرّكات الأدوار وعليه تزوّدنا بالإجراءات الواجب اتّخاذها من قبل الكشّافين في (سلنطة). ونتيجة لهذه المعلومات قرّر العقيد (مالطا) القيام بحصارهم من أربعة محاور متحرّكة تضمّ فصائل (رغاتسي/ سكوادروني/ بياتي/ ماروني) واللّجوء إلى سلاح الطّيران من قاعدتي بنغازي وسوسه والكتيبة الخامسة عشرة الإرتريّة والفصيل السّابع سفاري برقه مع مساعدة الآليات المصفّحة الكامنة في المنطقة، كان للطيّارات الثّلاث الّتي استخدمت الفضل في نجاح مناورة الالتفاف وقطع الطّريق على الثّوار في محاولتهم الهروب إلى الجنوب وانتهت الملاحقة القصيرة بصدام مسلّح في واد (أبو طاقه) حيث استطاع الفصيل السّابع بقيادة النّقيب بيرتي (Bertè) أن يقوم بالدّور الأكبر ألا وهو أسر عمر المختار. ويوضّح هذا التّقرير الدّقيق اللّحظات الأخيرة في هذا المشهد: (بعد السّاعة الثّامنة بقليل وعلى بعد ستّة أو سبعة كلم جنوب غرب (سلونطة) كانت المجموعة تبدو أقلّ تلاحما ممّا دفعني للاعتقاد بأنّهم يحاولون التّفرّق والاختباء في الغابة الكثيفة المجاورة، فأردى أحد أفراد السّفاري أحد الخيول فسقط الفارس على الأرض ثمّ هبّ واقفًا وحاول الابتعاد بخطى بطيئة متثاقلة، ولكنّ اثنين من السّفاري انقضّوا عليه من على صهوة خيلهم وقاموا بتجريده من السّلاح فلم يحاول المقاومة لأنّه كان يحمل البندقيّة خلف ظهره، حاول أحدهما قتله لكن أوقفه الآخر لأنّه تعرّف على شخصه بأنّه (عمر المختار) كما تعرّف على شخصيته أربعة من السّفاري الآخرين فأبلغت بذلك على الفور. وضعت

عمر المختار الّذي كان يعاني من جرح في الذّراع الأيسر على أحد جياد السّفاري وأطلقت نداء التّجمع حولي وأعطيت الأوامر بوقف الملاحقة ومن أولئك الجنود القلّة التي تجمعت قمت بإحاطة الأسير على شكل دائرة وانطلقت على جوادي إلى (سلونطة) الّتي بلغتها على السّاعة ٩).

ولدينا كذلك رواية أخرى من جهة الثّوار النّاجين الّذين أبلغوا القادة السّنوسيين في مصر بخبر أسر قائدهم ولم تكن مختلفة كثيرًا عن الرّواية الإيطاليّة: (السّيد عمر المختار في يوم الجمعة الموافق ١٢ سبتمبر ١٩٣١ بينما كان في طريقه إلى ضريح الصّحابي (سيدي رافع) بالقرب من زاوية البيضاء وبصحبته ستون فارسًا في حراسته، وبوصوله إلى منطقة تسمى (الجبوبيّة) وكانت بعيدة عن موقع الأدوار تناهى إلى مسامع الحكومة الإيطاليّة ذلك الخبر فقاموا بقطع الطّريق عليه بقوّة تقدر بـ٥٠٠٠ جندي بين مشاة وخيّالة وهاجموه ورفاقه، استمرّت المعركة حوالي ثماني ساعات شاركت فيها الطّائرات والدّبابات واستشهد خمسون فارسًا ممّن كانوا بمعيّة السّيد[1].

من كلّ هذه الوثائق وغيرها من نفس المصدر بما في ذلك الوثيقة الّتي أبّن بها عمر المختار والّتي سنتناولها فيما بعد لم تبرز أي مصداقيّة للإشاعات الّتي تحدّثت عن وقوع خيانة في وقوع معركة (وادي أبوطاقه) حالما تأكّدت صحّة الأخبار للحكومة الإيطاليّة بأسر الزّعيم السّنوسي اجتاحها من الذّهول لوقع هذا النّبأ الخطير، في بادئ الأمر أظهروا خشية بأنّ الأمر قد لا يكون صحيحا، ولكن بعد تأكّد صحّته لغرسياني من نائب حاكم مستعمرة برقه (موريتي) أصبحت تطفو على السّطح رغبة

---

(١) رسالة من اثنين من قائم مقام الثّوار إلى السّنوسي ١٤ سبتمبر ١٩٣١ وثيقة رقم ٦ من الرّسائل الّتي تمّ الإستحواذ عليها من المراسل محمد مؤمن بالقرب من واد المعطن يوم ٢٧ سبتمبر في محفوظات وزارة الخارجيّة ترتيب ١/٣.

عارمة في الانتقام وبمجرّد ما بلغ (بادوليو) الوزير دي بونو بموضوع الأسر حتىّ أظهر هذا الأخير الشّك في ذلك قائلاً: (لا أعتقد أنّ عمر المختار وصل به الغباء حتّى يقع في الأسر، يجب التّأكد بكلّ الوسائل لمعرفة هويّته وإذا كان هذا الخبر السّعيد حقيقيا فيستوجب مواصلة خططنا السّياسيّة والعسكريّة دون أي تغيير وعدم الثقة في أي شيء، اعطِ الأوامر الّتي تراها مناسبة في هذه الظّروف[1]، هذه البرقيّة المؤرّخة بيوم ١٢ سبتمبر كادت تختفي في لجج سيل البرقيات المتبادلة ذلك اليوم من بنغازي إلى طرابلس إلى روما حيث كان (غرسياني) يتأهّب لركوب القطار إلى باريس لحضور المعرض الاستعماريّ فألغى هذه الزّيارة وانقلب إلى بنغازي على وجه السّرعة عندما تأكّدت هويّة الأسير حتّى من نائب الحاكم الكومندون (داأودياشي) الّذي يعرف عمر المختار معرفة شخصيّة في عدّة مناسبات آخرها كان في لقاء المباحثات الّتي جرت سنة ١٩٢٩ في (سيدي رحومة).

أُخذ (عمر المختار) إلى ميناء سوسه ثمّ نقل إلى بنغازي على ظهر الطراد (أورسيني Orsini) وأودع السّجن وبدأ سيل البلاغات الّتي تفوح منها رائحة الانتصار تنهمر من مختلف الدّوائر الاستعماريّة منذ تلك اللّحظة ممهورة دائمًا بكلمة السّريّة. وصلت برقيّة من (مورتي Moretti) إلى (دي بونو) و(بادوليو) و(غرسياني) يؤكّد فيها أنّ (عمر المختار) يظهر الهدوء والاستسلام لقدره ويجيب على الأسئلة بكلّ وضوح[2].

---

(١) من دي بونو إلى بادوليو ١٢ سبتمبر ١٩٣١ محفوظات الدّولة المركزيّة ملف غرسياني ٢/٣.

(٢) البرقيّة ٢٠٥٨ يوم ١٢ سبتمير ١٩٣١ الّتي ستكون النّموذج الّذي سيصاغ عليه البلاغ الرّسمي ونشره في الصّحافة: (عمر المختار تمّ أسره جرّاء عمليّة نفّذتها قيادة الجبل تهدف إلى حصار دور أبلغ عنه في واد أبو طقة جنوب البيضاء كان يعتقد بأنّه يسعى إلى الإغارة على منطقة شحات سوسة هذه العمليّة تمت بنجاح كامل في حصار=

زار (غرسياني) (عمر المختار) في سجنه ببنغازي وكتب في مذكّراته ما دار بينهما. من هذا اللّقاء تتّضح صورة (عمر المختار) مهيبة في رباطة جأشها وحازمة في موقفها في مواجهة السّجان المنتصر عندما رفض أن يتدّخل لإقناع رفاقه الثّوار بالاستلام في الجبل قائلاً: «نحن أقسمنا على أن نستشهد جميعًا واحدًا تلو الآخر ولا نستسلم ولم أكن أنا بفاعل مثل هذا إطلاقًا».

بينما كانت مأساة (عمر المختار) تشرف على نهايتها كانت هذه النّهاية مدار جدل محموم بين السّلطات الفاشيّة في الطّريقة الّتي يجب أن تكون عليها هذه النّهاية.

إنّ خطّة العمل الّتي اقترحها الجنرال (بادوليو) على وزير المستعمرات (دي بونو) كانت مأساويّة رغم بساطتها فقد كتب: (إذا كان الشّخص الذّي تمّ أسره هو (عمر المختار) حقيقة فإنّني أرى من المناسب تقديمه إلى محكمة عاديّة على أن يكون الحكم دون أدنى شكّ هو الإعدام ويقع تنفيذه في أحد المعسكرات الكبرى للأهالي)[1].

قام (بادوليو) بإملاء التّوجيهات الدّقيقة إلى نائبه (غرسياني) بعد حصوله على موافقة الوزير (دي بونو) مبرقا: (أعقد محاكمة جنائيّة عاديّة على وجه السّرعة على أن تنتهي بحكم الإعدام حسب الأعراف المحليّة

=المتمرّدين وقد اندفعت الفرقة الرّابعة من السّفاري في تعقّب مجموعة من ٥٠ فارسًا أسفرت عن أسر الإخوان المذكور الّذي انفصل عن مجموعته وحاول الإختفاء في الغابة. وقد وصل إلى سوسه مساء الأمس وصرّح (دا أودياشي) الّذي كان يعرفه بأنّه يبدو عليه الهدوء والإذعان في مواجهة مصيره وكان يجيب بصوت جهوري على كلّ الأسئلة الّتي وجّهت له وخسر المتمرّدون في هذه العمليّة ١٢ قتيلاً و٤ بنادق وقتل ١٤ جوادًا وغنم ٧ أخرى بأسرجتها وكانت خسائرنا قتل جواد واحد وجريح)، محفوظات وزارة الخارجيّة.

(١) من بادوليو إلى دي بونو ١٢ سبتمبر محفوظات الدّولة المركزيّة مذكور آنفًا.

ثمّ نفذ هذا الحكم في أهمّ معسكر للأهالي المُعتقلين). وفي اليوم نفسه أصدر مكتب الحاكم العامّ من باب التّأكيد قرار الوزارة الممهور بالسّريّة القصوى يطلب فيه (قيام المحاكمة وتنفيذ الحكم غير القابل للنّقض أو الإبرام).

إذا كان هذا هو مفهوم المحاكمة الاعتياديّة الّذي يقضي بضرورة إصدار حكم الإعدام بشكل جليّ على عمر المختار فإنّ ذلك سيكون مدعاة للتّشكك والجدل في بطلانها خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساس الّذي بنيت عليه كامل القضيّة ومنذ الأيّام الأولى وكان في جوهره (تهمة الخيانة) أي الثّورة، الخيانة من وجهة النّظر الفاشيّة كانت نابعة من مخرجات اتّفاق (سيدي رحومة) والّذي يقضي بالاستسلام دون شروط والّذي وقّع عليه زعيم برقه وأنّ استئناف الحرب في سنة ١٩٣٠ هو الدّليل الأكثر وضوحًا على خيانة وغدر عمر المختار وغدره ويتجلّى ذلك في نقضه لما التزم ووقّع عليه مع الجنرال (بادوليو) ولكنّنا بتنا على بيّنة اليوم من أنّ مؤتمر (سيدي رحومة) ومصداقيّة الاستسلام المزعوم أضحت تكتنفها كثيرًا من الشّكوك، بل الأدهى فقد ثبت بالدّليل أنّ هذا الاتّفاق كان يستند فقط إلى تمسّك الدّعاية الفاشيّة بحقيقة حدوثه ودون أي سند أو دليل. من هذه الوقائع يتّضح تهافت الأسس الشّرعيّة الّتي قامت عليها هذه المحاكمة. وكان ممكنا أن تكون محاكمة ككلّ المحاكمات الّتي واجهت زعماء شمال إفريقيا والّتي تزخر بها حولياتها مثل محاكمة (عبد القادر الجزائري) وما بعدها والّتي كانت مغايرة تمامًا لما حدث لـ(عمر المختار). في تلك الظّروف كانت وجهة النّظر السّياسيّة المتعلّقة بالمقاومة قد أوحت للسلطات الفرنسيّة خيارات مختلفة عن الخيارات القانونيّة الّتي اتّخذتها السّلطات الإيطاليّة في مواجهة قضيّة (عمر المختار) كما يتحتّم علينا أن نذكّر في هذا السّياق التّغيرات الّتي طرأت على الموضوع في الأيّام القليلة الفاصلة بين الأسر والإعدام فقد

أبرزت الصّحافة الإيطاليّة الرّواية الشّائنة عن (عمر المختار) مذكرة بـ: (غدره ورياته الّذي تجلّى بأبشع صوره في خيانته الجبانة نظير التّساهل والكرم الّذي أبدته له حكومة المستعمرة عندما قدّم لها هو وأتباعه فروض الولاء والطّاعة)[1].

في حقيقة الأمر إنّ ما لدينا عن وقائع المحاكمة بعد أن رفعت عنها السّريّة أخيرًا، لم يذكر في جميع بنود الاتّهام شيء من هذا القبيل من بين السّت والعشرين جريمة قدّمت رسميا لاتّهام عمر المختار فلم نجد إشارة واحدة لهذه التّهمة وكان جميعها منصبّا على اتّهامات بسرقة المواشي والحرابة والعنف والغزو ضدّ الأشخاص المدنيين والعسكريين وبالقتل أو الشّروع فيه، أمّا عن خرق عهود واتّفاقات استسلام فلم يرد ذكرها بتاتا.

كانت هذه التّهم تمثّل في نظر كلّ سلطة من السّلطات الإيطاليّة فرصة لإظهار مدى نجاعة كلّ منها في المساهمة بتصفية زعيم الثّوار غير أنّ نهاية عمر المختار لم تكن مدعاة لوحدة هذه السّلطات بقدر ما أصبحت سببًا في شقاقها وتنافرها وتعقيد المشهد السّياسيّ للنّظام الفاشيّ في المستعمرة وخارجها. فحسب تسلسل الوقائع بعد الاستجواب الأوّل الّذي وقع على ظهر الطّراد (أورسيني) من قبل الحاكم (دا أودياشي) والّذي لم نجد له أي أثر وثائقي حتّى الآن، أعقبه التّحقيق الرّسمي لعمر المختار في سجن بنغازي من قبل قاضي التّحقيق (جوزبيي فارنشسكيني Giuseppe Franceschino) ومعاونه المحامي العسكري (جوزبيي بيدوندو Giuseppe Bedendo) ولم يجد المحقّقان أيّة صعوبة حيث تبنّى المتّهم كافّة الهجمات وكلّ الأعمال الحربيّة الّتي قادها ضدّ إيطاليا مدفوعًا

---

(١) تصريحات مشابهة تقرأ على جميع الصّحف الإيطاليّة وهذه الفقرة منقولة من صحيفة (الميساجيارو) من مقال معنون (أسر عمر المختار)، يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣١.

بحقده على إيطاليا لاحتلالها برقه، والأمر الأكثر إثارة في إجابات عمر المختار الّتي أدلى بها بكلّ ثقة وسكينة كان فيما يتعلّق بموضوع استئناف الأعمال العدائيّة بعد خرق معاهدة الرّجمة وما وصلت إليه محادثات سنة ١٩٢٩. ففي ما يتعلّق بخرق معاهدة الرّجمة قال في تأكيد حاسم: «لم أكن أنا من أعطى الأوامر لاستئناف الحرب وإنّما أرى أنّ الإيطاليين هم من فعلوا ذلك عندما أطلقوا النّار على جماعتنا الّذين ذهبوا إلى سحب المؤن بأمر من إدريس السّنوسي». أمّا عن لقاءات ١٩٢٩ فرواية عمر المختار تتّفق مع ما نعتبره اليوم الرّواية الأكثر قبولا حيث قال: «بالنّسبة لي حتى فيما يتعلّق بتوقف المحادثات سنة ١٩٢٩ تقع على عاتق الحكومة الإيطاليّة فقد كاتبت المارشال (بادوليو) وعندما لم أحصل على أي ردّ منه قرّرت استئناف الحرب». وإذا كانت تصريحات عمر المختار هذه بكلّ هذه الدّقة والتّفصيل يبقى لزاما علينا أن نتفحّص إجابته في التّحقيق الّذي وقع في سجن بنغازي في التّهم المتعلّقة بخيانته الّتي قال فيها: «لم أستسلم أو أخضع للحكومة الإيطاليّة أبدًا وإنّما أجريت معها محادثات فقط». كانت إفادة (عمر المختار) هذه مبنيّة على أسس متينة لا يمكن التّشكيك في صحّتها وقد تمّ الاعتراف بصدقتها وهذا ما يستنتج من مرافعة الإدّعاء العامّ الّذي لم يجادل في صحّتها فقط بل قفز عليها وتجاوزها عندما قال: (إنّ عمر المختار يحاول الاختباء وراء حجّة أنّه كتب إلى سعادة المارشال (بادوليو) ولم يحظَ بإجابة شافية، إنّ الحكومة الإيطاليّة لا يمكن أن تساوم على سيادتها أبدًا وأكثر ما يمكن أن تقوم به هو بعض التّعهدات، وسحقًا لأولئك الّذين لا يقدّرون هذه المبادرة حقّ قدرها).

عبثًا حاول المحامي المكلّف بالدّفاع عن (عمر المختار) النّقيب روبارتو لونتانو (Roberto Lontano) الّذي أخذ على محمل الجدّ هذه المهمّة أكثر ممّا كان يتوقّع رؤساؤه وذلك بإبرازه إفادة (عمر المختار) في

أنّه لم يتلق قطّ أي مرتّب من الحكومة الإيطاليّة في صلب مداولات المحكمة ولكن دون طائل. هذا التّصريح الرّسمي لعمر المختار لم يلق أي دحض من الادّعاء العامّ بالرّغم من أنّه يمثّل لبّ الاتّهام بالخيانة، هذا الاتهام الّذي لا يصمد أمام كلّ هذه القرائن إذا فحصناه بالتّحليل الرّصين والهادئ، غير أنّ هذا الهدوء والرّصانة ظلاّ بعيدين عن أجواء المحاكمة الّتي انعقدت في نفس اليوم عند السّاعة ١٧ في ١٥ سبتمبر في مبنى أليتوريو (del Littorio) محاطًا بكلّ مظاهر الفخامة والهيبة.

كانت هذه المحاكمة مهزلة مضحكة حيث استهلّها الادعاء (جوزيبي بيدوندو) بمداخلة لا لها علاقة بموضوع القضيّة وهو تصادف ذلك اليوم مع عيد ميلاد الأمير البيامونتي (Piemonte) وانتهز هذه الفرصة ليعبّر باسم الأهالي عن مشاعرهم وذلك بترديد الهتاف الحماسي (أللا لا) احتفاء بذلك الحدث.

ثمّة الكثير ممّا يمكن أن يقال حول معنى هذه المداخلة السّخيفة الّتي ضمّت ودوّنت في وثائق المحاكمة وكذلك موقف رئيس المحكمة المقدّم أومبارتو مارينوني (Umberto Marinoni) الّذي سمح بمثل هذه المبادرة الهزليّة أن تحدث في المحكمة من قبل المدّعي العام (بيدندو) الّذي أصبح البطل الحقيقي في مجريات المحاكمة باعتباره اليد الطّولى للجنرال (غرسياني) والّذي كتب بعدها أرجوزة باللّهجة الرّومانيّة يشيد فيها بالمحكمة ونهاية (عمر المختار)[١].

بعد هذه البداية استعرت أجواء المحكمة الّتي عقدت في مبنى برلمان المقاطعة الّذي نصّ عليه دستور ١٩١٤ وكانت تعجّ بالعسكريين

---

(١) هذا متعلق بكتاب بيدندو الشّهير بعنوان أمجاد وسياسة الجنرال غرسياني، روما، تشيزا، ١٩٣٦، ويلاحظ فيه وفرة النّعوت المهينة ضدّ عمر المختار حيث تمّ وصفه بالحيوان وموته وصف وكأنّه نفوق فأر.

الإيطاليين والمواطنين المستسلمين الّذين سيقوا إلى المحكمة من قبل سلطات المستعمرة ليعرفوا ويتيقنوا كما أشار المدّعي العام (بيدندو) بأنّ السّياسة القديمة قد غرب شمسها وأنّ مصير (عمر المختار) سوف يعطي المعنى لهذا التّحوّل الجديد في سياسة الإمبراطوريّة.

تحوّلت لائحة الاتّهام الرّسميّة الموجّهة للقائد السّنوسي على الفور إلى حملة تهكميّة من قبل المدّعي العامّ الّذي لم يهمل أي فرصة سانحة إلاّ وقام بتعنيف المتّهم. كانت مجريات المحاكمة تبدو واضحة في سيرها حسب الطّقوس المعتادة للإدانة بعقوبة الموت. مرّة واحدة فقط شاب هذه المسيرة المتواطئة نوع من التّعثر عندما قام محامي الدّفاع المكلّف النّقيب (لونتانو) بإثارة المشكل موضوع الخلاف في حقيقة عمليّة الاتّفاق على الاستسلام مع السّلطات الإيطاليّة ومن الإجابة يتّضح بطلان مزاعم أولئك الّذين يتمسّكون بفكرة (الخيانة). وباعتبار أنّ الاستسلام مرتبط مباشرة بالنّتيجة العمليّة وهي دفع مرتّب شهريّ يتقاضاه المستسلم وتقدّر قيمتها بحسب وضعه الاجتماعيّ، فعند سؤال (عمر المختار): (هل حدث أن تقاضيت مرتبًا من الحكومة الإيطاليّة أجاب: كلا أبدا) هذه الإجابة الّتي لم يدحضها الاتّهام أصبحت حاسمة في مجريات القضيّة برمّتها ومنذ تلك اللّحظة أصبحت تلك المحاكمة مبنيّة على الخداع وأنّها فضيحة مزلزلة سيذكرها التّاريخ لذلك وجب قراءة مرافعة الاتّهام كوثيقة تبرز (الرّوح الاستعماريّة) الفاشيّة الّتي أضحت منذ عشر سنوات قبلها أي منذ الزّحف الفاشيّ على روما الكتاب المقدّس في الأراضي الإيطاليّة ما وراء البحار خاصّة فيما يتعلّق بالتّحقير الممنهج للعدوّ المغلوب في محاكمة اعتبرت خاتمة لذيوع صيت هذا البطل الأسطوريّ الّذي يستطيع دومًا الإفلات من أعدائه في لحظة الخطر. فقام الادّعاء بسبّه: (أنت لست مقاتلا وإنّما مجرم هارب من وجه العدالة) ثم يتلوه بالتّهكم والاستخفاف (أنت ذكرت بأنّ سبب القبض عليك هو

تخلّي اللّه عنك هذه المرّة، إذا تخلّى عنك اللّه فقد وقعت في عدالة البشر)[١].

مجمل المحاكمة كان يتمثّل في مرافعة الاتّهام أحاديّة الجانب والّتي طغت على كلّ مجرياتها في أجواء من الاستسلام إذا استثنينا دفوعات محامي الدّفاع السّيد (لونتانو) الّذي طلب تطبيق الظروف المخفّفة وأخذ سنّ المتّهم وحماسته الدينيّة بعين الاعتبار. ولكنّ هذا المحامي المكلّف لم يخفق فقط في درء الحكم بالإعدام على المتّهم وإنّما طالته هو نفسه يد العقاب لأنّه قد اتّهم لاحقًا من السّلطات الفاشيّة بأنّه أظهر إخلاصًا حقيقيًا في الدّفاع وقد تجلّى ذلك في نبرته الاعتذاريّة دون مراعاة لما تمثّله شخصيّة المتّهم والمكان والأجواء الّتي حدثت فيها هذه المحاكمة[٢].

في ظروف كهذه فإنّ عقوبة الإعدام الّتي صدرت بعد نصف ساعة فقط من المداولات كانت النّتيجة المنطقيّة لإسدال السّتار عن واقعة قضائيّة افتقرت إلى العدالة وبعد النّظر، وجاءت ردّة فعل المدان بعدم الاكتراث الّتي أبداها عندما ترجم له منطوق الحكم بترديده: (إنّا لله وّإنا إليه راجعون) مخيّبة لآمال السّلطات الإيطاليّة الّتي توقّعت ردّة فعل مختلفة، وحتّى الاستعجال في تنفيذ هذا الحكم كان ذا مغزى فبعد أن فقد الأمل في حدوث مشهد اليأس والنّدم العلني من المحكوم عليه

---

(١) لا أعتقد أنّ عمر المختار كرجل مسلم ومتديّن يقول عبارة تخلى عني الله وإنّما قد تكون خطأ في الترجمة لكلمة هذه مشيئة الله أو ما أصابك من مصيبة فبإذن الله أو شيء من هذا القبيل.

(٢) معاقبة النّقيب لونتانو كانت ١٠ أيّام من الحبس المشدّد كما يتّضح من منشور غرسياني الّذي لم يذكر اسمه ولكن بمجموعة من القرائن المصاحبة يمكن أن نجزم بأنه هو من كان المقصود بذلك. المحفوظات المركزيّة للدّولة ملف غرسياني ١/١١/٦.

سارعت السّلطات الإيطاليّة بتنفيذ الإعدام من استغلال هذا الحدث في جوقة الدّعاية للنّظام .

أمام عشرين ألفًا من مهجّري الجبل حُشدوا في معسكر الاعتقال بمدينة (سلوق) سيق عمر المختار إلى المشنقة ونفّذ فيه الحكم السّاعة التّاسعة يوم ١٦ سبتمبر، وقد وصف هذا المشهد (غرسياني) نفسه في تلك اللّحظات الرّهيبة قائلاً: «كان (عمر المختار) يظهر وقارًا وهيبة ورباطة جأش». هكذا انتهت هذه القضيّة الّتي لم تتورّع السّلطات الفاشيّة في تكريس القسوة والعنف فيها ضدّ خصمها، ولم تحفل هذه السّلطات لا بنداءات الرّحمة واحتذاء ما فعلته السّلطات الفرنسيّة ضدّ الزّعماء المهزومين مثل (عبد القادر الجزائري) و(عبد الكريم الخطابي) ولا بالنّظر إلى الفوائد السّياسيّة الّتي كان يمكن أن تجنيها في سياساتها العربيّة الّتي أعلن عنها (موسوليني) إذا لم تحوّل (عمر المختار) إلى شهيد الأمّة اللّيبيّة والّتي ألقت بظلالها على مجمل العلاقات العربيّة الإيطاليّة ردحًا من الزّمن.

صحيح أنّ نهاية (عمر المختار) أفقدت المقاومة زعيما يعتبر دون شك جوهريًا للحركة كلّها وأنّ موته قد يخلق لها صعوبة في تماسكها ولكنّ ذلك لم يخمدها بالكامل وصحيح أيضًا أنّ إعدامه لم يفد التّناغم السّياسي بين السّلطات الفاشيّة وعلى الأخص بين الحاكم العام (بادوليو) ومساعده ذي الطّموح المزعج (غرسياني). فقد سمّم الارتياب المتبادل وانعدام الثّقة ومحاولة كلّ منهما تبنّي عمليّة تصفية زعيم المقاومة العلاقة بين هذين القياديّين على رأس الاستعمار الفاشيّ وجعلهما في حالة تشكّك دائم الواحد نحو الآخر. فتكتّم (غرسياني) المستمرّ وتحفّظه عن الإفصاح بنواياه ومراقبة سلوكه من قبل رئيسه المباشر ظهر بشكل جليّ حتّى في مناسبة إعدام (عمر المختار) حيث بعث (غرسياني) بتقرير عن هذه الحادثة مباشرة إلى وزير المستعمرات (دي بونو) وكأنّه بهذا

التّصرف أراد أن يظهر استقلاليته الّتي تقف سلطة طرابلس عائقًا لها ويبرز ذلك حتّى من لغة هذه البرقيّة الّتي بعث بها نائب الحاكم: (سوف تبدأ حياة جديدة في برقة بكلّ تأكيد مفعمة بالأمل في السّلام بعد اختفاء عمر المختار) ولم يكن لهذه التّصرّفات أن تخمد الأحقاد القديمة الّتي تحوّلت إلى مشاحنات تضجّ بها وثائق المحفوظات في كافّة صورها وأزمانها[1] وحتّى من خلال تفحّص مراسلات السّفير الإيطالي في القاهرة (روبارتو).

(كانتالوبو) نرى أنّ غرسياني يعزو الانتصارات فقط لعملياته العسكريّة وينحو باللاّئمة على الدّيبلوماسيّة الّتي لم تقدّم في رأيه أي مساندة في مشكلة تهريب المؤونة من السّنوسيين في مصر ومن ثمّ فمساهمتها في المجهود الحربي قليلة وموضوع شكّ، وفي هذا الإطار يمكن أن نضع التّقرير الّذي أبرقه العقيد (مالطا) حول عمليّة (وادي أبوطاقه) الّذي عزى ما تحقّق من انتصار فقط للعمليات العسكريّة وإلى عبقريّة الإرشادات المطبّقة (يقصد بها إرشادات غرسياني) ويكفي أن نقرأ نصّها: (لقد تطابقت عمليات وادي أبو طاقه مع التّعليمات المكرّسة من هذه القيادة وهو طرد فرسان المتمرّدين إلى المواقع الّتي يمكن للسّرايا المسلحة التّعامل معهم قف إذا كانت النّجاحات الّتي أحرزتها هذه السّرايا في زحفها السّاحق بسبب قربها من العدوّ إلاّ أنّ جميع الوحدات المسلّحة مع سلاح الطّيران الّذي ساهم بفاعليّة في العمليّة قف أتوجّه بآيات الثّناء والعرفان إلى ٢٢ إرتري الّذين في زحفهم المظفور استطاعوا التّدخل في منطقة العبيد وإلى مجموعة (بياتي) و(رغاتسي) الّذين ساهموا بفاعليّة في توفير المعلومات بتحركاتهم السّابقة لتحديد موقع الأدوار وإلى جميع الفرق الرّاجلة والفرسان وإلى قادتهم الرّائعين الّذين استطاعوا أخيرًا

---

(١) برقيّة رقم ٢٠٩٨ من غرسياني إلى دي بونو في محفوظات وزارة الخارجيّة يوم ١٦/ ٠٩/١٩٣١.

بعملهم الدّؤوب أن يقبضوا على زعيم المتمرّدين قف إليهم جميعًا امتناني الحارّ وامتنان قيادة القوّات المسلحة والحكومة[1].

يمكن العثور على الاهتمام المشابه لهذه الحالات في مذكّرات غرسياني المشبعة بالإشارات إلى مكاتباته وتوجيهاته وتجاهل ما فعله المارشال (بادوليو) أو قيادة طرابلس بشكل عام من أجل إنهاء التّمرد.

لم يكن مجديا ما حاوله (بادوليو) لاحقًا في تحديد المهام في الأمر المشهور بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٣٢ : (أعلن أنّ التّمرد البرقاوي قد اجتثّ بشكل كامل ونهائي) وحدّد المسؤوليات والأفضال وخصّ (غرسياني) بأنّه الرّجل الّذي يجب أن يعترف له بكلّ ذلك: (لأنّه باتّباع التّعليمات الّتي أصدرناها له بكلّ ذكاء وحيويّة وديمومة استطاع أخيرًا أن ينجح في المهمّة الّتي أنيطت به) الدّور الّذي أسند إلى (غرسياني) في هذه الكلمات لم يكن الدّور الّذي كان يطمح له وتكرّر نفس الموضوع بمناسبة الجدل الّذي أثير من السّفير كانتالوبو (Cantalupo) بسبب منشور القيادة العسكريّة العليا لبرقه وتمّ وتوزيعه في الأشهر الأولى من سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «السّور الحديديّ». في هذا المنشور الّذي تناولت فيه القيادة العسكريّة قصّة هزيمة التّمرد وانتشار السّلام الفاشي في برقه صنّفت في قائمة في قائمة التّسلسل الزّمني المنطقي للإجراءات الّتي اتّخذت حتّى قضت على التّمرد بشكل نهائي وهي :

- تهجير الأهالي من مواطنهم وزجّهم في معسكرات على ضفاف البحر ووضعهم تحت رقابة شديدة وناجعة.
- تجريد الأهالي الكامل من السّلاح.
- إغلاق الحدود مع مصر.

---

(١) برقيّة لاسلكيّة ١٤٣٢٢ في ١٤ سبتمبر ١٩٣١ من قائد قوّات الجبل العقيد (مالطا)، محفوظات وزارة الخارجيّة المذكورة سابقًا.

في العام الثّالث وهو إغلاق الحدود مع مصر لحرمان المتمرّدين من إمدادات السّلاح والغذاء ووضع هذا الإجراء في ذيل قائمة العناصر الّتي قادت إلى النّصر هو ما استند عليه (كانتالوبو) سفير إيطاليا في مصر نقطة الإرتكاز لشنّ انتقاداته على هذا المنشور فكتب: (الحقيقة هي أنّ من سبقوني وسبقوا (غرسياني) في المناصب الّتي تقلّدناها في القاهرة وبرقه تحملّوا على مضض عمليات التّهريب المكثّفة من وإلى مصر دون أيّة عوائق حتّى عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩، ولكنّ عصابات التّهريب بدأت تتناقص تدريجيًا حتّى تلاشت بفضل التّدابير الجديدة وحتّى قبل إنشاء سور الأسلاك الشّائكة والّتي تمثّلت بفرض المراقبة المشدّدة على الحدود مسنودة بقوات إرتريّة متحرّكة وطائرات مراقبة وإنشاء مركز (وادي مرّي) الحدودي، كلّ هذه الإجراءات الّتي اتّخذها الجنرال (غرسياني) كانت مدعومة من عملي الدّؤوب الّذي قمت به لدى السّلطات الإنجليزيّة والمصريّة من أوّل لحظة لوصولي إلى هنا، في تلك الفترة شهدت برقه تناقصًا كمّيًا في حركة التّهريب المصريّة حتّى تمّ القضاء عليها نهائيا، أيّ زعم آخر هو ادّعاء لقلب الحقائق وتشويهها، ليس هذا فقط بل فعل مثل هذا من شأنه أن يبخس قيمة العمل الدّيبلوماسي الإيطاليّ ويبخس حتّى كلّ هذا العمل الّذي قام به (غرسياني) نفسه والّذي انتصر بفضل المجهود العسكريّ والسّياسيّ المعقّد والمميّز في آن هذا هو سبب الانتصار الحقيقيّ وليس إقامة سور الأسلاك الشّائكة على الحدود).

واسترسل السّفير (كانتالوبو) موضّحًا أنّه من الواجب التّذكير بالعمل الديبلوماسيّ في مصر الّذي ساهم بشكل مباشر في تحقيق الانتصار: (تأكيد الجنرال (غرسياني) بأنّ تسليح المتمرّدين كان يتألّف في غالبيّته من بنادق عاديّة وبنادق موسكاتي ٩١ وأنّ حصولهم على الذّخائر كان متأتيا من المستسلمين الّذين يتدبّرون الحصول عليها من العساكر اللّيبيّة والمجموعات المسلّحة غير النّظاميّة فإنّه قد أصاب كبد الحقيقة، هذا

الجزم يثبت فقط الفاعليّة الحاسمة للإجراءات الّتي اتّخذت لنزع السّلاح الكامل وتهجير كافّة القبائل واعتقالهم على شواطئ البحر، كلّ تلك التّدابير يحقّ لك أن تعزوها لنفسك وإنّ المتمرّدين الّذين هاجروا إلى مصر هم أفضل من يقيّم الأسباب الحقيقيّة الّتي أدّت إلى القضاء على الأدوار، فهم يجمِعون على أنّ المسلّحين السّنوسيين تحت قيادة (عمر المختار) قد أدركوا نهايتهم عندما أصبحوا معزولين بالكامل في أعالي الجبل محرومين من إمكانيّة المناورة والإسناد التي كانت توفّره لهم (القبائل الّتي تدّعي استسلامها) وتؤمّن لهم الغذاء والمأوى. لهذه الأسباب سقط (عمر المختار) في الكمين ودخلت الثّورة في احتضار استغرق أشهرًا قليلة قبل أن تلفظ أنفاسها، فليس بغياب الإسناد الخارجيّ تحقّقت هذه النّتيجة وإنّما بفعل تدمير القاعدة الدّاخليّة للتّمرد)، ثمّ استطرد السّفير (لا أستطيع الرّكون إلى الصّمت أمام تأكيدات جازمة مجافية للحقائق على أرض الواقع بعد الفحص والتّدقيق نشر هذه الادّعاءات كتابيا لا يمكن ألاّ يحدث لها ذيوع في الخارج، فهي إلى جانب ما سِتثيره من ردود فعل سلبيّة على العلاقات مع دولة تميل اليوم بشكل أكثر جديّة للدّوران في فلك صداقتنا بالرّغم من أنّها كانت في السّابق تبدي تعاطفًا كبيرًا مع المسلّحين السّنوسيين فهي كذلك تسيء إلى سمعة أنشطتنا الدّيبلوماسيّة.

إنّ الجهود الّتي بذلتها الحكومة الفاشيّة في السّنتين الأخيرتين لإنهاء بؤر التّوتر في برقه كانت تستند إلى عاملين أساسيّين: الحملة العسكريّة مع الإجراءات الجذريّة في المستعمرة والنّشاط الديبلوماسيّ الجدّي المستمرّ هذان العاملان كانا متزامنين حتّى وإن أعطت نتائج حاسمة بمعايير مختلفة إلاّ أنّها كانت على نفس الدّرجة من النّجاح.

كممثل لوطني ومنفّذًا لسياسات وزارة الخارجيّة في مصر في هذا الموضوع ومواكبتنا بفعاليّة منذ اللّحظات الأولى لحملة الجنرال

(غرسياني) الحاسمة فإنّ من واجبي وحقّي أن أطلب من وزير المستعمرات عدم الجحود للجهود الّتي بذلت والإقلاع عن تضخيم المنجزات غير الحقيقيّة والّتي من شأنها أن تغبط حقّ سلكنا الدبلوماسيّ وتقلّل من هيبته.

لم يكن هذا الجدل بلا معنى وإنّما يدلّ على أنّ نهاية عمر المختار لم تحل كلّ المعضلات السّياسيّة لحكومة المستعمرة كما لم تحل فكرة معسكرات الاعتقال مشكلة تقبّل الوجود الإيطاليّ من قبل المواطنين الأصليين.

كانت ثمّة أصداء واسعة في الأوساط الدوليّة لحادثة شنق (عمر المختار)، ولكنّها لم تكن بدرجة تزعج الفاشيّة الاستعماريّة أو تجعلها تقلع عن سياسة العناد في تبرير تصفية (عمر المختار) (كمارق عن القانون).

لم تلق الرّواية الشّائنة والتّشهيريّة الّتي أذيعت صدى إلاّ في الصّحافة العربيّة لأنّ الصّحافة الأجنبيّة لم تول اهتمامًا كبيرًا وإنّما مساحات ضيّقة على صفحاتها للحادثة وربّما ساهم في ذلك جلب انتباه المحلّلين السّياسيين لأحداث أخرى في العالم ومن جهة أخرى تغلّبت رغبة الدّوليتين الاستعماريّتين فرنسا وبريطانيا في شمال إفريقيا في عدم إثارة أزمة قد تعصف بمستعمراتهما لذلك لم تنل قضيّة برقه إلاّ قليلاً من الاهتمام وبعد وقت قصير لفّ النّسيان (عمر المختار) أيضًا، ومهّدت هذه الظّروف مع تواطؤ الصّمت للسّلطات الفاشيّة مزيدًا من الغطرسة في معالجة القضيّة، فاستغلّ وزير المستعمرات الفرصة للتّهجم على الصّحافة في بعض البلدان العربيّة ويشدّد على ادّعائه: (إنّه على العالم الإسلامي أن يستفيق من خداع مجموعة من المشاغبين، فأُسم إيطاليا في حدّ ذاته ينطق عن حضارة موغلة في القدم وتعترف بها كلّ شعوب العالم ويحظى

بمباركة مليون مسلم في المساجد والمدارس والمحاكم الشّرعيّة والمستشفيات الّتي تدار منذ سنين من قبل حكومة سمحة وعدالة حكيمة منصوص عليها في لوائح وقوانين معلومة وواضحة للجميع، اسم إيطاليا لا يمكن أن يلطّخ من قبل عناصر لا تتعدّى المئات من قطّاع الطّرق والمتمرّدين على أيّ نظام أو شرائع سماويّة أو أرضيّة ويحاولون باسم اللّه تأجيل إنهاء هذه الحالة من الغموض واللّبس وإلى ما لا نهاية له لتحقيق مطامح شخصيّة في النّهب والاستغلال وارتكاب كلّ أنواع التّسلط والإجرام).

أمّا فيما يتعلّق بقضيّة القبض على (عمر المختار) وشنقه فإنّ وجهة نظر (دي بونو) تفيد أنّه أمر متعلّق بالنّظام العامّ وقد أدلى بذلك في أكثر من مناسبة: (في ١١ من سبتمبر قبض على (عمر المختار) متلبّسًا بحمل السّلاح في منطقة (شحات) من قبل قوات الحكومة الإيطاليّة وكان على رأس مجموعة صغيرة من أتباعه يتأهّبون لنصب كمين لقافلة تموين. حُوكِم (عمر المختار) أمام محكمة بنغازي الخاصّة وهي المحكمة وصاحبة الولاية في مثل هذه الجرائم الّتي أدين بها ومن بين هذه التّهم الرّئيسيّة تهمة الخيانة العظمى والتّمرد المسلّح ضدّ سلطة الدّولة وقتل ضبّاط إيطاليين (بياتي وهوبنار Beati e Hubner) قد وقعوا بين يديه، وقيامه بمذبحة في مركز شرطة (كرابينياري) في منطقة (قصر بن قدم) في نوفمبر ١٩٢٩ وهذه المجموعة الّتي قام بقتلها كانوا يعملون بإصلاح خطّ الهواتف واثقين من أنّهم في سلام بعد استسلام عمر المختار للحكومة الإيطاليّة قبل هذا التّاريخ بقليل، هذا إضافة إلى العديد من جرائم القتل الّتي أمر بها في حقّ مواطنين محلّيين كانت جريمتهم الوحيدة أنّهم لم يتّبعوا أوامره، إلى جانب العديد من عمليات النّهب والإغارة في حقّ القبائل المستسلمة، واستطرد وزير المستعمرات: (عمر المختار اعترف بكلّ الجرائم المنسوبة إليه ولم تكن عقوبة الإعدام إلاّ جزاء وفاقًا لسلسلة

الجرائم الخطيرة الّتي ارتكبها. وليس ثمّة أحد إن لم يكن سيء النيّة له أن يدعي بأنّ بلدًا في العالم سواء كان مسلما أو مسيحيا كان يمكن أن يتصرّف بشكل مغاير عمّا قامت به الحكومة الإيطاليّة أمام ظاهرة العبث بالسّلم الاجتماعيّ والتمرّد العارم على القانون بهذه الخطورة الّتي حدثت في برقه لفعل عمر المختار، القانون هو القانون والكلّ أمامه سواء. وعمر المختار كما أرادت مشيئة اللّه قد واجه قدره المحتوم)[١].

وفي الوقت نفسه استنفرت السّلطات الدينيّة الإسلاميّة في طرابلس لتصادق على السّياسة الفاشيّة وتوضّح أنّ كلّ التّهم الّتي سيقت ضدّ الفاشيّة بلا أساس وأنّ النّظام الّذي وضعته السّلطات الإيطاليّة في ليبيا يحترم بالكامل الإسلام والمؤمنين به[٢].

أمّا على المستوى المحلّي فإنّ تصفية القائد الأكثر أهميّة في المقاومة وعدم وجود من يخلفه على نفس الدّرجة من الكاريزما أوصل إلى إفراغ المقاومة، وشرّعت بوابة الهجرة أمام كلّ من لا يريد تقبّل الوجود العسكريّ الإيطاليّ متوقّعين وصول موجات المهاجرين الإيطاليين إلى الجبل الأخضر والّذي بلغت ذروتها بوصول ٢٠,٠٠٠ مهاجر فلم تكن مصر وحدها وجهة المهاجريين اللّيبيين ولكنّ أعدادًا كبيرة منهم قد توجّهت إلى تونس وسوريا ولبنان وتركيا والعراق وشرق الأردن.

لا زال تاريخ هؤلاء ينتظر من يكتبه ولكنّ الأمر البالغ الأهميّة أن نجد في هؤلاء جذوة الحماس الوطنيّ الّتي تأجّجت بعد يوم ١٠ يونيه ١٩٤٠

---

(١) بلاغ من وزير المستعمرات (دي بونو) ٢٠ أكتوبر ١٩٣١، ص١ و٣ و٤.

(٢) كان هذا بتوقيع قاضي طرابلس محمد بوخريص صدر بيان زعماء إقليم طرابلس المسلمين وقد وجد انتشارًا واسعًا في الصّحافة الإيطاليّة يومي ٢٩ و٣٠ أكتوبر ١٩٣١.

إنّ رسالتهم الوطنيّة ذات الأهميّة القصوى قبل أن يسدل ستار الصّمت النّسبي على نضالهم كان دون شك المنشور الّذي كتب في ذكرى استشهاد عمر المختار بعنوان (شهيد الأمّة العربيّة) ووزّع في يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣٢ والّذي ذكر فيه الأسباب الرّئيسيّة للمقاومة ويكاد يكون هذا المنشور الوصيّة السّياسيّة للزّعيم وحركته[١].

أمّا فيما يتعلّق بأولئك المهاجرين فقد ظلّت السّلطات الفاشيّة الإيطاليّة تمارس ضدّهم سياسة التّشدّد ولم تمنحهم أي سبيل مناسبة للعودة إذ كانت تتوخى عدم فتح العودة إلاّ في حدودها الدّنيا.

في ديسمبر ١٩٣٢ عشيّة البدء في توزيع الأراضي على المعمّرين الإيطاليين من خلال (مؤسّسة الإعمار الاستيطانيّة الفاشيّة) في الجبل الأخضر قام وزير المستعمرات بتضييق إمكانيّة عودة المهاجرين اللّيبيين إلى الحدّ الأدنى فقرّر أنّ القاعدة الأساسيّة لاستسلام المهاجرين العائدين تخضع للشّروط الآتية:

أ ـ الاستسلام يجب أن يكون مباشرًا وفرديًا ودون شروط.

ب ـ عدم إمكانيّة أن يمثّل أيّ أحد غيره أو حتّى مجرّد التّفكير في ذلك أو طلب إجراء محادثات، وإنّ أيّ مظهر يوهم العرب بأنّ ثمّة سلطة أخرى غير السّلطة الإيطاليّة سوف يكون مضرًّا وقاتلاً.

من الأفضل أن يكون لدى موظّفينا وقناصلنا وديبلوماسيّينا تعليمات مفصّلة ورسميّة حول هذه النّقاط. رجوع رعايانا إلى ليبيا له أهميّة خاصّة غير أنّ وزارتنا وكذلك حكومة طرابلس وعلى الأخصّ حكومة برقه يجب أن تفكّر مليًا في طريقة إعاشة هؤلاء لأنّ الموضوع الّذي لا يقبل

---

(١) انظر الملحق الثاني.

النّقاش ولا يمكن أن يفتح باب الحوار فيه هو إعادة الأموال المصادرة[1].

لم يضمن صمت الأغلبيّة وعنف البعض للحكومة الإيطاليّة استمراريّة الاستمتاع بانتصاراتها الاستعماريّة الّتي لم تدم أكثر من عشر سنوات رغم النّجاحات الاستثنائيّة اللاّحقة والمتمثّلة في إقامة الإمبراطوريّة بعد احتلال أثيوبيا.

لم تكن استمراريّة هذه الانتصارات وعلى الأخصّ في المناطق البرقاويّة تحظى بالدّيمومة، وربّما كان لكلمات (شكيب أرسلان) المؤثّرة في تأبين (عمر المختار) وقع البشرى والأمل في قلوب المغلوبين حيث كتب: (إنّ دم (عمر المختار) سوف يبقى وصمة عار على جبين إيطاليا وسيأتي اليوم الّذي سترى فيه أنّ انتصاراتها لا تثمر إلاّ الأوهام وستعلم أنّ المسلمين لم ينقرضوا وأنّ حقوقهم لم تضع هباء)[2].

---

(١) برقيّة رقم ٢٣٨٠٠٦ بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٣٢ مرسلة من وزارة الشّؤون الخارجيّة بإشارة من وزارة المستعمرات إلى البلاد الّتي لجأ إليها المهاجرون اللّيبيون دمشق، جدّة، بيروت، حلب، القدس، تونس، الجزائر، إزمير، أنقرة.

(٢) شكيب أرسلان، (عمر المختار) في جريدة الجهاد، بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٣١.

الملاحق

الملحق الأوّل

أوّلا: ملحق الوقائع السّريّة لمحكمة بنغازي يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١

١ ـ محكمة بنغازي الخاصّة (استجواب المتّهم)

إنّه في سنة ١٩٣١ الخامس عشر من شهر سبتمبر في بنغازي مكتب التّحقيقات للسّجون الإقليميّة.

أمامنا نحن دكتور (فرانشسكو جوزيببي) قاضي التّحقيق وبحضور وكيل النّيابة العامّة الممثلة في شخص المحامي العسكري الملكي الكافلياري الضّابط (بيدوندو جوزيببي)، بصفته قاضي تحقيق وبمساعدة كاتب المحكمة المدوّن أسفله مثل السّجين (عمر المختار) وعند سؤاله عن هويّته بواسطة التّرجمان السّيد فالينزا جيوفاني (Valenza Giovanni) ردّ بقوله:

ـ أنا (عمر المختار) وهذا هو اسمي ابن المرحومة عائشة بنت محارب عمري ٧٣ سنة مولود في (دفنه) قبيلة (المنفه) عائلة بريدان بيت فرحات، متزوّج ولي أولاد وأجيد القراءة والكتابة، ليست لي أي سوابق جنائيّة وأعمل كشيخ للزّاوية السّنوسيّة في (القصور).

بعد مواجهته بالتّهم المنسوبة إليه ردّ:

ـ أعلم بالتّهم الموجّهة إليّ في الجرائم المنصوص عليها في المادّتين ٢٨٤ و٢٨٥ من القانون الجنائيّ.

ـ جواب على سؤال: لم يحدث أنّني استسلمت للحكومة الإيطاليّة أبدًا ولم أجر معها غير محادثات فقط ولو حدث وعاضدني حسن الرّضا في المطالب لكنت مع الحكومة.

ـ جواب على سؤال: كنّا رئيسين (يقصد هو وحسن الرّضا) ولكن بعد حلّ (دور حسن) بقيت وحيدًا وكلّ الثّوار كانوا يطيعونني طاعة عمياء وتعتبر كلّ الأفعال الّتي قاموا بها كانت بأمري.

وبعد مواجهته بواقعة تعذيب أسرانا أجاب:

ـ (الحرب هي الحرب)

ـ جواب على سؤال: أنا لم أعط أبدًا أوامر لتشويه أجساد الأسرى فأنا قد رأيتهم دائمًا قتلى في الميدان ولم أشاهد التّمثيل بجثثهم.

ـ جواب على سؤال: لم أكن أنا من أعطى الأوامر لاستئناف القتال بعد معاهدة الرّجمه، لأنّني كنت بعيدًا، من وجهة نظري كان الإيطاليون هم من استأنف القتال باعتقالهم (صالح العوامي) وقاموا بإطلاق النّار على جماعاتنا في منطقة (مدور الزيتون) أثناء قيامهم بإحضار مواد تموينيّة بأمر من إدريس.

ـ جواب على سؤال: بالنّسبة إليّ قطع المباحثات سنة ١٩٢٩ كانت نتيجة لخطأ الحكومة الإيطاليّة لأنّها أثارت الشّقاق بيني وبين (الحسن الرّضا) الّذي نقلوه بعدها إلى مدينة بنغازي وقد كاتبت حتّى المارشال بادوليو في هذا الشّأن وعندما لم أحز على أي ردّ قرّرت استئناف القتال.

ـ جواب على سؤال: لقد شاركت في عدد من المعارك ولا أستطيع تحديدها.

ـ جواب على سؤال: أهالي المدن يكرهونني لأنّني جلبت لهم

الشّقاء وأنا بدوري أبادلهم نفس الشّعور لأنّهم لم يساهموا في نصرة دينهم الّذي تصديت له بمفردي.

ـ جواب على سؤال: لم أعط الأوامر لقتل حارس الحانوت العسكري في (القبه) ولكن المحافظيّة بدافع الجوع يسرقون ويقتلون بأمري ودون أمري.

ـ جواب على سؤال: الرّائد باسسي (Bassi) قتل في المعركة. وكلّ من شارك فيها كنّا سنقتله لو تمكّنا من ذلك، الحرب هي الحرب.

ـ جواب على سؤال: نعم لقد قمت بمنح رتب لضبّاط وقادة فقط لأولئك الّذين يتبعونني.

ـ جواب على سؤال: بما أنّ الفضيل بوعمر كان يتواجد في منطقة القبائل لذلك كان على معرفة بالجميع، ربّما هو من اقترح علي الحاجة لتعيين المستسلم (عمر أبو بكر) القبائلي شيخا لعائلة موسى.

ـ جواب على سؤال: كانت ثمّة علاقات بين الثّوار والمستسلمين وممكن أن يكون عمر نفسه من طلب تعيينه شيخا لعائلة موسى.

ـ جواب على سؤال: لا يوجد في الأدوار إيطاليون هربوا من الجيش غير (يوريو كارميني Iorio Carmine) المسمّى بيوسف المسلماني الّذي تمّت محاكمته في محكمة جالو العسكريّة، كان يوجد شخص باسم عمر المسلماني في جالو لا أعلم إذا كان هذا هو الرّجل الّذي تتحدّثون عنه أي عريف المدفعيّة، كما يوجد شخص ثالث لا أتذكّر اسمه ولا أعرف نهاية كلّ هؤلاء.

ـ جواب على سؤال: لقد شاركت في المعارك وإذا حدث أنّني لم أكن موجودًا في بعضها فإنها قد تمت بأمري.

ـ جواب على سؤال: في ما يتعلّق بالملازم الطيّار بياتي (Beati) فقد عهدت به إلى عبد الحميد العبّار لأنّه كان ميسورًا، غير أنّ تحرّكات

الحكومة الإيطاليّة بقوات كبيرة جعلتني لا أعلم ماذا فعل به (المحافظيّة) الّذين ما كانوا يفكّرون حتّى في سحب قتلاهم خصوصًا عندما تكون المعركة كبيرة وحامية الوطيس.

ـ جواب على سؤال: تقريبيًا مقاتلو الأدوار لا يصل تعدادهم الألف منهم أربعمائة فارس.

ـ جواب على سؤال: الملازم (بياتي) قتل في الوادي ولكن لا أعرف أين تمّ دفنه.

ـ جواب على سؤال: ربّما دفع بعض الإيطاليين (العشر) في ميناء (البردي) مثلما حدث في (المرج) ولكنّني لا أستطيع أن أحدّد من هم يقال إنّ المدنيّين الإيطاليين في المرج يدفعون الأعشار لحماية مواشيهم ولكنّني لا أعرف من هم، أمّا عن (عيسى الوكواك) فهو رئيس عصابة ولا علاقة لي بما كان يجبيه.

ـ جواب على سؤال: جابي الأعشار من مرؤوسي (القائم مقام) ويحاسبون من قبله وليسوا تحت إمرتي.

ـ جواب على سؤال: لقد سمعت بالغارة الّتي تعرّضت لها مزرعة (يونغ Iung) ولم أكن موجودًا في ذلك الوقت فقد كنت في أرض (العبيدات) ولذلك لا أعلم من ترأس هذه الغارة.

ـ جواب على سؤال: إنّني قد شاركت في غارات نهب وسلب ولكن لا أتذكرها.

ـ جواب على سؤال: لم تكن لنا أماكن معروفة نلجأ إليها فنحن نتنقّل بحكم الضرّورة في أوطان البراعصه والعبيد.

ـ جواب عن سؤال: للحصول على إعاشتنا فنحن إلى جانب الغارات نبعث بالإبل إلى مصر ونبيعها ومن ثمنها نشتري المواد الغذائيّة.

ـ جواب على سؤال: القادة الأكثر أهميّة تحت إمرتي هم (عبد

الحميد العبّار) قائم مقام دور العواقير، (عثمان الشّامي) قائم مقام وقائد دور البراعصه والدرسه و(القطيط موسى الحاسي)عضو قيادة الدور وقائد أدوار الحاسه والعبيدات و(أبو بكر زكري) قائد صفّي أنا.

ـ جواب على سؤال: أعترف بأنّني أسرت وفي يدي السّلاح يوم ٨ سبتمبر أمام زاوية البيضاء في سهل يسمّى (غوط الفو) بالقرب من (سلنطة) ولم أطلق أي طلقة من البندقيّة لأنّه تمّت محاصرتنا من قوّات الحكومة.

ـ جواب على سؤال: نعم أطلقت النّار في مناسبات أخرى وهل يعقل ألاّ أطلق النّار في المعركة.

ـ جواب على سؤال: لقد أصبت منذ سنتين في كتفي اليمنى بجرح أو بالأحرى في كتفي اليسرى نتيجة شظيّة من قنبلة طائرة.

ـ جواب على سؤال: ليس لدينا مدافع أو رشّاشات وتلك الّتي غنمناها أعطيت الأوامر بدفنها لأشخاص عارفين.بالمنطقة وحتّى أنا لا أعرف بالتّحديد.

ـ جواب على سؤال: (عبد القادر المصراتي) وأجهل اسم والده كان خبيرًا في المدفعيّة ولكن لا أعرف ماذا يفعل في مصر.

ـ جواب على سؤال: ابني (محمد صالح) عمره ١٣ سنة وهو يعيش مع العائلة في مصر.

ـ جواب على سؤال: لا أعلم ماذا سيحدث للأدوار إذا ما كانوا سيعيّنون شخصًا آخر مكاني ولا أعلم على من سيقع اختيارهم أو أنّهم سيختارون الهجرة إلى مصر.

ـ جواب على سؤال: لم تراودني قطّ فكرة الهجرة بالرّغم من إجراءات (غرسياني)، فقد آليت ومن معي على أنفسنا بأن نستشهد من أجل ديننا.

- جواب على سؤال: أستبعد وبشكل مطلق أن يكون بين الثّوار من يخالجه الشّعور بالاستسلام.

- جواب على سؤال: صحيح أنّني في أوقات سابقة قمت بعمل مضبطة ضدّ أولئك الّذين تراودهم فكرة التّخلي عنّا وكانت المضابط تحمل كذلك توقيعات زعماء آخرين، أمّا اليوم فالأمر قد اختلف فنحن مكشوفون ومن يريد اعتزالنا لا يصرّح لنا بذلك وإنّما ينسحب بسلاحه.

- جواب على سؤال: ليست لدينا ذخائر مخزّنة، المحافظيّة يتنازلون عنها أو يبيعونها لبعضهم وكثير ممّن أرشدهم دهاؤهم إلى تخزين كمّيات منها في الوقت المناسب.

- جواب على سؤال: ليس لدينا مخازن تموين في الكهوف.

- جواب على سؤال: أنفي أن يكون قد وصلتنا إمدادات عن طريق البحر كلّ الإمدادات كانت تصلنا من السّلوم.

- جواب على سؤال: عندما كانت النّجوع في مواطنها كنّا نحصل على المساعدات بطرق متعدّد من (المستسلمين) بما في ذلك دفع الأعشار والإيواء في الخيم والمعلومات حول مواقع القوّات.

- جواب على سؤال: لست نادما على مافعلت لأنّها إرادة اللّه.

- جواب على سؤال: لم أعد في اتّصال مع (إدريس).

بعد تلاوة التّرجمة تمّ التّوقيع على المحضر تحت (عمر المختار) توقيع بالعربيّة وتوقيع كلّ من:

فالينزا (Valenza)

فرانشيسكينو (Franceschino)

بيدوندو (Bebendo)

دكتور كريستوفانو إدواردو (Cristofano Edoardo) كاتب المحكمة

٢ ـ مضبطة كتبت بطريق الاختزال للمرافعة الّتي جرت ضدّ عمر المختار

افتتحت الجلسة فطلب وكيل النّيابة (بيديندو) الكلمة مذكّرًا بأنّ هذا اليوم يتوافق مع يوم عيد ميلاد الأمير بيومونتي (Piemonte) ويجزم بأنّه يعبّر عن أحاسيس الشّعب وطلب من الحضور الهتاف بشعار (أل لا لا أل لا لا) فوقف كلّ الحاضرين مِن حضر وبادية وصفّقوا طويلاً بعد رجوع الهدوء للجلسة وحلف اليمين القانونيّة من قبل المترجم السّيد رئيس المحكمة العقيد (مارينوني) (Marinoni) طلب من المتّهم الإفصاح عن هويّته فيقول المتّهم بأن اسمه عمر المختار وأنّ عمره ٧٤ ولد في الجغبوب وهو رئيس الأدوار. وسئل إن كان قد سبق وأن حكم عليه أو أنّه يعلم بأنّ ثمّة مذكّرات اعتقال قد صدرت في حقّه فأجاب بنفي كليهما.

بعد ذلك تلا كاتب الجلسة الملازم دي كروستوفانو (De Cristofano) صحيفة الاتّهام ودخلت الجلسة في صلب القضيّة.

ـ الرّئيس: هل حاربت؟ وضدّ من؟

ـ عمر المختار: حاربت الحكومة الإيطاليّة.

ـ الرّئيس: كم معركة اشتركت فيها.

ـ عمر المختار: كثيرة ولا أستطيع تحديدها وحتّى المعارك الّتي لم أشترك فيها كانت بأمري.

ـ الرّئيس: هل شاركت في إطلاق النار؟

ـ عمر: نعم وفي كثير من المرّات.

ـ الرّئيس: هل أعطيت إذنا بقتل الملازم بياتي؟

ـ عمر المختار: هذا الرّجل قد وقع في الأسر وعاش لبعض الوقت

في الأدوار وفي إحدى الأيّام بينما كنت غائبًا اقتربت القوّات الحكوميّة الإيطاليّة من الأدوار ولذلك قام المحافظيّة بقتله، الحرب هي الحرب ولكنّني لا أعرف أين دفن.

- الرّئيس: هل أعطيت الأوامر لقتل الأسرى؟

- عمر المختار: هذا الأمر لم أعطه مطلقا.

- الرّئيس: هل أعطيت الأوامر لقتل أولئك الأشخاص الّذين كانوا في مهمّة إصلاح خطوط الهاتف في قصر بن قدم مدشّنا بذلك العمل استئناف العلميات العدائيّة؟

- عمر المختار: نعم أعطيت الأمر بقتل هؤلاء وغيرهم.

- الرّئيس: حتّى قتل (الكرابانياري البوليس) الّذين كانوا يحرسونهم؟

- عمر المختار: الحرب هي الحرب.

- الرّئيس لماذا استأنفت الحرب؟

- عمر المختار: القطيعة كانت بسبب الخلاف بيني وبين الحسن الرّضا والّذي تدخّلت فيه أطراف أخرى من أجل إذكائه.

وعند هذا الحدّ تدخّل الادّعاء معبّرًا عن شكره للمترجم وما قدّمه من عمل ويبدو أنّ صوته الخفيض لا يمكنه أن يصل إلى مسامع الزّعماء العرب وكلّ الحاضرين الموجودين بالقاعة ومن سمات المحاكمات العسكريّة متابعتها من قبل الجمهور حتّى يقتنعوا بذنب المحاكمين من عدمه لذلك طلب الرّئيس استبداله بالكافالياري لومبروزو (Lumbroso).

الرّئيس استدعى الكافالياري (لومبروزو) وطلب منه القسم المتعارف عليه في المحاكم.

- الرّئيس: المحكمة تريد أن تعرف الأسباب الّتي أدّت إلى استئناف العمليات العدائيّة.

ـ عمر المختار: لأنّ الحكومة الإيطاليّة عملت على التّفريق بيني وبين سيدي الرّضا.

ـ الرّئيس: كان يمكنك انتظار الإجابة على رسالتك إلى المارشال بادوليو.

ـ عمر المختار: وصلني ردّه ولكنّه كان خاليا من أي مضمون.

ـ الرّئيس: ومن أنت؟

ـ عمر المختار: أنا ممثّل سيدي (أحمد الشّريف) ولكن الوثائق التّي تثبت ذلك قد فقدت.

ـ الرّئيس: هل قمت بترقية الضّباط والمحافظيّة.

ـ عمر المختار: نعم.

ـ الرّئيس: هل كنت دائمًا من يعطي الأمر بالقتال؟

ـ عمر المختار: في المعارك الأولى كان من يعطي الأوامر غيري ولكنّني أنا من أعطى الأوامر قبل المعاهدات بقليل وكلّ المعارك بعدها أنا القائد منذ عشر سنوات.

ـ الرّئيس: كيف تمّ القبض عليك؟

ـ عمر المختار: المعركة بدأت بالقرب من زاوية البيضاء وأصبت أنا فوقعت من جوادي الّذي قتل فأسرني جنود الحكومة.

ـ الرّئيس: هل أعلنت لهم عن اسمك؟

ـ عمر المختار: نعم على الفور.

ـ الرّئيس: هل كانت معك البندقيّة؟

ـ عمر المختار: كانت معي بندقيّتي وستّة مخازن رصاص.

ـ الرّئيس: هل قمت بغارات ونهب؟

ـ عمر المختار: نعم.

ـ الرّئيسّ هل أعطيت الأوامر بجباية الأعشار من المستسلمين؟

ـ عمر المختار: في البداية عندما كانت النّجوع في مواطنها نعم ولكن بعد تهجيرها لم يحدث.

تدخّل وكيل النّيابة أوّل أمس المحكمة العسكريّة الاستثنائيّة قد استدعت في مرسى البريقه عمر أبو بكر قبايل من عيلة موسى المستسلم لضبط بعض الوثائق في حوزته ويشرّفني أن أقدّم إحداها إليكم سيدي الرّئيس، من هذه الوثيقة يتبيّن أنّ(عمر أبو بكر) هذا قد عيّنه عمر المختار شيخا لعائلة موسى وأوكل إليه جباية الأعشار من خلال الوجهاء والقيام بالدّعاية للحركة السّنوسيّة. الوثيقة تحمل تاريخ ١٧ أبريل ١٩٣٠ أي بعد استئناف القتال وقد حملت توقيع وختم عمر المختار. تمّ تسليم الوثيقة للرّئيس الّذي طلب من المتّهم الإطّلاع عليها وسأله إن كانت صادرة منه.

ـ عمر المختار: في بادئ الأمر كانت القبائل تدفع العشر.

ـ قاطعه وكيل النّيابة: لا تخرج عن الموضوع. التّاريخ هل كان بعد العودة إلى حالة التّهدئة؟

ـ عمر المختار: قبيلة القبائل تتّبع الفضيل بوعمر.

ـ وكيل النّيابة: ولكن هذا هو توقيعك وختمك. وعمّ تتحدّث الوثيقة؟

ـ عمر المختار يقول بأنه لا يستطيع الكتابة ولكن يعترف بأنه بتوقيعه.

ـ وكيل النّيابة لا تستطيع قراءته هل هي مكتوبة باللّغة الإيطاليّة أو العربيّة أم لأنّ ليس لديك نظارات لأنّك فقدتها في إحدى المعارك الّتي حدثت منذ فترة قريبة عندما هربت وتجاسرت في طلبها من الحاكم.

وعندما طلب الرّئيس من المستشارين ووكيل النّيابة والمحامي إذا كان

لديهم أي سؤال للمتّهم وقف المحامي المكلّف النّقيب (لونتانو) ووجّه سؤالا للمتّهم.

ـ المحامي: هل تقاضيت مرتّبا يوما من الأيّام من الحكومة الإيطاليّة؟

ـ عمر المختار: لا أبدًا.

ـ المحامي: هل قاتلت الأتراك قبل الاحتلال الإيطاليّ؟

ـ عمر المختار: بعض المرّات؟

ـ المحامي: هل تربّيت في حضن السّنوسيّة؟

ـ عمر المختار: مذ كان عمري ١٦ سنة.

بعد انتهاء استجواب المتّهم أعطى الرّئيس الكلمة لوكيل النّيابة العقيد (بيداندو) الّذي بدأ مرافعته في القاعة الّتي سادها صمت رهيب.

مرافعة وكيل النّيابة

لقد كتب الجنرال (غرسياني) بتلك البصيرة النّافذة الّتي تتميّز بها مقدمة الكتاب الذّهبي الّذي جمع النّدوات الّتي أقيمت خلال إقامة صاحب السّعادة ليسون (Lesson) والصّحافيين في بنغازي هذا الكتاب الّذي وزّع مجّانا وأتمنى أن يكون الجميع قد اطّلع عليه قال فيه: (نرى في كلّ يوم يمرّ تلاشي هالة هذا البطل الأسطوري الّذي ديدنه الهروب في لحظات الخطر). إذا وقع اليوم القبض على عمر المختار فإنّ ذلك بفضل حصاره من قوّاتنا البطلة ونفوق جواده الّذي كان يسعى إلى امتطائه للهروب من المعمعة، وليس من المصادفة أن تعقد هذه المحاكمة في مبنى البرلمان العربيّ الّذي تحوّل إلى فاشيّة وكان هذا الاختيار من سعادته للتّدليل بوضوح وللجميع على أنّ السّياسات القديمة قد أفلت إلى غير رجعة. لقد قرّر سعادته أن تعقد المحكمة في هذا المكان حتّى يتسنى لأغلب سكّان المدن الإيطاليّة والسّكان الأصليين المشاركة في سماع

التّهم الموجّة لـ(عمر المختار) وأن يحكموا عليه بنزاهة ضمائرهم قبل نطق المحكمة بذلك. ثمّة أمور كثيرة يمكن أم تقال في حقّ (عمر المختار) ولكنّنا نريد أن نحصر القول فيما يتماشى مع قواعد العدالة وليس فيما تتطلّبه موجبات الفضول وروح الانتقام. لا يمكنني القول إنّ الحكومة الإيطاليّة قد تركت هؤلاء السّكان وحدهم في مواجهة مصيرهم، لقد حاولت مرارًا اقتناص الفرص لإيجاد التّفاهمات ولكنّ سوء نيّتكم كانت دومًا عائقًا لتحقيقها وما (البيّاضة) و(قصر بن قدم) إلاّ شواهد ساطعة على ذلك، وعبثا يحاول عمر المختار اليوم أن يختفي وراء حجّة أنه كاتب سعادة المارشال (بادوليو) وأنّه لم يتلق ردًّا مقنعًا وحاسمًا، الحكومة الإيطاليّة القويّة لا تقايض بسيادتها وأقصى ما يمكن أن تفعله هو إعطاء بعض من التّعهدات، فسحقًا لأولئك الّذين لا يقدّرون هذه المكرمة، لقد قلت إنّك تريد أن تعيش بكرامة على هذه الأرض ولكن هذا ما قد رفضته بتمرّدك على سيادة الدّولة الإيطاليّة، لقد أعطيت الأوامر لقتل أوتعذيب (رجال الكارابينياري) البوليس الّذين كانوا في حراسة من يصلحون خطوط الهاتف في (قصر بن قدم) وفي وقت سريان الهدنة بيننا. لقد قمت باستغلال فرصة وجود بعض الحاميات الصّغيرة لتباغتها وتقتل أفرادها، أنت لست مقاتلا وإنّما قاطع طريق عاش حياته متخفيا في الأحراش، المقاتل الحقيقي يقتل عدوّه في ميدان القتال وليس كما فعلت في التّنكيل بجنودنا والتّمثيل بجثث ضبّاطنا، لقد قتلت جرحانا ولم يعد إلينا أي أحد ممّن وقع بين يديك، لقد صرحت وعلى رؤوس الأشهاد بأنّك اشتركت في كلّ المعارك وحتّى تلك الّتي لم تشارك فيها أنت من أمر بها. لقد هاجم أتباعك قوّاتنا عندما كانت لهم الغلبة أمّا أنت فقد كنت تختفي هربًا كالغوغائيين في سابق الزّمان لمّا كانوا يحرّضون العّمال على الشّغب ويختفون حتّى لا ينالهم العقاب. وكونك كنت دائم الهرب بدليل تصريحك بأنّك قد جرحت في مرّة

سابقة بينما كنت تبتعد فأصابتك شظيّة من قنبلة من طيَرانِنا الباسل وهو الطّيران عينه الّذي وصفته بأنّه يفتش عنك في كهوفكم ووديانكم ويتبعونكم في اندحاركم. أنت كنت دائم الهرب والبرهان على ذلك نظّارتك وختمك الّذي وجدت في عين المكان الّذي حصلت فيه إحدى المعارك هذه النّظارة الّتي طلبتها هذا الصّباح بكلّ صفاقة خلال استجوابك.

لا أعتقد أنّه لازال لديك متّسع من الوقت للقراءة فقد أعطيت الأوامر لقتل الأسرى وعلى هذا الجرم سوف تحاسب لقد أعددت جماعتك لقتال القوّات الإيطاليّة الّتي لها وحدها حقّ السّيادة على المستعمرة وحاولت انتزاعها عن الوطن الأمّ وعلى هذه الجرائم سوف تتحمّل المسؤوليّة، لقد قمت بقطع الطّرق والإغارة وعلى هذه الجرائم وجب أن تحاسب.

(البيضاء) و(قصربن قدم) وريدوتا جيونا (RidottaGiona) ومحرّر العقود رانيوني (Rognoni) والرّائد باسيي (Bassi) والملازم بياتي (Beati) ورئيس العرفاء هوبنر (Hubner) وعشرات العشرات من الفظائع هذه هي أمجاد والتي ستدفع ثمنها بعد قليل.

قلت أنّك وقعت هذه المرّة لأنّ اللّه قد تخلّى عنك ولكن إن كان اللّه قد تخلّى عنك فقد أدركتك عدالة الإنسان. إنّها مشكلتك إذا لم تكن تشعر بتأنيب الضّمير لما اقترفت يداك وللحالة الّتي أوصلت لها سكّان هذه المنطقة.

أطلب من المحكمة بعد إثبات مسؤوليّة المتّهم عن الجرائم المنسوبة إليه أن تصدر ضدّه حكم الإدانة على الجرائم الخطيرة وهي امتشاق السّلاح لانتزاع هذه المستعمرة عن الوطن الأمّ وهي عقوبة الإعدام الّتي تجبّ بقيّة العقوبات عن الجرائم الأقلّ شأنًا.

قوبلت طلبات المدّعي العامّ بهمهمات الاستحسان من الحاضرين الّتي أخرسها رئيس المحكمة على الفور. أخذ الكلمة محامي الدّفاع فطلب من المحكمة أن تأخذ بعين الاعتبار سنّ المتّهم وحماسته الدينيّة وأن تستعمل في حقّه الظّروف العامّة المخفّفة.

ثمّ طلب من المتّهم إذا كانت له أقوال أخرى ليدلي بها ببراءته فكانت الإجابة بالنّفي.

المحكمة انسحبت إلى غرفة المداولات لتعود بعدها إلى القاعة بعد نصف ساعة ووسط سكون رهيب قرأ رئيس المحكمة الحكم الّذي أدان عمر المختار بالإعدام لثبات مسؤوليته عن الجرائم المنسوبة إليه.

عندما ترجم الحكم للمدان قال: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) وطلب وكيل النّيابة من الكارابانياري البوليس أن يرافقوا المتّهم خارج القاعة أمّا الجمهور فقد بدأ ينفضّ ببطء معلّقًا على الحكم بالاستحسان.

٣ ـ محضر المرافعات

إنّه في سنة ١٩٣١ السّنة التّاسعة من العهد الفاشي الخامس عشر من سبتمبر على السّاعة ١٧ في بنغازي بقصر أليتوريو (del Littorio) الّذي تحوّل إلى محكمة خاصّة للدّفاع عن الدّولة وكانت تضم السّادة:

١ ـ المقدّم كافالياري أمبورتو فانتيري مارينوني (Fanteri Marinoni) وهو الرّئيس بالوكالة في غياب الرّئيس الأصيل.

٢ ـ المحامي الدكتور رومانو فرانشيسكو (Romano Francesco) قاضي مقرّر.

٣ ـ الرّائد كومنداتوري دي ليتالاغوناريو (Delitala Gonario) قاضي أصيل.

٤ ـ السّيد كافاليري مانزوني جويفاني (Manzoni Giovanni) قاضي أصيل.

٥ ـ السّيد كافاليري ميندوليا ميكيلي (Mendolia Michele) قاضي أصيل.

الرّئيس الحالي ينوب عن الرّئيس الأصليّ لعذر شرعي وستناقش القضيّة المعروضة بمساعدة الملازم في سلاح المشاة كريستوفانو إدواردو (Cristofano Edoardo) كسكريتير عسكري ضدّ عمر المختار ابن عائشة محارب ٧٣ سنة من مواليد دفنه قبيلة المنفه عائلة بريدان بيت فرحات متزوّج وله أولاد يقرأ ويكتب ليست له سوابق جنائيّة وفي حالة اعتقال منذ يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١.

المتّهم

بجرائم منصوص عليها ولها عقوباتها في المواد ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ في الفقرات ٣ ـ ٦٢ والفقرات ٢ ـ ٤ ـ ٦ ـ ١٠ لأنّه ومنذ سنة ١٩١١ حتّى تاريخ اعتقاله يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ في جنوب منطقة سلنطة أثار وقاد التّمرد ضد السّطات الإيطاليّة على أراضي هذه المستعمرة وساهم في نصب الكمائن ضدّ الوحدات المعزولة من قوّاتنا ومعارك عديدة وإغارات ونهب، كما ارتكب جرائم القتل بدافع نزوته للقسوة والهمجيّة، وقام بالتّعذيب بشكل وحشيّ ضدّ الأشخاص، كلّ ذلك بهدف فصل المستعمرة عن الوطن الأم باستعمال التّخريب والمذابح.

سمح للجمهور دخول قاعة الجلسة، المتّهم يجلس على كرسي الاتّهام محروسًا من القوّات المسلّحة ومتحرّرًا من الأغلال.

حضر وكيل النّيابة في شخص السّيد كافالياري (جوزيبي بنديدو)

محامي عسكري وكذلك النّقيب في سلاح المدفعيّة روبارتو لونتانو المكلّف بالدّفاع.

أعلن الرّئيس افتتاح الجلسة وحضر المترجم السّيد (نصري هرمز) الّذي سأله الرّئيس عن هويّته فأجاب:

أنا نصري هرمز ابن المرحوم ميكيلي عمري ٥٣ عامًا مولود في ديار بكر (الهلال الخصيب) رئيس قسم التّرجمة في مكتب حكومة بريقة.

أمره الرّئيس بأداء القسم بعد أن نبّهه للمحاذير القانونيّة فردّد القسم بصوت جهوري (أقسم بأن أوضّح الأسئلة المطروحة على الشّخص المستجوب من خلالي بكلّ أمانة وأن أنقل بصدق ما يجيب عنه).

الرّئيس استجوب المتّهم من خلال المترجم عن هويّته وقد أجاب عنها كما هو موضّح أعلاه ونبّهه بأن يكون جيّد الإنصات لما سوف يسمع.

في تلك اللّحظة طلب وكيل النّيابة استبدال المترجم نصري لوعكة ألمّت به بالسّيد كافاليريلومبروزو (Lumbroso) ابن أرونيني (Aronne) وماريا غاندوس (Maria Gandus) المولود في تونس يوم ١٨٩١/٠٢/٢٧ ومهنته صناعي.

كلّفه الرّئيس بأداء اليمين بعد التّحذير المقرّر في القانون فقسم بصوت جهوري الصّيغة التّالية: (أقسم بأن أوضّح الأسئلة المطروحة على الشّخص المستجوب من خلالي بكل أمانة وأن أنقل بصدق ما يجيب به).

تلا السّكرتير صحيفة الاتّهام وقام المترجم بترجمتها للمتّهم. ثمّ قام السّكرتير بتلاوة الوثائق الخاصّة بإجراءات التّقاضي المتعلّقة بالدّعوة والمتضمّنة في الوقائع في الصّفحة الثّانية. وبعد قراءتها كلّف الرّئيس المترجم بترجمتها للمتّهم باعتباره لا يجيد اللّغة الإيطاليّة وبعدها بدأ في

استجوابه حول الأفعال المنسوبة إليه والرّد عليها ويقوم المترجم بترجمة هذه الرّدود.

ويحرّر في المحضر أنّ المتّهم قد ردّ بشكل متطابق مع ما أدلى به في محضر استجوابه المحرّر معترفًا بأنّه زعيم التّمرد في برقه وأنّه كان الفاعل والمحرّض لكلّ الجرائم الّتي ارتكبت على أراضي المستعمرة في العشر سنوات الأخيرة وهي الفترة الّتي كان فيها الزّعيم الحقيقي للتّمرد.

ـ جواب على سؤال: منذ عشر سنوات وأنا زعيم التّمرد وقد أثبت في المحضر ترديد المتّهم عن كلّ سؤال حول تهمة بعينها: لا فائدة من استجوابي على كلّ حادثة بعينها وعلى حده فكلّ ما حدث منذ عشر سنوات حتّى الآن ضدّ الحكومة الإيطاليّة والإيطاليين كان بإرادتي وبإذني عندما لا أكون مشتركًا شخصيًا في تلك الأفعال.

ـ جواب على سؤال: حتّى الغارات كانت بأوامري وبعضها قمت بها بنفسي.

السّيد الرّئيس يعطي الكلمة لوكيل النّيابة.

رئيس النّيابة أخذ الكلمة وحصر مطلبه في أن تحكم عدالة المحكمة بالإعدام على المتّهم بعد إثبات الجرائم المنسوبة إليه وما يترتّب عن هذا الحكم.

محامي الدّفاع من جهته اختتم مرافعته متضرّعًا إلى المحكمة باستعمال الرّحمة في مواجهة المتّهم.

وبعد أن أعطى رئيس المحكمة الكلمة الأخيرة للمتّهم. أعلن عن انتهاء المرافعة وانسحاب هيئة المحكمة لغرفة المداولات لإصدار الحكم.

بعد قليل عادت هيئة المحكمة إلى قاعة الجلسة وقام رئيس المحكمة بتلاوة الحكم بصوت جهوري وبحضور كلّ أطراف القضيّة وقام المترجم

بترجمة الحكم وقد حرّر كلّ ما تقدّم في هذه المضبطة وتمّ التّوقيع عليه من كاتب المحكمة إدواردو دي كروستوفانو (Edoardo Cristofano) والرّئيس المقدّم الكافاليري أمبرتو مارينوني (Umberto Marinoni).

٤ ـ ملحق صحيفة الاتّهام

ارتكب عمر المختار منذ سنة ١٩١٢ حتّى تاريخ القبض عليه في ١١ سبتمبر ١٩٣١ قيادة التّمرد في برقه ضدّ سلطات الدّولة الإيطاليّة وقد ساهم كذلك في نصب الكمائن ضدّ قوّاتنا ومقاتلتها خلال عمليات نهب وقتل فتمّ اتّهامه بالجرائم المنصوص عليها وعلى عقوباتها في المواد ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ ـ ٦٢ من القانون الجنائي في الأوقات والظّروف والأماكن الموضّحة فيما يلي:

١ ـ في اصطدام مسلّح قام به فصيل عسكري من الكافالياري ضدّ عصابة من المتمرّدين يوم ٢٠ فبراير ١٩١٤ بمنطقة (بوشريبة) (قمينس) قتل فيه ضابط صفّ وخمسة من (الضّابطيّة).

٢ ـ في صدام مسلّح قامت به حامية شحات ضدّ مجموعة كبيرة من المتمرّدين يوم ٢٥ مارس ١٩١٤ في منطقة يطلق عليها (الرديمه) بالقرب من شحات قتل فيها أحد الضّابطيّة وجرح أحد أفراد الكافاريري وفرد من الضّابطيّة.

٣ ـ صدام مسلّح قام به رتل بقيادة الرّائد الكافارياري روبارتو بونتي ضدّ مجموعة كبيرة من المتمرّدين يوم ١٥ أكتوبر ١٩١٤ بالقرب من (مستينه) الّذي قتل فيه عريف من الكارابانياري فيليبو بوماريري (Marri Filippo).

٤ ـ قيام مجموعة من المتمرّدين تقدّر بأربعمائة مسلّح بالهجوم على

مركز سلنطة يوم ٦ نوفمبر ١٩١٤ أسفرت عن مصرع البطل الملازم كيا بيني وأحد الضّابطيّة.

٥ ـ نصب كمين من مجموعة من المتمرّدين لسيّارة بريد كانت قادمة من (المرج) إلى (شحات) عن طريق (البيضاء) يوم ٢١ سبتمبر ١٩٢٢ قتل فيه اثنين من الكارابنياري وشخصين من المدنيين الإيطاليين أحدهم موظّف بريد وأحد العساكر ومواطن من السّكان المحلّيين وقد تجلّت وحشيّة المهاجمين في تشويه جثث القتلى.

٦ ـ الهجوم على فصيل من الكارابانياري والضّابطيّة مكلّف بحماية طريق (شحات مرسى سوسه) يوم ٢٩ أبريل ١٩٢٤ حيث لقوا مصرعهم وهم يؤدّون الواجب أربعة من العسكريين من بينهم ضابط صفّ وثلاثة جرحى.

٧ ـ قيام المتمرّدين بغارة نهب على ١٨٠٠رأس من المواشي من ملكيّة المواطنين المستسلمين في نواحي (سيدي بوليفه) يوم ٢٥ يونيه ١٩٢٤ وقد تمّ استرجاعها من القوّات المسلّحة بعد معركة حامية من نفس اليوم بالقرب من وادي (العوينات) وقد قتل فيها أربعة من المواطنين المستسلمين وجرح اثنان من الضّابطيّة وأحد المجنّدين واثنان من المستسلمين.

٨ ـ القيام بغارة سلب على مواد غذائيّة ونقود وقعت يوم ١٤ أغسطس ١٩٢٤ من قبل خمسين فردًا من المتمرّدين ضدّ تجّار محلّيين في (مرتوبه) أعقبها صدام مسلّح قام به عسكريون إيطاليون ومحلّيون من الحامية العسكريّة في المنطقة وقد لقى مصرعه أحد العسكريين المحلّيين من حاملي الرّتب وجرح اثنان من الضّابطيّة.

٩ ـ الاعتداء على قافلة مكوّنة من خمس سيّارات إحداها عسكريّة قادمة من سوسه ومتّجهة إلى شحات بالقرب من حامية (سيانا) وقع

الهجوم بتاريخ ٣٠ يونيه ١٩٢٥ وقد قتل فيه ٢٨ شخصًا بين عسكريين ومدنيين مواطنين وطليان وتمّ تدمير كلّ السّيارات.

١٠ ـ هجوم من قبل مجموعة كبيرة من المتمرّدين على سريّة كبيرة من الكارابانياري والضّابطيّة في (وادي الهيجة) بالقرب من درنة بتاريخ ١٦ يونيه ١٩٢٨ وقد سقط فيه ستّة من العسكريين أحدهم إيطاليّ.

١١ ـ غارة نهب بأربعة آلاف رأس من الماشية يملكها المستسلمون بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٢٨ في منطقة الأبيار من قبل ثلاثة آلاف مسلّح من المتمرّدين أعقبها قتال عنيف مع قوّات حامية المنطقة وأسفرت عن مقتل ٢٤ مجنّد حراسة وأحد رجال الضّابطيّة وخمسة من العساكر الإريتريين وسبعة من حراس الدوريّة.

١٢ ـ اعتداء على وحدة عسكريّة لسلاح الكارابانياري كانت مكلّفة بمهمّة حراسة عمّال صيانة الخطوط الهاتفيّة يوم ٨ نوفمبر ١٩٢٩ في منطقة قصر بن قدم من قبل أربعين متمرّدًا وسقط في هذه الموقعة ضابط صفّ و٣ عسكريّين محلّيين.

١٣ ـ مهاجمة دوريّة لسلاح الكابرنياري وضابطيّة مكلّفة بحراسة فريق (القيقب / القبه) للشّاحنات بالقرب من زاوية ترت يوم ١٥ مايو ١٩٣٠ من قبل حوالي مائة من المتمرّدين وقد نجحوا في قتل ستّة عسكريين محلّيين وجرح اثنين آخرين.

١٤ ـ هجوم الدّور على قافلة للمستسلمين من قبيلة العبيدات الّتي كانت تتنقل من البطنان إلى منطقة سرت يوم ٩ يناير ١٩٣١ في منطقة بير بوسفّه (شحات) نتج عنه مقتل عسكري محلّي وحرج سبعة بما فيهم ضابط صفّ من فريق الحراسة.

١٥ ـ الإغارة على مواشي مختلفة الأنواع يملكها المواطنون المستسلمون يوم ٢٧ فبراير ١٩٣١ من قبل حوالي ٣٠٠ متمرّد في منطقة

سوسه أعقبتها معركة حامية قتل فيها راعيان وجرح ثلاثة من أفراد الجنود غير النّظاميين وعدد مماثل من المستسلمين.

١٦ ـ معركة اشتركت فيها كلّ الأدوار وفصائل مختلفة من القوّات المسلّحة يوم ٣٠ مارس ١٩٣١ في وادي (الرّملة) بمنطقة درنه جرح فيها ثلاثة من العسكريين الإرتريين.

المحلق الثّاني

المنشور السّري الّذي أصدرته المقاومة البرقاويّة لإحياء الذّكرى الأولى لشنق عمر المختار سبتمبر (١٩٣٢)

بينما كانت الدّعاية الرّسميّة الفاشيّة تتبجّح بتشييد (السّلم الرّوماني) (باكس رومانا pax romana) الّذي استتبّ في ليبيا، بعد القضاء على التّمرّد وتصفيته يظهر الرّد الصّامت على هيئة منشور سريّ وزّعته المقاومة البرقاويّة، بمناسبة الذّكرى السّنويّة الأولى لشنق (عمر المختار) الّذي أضحى بطلا وطنيا ليبيّا. هذا المنشور السّري الّذي ننقله للمرّة الأولى من نصّه الأصلي والّذي تمّ العثور عليه لحسن الحظّ في المحفوظات الاستعماريّة وننقله في هذا الكتاب لنعرب عن إجلالنا لبطل (الجبل الأخضر) كتأبين متأخّر.

ذكرى عمر المختار شهيد الأمة العربيّة

في مثل هذا اليوم الموافق ١٦ أيلول سنة ١٩٣٢ أعدم البطل المغوار السّيد عمر المختار صلبًا على أعمدة المشنقة.

في مثل هذا اليوم سطت القوّة الغاشمة الفاشيستيّة على ذلك الشّيخ الجليل والمجاهد الكبير ونفّذ فيه حكم الإعدام ولم تراع شيخوخته ولا مكانته في قلوب المسلمين.

في مثل هذا اليوم أضاف الفاشيست إلى تاريخهم المملوء بضروب العسف والجور صحيفة سوداء تعرب عن منتهى العار وأعظم الشّنار.

لم يحدّثنا التّاريخ ولا أساطير الأوّلين أنّ أسيرًا يقع في ميدان الحرب وهو شيخ في العقد التاسع من عمره يعدم إلاّ في عهد الفاشيست الّذي أنسى العالم مظالم القرون المظلمة.

نردّد هذه الذكرى في هذا اليوم ونفوسنا تفيض بالحزن والألم الشّديد على ذلك البطل الشّهيد الّذي سطّر بسيفه آيات من الشّجاعة والبسالة في تاريخ الأمّة العربيّة، وجاهد في سبيل الدّفاع عن وطنه جهادًا يورث المجد والفخر الأثير.

إنّ عمر المختار قد كافح جيوش الاستعمار عشرين سنة وكان لا يخشى الموت ولا صلصلة الحديد إلى أن كبا به جواده في معمعة القتال فامتدّت إليه أيدي الظّالمين.

فيا للشّناعة ويا للعار من تلك الجريمة الّتي تحمرّ لها الوجوه وتجفوها الوحوش.

برئت ذمّة التّاريخ برئت ذمّة الإنسانيّة من تلك الفعلة البربريّة الّتي أقدم عليها الفاشيست وهم يعدّون أنفسهم في مصاف الأمم الرّاقية والأقوام المتمدّنة.

إنّنا لن ننسى ما حيينا تلك الفعلة الفظّيعة الّتي أدمت منّا القلوب وفتّتت منّا الأكباد.

ظنّ الفاشيست أنّ إعدامهم عمر المختار يمكنهم من اغتصاب تلك الدّيار ولكن خاب ظنّهم وطاش سهمهم.

فإنّ أرواح الشّهداء هي الشّعلة الأزليّة لإذكاء روح الوطنيّة في قلوب الشّعوب الحيّة.

إنّ شهيد الأمّة الطّرابلسيّة البرقاويّة لن يموت لأنّه ترك لقومه أثرًا خالدًا في البطولة والإقدام يتوارثه الأحفاد جيلا بعد جيل إلى يوم التّناد.

إنّ هذه الذّكرى الأليمة الّتي ولّدتها أيدي الفاشيست الأثيمة ستبقى ما تعاقبت السّنون والأعوام يتجدّد هولها ويزداد خطبها لما لها في القلوب من جروح باقية وآثار دامية.

تبّت أيدي الظّالمين الّذين لم يرقبوا شيبة ذلك الشّيخ الجليل ولم يحترموا بطولته ولا شجاعته الّتي أراهم من آياتها العجب العجاب.

ولكن أنّى لهم أن يعرفوا لتلك المزايا معنى أو يقدروا لها قدرًا.

إنّ توالي الأيّام وتعاقب الأعوام لن يخفّف من هول تلك الجريمة الّتي جرحوا بها قلوب العرب جمعاء والّتي ستبقى أبد الدّهر وصمة في تاريخهم الملطّخ بدماء الأبرياء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال.

فيا أيّها الشّعب الطّرابلسي البرقاوي ردّد ذكرى هذا اليوم الّذي أصبت فيه بأكبر فاجعة وأعظم مصاب. احفظ هذه الذّكرى واستعرض روعتها في مخيّلتك في كلّ لمحة وحين وخذ منها عبرة لمستقبلك لتعرف كيف تثأر لشهدائك الأبرار.

إنّ هذه الذّكرى لعبرة تثير في النّفوس روح الإقدام وتحرّك ما كمن في الصّدور من حسّ الانتقام ممّن اغتصب بلادك وسلبك كلّ حقّ من حقوقك وقضى على نخبة من رجالك بالقتل والتّشريد والظّلم الّذي ما عليه من مزيد.

إنّنا في هذا اليوم ندعو الأمّة العربيّة ورجالها الأحرار أن يشاطرونا الأسى في ذلك المصاب الّذي نردّد ذكراه اليوم.

فعمر المختار لم يكن شهيد الشّعب الطّرابلسي وحده بل هو شهيد الأمّة العربيّة جمعاء. إنّ آيات البطولة الشّجاعة الّتي كان يتلوها على جيوش الفاشيست هي مفخرة للعرب على اختلاف أقطارهم، وما

الشّعوب العربيّة إلاّ كالجسد الواحد تشاطر بعضها الأسى والمسرّة في كلّ حال فهذه الحقيقة يجب أن نفهمها للغربيين بتضامننا وتكاتفنا.

إنّ هذه الذّكرى يجب ألاّ تنسى بل تحفظ في طيّات القلوب إلى أن يأتي يوم تحاسب فيه الأمّة العربيّة أرباب القمصان السّود الحساب الشّديد على تلك الفعلة الفظيعة الّتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم. اذكروا يا رجال العرب يا أباة الضّيم والحيف شهيدكم الّذي أعدم بعد الأسر اذكروا ذلك البطل الّذي رفع راية العروبة وجدّد مجد أسلافكم الكرام.

أحيوا ذكرى هذا اليوم لكي يعلم الفاشيست أنّكم لن تصبروا على الأذى ولن تناموا على القذى وأنّكم أمّة متضامنة لا تتحمّل الاستهتار الّذي يوجهه إليكم غزاة الاستعمار.

وأنتم أيّها الفاشيست يا أرباب القمصان السّود بيننا وبينكم يوم نحاسبكم فيه الحساب الشّديد ذلك اليوم الّذي ترونه بعيدًا ونراه قريبًا يوم نسألكم عن دم عمر المختار وشهدائنا الأبرار إنّ للباطل جولة وللحق صولة وسيعلم الّذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

جمعيّة الدّفاع الطّرابلسي البرقاوي[1].

---

(١) نصّ المنشور الأصلي بتاريخ ١١ سبتمبر ١٩٣٢ في ذكرى استشهاد عمر المختار شهيد الأمّة العربيّة دون كتابة المكان الّذي صدر فيه.

Il manifesto clandestino che celebra il primo anniversario della morte di Omar al-Mukhtar (ved. Appendice II)

ذكرى عمر المختـــــــــــار

شهيد الامة العربية

في مثل هذا اليوم الموافق ١٦ ايلول سنة ١٩٣٢ اعدم البطل المغوار السيد عمر المختار صلباً على اعمدة المشنقة .

في مثل هذا اليوم سطت القوة الغاشمة الفاشيستية على ذلك الشيخ الجليل والمجاهد الكبير ونفذت فيه حكم الاعـــدام، ولم تراع شيخوخته ولا مكانته في قلوب المسلمين .

في مثل هـــذا اليوم اضاف الفاشيست الى تاريخهم المملوء بضروب العسف والجور صحيفة سوداء تعرب عن منتهى العار واعظم الشنار .

لم يحدثنا التاريخ ولا اساطير الاولين ان اسيراً يقع في ميدان الحرب وهو شيخ في العقد التاسع من عمره يعـــدم الا في عهد الفاشيست الذي أنسى العالم مظالم القرون المظلمة .

نردد هذه الذكرى في هـــذا اليوم ونفوسنا تفيض بالحزن والالم الشديد على ذلك البطل الشهيد الذي سطر بسيفه آيات من الشجاعة والبسالة في تاريخ الامة العربية ، وجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه جهاداً يورث المجد والفخر الاثيل .

ان عمر المختار قد كافح جيوش الاستعمار عشرين سنة وكان لا يخشى الموت ولا صلصلة الحديد الى ان كبا به جواده في معمعة القتال فامتـــدت اليه ايدي الظالمين .

فياللشناعة ويا للعار من تلك الجريمة التي تحمر لها الوجوه وتتجافاها الوحوش .

برئت ذمة التاريخ برئت ذمة الانسانية من تلك الفعلة البربرية التي اقدم عليها الفاشيست وهم يعدون انفسهم في مصاف الامم الراقية والاقوام المتمدنة .

اننا لن ننسى ما حيينا تلك الفعلة الفظيعة التي ادمت منا القلوب وفتتت منا الاكـــباد .

ظن الفاشيـــت ان اعدامهم عمر المختار يمكنهم من اغتصـــاب تلك الديار ولـــكن خاب ظنهم وطـــاش سهمهم .

فان ارواح الشهداء هي الشعلة الازلية لاذكاء روح الوطنية في قلوب الشعوب الحية . .

ان شهيد الامة الطرابلسية البرقاوية لن يموت لانه ترك لقومه اثراً خالداً في البطولة والاقـــدام يتوارثها الاحفاد جيلا بعد جيل الى يوم التناد .

ان هذه الذكرى الاليمة التي ولدتها ايدي الفاشيســت الاثيمة ستبقى ما تعاقبت السنون والاعوام يتجدد هولها ويزداد خطبها لما لهـــا في القلوب من جروح بليغة وآثار دامية .

تبت ايدي الظالمين الذين لم يرقبوا شيبة ذلك الشيخ الجليل ولم يحترموا بطولته ولا شجاعته التي اراهم من آياتها العجب العجاب .

ولـــكن انى لهم ان يعرفوا لتلك المزايا معنى او يقدروا لها قـــدرا .

ان توالي الايام وتعاقب الاعوام لن يخفف من هول تلك الجريمة التي جرحوا بها قلوب العرب جمعاء والتي ستبقى ابد الدهر وصمة في تاريخهم الملطخ بدماء الابرياء من نساء ورجال وشيوخ واطفال .

فيا ايها الشعب الطرابلسي البرقاوي ا ردد ذكر هذا اليوم الذي اصبت فيه باكبر فاجعة واعظم مصاب . احفظ هذه الذكرى واستعرض روعتها على مخيلتك في كل لمحة وحين وخذ منها عبرة لمستقبلك لتعرف كيف تثأر لشهدائك الابرار .

ان في هذه الذكرى لعبرة تثير في النفوس روح الاقدام وتحرك ما كمن في الصدور من حس الانتقام ممن اغتصب بلادك وسلبك كل حق من حقوقك وقضى على نخبة من رجالك بالقتل والتشريد والظلم الذي ما عليه من مزيد .

اننا في هذا اليوم ندعو الامة العربية ورجالها الاحرار ان يشاطرونا الاسى في ذلك المصاب الذي نردد ذكراه اليوم

فعمر المختار لم يكن شهيد الشعب الطرابلسي وحده بل هو شهيد الامة العربية جمعاء ان آيات البطولة والشجاعة التي كان يتلوها على جيوش الفاشيست هي مفخرة للعرب على اختلاف اقطارهم ، وما الشعوب العربية الا كالجسد الواحد تشاطر بعضها الاسى والمسرة في كل حال فهذه الحقيقة يجب ان نفهمها للغربيين بتضامننا وتكاتفنا . ان هذه الذكرى يجب ان لا تنسى بل تحفظ في طيات القلوب الى ان يأتي يوم تحاسب فيه الامة العربية ارباب القمصان السود الحساب الشديد على تلك الفعلة الفظيعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الامم

اذكروا يا رجال العرب يا اباة الضيم والحيف شهيدكم الذي اعدم بعد الاسر اذكروا ذلك البطل الذي رفع راية العروبة وجدد مجـــد اسلافكم الكـــرام

احيوا ذكرى هذا اليوم لكي يعلم الفاشيست انكم لن تصبروا على الأذى ولن تناموا على القذى وانكم امة متضامنة لا تتحمل الاستهتار التي يوجهه اليكم غواة الاستعمار

وانتم ايها الفاشيست يا ارباب القمصان السود بيننا وبينكم يوم نحاسبكم فيه الحساب الشديد ذلك اليوم الذي ترونه بعيداً ونراه قريبا يوم نسألكم عن دم عمر المختار وشهدائنا الابرار . ان للباطل جولة وللحق صولة وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

«جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي»

الباب الرّابع:

أسر عمر المختار ومحاكمته وشنقه في الصّحافة الإيطاليّة

الكاتب : لويجي غوليا (Luigi Goglia)

لم تكن شخصيّة (عمر المختار) معروفة في بلادنا إلاّ عند القليل من الباحثين في تاريخ الاستعمار والعائدين من حملات (استعادة السّلام) أو التّهدئة في ليبيا، وبعض الموظّفين القدماء في المستعمرة.

فقد عرفت الصّحافة اليوميّة والمجلاّت الأسبوعيّة في النّصف الثّاني لسنة ١٩٧٩ اهتماما كبيرًا بالزّعيم الشّيخ عمر المختار قائد المقاومة في برقه بسبب الحملات الدّعائيّة لشركة إنتاج فيلم ضخم عن مقاومة المختار ضدّ الاستعمار الإيطاليّ.

ولكن باستثناء بعض الشّهادات يبدو أنّ العودة الصّحافيّة لهذا الموضوع وقعت مجدّدًا في التّقليد القديم وإن كانت تتّسم بمناهضة الاستعمار السّطحيّة هذه المرّة، من خلال تعليقات ومداخلات مناسباتيّة اتّسمت بالانتهازية فلم تكن مبنيّة على تمعّن فكريّ موثّق تاريخيًا وسياسيًا بنظرة تأمّليّة ومعتدلة وذات مصداقيّة.

فإن كان بعض الأشخاص في السّابق مدفوعين بشعور وطنيّ فيّاض مخطئ ومدان قد صمتوا أو زيّفوا حقائق الوقائع فاليوم اختلف الأمر لما ظهر من وثائق شاهدة على تلك الوقائع وتتحدّث بلغة القمع والاضطهاد.

لذلك كان اهتمامنا بما كتب في الصّحف في فترة سبتمبر ١٩٣١ وما تناولته في موضوع أسر عمر المختار ومحاكمة وإعدامه وهو نفس السّيناريو من حيث الجوهر لما لاقته المعارضة ضدّ الفاشيّة في إيطاليا.

كان (عمر المختار) المقاوم اللّيبي الّذي تمثّلت في شخصه أعلى درجات الكفاح ضدّ الهيمنة الإيطاليّة سواء كان ذلك لما تمتّع به من مواهب عسكريّة أثبتها منذ بداية القرن في النّضال ضدّ التّدخل الاستعماريّ الفرنسيّ في منطقة الجنوب اللّيبي أو من ناحية قدراته السّياسيّة في ولائه وتعلّقه بحركة الإخوان السّنوسيين وقد أصبح أحد أبرز قادتها وممثّلا للأمير إدريس بعد هجرته إلى مصر. لقد كانت شخصيّته الدّينيّة بما أضفته عليه من سموّ أخلاقيّ كبير إلى جانب قدراته العسكريّة والسياسيّة قد جعلت منه الزّعيم الأكثر أهميّة في تاريخ المقاومة الشّعبيّة اللّيبيّة منذ سنة ١٩١١ حتّى سنة ١٩٣٢. كان يمكن لغيره أن يتحلّى بسمتي الشّجاعة وإنكار الذّات ولكن ما كان له أن يجمع بقيّة السّمات الّتي جعلت من عمر المختار البطل الأعظم ميزة له طوال حياته، لقد كان دومًا سبّاقًا وفي أوّل الصّفوف في مصلحة الحركة السّنوسيّة أو في دفع الخطر عن شعبه وكان دائم الاستعداد للتّضحية من أجلها حتّى ذلك الموت الّذي تقبّله بوعي فكريّ وطمأنينة نفسيّة.

كان أهالي برقه يطلقون عليه (سيّد اللّيل) كناية عن سيادة إيطاليا المحدودة بساعات النّهار فقط، بينما هو هو اختار التحرّك والعمل خلال اللّيل[١].

لم يتوان المارشال (بادوليو) الحاكم العامّ لليبيا ودي بونو وزير المستعمرات وأحد أكبر الأربعة زعماء للفاشيّة، في الحكم على هذا

---

(١) هذه شهادة من أبي رودولفو الّذي كان بين سنتي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ كملازم ثاني وكان يتولّى رئاسة سريّة الكتيبة اللّيبيّة الثّامنة المرابطة بمدينة أجدابيا ثمّ قاد سريّة الهجانة (ممتطيي المهاري) بواحة الكُفره وكان يردّد في مناسبات عديدة أنّ ذكرى عمر المختار لم تكن مترسّخة في أذهان الأهالي العرب فحسب بل أيضًا في أذهان معظم العسكريين الإيطاليين العاملين في برقه وكثير منهم كان يذكره بالاحترام والتّقدير.

الرّجل بالإعدام حتّى قبل إنشاء المحكمة الخاصّة الّتي عهد لها بالدّفاع عن أمن الدّولة.

لم يمكن الحصول على الوثائق الّتي تكشف موقف (موسوليني) من هذه القضيّة، ولكن لا شيء يحمل على الاعتقاد بأنّ رئيس الحكومة قد يكون على خلاف مع حاكمه العسكريّ ووزير مستعمراته. فموسوليني لم يكن يظهر اهتمامًا كبيرًا بالأحداث الدّاخليّة في المستعمرات غير أنّه كان يميل دائمًا إلى الحلول الصّارمة والمتشدّدة في مواجهة السّكان الأصليين ممّا يشي بتوافقه مع قرار إعدام عمر المختار نظرًا لآرائه في كيفيّة التّعامل مع السّكان الأصليين[1].

كان (غرسياني) الّذي شغل خطّة نائب للحاكم العامّ في برقه وقائد للقوّات المسلّحة في تلك المستعمرة كما هو معروف المنفّذ لتعليمات المارشال (بادوليو) بكلّ دقّة وإتقان ولكنّه عندما تناول هذه الأحداث من جديد في كتاباته أظهر من خسّة الرّوح وحقارتها قدرًا جعله يعطي صورة مزيّفة للزّعيم الأسير[2] عندما كتب متباهيًا بأنّه رفض أن يصافح عمر المختار عندما مدّ له يده بنبل وهي مقيّدة بالأغلال فقال: «سعى أن يمدّ يده إليّ ولكن منعته الأغلال من ذلك وحتّى ولو لم تمنعه ما كنت لألمس يده»[3].

لا نريد أن نتفحّص في هذا المقام سلوك السّلطات الاستعماريّة تجاه

---

(١) عندما اتّصلت بـ(أرينسو دي فيليشي) لمعرفة إذا ما قد عثر من خلال اطّلاعه الواسع على الوثائق قبل كتابته لسيرة موسوليني أيّة إشارة تخصّ عمر المختار فأجابني بالنّفي ولكن فيما يتعلّق بسياسته العامّة تجاه المواطنين المحليين فهو يتّفق معنا في هذا التّقييم الّذي أوردناه في موقف زعيم الفاشيّة.

(٢) أُنظر رودولفو غرسياني، برقه المهدّئة، ميلانو، ١٩٣٢، ص٢٦٩ ـ ٢٧٢.

(٣) أُنظر المرجع السّابق ص٢٧٢.

عمر المختار ولكنّنا نرى أنّ هذه السّلطات لم تنقصها الاعتبارات الإنسانيّة والحِلم الّذي يجب أن يتمتعَ به المنتصر وإنّما كان ينقصها حتّى الذكّاء وبعد النّظر.

كان يمكن أن تنقذ حياة (عمر المختار) وذلك بأُستبدال الإعدام بنقله إلى إيطاليا ووضعه في الحجر المنزليّ أو حتىّ الأسوأ من ذلك بتوقيع عقوبة النّفي عليه. ولكنّ ردّة الفعل لحكومة المستعمرة بقرار التّصفيّة الجسديّة للعدوّ المغلوب كان قاسيًا.

بدا القبض على (عمر المختار) وشنقه مؤشّرًا على نهاية المقاومة في برقه، ففي الأشهر اللاّحقة تمّت تصفية بقيّة المسلّحين الّذين لم ينجوا بأنفسهم خارج الحدود في مصر. إلاّ أنّ تلك اللّحظة التّاريخيّة كانت لحظة حاسمة في رسوخ المعنويات العالية لمقاومة الاحتلال الإيطاليّ وكان ذلك بسبب الشّموخ والصّمود والسّكينة الّتي أظهرها هذا الزّعيم السّنوسي حيث واجه حبل المشنقة بكلّ إباء ورباطة جأش مثل أبطالنا في عصر البعث القوميّ التّحرريّ وبالسّكينة القدريّة الدّينيّة للمجاهدين.

لم تول الصّحافة الإيطاليّة في تلك الفترة والّتي كانت تحت رقابة النّظام الفاشيّ اهتمامًا كبيرًا بهذه القضيّة واقتصرت في معظمها على نشر أخبار وكالة (ستيفاني Stefani) للأنباء وبعض الصّحف في المحافظات كانت تنقل المقالات المحوّرة من مقالات الصّحف الرّئيسيّة، وبتفحّص النّبرة الّتي كتبت بها المقالات يومي ١٥ و١٦ سبتمبر قبيل الإعدام نلحظ عدم مرورها على المراقبة من الجهات العليا ولكن الأمر قد اختلف بعد تنفيذ الإعدام.

كما لم تحظ أخبار إلقاء القبض على عمر المختار بذلك الزّخم الّذي يقتضيه منطق الأشياء فكان يجب أن تحلّل وتذاع بشكل يخدم دعاية النّظام ولكن كلّ ذلك لم يحدث، فجميع الصّحف ما كانت لتتجاهل

إيراد النّبأ ولكن بنشره في الزّوايا الهامشيّة عن قصد. وكان الحكم بالإعدام وتنفيذه مثّل نهاية الاهتمام بهذه القضيّة ومن ثمّة نهاية لدعاية الانتصار على المقاومة وتصفيّة التّمرد البرقاويّ السّنوسيّ.

لا شكّ أنّ ذلك يعود في اعتقادنا إلى الارتباك والحرج الّذي أحدثه إعدام عمر المختار هذا من جانب ومن جانب آخر إلى عدم اهتمام الصّحافة الوطنيّة بأحداث مستعمراتنا. حيث أنّه خلال العهد الفاشي الّذي اتّخذ من فكرة الإمبرياليّة الاستعماريّة نقطة ارتكاز لدعايته فإنّ أغلب المقالات والمراسلات الصّحفيّة كانت تصبّ اهتمامها على وضعيّة النّظام في المستعمرة وليس على أحوال المعمّرين والخاضعين للاستعمار ومشاكلهم، هو ذا الاتّجاه العامّ للظّاهرة كما بدت لنا ولكن هذا لا يعني أنّها قاعدة عامّة فالزّيارات الّتي قام بها (موسوليني) والوزراء والملك وأمراء الأسرة المالكة نحو ليبيا وكذلك الأشغال العامّة الكبيرة كلّها كانت تتمتّع بتغطيّة الصّحافة الوطنيّة (ومن البداهة أن تكون الحروب مستثناة من هذا السّياق).

ومن تداعيات المواقف الصّحافيّة في اهتمامها بالحدث وردّة فعلها في أوقات جدّ متقاربة أنّ أخبار الصّدام بين مجموعة صغيرة من المسلّحين بمعيّة (عمر المختار) قرب منطقة سلنطة واعتقاله يوم ١١ سبتمبر لم يُذعها الإعلام الرّسمي إلاّ يوم ١٥ سبتمبر أي في نفس اليوم الّذي انعقدت فيه المحاكمة في محكمة بنغازي الخاصّة للدّفاع عن أمن الدّولة وإصدار حكم الإعدام وتنفيذه صبيحة اليوم التّالي على السّاعة الثّامنة والنّصف، ولم تُنشر الأنباء الّتي تناقلتها الصّحف الوطنيّة بالقبض على عمر المختار إلاّ يوم ١٦ سبتمبر كما لم ينشر خبر إعدامه إلاّ يوم ١٧ سبتمبر[١]. هذه الفترة الوجيزة بين خبر اعتقاله رسميا وإعدامه سهّلت

---

(١) لا يمكن أن نجد تفسيرًا للخبر المنقول من وكالة ستيفاني الّذي يتحدّث عن موت=

من عمليّة التّكتم على الحدث وتصفيته السّريعة وهذا يمكن استنتاجه من مضمون المقالات ووتيرتها التي صدرت قبل تنفيذ الحكم ووصلت إلى درجة الاعتراف بالشّخصيّة الفذّة للزّعيم المغلوب وما بعد تنفيذ الحكم بالإعدام حيث تردّت التّعليقات الصّحفيّة إلى مستوى من الوقاحة والسّوقيّة والشّتاؤم والسّباب، حتى أنّ شخصيّة (عمر المختار) فقدت ذلك الإعجاب والتّقدير المكنون أو العلني لذلك القائد السّنوسي عبر تصويره للإيطاليين كمجرم دنيء يعذّب الجنود الإيطاليين كلّ ذلك وقع في أيّام قليلة.

يوميات الصّحافة

يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣١ نشرت وكالة الأنباء (ستيفاني) ليلة ١٥ سبتمبر نبأ ظهر في صحف اليوم التّالي وكان في منتهى الإيجاز ولم يتحدّث عمّا كان يجري في مستعمرة برقه: (روما في ليلة ١٥ سبتمبر: في أعقاب عمليّة حصار باهرة ليلة ١١ سبتمبر بمنطقة سلنطة قام الفصيل السّابع (سفاري) بعمليّة ملاحقة متمرّدين وقطّاع طرق وقد كلّلت بالقبض على زعيم التّمرد في برقه وممثّل السّنوسيّة فيها (عمر المختار) وقد سقط في المعركة اثنا عشر قتيلاً وأربعة عشر جوادًا وتمّ غنم سبعة من الخيول بأسرجتها وعشر بنادق. اعتقال هذا الزّعيم النّشط الصّفيق يعدّ خطوة إيجابيّة إلى الأمام في عملنا التّطهيريّ السّياسيّ والعسكريّ والّذي سوف يستمرّ بصرامة حتّى تحقيق السّلام في كامل ربوع برقه).

نشرت جريدة لاستانبا (La Stampa) إلى جانب هذا البيان لوكالة

=عمر المختار رميا بالرّصاص الأمر الّذي جعل أحد المشاركين في النّدوة الّتي أقيمت بجامعة (قار يونس) من يوم ١٠ إلى يوم ١٦ نوفمبر ١٩٧٩ يتساءل فيما إذا كان عمر المختار قتل رميا بالرّصاص ثمّ علّق جثمانه بحبل المشنقة.

(ستيفاني) تعليقًا من سبعة عشر سطرًا أشادت فيه بشخصيّة عمر المختار واعترفت لهذا الشّيخ الزّعيم بمجموعة من الفضائل والمناقب: (عمر المختار يمتلك كلّ صفات القائد والزّعيم العربيّ بالشّجاعة وفنّ القيادة والهيبة والإحساس بمعنى العدالة. التّمرد في برقه قد غذّته هيبته ورصيده الوطني حتّى الأمس رجل عجوز تجاوز السّبعين من العمر أعطته انتصاراته المتلاحقة في الميدان شهرة بين أتباعه بأنّه محصّن من المخاطر. لقد سقطت الأسطورة وسقط على إثرها الرّجل (عمر المختار) الّذي يعتبر أكبر محرّك للتّمرد في جبال برقه.

تمّ نزع سلاح السّكان ووضعهم في معسكرات الاعتقال في منطقة السّاحل، وإغلاق الحدود مع مصر وتمشيط الجبل والمناطق الصّحراويّة من قبل المستعمرين ذوي الخبرة والكفاءة ووضع التّمرد تحت رحمة الحكومة. اعتقال زعيم في هيبة (عمر المختار) وقيمته أنجز من قبل نفر قليل من (السّفاري) مما يظهر مدى الكمال الّذي وصلته قطاعاتنا العسكريّة في برقه).

نشرت صحيفة الجورنالي دي إيطاليا (Il Giornale d'Italia) بلاغًا لوكالة (ستيفاني) ومقالة أطول من تلك الّتي نشرتها صحيفة تورينو (لاستانبا) لا تختلف كثيرًا من حيث المضمون ومما ورد فيه من نقاط مهمّة: (القبض على (عمر المختار) الّذي قامت به فصائلنا من (السّفاري) الشّجعان قد ألحقت ضربة قاسمة للتّمرد البرقاويّ المنهار، (عمر المختار) كان يحظى بكلّ صفات الزّعيم والمحارب العربيّ، وقار يضفيه عليه سنّه والشّجاعة الشّخصيّة وفنّ القيادة ومكانته المرموقة في البلاد العربيّة. جندي وقائد مغوار، هو عدوّ معتزّ بنفسه ومَهيب ونستطيع الجزم أنّ التّمرد في برقه قد استمرّ حتّى الأمس القريب بفضل ما أبداه من ريادة وشجاعة أو باختصار بفضل كلّ هذا الرّصيد الشّخصيّ، فعمره الّذي يناهز السّبعين سنة وخوضه المعارك المتعدّدة في الميدان أعطته بين

أتباعه شهرة بأنّه لا يُهزم. ولكن عندما اتّخذ (غرسياني) إجراءاته الحديديّة بتوطين البدو الرّحل على شواطئ البحر في معسكرات إلزاميّة قطع عمر المختار صلته بسكّان الجبل المرحّلين برهافة حسّ سياسيّة حتّى يجنّبهم القمع وبذلك يستطيع الحفاظ على هيبته واحترامه كزعيم بين هؤلاء السّكان. حتّى هذه الأسطورة كغيرها من الأساطير الغامضة الّتي ترعرعت في مناطق المستعمرات الإفريقيّة قد هوت وذهب معها (عمر المختار) الّذي كان الظّهير الأساسي في تمرّد الجبل البرقاويّ.

كما نشرت صحيفة الرّيستو دي لكارلينو (Il Resto del Carlino) مدينة ليفورنو تقريبًا نفس المقال الّذي نشرته الصّحيفتان السّابقتان: (عندما فرض غرسياني إجراءاته المغلظة على الأهالي شبه الرّحل ووطّنهم على الأرض مقابل البحر في معسكرات الاعتقال تجنّب عمر المختار أيّ تماس معهم حتّى لا يعرّضهم للعقاب بقصد الإبقاء على ما يتمتّع به بينهم من وجاهة وزعامة.

صحيفة تيليغرفو (Il Telegrafo) كتبت على نفس الوتيرة: (لقد فقد المتمرّدون المحرّك الأساسيّ للتّمرد قائدًا لا يجادل أحد في سلطته فلم يكن ينقصه في واقع الأمر فنّ القيادة والهيبة الشّخصيّة والرّغبة في العدالة، كان عدوّا مَهيبًا رغم تخطّيه السّبعين من العمر ومن الصّعب أن يجد المتمرّدون زعيما آخر تتوفّر فيه هذه الصّفات.

صحيفة القرن التّاسع عشر (Il Secolo XIX) مدينة جنوة: (هذا القائد الجسور وهذه المفاجأة الّتي حقّقها فصيل صغير من فصائل (السّفاري)[1] في القبض على زعيم على هذه الدّرجة من المهابة، يظهر المستوى العالي من الدّقة الّتي وصلتها قوّاتنا في إفريقيا وتنظيماتنا المسلّحة في المستعمرة).

---

(١) حقيقة الأمر أنّ هذا الموضوع لا يتعلّق بممطيي المهاري وإنّما بكتيبة السّواري.

صحيفة إلغاتزيتينو (Il Gazzettino) مدينة البندقيّة كرّرت ما نشرته صحيفة (الجورنالي دي إيطاليا) والصّحف الأخرى الّتي ذكرناها آنفًا وكذلك الصّحف لاناسيوني الفرنسيّة (La Nazione) و(غازيتا دي البوبولو (La Gazzetta del popolo) الصّادرة في تورينو والجورنالي دي جنوا (Il Giornale di Genova) الصّادرة في جنوة وكذلك النّيوفو شيتادينو (Il nuovo cittadino) وصحيفة لاغازتا دي مسسينا (La Gazzetta di Messina) وصحيفة البوبولو توسكانو (Il popolo Toscano) الصّادرة في لوكا وصحيفة إلبيكولو دي ترياستي (Il piccolo di Trieste). كلّ هذه الصّحف قد اتّخذت موقفًا قائمًا على احترام هذا العدوّ الأسير إلى جانب بلاغ وكالة أنباء سيفاني الصّادر يوم ١٥ سبتمبر، فالتّشابه فيما كتبت هذه الصّحف يشي بأنّه ناجم عن مصدر مشترك قد يكون منشورًا سريًا أو وكالة مّا غير أنّنا لم نتمكّن من العثور عليه.

غير أنّ الموقف الوحيد الّذي شذّ عن هذه الجوقة الصّحافيّة سواء الكبرى منها أو صحافة الأقاليم هو موقف صحيفة الماساجيارو (Il Messaggero) الصّادرة في روما الّتي استخفّت بشخصيّة عمر المختار وأتباعه باختلاق خرافة هزليّة بائسة فكتبت: (عمر المختار ذلك العجوز الماكر الخائن عديم الإنسانيّة، المجبول على الغدر والرّياء لم يكن ذلك المقاتل الكبير الّذي رسمته أسطورته الكاذبة، إنّ من حسن طالعه كان جواده تلك البهيمة الذّكيّة الّتي كانت دائمًا تمكّنه من الهروب من أرض المعركة. وفي يوم ١١ سبتمبر تخلّى الحظّ عن المتمرّد لأنّ جواده الذّكي قد سقط في القتال فتمّ القبض عليه).

صحيفة لا سيرا (La Sera) الّتي تصدر في ميلانو كتبت أنّه كان زعيمًا عتيدًا لحركة التّمرد السّنوسيّة ولكن بعدها كتبت عن الحركة السّنوسيّة ما يلي: (عندما مرّغت في الوحل عجرفة الزّعماء السّنوسيين بفضل العمل الدّؤوب لقوّاتنا المسلحة، هرب (إدريس) المحتال إلى القاهرة ليتمتّع

بالأموال الّتي حصل عليها بطرق غير مشروعة وبقي وكيل السّنوسيّة العجوز عمر المختار وحيدًا مع بعض أتباعه اليائسين). ثمّ عادت الصّحيفة لوصف عمر المختار بالبدويّ قاطع الطّرق على نفس الوتيرة الّتي وصفته بها صحيفة لا بروفنسيا (La Provincia) الّتي تصدر في مدينة كوما حيث كتبت: (كان عمر المختار زعيم السّنوسيين الأبيّ المعاند هو الرّجل الوحيد الّذي بقي في موقف عدائي لا يتزحزح في مواجهتنا ولمدّة عشرين سنة) وهكذا ختمت الصّحيفة مقالها على غرار الصّحيفة الميلانيّة (لاسيرا).

الصّحف الصّادرة يوم ١٧ سبتمبر ١٩٣١ وما بعده

بينما كان الإيطاليون يقرؤون أخبار القبض على عمر المختار والتّعليقات الصّحفيّة المبكّرة فكان بعضها يعبّر عن احترام له ويعترف بمناقبه كان هو يصعد درجات منصة الإعدام في (سلوق) وكانت تصفية قضيّة (عمر المختار) بهذه الطّريقة المتسرّعة والقاسية قد أدّت إلى تردّي اللّهجة الصّحفيّة وبرمجة رؤيتها الموحّدة في تشويه صورته وتحقير أفعاله ولم يخرج عن هذا الموقف الموحّد إلاّ صحفتان هما صحيفة (سيكولو دي شيمونونو) في جنوا وصحيفة (روما) في نابولي في نفس اليوم فكتبت صحيفة سيكولو دي شيمونونو: (عمر المختار هو الزّعيم الشّجاع الّذي لا يختلف أحد من المتمرّدين البرقاويين في زعامته وقد قاتل الإيطاليين بعزيمة صلبة ودهاء عجيب فكان يمتلك قوّة استثنائيّة بالرّغم من تقدمّة في السّن فهو في السّبعينات من العمر إلاّ أنّه عدوّ حازم عزيز النّفس).

أمّا صحيفة روما فقد كتبت: (عمر المختار البالغ من العمر ٧٤ سنة قاتل الإيطاليين بعناد وإصرار أوجب الاعتراف بقيمته وقدره وقد كان سريع الحركة والدّهاء ولم يستسلم).

وُصف (عمر المختار) ضمن مجموعة أخرى من الصّحف بالخيانة وقطع الطّريق إلاّ أنّ هذه الصّحف اعترفت له ببعض الخصائص كصحيفة (البوبولو توسكانو) في يوم ١٧ سبتمبر في مقال بعنوان «إعدام عمر المختار الخائن زعيم المتمرّدين وإعدام في حضور ٣٠ ألف من العرب المستسلمين» وكان بتوقيع مراسلها غابريالي سكريمالي (Gabriele Scrimali) إذ وصف بطريقة جديّة ومعتدلة قضيّة (عمر المختار) فنعته بـ (المتمرّد الصّامد) وتشي كلمة صامد في هذا المقام بالاحترام أمّا صحيفة (البوبولو دي تريست) فكتبت يوم ١٨ سبتمبر: (عندما تخلّى السّنوسيون عن الكفاح المباشر بقى عمر المختار فقط يغذّي الثّورة العجوز عمر المختار كان يعتبر نفسه وحده المفوّض الأخير لهذه العصابة الإسلاميّة ولذلك أصبح قاطع الطّريق العجوز هذا معزولاً).

أمّا صحيفة البوبولو دي بريشا (Il Popolo di Brescia) كتبت في ١٩ سبتمبر: (ربّما انتاب البعض الشّكوك في أنّ سيف روما الحاسم قد يتقاعس أمام شخصيّة عمر المختار فهل يمكن لأعوانه الاستمرار في التّمرد بعد أن خبا ذلك السّحر الّذي كانت تبثّه شخصيّته فيهم؟

هذا السّؤال كان اعترافًا صريحًا بقوّة شخصيّة وكيل السّنوسيّة وفي هذا الاتّجاه قامت صحيفة (لاسنتينيلا دي إيطاليا (La Sentinella d'Italia) الصّادرة بمدينة كونيو يوم ١٩ سبتمبر وكذلك صحيفة إلبولزانو (Bolzano) في محافظة بولزانو في نفس اليوم تصفه بالشّرير وكتبت في موته: (بموته لم يختف فقط قاطع طريق معروف بالتّشدّد والعناد وإنّما كذلك زعيم السّنوسيين وقائد التّمرد والإجرام الّذي حظي بهالة موهومة تفيد باستعصاء النّيل منه لدى العوام).

أمّا بخصوص خلافته فكتبت الصّحافة أنّ مساعديه الأربعة لا تتوفّر فيهم نفس المهابة ولا يملكون نفس القوّة المعنويّة الّتي كانت متوفّرة في شخصه.

وأخيرًا مجموعة الصّحف الّتي تناولت الحدث بأسلوب الغطرسة والاحتقار كما هي العادة الّتي درجت عليها لغة العصابات الفاشيّة ودون أدنى إشارة إيجابيّة لشخصيّة العدوّ المشنوق بعد الهزيمة.

صحيفة (البوبولو دي إيطاليا) الصّادرة يوم ١٧ سبتمبر في مقالة بعنوان (إعدام عمر المختار) كتبت أنّه كان غادرًا ومنافقًا وتعرّفه على أنّه مجرم ماكر وتعزو قدرته على الإفلات من الأسر بسرعة وذكاء وقدرته على المناورة لجواده كما كتبت جريدة (الماسيجارو) من قبل.

صحيفة (التيلغرافو) الصّادرة في مدينة ليفورنو يوم ١٧ سبتمبر كتبت (وأخيرًا تلاشت الخرافة المضحكة في برقه والّتي تقول بحصانة عمر المختار، خرافة أظهرت هذا العجوز المخادع والخائن المتوحّش كبطل أسطوري لا يمكن أن تطاله النّوائب وإلى الأبد). كما وصفت عمر المختار بالعجوز المتمرّد الشّقي وأشارت إلى غدره وخيانته وقصّة جواده الذّكي.

صحيفة الريستو كارلينو (Il Resto Carlino) في عدد يوم ١٧ سبتمبر كتبت في عمود بعنوان عمر المختار: (عمر المختار لم يكن متمرّدًا فقط بل كان خائنًا كذلك، قائد بدويّ عجوز وماكر، ستبقى عقوبة الإعدام الصّارمة والسّريعة الّتي عوقب بها مثالا صارخا لأولئك المتمرّدين الّذين يقبعون في بعض المناطق الدّاخليّة.

صحيفة لابروفانشيا دي بادوفا (La Provincia di Padova) الصّدرة يوم ١٧ سبتمبر عنونت مقالا بـ«شخصيّة الخائن» صوّرته على أنّه قاطع طريق خبيث تحرّكه روح الغدر والنّفاق.

صحيفة (الجورنالي دي إيطاليا) الصّادرة يوم ١٨ سبتمبر في مقالها الّذي تناول عمر المختار ممهورًا بتوقيع أ.ف كتبت: (كان خائفًا مثل أيّ خائن تقليدي يتخفّى هربًا بين الأحراش).

ونشرت نفس الصّحيفة يوم ١٩ مراسلة من بنغازي للصّحفي ساندرو ساندري (Sandro Sandri) بعنوان (هكذا تمّ القضاء على التّمرد البرقاويّ بصرامة، كيف قبض على معذّب جنودنا عمر المختار وأعدم). في هذه المراسلة أدخلت حكاية جديدة تهدف إلى النّيل من رباطة جأش الزّعيم البرقاويّ وهو الحديث عن سلوك افتراضي لخوف عمر المختار أثناء محاكمته وساعة إعدامه فكتبت: (كان تصرّفه حتّى وقوفه أمام المحكمة وخلال المحاكمة الّتي انعقدت في قصر (أليتوريو) ببنغازي لا يظهر صدق سمعته الّذي اشتهر بها كزعيم أسطوري لسنين طويلة فقد اعترف بجرائمه مؤكّدًا أنّه قاتل من أجل مجد السّنوسيّة وقد أظهر تأثّرًا وانفعالاً عند سماعه منطوق الحكم). فما اعتبره كاتب المراسلة (ساندري) اعترافًا بالجريمة هو أصلا تأكيد من (عمر المختار) على تحمّل المسؤوليّة كاملة عن الاتّهامات الّتي وجهّها له عدوّه فليس ثمّة ندم أو ضعف من قبل عمر المختار وهذا جليّ من تصريحه بأنّه قاتل من أجل الله والسّنوسيّة.

في صحيفة إلبيكولو (Il Piccolo) الصّادرة يوم ٢٠ في مراسلة من طرابلس تناولت من جديد موقف (عمر المختار) في الأسر مع التّقليل من وصف انفعال المحكوم عليه: (عمر المختار الّذي سيطر على نفسه أثناء المحاكمة ولحظة النّطق بالحكم لم يستطع إخفاء انفعالاته على منصة تنفيذ الحكم). في صحيفة (الجورنالي دي جينوفا) الصّادرة يوم ٢٠ عنونت مقالها (الموت المخزي لعمر المختار) فقد تجاوزت هذه الصّحيفة كلّ الصّحف الأخرى في استخفافها بعمر المختار أثناء المحاكمة ولحظة تنفيذ الإعدام: (عند سماعه منطوق الحكم عليه بالموت خارت عزيمته الّتي لم تكن في مستوى شهرته بالشّجاعة، لقد صعد (عمر المختار) إلى منصة المشنقة متهالكًا ومستندًا إلى (الضّابطيّة) ومات بين أنّات الألم والحسرة). وفي مجلّة جيراركيا (Gerarchia) الشّهيرة وهي لسان حال الثّورة الفاشيّة الّتي أنشأها موسوليني نفسه إذ

كتبت في عددها التّاسع في سبتمبر ١٩٣١ مقالا تحت عنوان (أخبار السّياسة الاستعماريّة) فعرضت الموضوع باستهزاء متعمّد مليء بالشّتائم بالدّعاية البلهاء: (عمر المختار، القبض على عمر المختار الّذي وقع يوم ١١ سبتمبر في منطقة (سلنطة) كانت إحدى العمليات الأكثر أهميّة للقوّات الإيطاليّة في ليبيا سوف لن نطيل الحديث عن صورة قاطع الطّريق البرقاوي الضّبابيّة لمعرفة القرّاء بها وإنّما سنكتفي بالإشارة إلى نهاية عمر الّتي كانت متوقّعة، فهو لم يكن ليستطيع الإفلات من حصار قوّاتنا، هذا التّكتيك الّذي أبهر العالم ومكّننا من الاستيلاء على المستعمرتين في البحر المتوسّط ماديا ومعنويا، بالقبض على الزّعيم المتشدّد لحركة التّمرد اليائسة في برقه أضحت الحركة السّنوسيّة مجرّد ذكرى أليمة للسّياسة الاستعماريّة المتعثّرة في الماضي. لقد حاول (عمر المختار) من خلال مغامراته الإجراميّة إذكاء روح الصّمود ضدّ الإيطاليين والتّأثير على القيادة الإيطاليّة ولكنّه لم يفلح إلاّ في تفاقم عزلته وبروز أحقاد أتباعه القلائل الّذين أرهقوا بسبب جوره وسوء معاملته. لقد تحوّل إلى قاطع طريق نهّاب كملك فقد عرشه، إذ انقطع في المرحلة الأخيرة إلى أعمال الإغارة والسّرقة بعدما فقد عوائد الأخوية الدّينيّة، بعد احتلال الكفره الّتي كانت ضربة قاسمة للحركة السّنوسيّة وأجبرت على اتّخاذ حياة التّنقل والتّرحال وبفقدانه لعمليات التّهريب على الحدود المصريّة هرع هذا المغامر لمنطقة سلنطة للإغارة والنّهب معتمدًا على جرأة أتباعه ومعرفته بتضاريس المنطقة ولم يكن يتصوّر نهاية غير مشرّفة كهذه لأنّه تناسى أنّ قواتنا قادرة على اجتياز كلّ الصّعاب، وكان يمكنه أن يدرك الدّرس من الماضي القريب بأنّ تحدّي قائد في قيمة (غرسياني) لا يمكن أن يمرّ دون عقاب.

نشريّة لاسيوني كولونيالي (L'azione coloniale) الصّادرة في يوم ٢٠ سبتمبر في مقال لماريو بيليي تناولت من جديد إعدام عمر المختار ويبدو أنّ هذا المقطع قد كتب على عجل بعد بلاغ وكالة الأنباء ستيفاني وبعث للنّشر دون تصحيح لاحق فنشرت مقالا في ١ أكتوبر كتكملة لمقال ساندرو ساندري تتجلّى فيه النّظرة الإيديوولوجيّة تحت عنوان (لقد هزم سور الأسلاك الشّائكة تمرّد برقه) ولأهميّته فننقله كالآتي: (فيما يتعلّق بالتّقييم التّقني للعمليات فقد تركنا ذلك للرّفيق ساندري لإلمامه المتميّز بالظّروف الموضوعيّة والإنسانيّة وأفكار القادة غير أنّ ثمّة جوانب جديدة في التّاريخ البرقاويّ وجب تسليط الضّوء عليها وعلى الأخصّ ذلك النّموذج المتميّز المتمثّل في الجنرال (غرسياني) الّذي يتّسم بالوضوح والبساطة في الإعداد للعمليات وطرق تنفيذها وإذاعتها ونشرها بين الجماهير الإيطاليّة والأجنبيّة. كلّ ذلك ناجم عن مبدأ منطق غايته القصوى إحراز النّصر بأدوات ملائمة دون تردد أو استنكاف، كان هو مفتاح النّجاح الّذي لم تكن تعرفه سياساتنا الاستعماريّة السّابقة لهذا السّبب رأينا أن نظهر سمات هذا النّموذج المكرّس سواء كان في إيطاليا أم في ما وراء البحار والّذي يحمل بصمة العزيمة والتّصميم للزّعيم الأوحد (الدوتشي) (موسوليني) وسوف يحتذيه كلّ القادة الفاشيين المستنيرين الّذي ليس لهم من هدف غير خدمة الوطن.

في صحيفة إيطاليا الكولونياليّة عدد ١٠ الصّادر في شهر أكتوبر تمّت تغطية الحدث على عدّة صفحات موضّحًا بالصّور والخرائط الجغرافيّة تحت عنوان (نهاية عمر المختار) ولم يكن هذا التّحقيق الصّحفي ذا قيمة إذا استثنينا الصّور، فهو مجرّد كشكول لبلاغات وكالات الأنباء ومقالات صحفيّة منشورة في الشّهر السّابق.

في عدد أكتوبر لـ(مجلّة المستعمرات الإيطاليّة) أفردت أسطرًا قليلة تحت عنوان برقه في باب مجريات المستعمرات ففي صفحتي ٨٠٤ ـ ٨٠٥ والّتي أكّدت فيه أنّ قطّاع الطّرق في الجبل الأخضر قد فقدوا زعيمهم وأنّه من العسير تعويضه.

في مجلّة (ما وراء البحار) لشهر أكتوبر صفحة ٤٠٣ نشرت عمودًا صغيرًا تحت عنوان (نهاية عمر المختار في التّعليقات الأجنبيّة) جاء فيه: (لقد نال خبر القبض وإعدام عمر المختار سيء السّمعة الخائن، والقائد المتعصّب لشرذمة من المتمرّدين ببرقه صدى كبيرًا حتّى خارج إيطاليا، وحتّى كتابة هذه الأسطر لم يصلنا غير قليل من التّعليقات الأجنبيّة ولكن ما وصلنا منها ينضح بالإعجاب من الصّرامة الّتي اتّخذها النّظام وأفضت إلى هذا الانتصار في المعركة ضد السّنوسيّة وعلى الأخص تلك النّباهة والحيويّة الّتي برهن عليها الجنرال غرسياني الّذي أضحى نموذجا لصورة الجندي الاستعماريّ على غرار بوجوان وكاشنار).

صحيفة التايمز (Times) بُعيد القبض على عمر المختار أشادت بكلمات حماسيّة الانتصار الإيطالي الّذي توّج بحقّ سلسلة من العمليات الحربيّة الّتي أديرت بحنكة غير مسبوقة فبعد أن ذكرت بالمقاومة الّتي قام بها زعيم المتمرّدين ضدّ إيطاليا، أكّدت الصّحيفة اللّندنيّة الكبرى الّتي تخلّلتها فترات هدوء قصيرة منذ سنة ١٩١١ عندما انتزع الإيطاليون طرابلس وبنغازي ودرنه من الأتراك قد شارفت على نهايتها.

عبّرت الصّحيفة بهده الكلمات: (كان صدامًا طويلاً ودمويًا حرب من الإغارات والغارات والكمائن المباغتة غير محسومة النّتائج حتّى برزت الإرادة الصّارمة للحكومة الفاشيستيّة فأعطت المحتلّين تلك الرّوح المعنويّة القويّة الّتي أسهمت في الانتصار على أعدائهم.

صحيفة (Le Temps) تميّزت بنشر تعليق تناول القبض على زعيم

المقاومة السّنوسيّة في برقه فكتبت: (لقد تلقت حركة المقاومة اللّيبيّة ضدّ إيطاليا ضربة قاسمة، ذلك أنّ التّمرد في برقه كان قائما بالكامل على شجاعة وإقدام (عمر المختار) وهيبته الشّخصيّة حتّى يمكن تشبيهه بـ(عبد القادر الجزائري) ولكن بفارق كبير في القياس، وفي كلّ الأحوال فهو قائد من طراز خاصّ يمتاز بمهارة أثبتتها التّجارب ففي مرّات عديدة كان على وشك الوقوع في قبضة الإيطاليين ولكنّه استطاع أن يفلت بأعجوبة، كانت العمليات المتكرّرة الّتي أنجزها جعلت له صيتًا ذائعًا بأنّه محصّن ضدّ الأخطار، وهو من جهة أخرى يظهر نفسه بأنّه الممثّل الحقيقي للميراث السّنوسيّ فكان يعتبر حربه جهادًا مقدّسًا وبذلك هو يجسّد هذه المقاومة على أنّها حرب إسلاميّة ضدّ الاحتلال الإيطاليّ. لهذه الأسباب تبدو أهميّة القبض عليه، ويمكن اعتبار أنّ نهاية (عمر المختار) هي نهاية للسّنوسيّة آخر معاقل المقاومة للاحتلال الأوروبيّ في شمال إفريقيا.

القبض على (عمر المختار) كان نتيجة المنهج الحكيم للجنرال (غرسياني) الّذي أصبح (بيجوان ليبيا).

وبعد أن استعرضت الصّحيفة العمليّات الصّارمة والمعقّدة الّتي أنجزها الجنرال (غرسياني) في مواجهة المتمرّدين اختتمت مقالها كما يلي: (كانت محاولات (عمر المختار) وأتباعه تبدو يائسة مع مرور الوقت حتّى جاءت الضّربة القاصمة بالقبض عليه، بهذا الحدث الّذي أظهر جودة التّنظيم العسكريّ الإيطاليّ في لبيبا وعلى الأخصّ في برقه فقد تمّ فرض السّلام في هاتين الولايتين العثمانيتين وما ترتّب عليه من نتائج، فقد كان المتمرّدون يسيطرون في قلب البلاد على الأراضي الخصبة الّتي كانت محطّ أطماع الإيطاليين أمّا اليوم فعمليات الإعمار تستطيع أن تنمو في برقه في ظروف آمنة وليس ثمّة ما يعوق قيام إيطاليا بنشر رسالتها الحضاريّة في هذه الأصقاع).

ويبدو من هذا التّقرير أنّ كاتبه كان يبحث عن شرعيّة دوليّة أو شهادة من الصّحف الهامّة في الدّول الاستعماريّة العظمى مثل فرنسا وبريطانيا.

الصّحف الاستعماريّة في برقه

كانت صحف المنطقة الّتي ولد فيها (عمر المختار) ونشأ وناضل بها أكثر ضجّة وصخبًا فيما يتعلّق بهذه القضيّة، فكانت تلفت الانتباه (من وجهة نظر استعماريّة) بأنّ برقه سوف تجني فوائد نهاية عمر المختار والقضاء على التّمرد.

أطلقت صحيفة (برقه) الصّادرة يوم ١٦ سبتمبر نعوتًا على عمر المختار في ترديدها ما قاله عنه غرسياني بأنّه (البطل الأسطوري الهارب على الدّوام) وهو تعريف لا يخلو من التّأثير المباشر في الحملة الدّعائيّة بالرّغم من غبائه وتفاهته.

ويعتبر مقال (ساندرو ساندري) المقرّب من (غريسياني) في غاية الأهميّة لأنّه يكشف انحطاط النّموذج الفكريّ للفاشيّة الاستعماريّة. ففي هذا المقال تبرز الرّومانطيقيّة في مستوى متدنّ وخليط متناقض من الاعتراف بمناقب العدوّ ونفيها عنه لاحقًا والإشادة الصّريحة بتكريس القوّة والعنف في معالجة القضايا المتعلّقة بالسّكان المحلّيين[١] وتزييف ثقافة هؤلاء السّكان وتبسيطها أو ربّما هو عدم فهم حقيقي لهذه الثّقافة من خلال تناول (ساندري) للحركة السّنوسيّة. ثمّ يلجأ في النّهاية إلى الكتابة الغرائبيّة عن طبيعة السّكان ويضفي عليها أوصافًا تثير فضول القرّاء ولكنّه سقط في التّفاهة إلى درجة الإسفاف.

---

(١) سوف يدبّج ساندري عبارات إعجابه بـ(شيبيو) الفاشيستي ويشيد بأمجاده في كتابه (الجنرال غريسياني) منشور من (أسيوني كولونيالي) روما ١٩٣٢ وكذلك في كتابه حول حملة الحبشة (ستّة أشهر من الحرب على الجبهة الصّوماليّة) مطابع بيرتاريللي، ميلانو وروما ١٩٣٦.

ثمّة مقال صادر يوم ٢٣ سبتمبر على صفحات جريدة (برقه) تحت عنوان (عمر المختار كلب السّيد) سوف ننقله كاملاً في الملحق كما أنّ ثمّة مقال آخر في غاية الأهميّة نشر يوم ١٦ سبتمبر في صحيفة (برقه) تحت عنوان (احتضار التّمرد في برقه) وقد كتب (ساندري) في النّهاية عندما أصبح جليًّا أنّ المقاومة ضدّ الاحتلال الإيطاليّ قد انتهت، بيد أنّه أشار في بعض الاعترافات المواربة الّتي ربّما أملاها وخز ضميره مغلّفة بالخجل فقال: (في الواقع أنّ عمر المختار لم يكن يتصرّف بسوء نيّة لأنّ سيّده (محمد إدريس) قد أعطاه الأوامر ليكون بطلا وصدّق هذا العجوز الشّقي الجلف ذلك الأمر).

الصّحافة المعارضة للفاشيّة

بِاستثناء بعض المواقف العامّة على غرار التّمسك بمبادئ الحريّة واستقلال المستعمرة الّتي تنشر في بعض الأوقات وعلى الأخصّ الصّحافة الشّيوعيّة في المهجر، لا يعرف أي انخراط جدّي للحركات المعارضة للفاشيّة في النّضال ضدّ الاستعمار، ربّما كان الاستثناء الوحيد السجّل في موقفها من الهجوم على أثيوبيا لأنّه كان يمثّل خطورة على الصّعيدين الدّاخليّ والخارجيّ متجاوزًا الاهتمام الاستعماري البحت ليصبح في تلك السّنوات حدثا جوهريا في المشهد السّياسيّ العالميّ.

فموت (عمر المختار) والقمع الشّديد الّذي تعرّضت له حركة التّمرد ضدّ الإيطاليين في ليبيا لم يحظ بالاهتمام الكبير في أوساط المعارضة الفاشيّة ولم تستغل حتّى في الجانب الدّعائي المناهض للاستعمار والفاشيّة. وقد يعود ذلك إلى أنّ المنخرطين في معاداة الفاشيّة آنذاك كانوا يعانون مشكلات خطيرة للغاية حالت دون التفاتهم إلى المسألة الاستعماريّة، ذلك أنّ النّظام الفاشي استطاع أن يوطّد دعائم حكمه في الدّاخل وأصبح يحظى بتأييد خارجي بسبب الهالة الّتي اكتسبها وكذلك

للصّعوبات الجمّة الّتي واجهها المناضلون ضدّه في التّحشيد والعمل. ومن زاوية أخرى إنّ عدم الاهتمام بالمسألة الاستعماريّة لدى القوى المناهضة للفاشيّة قد يعزى إلى أسباب أخرى محض ثقافيّة غير مرتبطة بالمسألة بشكل عضوي وهي ندرة الاهتمام الشّعبيّ فيما يتعلّق بفكرة الاستعمار.

فبينما كانت محنة المقاومة في برقه تتفاقم كانت صحيفة أونيتا (Unita) النّاطقة بلسان الحزب الشّيوعيّ الإيطاليّ في باريس سنة ١٩٣١ منشغلة بالكامل بأحداث أقلّ أهميّة وهي تنظيم الحزب في إيطاليا وأمور أخرى مثل المؤامرات الإمبرياليّة ضدّ الاتّحاد السّوفياتيّ والصّين والسّعي لاكتشاف حقيقتها. في شهر يوليو ١٩٢٩ نشرت صحيفة (أونيتا) الباريسيّة بيانا للحزب الشّيوعيّ الإيطاليّ (ضدّ النّهب الفاشيّ للمستعمرات) وهي الوثائق الشّيوعيّة القليلة المتعلّقة بالمسألة اللّيبيّة وكانت مليئة بالأغلاط فبينما انتهت الحرب في طرابلس واستمرّت في برقه فزّان نرى هذا البيان لازال يتكلّم عن الحرب الطّرابلسيّة متّخذا من النّماذج القديمة والعامّة مصدرًا لها ممّا يدلّ على أنّها وثائق محرّرة في المكاتب ولا علاقة لها بالواقع وأنّها كتبت من قبل أشخاص يجهلون الواقع بشكل تام، وهو ما يشي بالسّطحيّة والرّوتينيّة البيروقراطيّة في ما نشرته هذه الصّحيفة في ديسمبر من سنة ١٩٢٩ مشيرة إلى هدنة (سيدي رحومة)[١] وذكرت عمر المختار المستسلم بينما كان القتال مستمرّا، ومن المعلوم أنّ مؤتمر (سيدي رحومة) كان هدنة ولم يكن استسلاما حيث امتثل لأحكامها عمر المختار في تلك الفترة ولم يقاتل القوّات الإيطاليّة حسب الاتّفاق[٢]. وقد أنهت الصّحيفة هذا المقال القصير بشعار ليبيا للّيبيين.

---

(١) وردت خطأ في النّص الأصلي الإيطالي (هدنة ترهونة).

(٢) للأخبار الأكثر تفصيلا يرجع إلى مقالة (جورج روشا) في هذا الكتاب وكذلك يرجع=

الخبر الوحيد الّذي تناول (عمر المختار) ورد في (المراسلات العالميّة) التّابعة للأمميّة الثّالثة باللّغة الفرنسيّة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٣١ في مراسلة من شخص مشار إليه (ج.ب) من القدس تحت عنوان المؤتمر الإسلام ودروسه السّياسيّة جاء فيه: «ننوّه في ذات الوقت بظهور نزعة إلى التّضامن وتشكيل جبهة موحّدة ضدّ الإمبرياليّة، ففي كلّ مرّة تجرأت دولة إمبرياليّة على تضييق الخناق على دولة عربيّة أو محمديّة (إسلاميّة) ضعيفة شاهدنا عاصفة من التّظاهرات ضدّ فرنسا عندما مارست العنف ضدّ المغرب أو سوريا وضدّ إيطاليا الّتي تقوم بعمليّة إبادة ممنهجة للسّكان العرب في طرابلس وأعدمت مؤخّرًا زعيم الثّوار عمر المختار وضدّ القمع الإمبرياليّ الّذي تمارسه هولندا في أندونيسا...إلخ).

ونشرت صحيفة لافانتي (L'Avanti) في باريس يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٣١ مقالاً صغيرًا غير موقّع في الصّفحة الثّالثة بعنوان (من المعتقلات الفاشيّة) وعنوانًا جانبيًا (شهيد آخر) وهذا المقال كان مباغتًا في صراحته فقد أورد أنّ ثمّة أطفالا ليبيين قد استجلبوا إلى إيطاليا لتنصيرهم وإعادتهم، وتكلّم كذلك عن منفيّين ليبيّين وضعوا على شواطئ إيطاليا ليموتوا جوعا، أمّا عن إلقاء الزّعماء العرب من الطّائرات لإدخال البهجة على أصحاب القمصان السّوداء فهذا لم يتأكد لدينا وليس بحوزتنا أدلّة على حدوثه بالرّغم من أنّ مصادر صحفيّة عربيّة ردّدت ذلك وكذلك الأوساط العسكريّة في المستعمرة.

=لويجي لونغو الّذي تصدّى إلى المسألة اللّيبيّة باسم مستعار في مجلّة (ستاتو أوبيرايو) العام الثّالث، عدد٨، الصّادر بتاريخ نوفمبر ١٩٢٩ صفحة ٦٧٨ ـ ٦٨٣ بعنوان (عامين من الحرب الاستعماريّة الفاشيّة). لونغو الّذي ربّما بنى معلوماته في الأغلب على صحف النّظام الإيطاليّة غير أنه استطاع أن يبرز دور (بادوليو) كعقل وقلب للقمع العسكريّ كما أنّه رأى أنّ هدنة ١٩٢٩ خطأ بأنّها استسلام وكرّر ثلاث مرّات أنّ عمر المختار قد خضع واستسلم.

كما حدث للسيّد غورتان (Gortan)[١] وما وقع لشهداء بولا (Pola) الأربعة سقط عمر المختار شهيدًا جديدًا في قضيّة ليست قضيّتنا ولكنّه سقط ضحيّة بفعل عدوّنا المشترك من أجل تحرير وطنه من رقة شراذم الفاشيّة القاتلة، الفظائع النّكراء الّتي ارتكبتها الفاشيّة في ليبيا من الإبادة الممنهجة للسّكان إلى تهجير الأطفال إلى إيطاليا بغية استعبادهم وإدخالهم الدّيانة الكاثوليكيّة ومن اعتقال المواطنين ووضعهم على الشّواطئ من أجل قتلهم البطيء جوعًا إلى رمي الزّعماء العرب من الطّائرات لإدخال البهجة على نفوس القمصان السّود كما هو معلوم للعالم أجمع وضدّ هذه الفظائع الّتي لا يمكن وصفها نزل عمر المختار إلى الميدان ببسالة على رأس مجموعة من الشّباب الشّجعان، لقد هزم بسبب أعداد الأعداء وأسلحتهم الفتّاكة وتجهيزاتهم الكبيرة فوقع في الأسر واقتيد إلى محكمة هزليّة لذوي القمصان السّود ومن هناك وبرأس أشمّ صرخ في وجوه الأدوات العفنة للفاشيّة بحقده العارم، ومات بطلا، المجد للشّهيد الجديد وسنتذكّره في يوم الحساب.

تمثّل هذه المقالة للحزب الاشتراكيّ أهميّة موضوعيّة تاريخيّة في الحالة الّتي نحن بصددها مثلما هو حال الوثائق الشّيوعيّة فهي تمثّل وثيقة نادرة وعلى الأخصّ في استعاذتها بالصّورة الحقيقيّة للمناضل عمر المختار الّذي قاد شعبه بحكمة وشجاعة وصلابة واعتزاز ولم يستسلم أبدًا.

---

(١) فلاديمير كورتان فلاّح كرواتي تمّ رميه بالرّصاص بعد حكم بالإعدام صدر في حقّه من محكمة خاصّة للدّفاع عن الدّولة سنة ١٩٢٩ لأنّه دعم صداما مسلّحًا ضدّ ميليشيات فاشيّة.

الملاحـق

أردت أن أجمع في هذه الملاحق مجموعة من الكتابات الّتي رأيت أنّه من الأنسب وضعها بين أيدي القارئ لأهميّتها، ولم أرغب في وضعها في صلب النّص حتّى لا أثقل عليه وأرّغبه بلمحة من المعلومات المكملة لها.

فالملحق الأوّل هو مقال لدانتي ماريا تونينيتي (Dante Maria Tuninetti) وأهميّته تنبع من أنّ كاتبه كان (مفوّض الإتحّاد الفاشي في برقه).

أمّا الملحق الثّاني وهو الّذي سبق أن أحلت إليه عديد المرّات داخل البحث، وأمّا الملحق الثّالث فهو وثيقة نادرة ويرجع الفضل في اكتشافها إلى الصّديق جورجو كانتيلي (Giorgo Cantelli) وتمثّل قصيدة شعر دارجة بلهجة أهل روما وقد نقلت منها الفقرات الثلاث الأخيرة الّتي خصّصها لعمر المختار وكاتبها هو الرّائد (جوزيبي بيديندو) نظمها على شرف (غريسياني) ونشرت في بنغازي بمناسبة عودته إلى إيطاليا في سنة ١٩٣٤، كاتب هذه الملحمة الهزليّة اتّبع فيها أسلوب باسكاريلا الملحميّ، كانت قصيدة شائنة ومسيئة بشكل فاضح في خاتمتها وهذا الكاتب هو نفسه الّذي تقلّد مهمّة الادّعاء في المحاكمة الخاصّة الّتي قضت بإعدام (عمر المختار).

وختامًا الملحق الرّابع هو عبارة عن قائمة للصّحف الّتي تناولت

أخبار القبض والمحاكمة وإعدام (عمر المختار) وأدين للأستاذ فرانشيسكو كاسترو (Francesco Castro) بالفضل لوضعه تحت تصرفي الجزء الأكبر من هذه المواد وبالرّغم من أنّ هذا البحث لا يستوفي بشكل كامل هذا الموضوع إلاّ أنّه يعطي عرضًا موسّعًا يعرض نظرة نقديّة للمشهد الصّحفيّ الإيطاليّ في المرحلة النّهائيّة من حياة (عمر المختار).

الملحق رقم ١

بعد إعدام (عمر المختار) دعوة صاحب السّعادة الجنرال غرسياني إلى من تبقى من المتمرّدين في برقه للاستسلام (مقالة بقلم: دانتي ماريا تونيناتي)

بنغازي السّاعة ١٨ ليلاً

متتبّعًا تنفيذ الخطّة السّياسيّة والعسكريّة الّتي رسمها منذ وصوله إلى المستعمرة، وبالاتّفاق مع وزير المستعمرات دي بونو ومع والي ليبيا المارشال (بادوليو) قام سعادة الجنرال (رودولفو غرسياني) في الآونة الأخيرة بإرغام بقايا المتمرّدين على حياة التّرحال القاسية ملاحقين من قوّاتنا المتحرّكة بشكل دائم، محرومين من التّموين وإمدادات الذّخيرة بسبب ترحيل سكّان الجبل الأخضر وإغلاق المنافذ الحدوديّة مع مصر بفضل سور الأسلاك الشّائكة الّذي يمتدّ على طول ٣٢٠ كلم والحراسة اليقظة على الشّواطئ فأضح التّمرد إلى نهايته الحتميّة. وإنّ القبض على عمر المختار زعيم المتمرّدين السّنوسيين ووكيل السّنوسيّة يندرج في هذا الإطار العامّ للحرب على التّمرد ويمثّل اللّحظة الحاسمة والنّتيجة المنطقيّة لها.

القبض على عمر المختار

اليوم أصبح بالإمكان إعطاء تفصيل أكثر عن القبض على هذا الشّيخ الإخوانيّ الّذي تزعّم التّمرّد طيلة سنوات تسع. منذ فجر يوم الحادي عشر بعد وصول إشارة من سلاح الطّيران الّذي قام بغارة على المنطقة في اليوم السّابق وبعد إبلاغ من جواسيسنا عن وجود أدوار عديدة من المتمرّدين في (سلنطة) منطقة البيضاء قامت القيادة العسكريّة في الجبل بوضع خطّة لحصارها وأوكلت هذه المهمّة إلى مجموعات الراغاتسي، بياتي، وماروني مدعومة بفصيل من المدرّعات وسدّت طرق الهروب أمام المتمرّدين ببعض الفصائل من الخيّالة المحلّيين الّذي قام (غرسياني) بانتقائهم وتدريبهم في الآونة الأخيرة وكانت مهمّتهم ملاحقة المتمرّدين في العمق وإرهاق جيادهم حتّى إلقاء القبض عليهم. تمّ في الواقع ما كان مخطّطًا له، عندما حاول دور (عمر المختار) الهروب في اتّجاه الغرب نتيجة لضغط مجموعة (راغاتسي) وجد أمامه مجموعة (بياتي) وعندما حاول الهروب من جديد اصطدم بفصيل المدرّعات الّذي وضع مسبقًا تحسّبًا لهذه المناورة على طول حدود غابة (شنيشن). وبحصار المتمرّدين من ثلاث جهات حاولوا التّقهقر نحو (غوط جلمانة) حيث كانت في انتظارهم الفرقة السّابعة من السّفاري الّتي اندفعت على الفور والتحمت معهم. وحتى لا يستطيع قائد الأدوار (عمر المختار) الإفلات من الموت على أرض المعركة أثناء القتال كما حدث في العام السّابق للقائم مقام (فضيل بوعمر)، لجأ إلى حيلته القديمة بوضع مجموعة صغيرة من المقاتلين لحماية انسحابه وحاول الهروب والاختفاء بين الأحراش القريبة غير أنّ هذه الخديعة المعهودة لقائد المتمرّدين في العديد من الكمائن لقوّاتنا لم تنطل على وحدة السّفاري فأدركه أحد فرساننا من السّكان المحلّيين على الفور، وكان جواده قد أصيب فلم يعد له طريق للنّجاة وآخر محاولة يائسة قام بها هو أن هتف باسمه (أنا عمر المختار) أمام العسكري معتقدًا بأنّه بذلك سيفلت من العقاب حتّى هذه المرّة وأنّ

الشّهرة الّتي روّجها عن نفسه بأنّه عصيّ عن الموت على مدى سنوات من الخيانة والغدر ضدّنا يمكن أن يكون لها مفعول في هذه اللّحظات الأخيرة. في تلك الأثناء كانت المعركة الدّمويّة قد شارفت على نهايتها لمصلحة قوّاتنا المسلّحة، وإنّ (عمر المختار) الخائن العنيد وآخر قادة قطّاع الطّرق المتمرّدين الّذين ولغوا في قتل دوريّاتنا والإغارة على المواطنين المستلمين قد هزم نهائيا.

الشّنق

نقل إلى سوسه ثمّ إلى بنغازي وجرت محاكمته في محكمة خاصّة عقدت في قصر (أليتوريو) الّذي كان مخصّصًا للبرلمان البرقاويّ والّذي أنشأته حكومة روما في الأزمنة البائسة من الضّعف والمساومات قبل وصول الفاشيّة للحكم.

كانت المحاكمة سريعة وواضحة ومقنعة، زعيم التّمرد العجوز اعترف بكلّ الجرائم المنسوبة إليه وهي التّمرد المسلّح والخيانة وتزعّم التّمرد وجرائم أخرى عديدة وقد اعترف بأنّه قاتل من أجل مجد السّنوسيّة (تلك اللّعبة المعادية للغرباء والّتي تمّ اجتثاثها من معاقلها في برقه) وأضاف أنّه كان يقوم بما قام به ابتغاء مرضاة لله.

إنّ سلوك هذا السّفاح المستخفّ بالفضائل في قتله جنودنا والسّكان المحلّيين والمواليين لإيطاليا لم يدم خلال المحاكمة فقد ظهر عليه الاضطراب عند سماعه مرافعة الاتّهام، وبعد النّطق بالحكم لم يستطع أن يداري انفعالاته على منصّة الإعدام. فقد حكم عليه بالموت شنقًا وتمّ التّنفيذ أوّل أمس في مدينة (سلوق) كما أعلن البلاغ الرّسمي الصّادر يوم أمس.

لقد حضر مشهد الإعدام حوالي ٢٠ ألفًا من البدو وكلّ المنفيين السّياسيين في المستعمرة الّذين أعربوا عن ابتهاجهم لنهاية هذا المتمرّد العنيد الّذي كان السّبب الأوّل والوحيد لما وصلت إليه الأحوال في برقه.

ولكي يتفهّم الإيطاليون ويقدرّوا صعوبة حرب العصابات الّتي تمّ خوضها لاجتثاث التّمرد ومحاربة العصيان وحتّى يستطيعوا أن يقيّموا هذا الحدث الحالي بشكل صحيح نقدّم لهم البيانات المتعلّقة بقمع الحرابة الّتي قام بها المتمرّدون حتّى وصلنا إلى الهدوء والسّلام الّذي تنعم به برقه بعد تولي الجنرال (غريسياني) منصبه كنائب لوالي المستعمرة وهذا البيان يفصح بجلاء عن الحقائق دون أي تعقيد أو شوائب.

١٧معركة و١٥١ اشتباكًا و٢٣ صدامًا أعقبه هروب مباشر للمتمرّدين الّذين تكبّدوا خسائر ١٤١١ قتيلاً، خسارة ٨٠٣ بندقيّة، و٦ مسدّسات و٣ مدافع و٣ رشّاشات و٧٤ بندقيّة سلّمها المستسلمون، وخسائر الأموال ٢٨,٦٠٦ رأس من الماشية منها ٢١,٤٥٩ من الأغنام و٦٣٩٩ من الإبل و٦٧٣ من الخيول وباقي الخسائر من الأبقار.

أمّا عن خسائرنا فكانت مقتل ٣ من الضبّاط و٦ جرحى ومقتل ١٢١ مسلحًا وجرح ٢٢٨، وخسارة ٢٩ بندقيّة إلى جانب أكثر من ٣٠٠٠ من الماشية فقدها السّكان المحلّيون المستسلمون لإيطاليا نتيجة لهذه الغارات الّتي شنّها المتمرّدون.

هذه الأرقام الصّريحة والعارية من المشاعر تعبر باختصار عن الجهود والحماس وعن إرادة جميع الرّؤساء والمرؤوسين الّذين خاضوا هذا الصّراع.

النّداء الموجّه للمتمرّدين

بعد تنفيذ حكم الإعدام على عمر المختار قام سعادة الجنرال (غرسياني) المؤتمن الحقيقي على العدالة الرّومانيّة الإيطاليّة السّمحة بإلقاء هذا المنشور بواسطة الطّائرات على كامل الجبل البرقاوي: إلى أدوار (عمر المختار)، إنّ (عمر المختار) ذلك القائد الشّقي للتّمرد الّذي

قادكم منذ عشرين سنة إلى الخراب والدّمار قد سقط في يد القوّات المظفّرة للحكومة الإيطاليّة وحكم عليه بالإعدام من قبل المحكمة الخاصّة، لقد نزل به عقاب السّماء الّتي استجابت لصلاة النّاس البؤساء الّذين أكرهوا على الخروج من ديارهم بسبب أفعاله.

يا أهالي الأدوار سوف أنذركم مرّة أخرى بعد نهاية هذا الزّعيم أنّ حكومة إيطاليا المنيعة سوف تشمل بمروءتها كلّ من يقوم فورًا بالاستسلام وتسليم السّلاح بالعفو عليه، أمّا من لن يركن إلى الخضوع فإنّ الحكومة سوف تخضعه قهرًا كما حدث لـ(عمر المختار) طال الزّمن أم قصر أنصتوا لكلماتي وتقدّموا).

وُجّه هذا النّداء لبقايا المتمرّدين من أجل إحلال السّلام وإلقاء السّلاح بعد نهاية (عمر المختار) توطئة لتكريس السّلام والمدنيّة لإقليم برقه ذلك أنّ الحكومة الفاشيّة سوف تستمرّ في سياساتها الكريمة متحاشية العودة إلى الماضي ومراهنة على تجسيد آمال المستقبل.

دكتور م. تولنينيتي



الملحق رقم ٢

عمر المختار كلب السّيّد

الكثير منّا لا يستطيع إلاّ أن يعجب بالبطولات حتّى وإن كانت من جانب الأعداء ولكن كثيرًا ما تجرّنا الأحاسيس والعواطف الفيّاضة إلى اعتبارات تقودنا إلى التّعارض مع المنطق السّليم. فصورة (عمر المختار) قد أحيطت بهالة أسطوريّة تتحدّث عن بسالته الملحميّة وبطولاته العجائبيّة كان (عمر المختار) عدوّنا على الدّوام شريرًا وعنيدًا ووالغًا في اللّؤم والخساسة. ما بين حضارتنا الموغلة في القدم وقيمنا الإنسانيّة الّتي تغذّي أحاسيسنا الرّومانسيّة وجماليّة عواطفنا المشرئبة إلى الأنوار السّامية وبين هذا الرّجل المنعزل في الجبال المصاب بعقدة الكراهيّة للآخر ثمّة هوّة يصعب جسرها، فنحن على ضفّة أزمنتنا المتحضّرة ننظر إليه بمروءة القادر القويّ بينما هو على الضّفة الأخرى يكنّ لنا الشّر والاحتقار.

كان هكذا طوال حياته لأنّه ولد عبدًا وباعتباره كذلك فقد خدم في أيّام شبابه اليانعة وحتّى مماته عبدًا حقيرًا للسّنوسيين مدينًا لهم بكلّ شيء واهبًا كلّ وجوده المغامر لهم.

لا أعتقد أن نجد شبها في التّاريخ لقائد المتعصّبين هذا مع أي زعيم آخر حتّى في العصور الوسطى، فكان رؤساء العصابات والمرتزقة أشخاصًا سياسيين وعقلاء قبل كلّ شيء وبغضّ النّظر عن غاراتهم وأسلابهم لمصلحة تابعيهم إلاّ أنّهم كانوا مدفوعين بجملة من الدّوافع الّتي تترعرع

داخل القيم والمبادئ المهيمنة في تلك اللّحظة التّاريخيّة. أمّا (عمر المختار) فلم يكن عقلانيا أبدًا فقد وضع نفسه بعيدًا كلّ البعد عن الرّوح التّاريخيّة لعصرنا. لم يكن له مثال للعزلة يحتذيه، فعزلته كانت هي المثال الأعلى في وحشيّتها إذ كان ينبذ المدنيّة ويعتبرها خطرًا على قومه وديانتهم لا تجلب لهم أي نفع وأنّ أي تماس معنا يراه دنسًا وفسادًا في الوقت الّذي يقيم فيه كلّ العالم الإسلامي العلاقات والتّبادل التّجاري مع الأوروبيين وحتّى أسياده السّنوسيين قد استفادوا كثيرًا عندما قبلوا في السّابق احتلالنا لليبيا. وكذلك زعماء البدو في منطقة طرابلس بما فيهم (رمضان الشّتيوي) وأبناء (سيف النّصر) وهذا على سبيل المثال لا الحصر قد قبلوا بالأمر الواقع لسيادتنا في البداية رغم ما كانوا يضمرونه لنا من عداء، غير أنّ عمر المختار كان عدائيا منذ وطئت أقدامنا هذه الأرض وحتّى آخر يوم من حياته عندما تدلّت جثّته من على أعواد مشنقة (سلوق).

لذلك هو لم يكن شهيدًا لأيّة قضيّة لأنّ الشّهداء لا يخدمون سيّدًا. أمّا هو فقد تدحرج إلى أعماق الهاوية بعد الضّرر الّذي ألحقه بأهله وقدّم أسوأ خدمة للسّنوسيّة والسّنوسيين.

إذا تتبّعنا بالبحث الهادئ حياة هذا الرّجل الفريد غير الأطوار والطّموحات لنتلمّس مصدر الأفكار أو التّصوف الّتي ربّما تكون قد دفعته إلى أن يكون دومينيكاني (Domenicano) مُجافيًا للمعقول ومنافيًا للإنسانيّة، لوجدنا فيه على العكس خصائص رجل الجبل البدوي المعاند والمتعصّب إلى درجة العدميّة.

لقد اختار الجبل كمملكة على غرار زعماء البدو في منطقة طرابلس الّذين لجأوا إلى الصّحراء معتقدين أنّهم قد وجدوا حلًّا ناجعًا لوجودهم وحريّتهم لأنّ الصّحراء في نظرهم كانت صعبة المنال على الأوروبيين. (عمر المختار) لاذ بالجبل الوعر جبل برقه بمنحدراته المخيفة والمغطّى بالغابات والأحراش المتشابكة والكثيفة واثقًا بأنّنا لا يمكن أن ننجح في إخماد نار التّمرد الّتي نجح في جرّ كلّ القبائل إليها بطريقة يمكن أن

نطلق عليها (صناعة حرب العصابات). وفي الوقت الّذي كان فيه شيوخ البادية في إقليم طرابلس يدافعون عن حقّهم في الهيمنة على أتباعهم من البشر مثل النّبلاء القدماء المدافعين عن قلاعهم ضدّ هجمات الغرباء معترفين بفخر بأنّهم غزاة وقطّاع طرق ونهّابون باسم أعرافهم القديمة الّتي تعطيهم الحقّ في السّلب والإغارة على المستضعفين تمشيًّا مع سنّة آبائهم غير أنّ عمر المختار كان فقيرًا مثل (القدّيس فرانشيسكو) يبعث بالأعشار المجباة إلى السّيد (إدريس) في القاهرة ويخوض الحرب لإثراء أسياده.

الصّنف الأوّل وهم مشائخ إقليم طرابلس يستحقّون احترامنا أمّا هذا الإخواني العجوز فليس له غير احتقارنا.

قال لي في اجتماع في فترة ما يعرف بالمحادثات سنة ١٩٢٩ : (أنا أكره وأحتقر أهالي بنغازي وهم كذلك يبادلونني الكراهية والاحتقار). يسير عليّ اليوم كما كان بالأمس أن أدرك لماذا فقدت السنوسيّة سكّان المدن السّاحليّة بينما بقي البدو وسكان الجبل على ولائهم الشّديد لوكلاء السنوسيّة مضحّين بأموالهم وأنفسهم. قد يعترض المراقبون السّطحيون وأولئك الأكثر سطحيّة من النقاد وعلى الأخصّ أولئك المنكبّون على الدّراسات الإستشراقية بالقول إنّ القبائل البدويّة وجدت في السّنوسيّة مجموعة من القيم الدينيّة الّتي من شأنها إذكاء روح التّمرد فيهم، كما لو كان (عمر المختار) وبكلّ ذكائه المتّقد ومعرفته الكاملة بشعبه قد غابت عنه هذه فلم يكن بوسعه إلاّ أن يسخر من هذه التّرهات الغربية ويدحضها.

شرذمة السّنوسيين الجبناء وجدت في برقه الأرض الخصبة حيث نشأت وترعرعت وعاشت بسبب بؤس الحالة المتوحّشة الّتي تعيشها هذه القبائل ومن هذه الرّخاوة السّلبيّة وأمام جبروت السّنوسيّة المغلّف بالوقار الدّيني والتّهريج الوعظي آمن هؤلاء البدو بما يتلاءم ومصالحهم ولنقل مرّة واحدة وأخيرة إنّه منذ سنة ١٩٢٢ وما بعدها استقطبت الحركة السّنوسيّة استياء واسعًا بسبب الانحرافات الماليّة والمضاربة الّتي مارستها

على القبائل، وأنّ ما كان يعرف بـ(حكومة اللّيل) لـ(عمر المختار) كانت قائمة فقط لجباية الإتاوات والغرامات وفرض الضّرائب من خلال الابتزاز الّذي يمارسه المسلّحون بتخريب نجوع القبائل الّتي لا تخضع لأوامر الجباة ولأولئك الأشخاص المكلّفين بتجديد الرّجال للأدوار، يضاف إلى كلّ ذلك أعمال دجّالي السّياسة وعلى الأخصّ شيوخ الزّوايا السّنوسيّة والتّنظيم الضّريبي الدّقيق الّذي ساهمت فيه الظّروف الخاصّة بالبلاد المتمثّلة في عدم وجود مراكز حضاريّة مأهولة وعجز القبائل عن الدّفاع عن نفسها بمفردها فخضعت لجميع رغبات المسلّحين بينما نحن ولسنوات طويلة قد قبلنا بوضعيّة الحلول الوسط متأمّلين أن يضيء نور العقل ممارسات السّنوسيّة حتّى نجنّب المواطنين الإبادة الشّاملة والّذين وقعوا بين سندان الطّاعة لقوانينا ومطرقة التّمرد.

وأمام هذه الاعتبارات الواضحة تسقط صوفيّة عمر المختار وتسقط معها هالة البطولة الّتي أحاطت بهذا (المدافع عن العقيدة) وتنقلب إلى حال من التّفاهة والضّآلة خاصّة إذا أمعنا النّظر في أنّ الأسرة السّنوسيّة لم تكن تمثّل لهذا الإخواني العجوز أسطورة ضاربة في القدم بقدر ما هي واقع حقير من المتاجرة والمساومة.

- («أموت من أجل العقيدة») هكذا قال وهو يصعد منصة المشنقة وكان بلا شكّ يأمل في أن يصل هذا إلى مسامع القبائل حتّى يحقّق أغلى أمانيه في أن يجعل منه موته هذا قدّيسا. ولكنّ ذلك كان بعد فوات الأوان فالقبائل ظلّت غير مكترثة برجل خان رسالته في جلب الخير لها وقذف بها في مهاوي الخراب نتيجة لحربه القاسية عديمة الجدوى.

لقد حاد عن جادّة الصّواب فلو شنقناه في سنة ١٩٣٠ لخلقنا منه شهيدًا أمّا إعدامه اليوم فلم يكن غير قضاء على رجل مجنون خطر على الآخرين أكثر من خطورته على نفسه (الله عادل).

صمد أمامنا حوالي عشر سنوات والمعجزة الوحيدة الّذي حقّقها كانت قدرته على إبقاء تنظيم التّمرد متماسكًا بـ(أدواره) الّتي تعتبر جناحه

العسكري بجيشه الصّغير هذا الّذي لم يتجاوز الألف مقاتل إلاّ نادرًا فانبثقت منه قوّة عظيمة هيمنت على جميع قبائل الجبل وتعاظمت هيبته بين أتباعه المسلّحين بقدر قسوة النّظام الّذي عرف كيف يفرضه عليهم. دون شك إنّ هذا النّظام والانضباط الحديدي قد أمكنه الحصول عليه بيسر لأنّ (المحافظيّة) أو جنود الإيمان كما كان يطلق عليهم كانوا بالنّسبة لنا خارجين عن القانون يقتلون بمجرّد إلقاء القبض عليهم متلبّسين بحمل السّلاح لذلك كان من مصلحتهم الانخراط في الأدوار حيث يتكامل شظف العيش مع قطع الطّريق الّتي جبل عليها كلّ بدويّ لمعرفته الكاملة بنفسيّة أتباعه وذهنيّتهم فلم يكن يطلب شيئًا لنفسه وعاش في فقر مدقع تاركًا لضبّاطه وأتباعه تقاسم غنائم الغارات والأسلاب.

في أيّام عزّه وفي أوّل بدء أي معركة وعند سماع دويّ رصاص عساكرنا يشقّ صمت الجبل يظهر على صهوة حصانه الأبيض بمعيّة أتباعه ويدفع الأكثر نزقًا وتعصّبًا للمخاطر موهمًا إيّاهم أنّه سيكون على إثرهم. وعندما يقوم حرسه الخاصّ المؤلّف من خمسين فارسًا بمنعه من اللّحاق يستسلم لتضرّعاتهم وهذا المشهد الإسلامي الطّابع يبدو رائعًا في إنقاذ ماء الوجه والحياة. فالّذين يعرفونه عن قرب يصفونه بأنّه كان متسلّطًا يتميّز ببرود الأعصاب والاستهتار بالمخاطر، يعبّر عن نفسه بكلمات أحاديّة المقطع ويعطي أوامره باقتضاب شديد لا تفسح للمتلقّي هامشًا للملاحظة أو الاعتراض، فبعض رسائله فيما يطلق عليها (الخدمات) والّتي وقع بعضها بين أيدينا تفصح عن هذا الرّجل إذ تقول إحداها وهي مؤرّخة بسنة ١٩٢٨ : (باسم الله الرّحمان الرّحيم أأمرك بالذّهاب إلى الشّيخ صالح الطّبجي وتأتيني برأسه). حامل هذه الرّسالة وقد أعدمناه في جالو اعترف أثناء التّحقيق بأنّه قام بالمهمّة.

لا نعرف إلاّ القليل عن مرحلة شبابه فيما عدا أنّ والده قد توفّي أثناء تأديته لفريضة الحجّ بمكّة سنة ١٢٢٤ هجريّة الموافق ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م وقد أوصى بابنه عمر في لحظة احتضاره للـ(غرياني) بكفالته وهو أحد

وجهاء بنغازي ووالد الشّارف الغرياني الّذي لازال على قيد الحياة في بنغازي، يقول الشّارف: (رجع أبي بعد أدائه فريضة الحجّ مع زوجة أطفال المتوفّي (المختار)، فبُعث به إلى المدرسة القرآنيّة في (الجغبوب) بفضل أسرة الغرياني الّذي كان من أتباع الحركة السّنوسيّة وبالرّغم من أنّ (المختار) كان ينتمي إلى قبيلة (المنفه) الّتي تسكن في منطقة شرق (البطنان) والّتي تعتبر قبيلة (خدم) إلاّ أنّه استطاع أن يتمتّع بميزة الالتحاق بالدّراسات القرآنيّة. وحسب الشّارف الغرياني: كان (عمر المختار) قليل الذّكاء ولذلك لم يكن قادرًا على التّعلم). ولكن هذه المعلومة تتناقض مع الاختيار الّذي قام به الإخوان في الجغبوب عندما بعثوه للكفره لصحبة المهدي السّنوسي والقيام بخدمته.

أثناء السّنوات الثّلاث الّتي أقامها في هذه الواحة الصّحراويّة البعيدة توفّى شيخ زاوية (القصور) في منطقة تقع في موطن قبيلة (العبيد) في (الجبل الأخضر) فقام السّيد (المهدي السّنوسي) بتعيين (عمر المختار) خلفًا له، ومنذ ذلك الوقت بدأت حياته الوظيفيّة، لقد أدرك السّيد المهدي السّنوسي ما يتميّز به خادمه (عمر المختار) من صفات استثنائيّة إلى درجة استدعائه قادة قبائل (واداي) الثّائرة على الفرنسيين عندما قرّر المهدي الذّهاب إلى السّودان. وكان السّنوسيون يحرّضون على هذه الثّورة، فهرع (عمر المختار) للقتال في مناطق الجنوب اللّيبيّ وتولّى على إثرها مشيخة زاوية (عين كالاكا) الّتي قتل شيخها في معركة ضدّ الفرنسيين.

بعد عودة الهدوء إلى واحات الجنوب أجيب على طلبه بالرّجوع إلى موطن قبيلة (العبيد) على رأس زاوية (القصور). كان (عمر المختار) يناصب العداء للأتراك أثناء احتلالهم لليبيا ولازال في الذّاكرة العنت الّذي كان يلقاه الموظّفون التّرك في جباية الضّرائب من القبائل الواقعة تحت إداراته وإمرته.

في سنة ١٩١٢ صمّم بحزم على إظهار العداء لنا من ذلك الزّمن بدأ

في عمليّاته العدائيّة العنيدة ضدّ إيطاليا والّتي كانت حتما ستوصله إلى النّتيجة القصوى الّتي انتهى إليها.

في فترة سياسة الحلول الوسط مع السّنوسيّة اتّخذ (عمر المختار) سلوك المستخفّ والسّاخط منها إلاّ أنّه بقي يجاري الألاعيب البهلوانيّة السّياسيّة لسيّده (إدريس السّنوسي) ولكن عندما ألغيت المعاهدات مع السّنوسيّة سنة ١٩٢٢ وهاجر إدريس إلى مصر تمّ تعيين عمر المختار قائدًا لكلّ الأدوار وبقي على ذلك حتّى يوم الحادي عشر من سبتمبر الماضي اليوم الّذي سقط في قبضة أيدينا.

ما إن وصل الجنرال (غرسياني) إلى بنغازي حتّى أطلق (عمر المختار) نوعًا من التّحدي مفاده أنّه لن يسمح بإنشاء الطّرق في الجبل، ودفع بجماعته من قطّاع الطّرق إلى أعمال استعراضيّة لم تحدث قبل ذلك متمثّلة في تخريب خطوط التّلغراف والهاتف وكانت في حقيقتها مجرّد إدعاءات فارغة، لقد أزعجته الإجراءات الّتي اتّخذها (غرسياني) في بداية عهده ولكن ما علم بعدها أنّ (عمر المختار) قد لحقه النّدم على ذلك وأنّه قال ذات مرّة: (كان من الأفضل قبول ما قدّم (بادوليو) بصدق بدل العودة إلى التّمرد». كان ذلك متأخّرًا جدًّا فقد كان إعلام بادوليو واضحًا وصريحًا كما كانت ترجمته على أرض الواقع من خلال الجنرال (غرسياني) لا بدّ أن يصل إلى نهايته القصوى.

كان يحدوه الأمل لعام كامل ولكن عندما بدأ التّهجير الرّائع لسكّان الجبل نحو مراعي جنوب بنغازي حيث أصبحت مراقبتنا لهم أكثر إحكاما، كان لزاما على هذا العجوز أن يدرك أنّها بداية النّهاية لقد خلا الجبل من ساكنيه فأضحى قفرًا وكان حتّى وقت قريب يعجّ بمراعيه ونجوعه المأهولة، لم يكن بالإمكان إيقاف انحدار البدو نحو البحر لقد هبط (عبيده)[1] من الجبل وغاباته الكثيفة و(العبيدات) من منطقة درنه

---

(١) ويقصد بها قبيلة العبيد المواليّة لعمر المختار.

و(الدّرسه) و(العرفه) وأتباعه (البراعصه) و(الحاسه) من شحات وحتّى أهله من البطنان عبروا الجبل في طوابير طويلة في هجرة شبيهة بما تتحدث عنه الثّورات لتكتنفها الفوضى وتجرّ معها المواشي والمتاع والخيام.

أتى ذلك اليوم الّذي وجد فيه نفسه وحيدًا على جبل مقفر، الضّربة كانت قاصمة وها هو سلطان الجبل سيدّ الوحدة وملك الصّحراء يرفرف لواءه الأسود على المقابر في المرتفعات كشاهد على حياة ولّت، فلم تعد تسمع أغاني الرّعاة بوتيرتها البطيئة أو زغاريد البدويات تحييه عند مروره لا يسمع إلاّ عواء الضّباع الموحش وولولة بني آوى الكئيبة.

ليس هذا فحسب فإنّ (غرسياني) لم يمهله بفترة هدنة ففي كلّ يوم وأيا كانت حالة الأجواء سواء تحت الشّمس الحارقة في شهر أغسطس والرّياح الجنوبيّة الخانقة أو تحت الأمطار الشّتويّة العاصفة الّتي تحوّل الأرض إلى مستنقعات والوديان إلى مجار وسيول جارفة مخيفة بقيت قوّاتنا تلاحقهم دون توقّف.

البطل الخرافي أصبح عجوزًا بائسًا طريدًا مرعوبًا من سماع أصوات محرّكات الطّائرات الّتي تجوب سماء الجبل على الدّوام ملاحقًا كوحش ضار من كهف إلى كهف ومن غابة إلى أخرى ومن واد إلى واد.

أعطى أوامره للأدوار بأن تتوزّع على مجموعات صغيرة في انتظار أن يجود المستقبل بأيّام أفضل وبعث بصرخاته التّحذيريّة يستغيث بسيّده الّذي وعد باستطاعته إمداده بالمال لأنّ ذلك الكافر (غرسياني) قد قام بنفي شيوخ الزّوايا ويعاقب بالإعدام كلّ من دفع قرشًا واحدًا من الأعشار - ويا للفظاظة - فقد قطعت حتّى مرتبات الوجهاء .

السّيد (إدريس) الّذي أحسّ بأنّ مبادئه الدّينيّة قد انتهكت بسبب توقّف تدفّق الأموال وجفاف مصادرها بفعل (غرسياني) الغاشم استنفر

دار الإسلام كلّها وأخذت أبواق الإعلام تجلجل من القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وحتّى الهند الهولنديّة... كان كلّ ذلك عبثًا ولغطًا غبيًا لا طائل من ورائه فقد كانت إجابة (غرسياني) إنشاء سور بالأسلاك الشّائكة الّتي أغلقت الحدود البرقاويّة المصريّة فانتزعت من (عمر المختار) آخر أمل في وصول المساعدات له عن طريق المهرّبين المصريين الّذين كانوا يفلتون من الرّقابة الإنجليزيّة.

بقيت الكذبة الكبرى الّتي تتحدّث عن العنف الإيطاليّ في برقه رائجة بينما تردّت مأساة التّمرد في وهاد الفاجعة. وفي يوم من الأيّام السّعيدة قتل (الفضيل بو عمر) القائم على شؤون الأدوار والمعاون الأوّل لـ(عمر المختار) في ميدان المعركة وكان ذلك بعد وقت قصير من إفلات (عمر المختار) بأعجوبة من مقاتلينا والّتي فقد أثناءها نظّارته الّتي أحضرت إلى بنغازي وأتذكّر جيّدًا أنّه في نفس تلك اللّيلة أطلعني سعادة الجنرال (غرسياني) عليها قائلاً: (هذه عربون للرّأس الّذي سنحصل عليه بعد قليل) وكانت نبوءة.

فجر الحادي عشر من سبتمبر كان صافيًا ومضيئًا في تلك السّماء الّتي ستجعل منها الشّمس لاحقًا في بهاء الصّدف كان (عمر المختار) ذلك العجوز النّحيف الشّاحب كليل البصر حزينا، يتّجه نحو منطقة سوسه للقيام بغارة، هذا هو جنرال الجبل معاون (إدريس السّنوسي) ومبعوث العناية الإلهيّة قد اضطرّه الجوع للمغامرة بحياته للحصول على نعجة يسدّ بها رمقه، يا له من مصير مفجع، كان بمعيّته خمسون من أتباعه الأوفياء كحرس شخصي، واصلت كوكبة الفرسان الركض رويدًا رويدًا نحو (الطّعم) وهي مضارب قبيلة (الحاسه). وثمّة طائرة في الأعالي في كبد السّماء.

ـ اللّعنة هل الله اليوم سيكون في صف غرسياني؟

على حين غرّة تتساقط زخّات الرّصاص من كلّ الأكمات ببريق يعشي

الأبصار إنّهم العسكر، العجوز يفرّ هاربًا على صهوة جواده بسرعة الرّيح نحو الغابة بينما الطّائرة تهبط إلى مستوى منخفض تراقبه وتبتعد ثمّ تعيد الكرّة مرّة أخرى، وينطلق الرّصاص من جديد أمام الجياد المرعوبة إلى درجة الجنون.

لا زال العجوز البائس يحاول الفرار ويتّجه إلى غابة (شنيشن) الكثيفة بين أشجار العرعر القزميّة وأشجار (المسطكا) الفاحمة المتشابكة ولكنّ الدّبابات المرعبة تقطع عليه الطّريق وتدفعه باتّجاه مواقع فرقتنا السّابعة من السّفاري الّتي كانت تتربّص بهم في المنفذ وقد أصبحوا شرذمة لا تتجاوز خمسة عشر فارسًا على خيول تغطّيها رغوة أفواهها تلهث من الإنهاك فاستقبلوا بوابل من الرّصاص حالما وصلوا إلى مرمى النّيران.

لقد أصيب فرس عمر المختار في مقتل ترنّح ثم كبا متكوّرًا على نفسه ووقع الشّيخ الإخواني على الأرض نهض من جديد وهرع إلى الأحراش ولكنّ السّفاري كانوا له بالمرصاد كان يشهد نهاية رفاقه الّذين سمّرتهم هول الصّدمة فبقوا ساكنين دون حراك وهم يشاهدون نهاية زعيمهم. أحد الجنود السّفاري وكان ليبيًّا من وطنه ومن أتباع ديانته صوّب البندقيّة إلى صدره قاصدًا قتله في تلك اللّحظة صرخ: (أنا عمر المختار لقد انتهى كلّ شيء).

بقلم: ساندرو ساندري



المحلق رقم ٣

في القبض على المختار

I

لقد انتهى العصيان بجميع مظاهره ..

وقبض على الزّعيم وهو يقاتل

من على صهوة جواده متنكبًا السّلاح

وهذه مفخرة غرسياني

سمع في الصّباح يخاطبه

مختار إنّني أعرفك ولكنّني لا أعتزّ بهذه المعرفة

لقد عرضت عليك السّلام فاستسلمت للنّحيب

من يثق فيك

من أوصلك إلى هذا الفخّ القاتل

داهمت عمر المختار الحيرة

أمره بالجلوس على الكنبة

جال ببصره بعيون لامعة

وأجاب وكأنّه يصدر أمرا

لقد أمرتني مصر الغامضة

II

هل أوصتك مصر بقتل الجرحى جميعهم
وبقر بطون جنودنا
وحشوها بالشّعير أيّها الملعون؟
هل أمرتك باقتراف الأفعال المخجلة كذلك
أن تحرقهم بالنّار وتخترق أجسادهم بالخوازيق
وتوسمهم في وجوههم وصدورهم بالسّكاكين
وتغرقهم في سيل من الشّتائم وهم يتنحبون وأعينهم مغرورقة بالدّموع؟

ـ أهذه نظّارتك؟
ـ أعطنيها
ـ لا أستطيع إرجاعها إليك
ـ ولكنّني أحتاجها
ـ لقد أخطأت يا عزيزي ما هي إلاّ خدعة
ـ أحقّا
ـ انتظر حتّى أضعك أمام المحكمة
لقد قرّرت أن أتخلّص من صلفك

III

النّهاية
في نفس ذلك اليوم قدم إلى المحكمة سمع كلّ ما قيل له
ردّد متفاخرًا بأنّه ارتكب كلّ الآثام

أرهف النّاس السّمع واستاؤوا منه حدّ البكاء
لمّا كان تنطق به تلك البهيمة
حكم عليه الجمهور بضمائرهم
فأقرّ القضاء ذلك الحكم عليه
في اليوم اللاّحق أمام عشرين ألفا
عربًا ومواطنين وجمهرة من المسلّحين
مات في سلوق كأيّ فأر
ذلك الممتلئ بالإثم والخطايا
أمّا العرب الّذين لم يبق لهم أي هدف
ارتموا بين سواعد غرسياني المشرعة

الملحق رقم ٤

ELENCO DEI GIORNALI E DELLE RIVISITE RECANTI NOTIZIE DELLA CATTURA, DEL PROCESSO E DELL'ESECUZIONE DI OMAR EL MUKHTAR

"L'Arena", Verona, 16 settembre 1931, Brillanti azioni d'armi in Cirenaica.

"L'Arena", Verona, 17 settembre 1931, Il traditore Omar el Muktar giustiziato a Bengasi.

"L'AvantiÀ", Parigi, a. XXXVI, n.34, 27 settembre 1931, Dalla galera fascista. Un altro martire.

"L'Avvenire d'Italia", Bologna, 16 settembre 1931, La cattura del capo dei ribelli cirenaici.

"L'Avvenire d'Italia", Bologna, 18 settembre 1931, La fine dell'ultimo capo dei ribelli cirenaici.

"L'Azione coloniale", 20 settembre 1931, La cattura e la fucilazione del ribelle Omar el Muctar.

"L'Azione coloniale", 1 ottobre 1931, Il reticolato ba vinto la ribellione in Cirenaica.

"La Cirenaica", Bengasi, 12 settembre 1931, La politica coloniale italiana nel giudizio degli stranieri.

"La Cirenaica", Bengasi, 16 settembre 1931, Omar el Muctar. Il capo della ribellione senussita in Cirenaica catturato.

"La Cirenaica", Bengasi, 17 settembre 1931, la condanna a morte di Omar el Muctar.

"La Cirenaica", Bengasi, 18 settembre 1931, Per la pacificazione definitiva della Cirenaica.

"La Cirenaica", Bengasi, 23 settembre 1931, Omar el Mucktar. cane del Signore.

"La Cirenaica", Bengasi, 10 ottobre, La funzione del reticolato nello stroncamento della ribellione cirenaica.

"La Cirenaica", Bengasi, 16 dicembre 1931, L'agonia della ribellione cirenaica.

"La Cirenaica", Bengasi, 27 dicembre 1931, Agonia della ribellione cirenaica.

"La Correspondance Internationale", 14 novembre 1931.

"Corriere della Sera", Milano, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muktar il capo dei ribelli della Cirenaica.

"Corriere della Sera", Milano, 17 settembre 1931, Omar el Muktar giustiziato. Come avvenne la cattura.

"Corriere della Sera", Milano, 17 settembre 1931, Omar el Muktar giustiziato... Un commento britannico.

"Corriere del Tirreno", Livorno, 15 settembre 1931, Il capo dei ribelli della Cirenaica catturato dopo una brillante azione notturna.

"Corriere del Tirreno", Livorno, 19 settembre 1931, Come è caduto nella rete di Graziani il capo dei ribelli della Senussia.

"Corriere Emiliano", Parma, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato.

"Corriere Emiliano", Parma, 17 settembre 1931, Il traditore Omar el Muctar giustiziato.

"Corriere Mercantile", Genova, 15 settembre 1931, La cattura del capo delegato della Senussia (sic).

"Cronaca Prealpina", Varese, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli cirenaici è stato arrestato.

"Cronaca Prealpina", Varese, 24 settembre 1931, Scecb Omar el Muktar.

"L'Eco di Bergamo", Bergamo, 18 settembre 1931, Omar el Muctar è stato fucilato.

"La Gazzetta", Messina, 16 settembre 1931, Omar el Muktar capo della Senussia catturato da uno squadrone di Savari cirenaici.

"La Gazzetta", Messina, 17 settembre 1931, Omar el Muctar giustiziato.

"La Gazzetta", Messina, 18 settembre 1931, Pronta inesorabile giustizia contro il traditore Omar el Muctar.

"La Gazzetta", Messina, 29 settembre 1931, Con la morte di Muctar la Cirenaica è pacificata.

"La Gazzetta del Popolo", Torino, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato dai savari.

"La Gazzetta del Popolo", Torino, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato giustiziato.

"La Gazzetta del Popolo", Torino, 18 settembre 1931, Il cercbio di ferro di Graziani si stringe attorno agli ultimi ribelli.

"La Gazzetta del Mezzogiorno", Bari, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli cirenaici catturato dalle nostre truppe.

"La Gazzetta del Mezzogiorno", Bari, 18 settembre 1931, Il passato di Omar el Muctar.

"Gazzetta di Venezia",Venezia, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muctar capo dei ribelli del Gebel cirenaico.

"Gazzetta di Venezia", Venezia, 17 settembre 1931, La condanna a morte e l'esecuzione di Omar el Muctar.

"Il Gazzettino", Venezia, 16 settembre 1931, Vittoriosa azione in Cirenaica contro bande di predoni: il capo della ribellione catturato.

"Il Gazzettino", Venezia, 17 settembre 1931, Traditore giustiziato.

"Gererchia", a. IX, n.9, settembre 1931.

"Giornale di Genova", Genova, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato.

"Il Giornale di Genova", Genova, 17 settembre 1931, Omar el Muctar condannato a morte.

"Il Giornale di Genova", Genova, 20 settembre 1931, La morte senza gloria di Omar Muctar.

"Il Giornale di Sicilia", 16 settembre 1931, La cattura di El Muctar.

"Il Giornale di Sicilia", 17 settembre 1931, El Muctar impiccato a Soluk.

"Il Giornale d'Italia", Roma, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione in Cirenaica catturato da un nostro squadrone di savari.

"Il Giornale d'Italia", Roma, 18 settembre 1931, Il capo dei ribelli della Cirenaica è stato giustiziato presso Bengasi.

"L'Italia", Milano, 16 settembre 1931, Brillanti azioni militari: il capo dei ribelli catturato.

"L'Italia", Milano, I7 settembre 1931, Omar el Muctar è stato giustiziato.

"L'Italia coloniale", n.10, ottobre 1931, La fine di Omar el Muktar.

"L'Italie", Roma, 15 settembre 1931, Une brillante action de nos troupes en Cyrénaique.

"L'Italie", Roma, 18 settembre 1931, Omar el Muctar condamné à la peine capitale. L'execution de la sentence.

"Il Lavoro", Genova, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muctar il recchio capo di tutte le ribellioni della colonia.

"Il Lavoro", Genova, 17 settembre 1931, Il Senusso Omar el Muktar condannato alla pena capitale.

"Il Lavoro Fascista", Roma, 16 settembre 1931, La cattura in Cirenaica del delegato della Senussia.

"Il Lavoro fascista", Roma, 18 settembre 1931, Il ribelle e traditore Omar el Muctar è stato processato e fucilato ieri.

"Il Mattino", Napoli, 16-17 settembre 1931, Il capo dei ribelli in Cirenaica catturato.

"Il Messaggero", Roma, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muktar, capo dei ribelli della Cirenaica.

"Il Messaggero", Roma, 17 settembre 1931,Omar el Muctar è stato giustiziato.

"La Nazione", Firenze, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli in Cirenaica catturato dalle nostre truppe.

"La Nazione", Firenze, 17 settembre 1931, Omar el Muctar il senusso traditore è stato condannato a morte e giustiziato.

"La Nazione", Firenze, 19 settembre 1931, Il proclama di Graziani agli ultimi ribelli.

" Il Nuovo cittadino", Genova, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato in Cirenaica dalle nostre truppe.

"Il Nuovo cittadino", Genova, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato fucilato ieri.

"Il Nuovo Giornale", Firenze, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli della Cirenaica catturato dopo una brillante offensiva.

"Il Nuovo Giornale", Firenze, 18 settembre 1931, La pacificazione della Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.

"L'Oltremare", n.10, ottobre 1931, La fine di Omar el Muktar nei commenti stranieri.

"L'Ora", Palermo, 17 settembre 1931, Omar el Muctar capo dei ribelli cirenaici catturato dopo brillante combattimento.

"L'Ora", Palermo, 17-18 settembre 1931, Omar el Muktar giustiziato a Soluch.

"L'Ordine", Como, 16 settembre 1931, Brillante operazione in Cirenaica.

"L'Ordine", Como, 17 settembre 1931, Il capo dei ribelli cirenaici catturato dalle nostre truppe.

"Il Piccolo", Roma, 17-18 settembre 1931, Il capo dei ribelli senussiti condannato a morte.

"Il Piccolo", Trieste, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muctar capo della Senussia in Cirenaica.

"Il Piccolo", Trieste, 17 settembre 1931, Omar el Muktar giustiziato.

"Il Piccolo", Trieste, 20 settembre 1931, Un proclama del gen. Graziani dopo l'esecuzione di Omar el Muctar.

"Il Popolo di Brescia ", Brescia, 16 settembre 1931,Il capo della ribellione Omar el Muctar catturato dalle nostre truppe.

"Il Popolo di Brescia ", Brescia, 17 settembre 1931, Omar el Muktar giustiziato a Soluch.

"Il Popolo di Brescia", Brescia, 19 settembre 1931, Il cerchio di ferro si stringe intorno ai ribelli.

"Il Popolo di d'Italia", Milano, 16 settembre 1931, Omar el Muctar capo dei ribelli, fatto prigioniero.

"Il Popolo di d'Italia", Milano, 17 settembre 1931, Omar el Muctar giustiziato.

"Il Popolo di d'Italia", Milano, 19 settembre 1931, La ribellione in Cirenaica en-

ergicamente stroncata. Come Omar el Muctar torturatore dei nostri soldati. è stato catturato e giustiziato.

"Il Popolo di Roma", Roma, 16 settembre 1931, La cattura di Omar el Muktar. Dodici armati ribelli rimasti sul terreno.

"Il Popolo di Roma", Roma, 17 settembre 1931, Il ribelle e traditore Omar el Muktar condannato a morte: la sentenza è stata eseguita.

"Il Popolo di Sicilia", Catania, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli catturato dalle nostre truppe in Cirenaica. La caduta di un mito.

"Il Popolo di Sicilia", Catania, 17 settembre 1931,Omar el Muctar condannato a morte e giustiziato.

"Il PopoloToscano", Lucca, 16 settembre 1931, Omar el Muctar ultimo ed audace ribelle della Cirenaica catturato dai nostri savari in una brillante azione verso Slonta.

"Il Popolo Toscano", Lucca, 17 settembre 1931, Omar el Muctar giustiziato a Soluch.

"Il Popolo di Trieste", Trieste, 16 settembre 1931, Un terribile e fiero nemico catturato nella trappola del gen. Graziani.

"Il Popolo di Trieste", Trieste, 17 settembre 1931, Omar el Muctar il traditore capo ribelle è stato giustiziato alla presenza di trentamila arabi sottomessi.

" Il Popolo di Trieste", Trieste, 18 settembre 1931, Pacificazione fascista della Cirenaica.

"La Provincia di Bolzano", Bolzano, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato.

"La Provincia di Bolzano", Bolzano, 17 settembre 1931, Omar el Muctar fucilato.

"La Provincia di Bolzano", Bolzano, 19 settembre 1931, La pacificazione della Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.

"La Provincia di Como", Como, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione cirenaica catturato dai 'savari'.

"La Provincia di Como", Como, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato giustiziato ieri.

"La Provincia di Padova ", Padova, 15 settembre 1931, Brillante azione di polizia in Cirenaica.

"La Provincia di Padova ", Padova, 17 settembre 1931, La condanna a morte e l'esecuzione di Omar el Muctar.

"La Provincia di Padova", Padova, 19-20 settembre 1931, Come fu catturato Omar el Muctar.

"Il Regime fascista", Cremona, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli catturato.

"Il Regime fascista", Cremona, 17 settembre 1931, Omar el Muctar condannato a morte.

" Il Regime fascista", Cremona, 20 settembre 1931, Come Omar el Muctar ba espiato. Un proclama lanciato sul Gebel.

" Il Resto del Carlino", Bologna, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli cirenaici catturato dalle nostre truppe.

"Il Resto del Carlino ", Bologna, 17 settembre 1931,Omar el Muctar giustiziato.

" Il Resto del Carlino", Bologna, 18 settembre 1931, La pacificazione della Cirenaica dopo la scomparsa di Omar el Muctar.

" Rivista delle colonie italiane", a. V, n. 10, ottobre 1931, (voce Cirenaica della rubrica Cronache coloniali, La cattura di Omar el Muktar).

"Il Roma", Napoli, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli e delegato della Senussia catturato dalle nostre truppe in Cirenaica.

"Il Roma", Napoli, 17 settembre 1931, Omar el Muctar il capo dei ribelli della Cirenaica è stato giustiziato ieri a Soluch.

" Il Secolo XIX", Genova, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione cirenaica catturato dopo brillante azione.

" Il Secolo XIX", Genova, 17 settembre 1931, Omar el Muctar condannato a morte: la sentenza è stata eseguita.

"Sentinella d'Italia", Cuneo,16-17 settembre 1931, La cattura di Omar el Muktar capo dei ribelli senussiti.

"Sentinella d'Italia", Cuneo, 17-18 settembre 1931, Omar el Muktar è stato fucilato.

"Sentinella d'Italia", Cuneo, 19 settembre 1931, La fine di un mito.

" La Sera", Milano, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita catturato.

"Il Solco Fascista", Reggio Emilia, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli catturato a Slonta.

"Il Solco Fascista", Reggio Emilia, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato giustiziato.

"La Stampa", Torino, 16 settembre 1931, Omar el Muctar catturato da un reparto di savari cirenaici.

"La Stampa", Torino, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato fucilato.

"La Stampa", Torino, 19 settembre 1931, I superstiti ribelli della Cirenaica invitati alla sottomissione da S.E Graziani.

" Il Telegrafo", Livorno, 16 settembre 1931, Il capo dei ribelli della Cirenaica catturato dopo brillante azione notturna.

" Il Telegrafo", Livorno, 17 settembre 1931, Il capo ribelle Omar el Muktar giustiziato davanti a 30.000 indigeni.

" Il Tevere", Roma, 16-17 settembre 1931, La cattura di Omar el Muctar capo dei ribelli in Cirenaica.

"Il Tevere", Roma, 17 settembre 1931, Omar el Muctar è stato giustiziato ieri mattina.

"La Tribuna", Roma, 17 settembre 1931, Il capo della Ribellione senussita catturato dalle nostre truppe.

" La Tribuna", Roma, 19 settembre 1931, Come fu catturato Omar el Muctar.

"L'Unione Sarda", Cagliari, 16 settembre 1931, Il capo della ribellione cirenai cacatturato dalle nostre truppe.

"L'Unione Sarda", Cagliari, 17 settembre 1931, Il ribelle cirenaico condannato a morte.

"L'Unione Sarda", Cagliari, 25 settembre 1931, Dopo la caduta di Omar el Muctar un vibrante ordine del giorno di S.E. Graziani alle truppe.

"La Vendetta fascista", Vicenza, 16 settembre 1931, Il capo senussita Omar el Muctar catturato in Cirenaica.

"La Vendetta fascista", Vicenza, 17 settembre 1931, Il capo senussita Omar el Muctar fucilato a Soluch.

" Il Veneto", Padova, 16-17 settembre 1931, La cattura del capo dei ribelli del Gebel cirenaico.

" Il Veneto ", Padova, 17-18 settembre 1931, Omar el Muctar giustiziato.

" La Voce di Bergamo ", Bergamo, 17 settembre 1931, Il capo senusso traditore e ribelle è stato fucilato.

" La Voce di Mantova ", Mantova, 16 settembre 1931, Brillante azione bellica dei savari in Cirenaica.

"La Voce di Mantova", Mantova, 17 settembre 1931, Il capo della ribellione senussita condannato e giustiziato.



الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

الباب الأوّل: إيديولوجيّة إعادة الإحتلال لليبيا (١٩٢٢ ـ ١٩٣١) ١٥

إينزو سانتاريللي

الباب الثّاني: قمع المقاومة في برقه (١٩٢٧ ـ ١٩٣١) ٦٣

جورجو روشا

I. مصادر البحث وحدوده ٦٥

II. العمليّات في الجبل الأخضر حتّى عام ١٩٢٨ .... ٧٢

١ ـ العمليّات من سنة ١٩٢٣إلى ١٩٢٦ .... ٧٢

٢ ـ الهجوم الإيطالي في صيف ١٩٢٧ .... ٧٧

٣ ـ استئناف الثّورة في سنة ١٩٢٨ .... ٨٢

III. هدنة سنة ١٩٢٩ .... ٩١

١ ـ اتّفاقات شهر يونيه ٩١

٢ ـ الهدنة: ١٠١

٣ ـ استئناف الحرب ١٠٦

IV. عمليّات الجبل بين سنتي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ .... ١١٤

١ ـ غرسياني وسياسة الحزم ١١٤

٢ ـ تهجير السّكان ١٢٤

٣ ـ منعطف العمليّات في الجبل ١٣٥
٤ ـ استنزاف حرب العصابات في الجبل ١٤٣
٥ ـ أسر عمر المختار وموته ١٥٤
V. توطيد الاحتلال الإيطالي ١٦٢
١ ـ معسكرات الاعتقال ١٦٢
٢ ـ تفيكيك معسكرات الاعتقال ١٧٧
الباب الثّالث: أسْر عمر المختار ومحاكمته وموته في إطار السّياسة الفاشيّة لإعادة احتلال ليبيا ١٩٥
رومان راينارو
الملاحق ٢٥٣
الملحق الأوّل ٢٥٥
أوّلا: ملحق الوقائع السّريّة لمحكمة بنغازي يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١ ٢٥٥
١ ـ محكمة بنغازي الخاصّة (استجواب المتّهم) ٢٥٥
٢ ـ مضبطة كتبت بطريق الاختزال للمرافعة الّتي جرت ضدّ عمر المختار ٢٦١
مرافعة وكيل النّيابة ٢٦٥
٣ ـ محضر المرافعات ٢٦٨
٤ ـ ملحق صحيفة الاتّهام ٢٧٢
المحلق الثّاني ٢٧٦
ذكرى عمر المختار شهيد الأمة العربيّة ٢٧٦
الباب الرّابع: أسر عمر المختار ومحاكمته وشنقه في الصّحافة الإيطاليّة . ٢٨١
لويجي غوليا
يوميات الصّحافة ٢٨٨
الصّحف الصّادرة يوم ١٧ سبتمبر ١٩٣١ وما بعده ٢٩٢

الصّحافة الاستعمارية الإيطاليّة ٢٩٧
الصّحف الاستعماريّة في برقه ٣٠٠
الصّحافة المعارضة للفاشيّة ٣٠١
الملاحق ٣٠٥
الملحق رقم ١ .... ٣٠٨
بنغازي السّاعة ١٨ ليلاً ٣٠٨
القبض على عمر المختار ٣٠٩
الشّنق ٣١٠
النّداء الموجّه للمتمرّدين ٣١١
الملحق رقم ٢ .... ٣١٣
عمر المختار كلب السّيّد ٣١٣
المحلق رقم ٣ .... ٣٢٣
في القبض على المختار ٣٢٣
الملحق رقم ٤ .... ٣٢٦
الفهرس ٣٣٣



هذا الكتاب

telegram @soramnqraa

إنّ هذا الكتاب الّذي بين يدي القارئ هو محصّلة لجهد أربعة من علماء التّاريخ المعاصر في الجامعات الإيطاليّة وقد وقعت ترجمته إلى اللّغة العربيّة من قبل الأستاذ عبد الرّحمان سالم العجيلي وقدّمه المؤرّخ اللّيبي الدّكتور عقيل محمّد البربار ونشر من قبل مركز جهاد اللّيبي للدّراسات التّاريخيّة وعندما اطّلعت على الكتاب وجدت أنّه ترجمة ناقصة قد تمّ حذف كلّ ذكر للحركة السّنوسيّة وزعمائها، ولم يكن ذلك حسب ظنّي قصورا من المترجم أو غفلة من كاتب المقدّمة الّذي تحامل على السّنوسيّة والملك إدريس وإنّما كان السّبب فيما أوردناه آنفا من أنّ النّظام القائم الّذي موّل الترجمة ونشر الكتاب أراد طمس الحركة السّنوسيّة وزعماءها باعتبارها حركة أنتجت دولة الاستقلال الّتي أقام النّظام شرعيّته على اسقاطها وتخوينها.

أعتقد أنّ من شروط التّرجمة عدم تدّخل المترجم في إعادة صياغة الأفكار أو في شطب ما كتبه المؤلّف أو إخفاء ما لا يتوافق مع عقيدته أو إيديولوجيّته لأنّ ذلك لا يمسّ بالرّوح العلميّة فقط وإنّما يمسّ الأمانة في نقل النّص وهذا موضوع أخلاقي بالدّرجة الأولى.






ISBN 978-9922220673
9 789922 220673

الغلاف : سكينة صلوّن